

في مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية

عصر الحروب الصليبية

تحقيق

دكتور حسين نصّار

كلية الآداب بجامعة القاهرة

١٩٩٢



رحلة ابن جبير

فى مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية

عصر الحروب الصليبية

إلى الأخ الدكتور محمد زغلول

تحية المودة

تحقيق

دكتور حسين نصّار

كلية الآداب بجامعة القاهرة

يطلب من

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقى باشا

١٩٩٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية*

الأســرة

اجتمعت عوامل متعددة فجعلت الفتح العربى لبلاد المغرب يستغرق من الزمن أطول مما استغرقته الفتوح العربية الأخرى عادة . وبرغم ذلك ، أخذت جماعات من سكان البلاد الأصليين المعروفين بالبربر تعتنق الإسلام ، وتنخرط فى جنوده ، منذ الاتصالات الأولى بين العرب والبربر . واشتد إقبالهم على الإسلام فى عهد عمر بن عبد العزيز خاصة .

وفى أواخر العصر الأموى هاجرت جماعات من الخوارج إلى المغرب ، بعد أن منوا بالهزائم المتوالية فى المشرق . فلقيت فى البربر مرتعا خصيبا بثت فيه مبادئها ، ثم ولى طنجة عمر بن عبد الله المرادى ، فأساء السيرة ، وفرق بين المسلمين من العرب والبربر ، وتعصب على الأخيرين وظلمهم . ولم يرده عبيد الله ابن الحبحاب والى المغرب عن سياسته الجائرة . والتقت العصبية مع الظلم ، مع مبادئ الخوارج ، فشبت الثورات واندلعت نيرانها من مكان إلى آخر حتى عمت شمال إفريقية كله ، بل تعدت جبل طارق ، وفرقت بين الأندلسيين وسلطت بعضهم على بعض .

وتحرج موقف العرب فى المغرب ، لقلة عددهم بالنظر إلى البربر وإحاطة هؤلاء بهم فى جميع الأرجاء فأسرع الخليفة هشام بن عبد الملك بتعبئة جيش من عرب الشام عدته ١٢٠٠٠ ، وبعثه لإخماد الثورة وإنقاذ العرب ، وأمر كل وال يمر به الجيش أن يمده بما استطاع . فبلغ عدد هذا الجيش عندما وصل إلى طنجة

(*) انظر مجلة تراث الإنسانية — ٥ مارس ١٩٦٣ — ص ٢٣٦ .

٣٠,٠٠٠ رجل ، يقال إن ١٠,٠٠٠ منهم كانوا من صلب بنى أمية ، والباقين من العرب الصرحاء . وكان على رأس هذا الجيش كلثوم بن عياض القشيرى ، وعلى طلائعه ابن عمه بلج بن بشر ، وفى هذه الطّلائع جندى يسمى عبد السلام ، من بنى كنانة من قريش .

وفتّت الخلافات فى عضد الجيش العربى قبل أن يلتقى بالبربر . فلما التحموا منى بالهزيمة ، وقُتل قائده ، وفر أحياؤه . فكان فرار أهل إفريقية ومصر منه إلى تونس ، وفرار أهل الشام مع بلج إلى سبتة ، على الطرف الشرقى من مضيق جبل طارق .

وخاف بلج أن يكر عليهم البربر فيستأصلوهم فعزم على الانتقال بمن معه إلى الأندلس . فاستأذن واليها عبد الملك بن قطن ، فرفض خوفا منهم . ولكن الثورات البربرية بالأندلس أجبرته على قبول إدخال بلج وأصحابه إلى الأندلس للاستعانة بهم ، بعد أن أخذ رهائن منهم وشرط عليهم ألا يقيموا بالأندلس أكثر من سنة واحدة . فدخلوا فى ذى القعدة ١٢٣ هـ (سبتمبر ١٧٤١ م) عراة مجهدين . فكساهم عرب الأندلس . وكانت أول وقعة اشتركوا فيها بشَذُونة ، فى جنوب غرب الأندلس ، حيث هزموا البربر ، وغنموا أمتعتهم ودوابهم وأسلحتهم ، فأصلحوا أحوالهم . ثم عاونوا ابن قطن فى وقائعه بالبربر فى طليطلة ، وسط إسبانيا ، حتى أخمدوا جميع الثورات البربرية .

وكاد العام ينقضى ، فطلب عبد الملك بن قطن إلى بلج بن بشر أن يخرج بأصحابه من الأندلس . فامتنع بلج . وثار بعبد الملك وتغلب عليه ، واستولى على السلطة فى ذى القعدة ١٢٤ (سبتمبر ٧٤٢) ، واستقر أصحابه بالأندلس . فكان مقام عبد السلام الكنانى بشذونة ، بالرغم من إقامة معظم الكنانيين بطليطلة وضواحيها .

ولم يبين ما نعرفه من التاريخ المدة التى أقامها عبد السلام الكنانى بشذونة ، ولكنه اكتفى بسرد سلسلة من الأبناء أعقبها ذلك الرجل ، وهى أحمد بن جبير بن

سعيد بن جبير بن محمد بن عبد السلام . وذكر المؤرخون أن أحمد هذا كان من كتاب شاطبة ورؤسائها . ولسنا ندرى متى انتقلت الأسرة من شذونة إلى شاطبة ، فى شرق إسبانيا ، ولا من الذى انتقل من الأسرة إليها . ولكن الواضح أن الأسرة خضعت لتغيير ، إذ بعد ما كان الجد رجل سيف صار الابن رجل قلم .

« الرجـل »

وأعقب أحمد طفلا ، اختلف المؤرخون فى مولده . فجعله لسان الدين بن الخطيب فى سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) . وجعله المقرى ليلة السبت عاشر ربيع الأول سنة ٥٤٠ هـ (١ ـ ٩ ـ ١١٤٥) ، وارتضى معظم المؤرخين قول المقرى . واتفق المؤرخان على أن ذلك المولد كان ببلنسية ، على مصب نهر الوادى الكبير فى البحر الأبيض المتوسط ، ولكن آخرين قالوا إنه ولد بشاطبة .

وعنى أحمد بابنه الذى سماه محمدا ، وأراد أن يصوغه على مثاله ، فكان أول أستاذ له . ثم دفع به إلى المعلمين المحترفين . فشغف الصبى بالعلم شغفا ملك حواسه عليه ، ولم يفارقه طوال حياته . فكان يسعى إلى رجاله فى كل مكان حط به . فكان فى قائمة أساتذته من لقيه بسبتة ومكة وبغداد وحران ودمشق وغيرها ، بالإضافة إلى علماء الأندلس : وكانت العلوم التى عنى بها علوم الدين من فقه وحديث وقراءات ، وما اتصل بها من علوم اللغة والنحو والأدب .

فقد روى بالأندلس عن أبيه ، وأبى الحسن بن محمد بن أبى العيش ، وأبى عبد الله بن أحمد بن عروس ، وابن الأصيلى ، وأخذ العربية عن أبى الحجاج بن يسعون ؛ وبسبتة عن أبى الوليد بن سبكة ، وأبى إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الغسانى التونسى ، وأبى عبد الله محمد بن عبد الله ابن عيسى التميمى ؛ وبمكة عن أبى حفص عمر بن عبد المجيد بن عمر القرشى الميّانشى نزيل مكة ، وأبى جعفر أحمد بن على القرطبى الفنكى ؛ وبغداد

عن أبي الحجاج يوسف بن أحمد البغدادى، وصدر الدين محمد بن عبد اللطيف الخجندى ، وابن الجوزى ؛ وبدمشق عن أبي الحسن أحمد بن حمزة بن على الجوارى ، وأبي سعيد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون ، وأبي الطاهر بركات الخشوعى ، وعماد الدين محمد بن محمد بن حامد الأصبهانى ، وأبي القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الأخضر بن عساكر ، وأبي الوليد إسماعيل بن على بن إبراهيم ، والحسين بن هبة الله بن محفوظ الربعى ، وعبد الرحمن بن إسماعيل الصوفى ؛ وبحران عن أبي البركات حيان بن عبد العزيز وابنه .

وعندما بلغ السن التى يستطيع فيها أن ينفرد بحياته ، ويضطلع بأعبائها ، احترف الكتابة . فعمل لبعض الأمراء من الموحدين الذين كانوا يسيطرون على الأندلس والمغرب فى ذلك الوقت . وكان أشهر من اتصل به أبا سعيد عثمان بن عبد المؤمن ، الذى عقد له أبوه على ولاية سبتة وطنجة فى سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ، وَعيَّن أبا محمد عبد الله بن سليمان وأبا عثمان سعيد بن ميمون الصنهاجى وزيرين له ، وأبا بكر بن طفيل القيسى ، الفيلسوف المشهور صاحب رسالة « حى بن يقظان » ، وأبا بكر بن حبيش كاتبين له . ولما خضعت غرناطة ، فى جنوب إسبانيا ، لسلطان الموحدين سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) ، أضافها عبد المؤمن إلى ولاية ابنه أبي سعيد . ويبدو أن محمدا بدأ حياته العملية بالاتصال ببعض أقارب الأمير أبي سعيد بغرناطة ، ثم ما لبث أن لفت إليه أنظار الأمير ، وتقرب إليه ، فضمه إلى كتابه ، وتنقل معه بين غرناطة وسبتة .

ولم يشتغل محمد بالكتابة وحدها بل بالتدريس أيضا ، وخاصة بعد رحلته الثانية إلى الشرق . فقد انقطع مدة فى فاس للتحديث ورواية ما عنده وممارسة التصوف . وكان قد فعل شيئا من ذلك فى المشرق فخلف بذلك تلاميذ له فى الغرب أشهرهم أحمد بن عبد المؤمن الشريشى شارح مقامات الحريرى ، وفى الشرق أشهرهم عبد الكريم بن عطاء الله ورشيد الدين بن العطار بالإسكندرية ، والحافظان أبو محمد المنذرى وأبو الحسين يحيى بن على القرشى بالقاهرة .

ووصف ابن الخطيب محمدا بأنه كان فاضلًا ، نزيه الهمة ، سرى النفس ، كريم الأخلاق ، أنيق الطريقة ، ذا فضل بديع وورع يحقق أعماله الصالحة . ووصفه صاحب الملتمس بأنه كان من أهل المروءات ، عاشقا فى قضاء الحوائج والسعى فى حقوق الإخوان والمبادرة لإيناس الغرباء . وتروى له أشعار تنصح بالتواضع ، وتنهى عن السفه ، وتحذر من الاغترار بالدنيا . ويظهر فى رحلته حرصه الشديد على زيارة أضرحة أعلام الدين ، ولقاء المشهورين من رجاله الذين عرفوا بالتقوى . كل ذلك جعل الرجل يميل إلى الزهد . وأخذ هذا الميل يزداد إلى أن جعله ينبذ الدنيا العريضة التى نالها بالأدب ، كما يقول المقرى ، ويخلد إلى التصوف .

وتوفى محمد بن جبير فى الإسكندرية ، فى أثناء رحلته الثالثة إلى المشرق ، فى يوم الأربعاء السابع أو التاسع والعشرين من شعبان سنة ٦١٤ هـ (٣٠ نوفمبر أو ٢ ديسمبر سنة ١٢١٧ م) أو السنة التى بعدها .

وأشاد كل مترجم لمحمد بأدبه . فقد ذكر ابن الخطيب أنه قد جرت بينه وبين طائفة من أدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها براعته . ولم يصل إلينا شىء من رسائله التى أنشأها بين يدى من اتصل بهم من أمراء ولكن ابن الخطيب قال : « نثره بديع ، وكلامه المرسل سهل حسن » ، وقال أيضا : « له ترسل بديع وحكم مستطابة » وروى بعض هذه الحكم ، فكشف أن كاتبها جارى كتاب عصره فى التزام السجع ، والقصير الفقرات منه خاصة . ولعل ذلك راجع إلى طبيعة الحكم التى يستحب فيها القصر والتنغيم ليسهل حفظها ويكثر ترديدها ؛ كذلك أكثر من الجناس تامه وناقصه . وتمثل لحكمه بقوله : « إن شَرُفَ الإنسان ، فبشَرَف وإحسان ، وإن فاق ، فبفضلٍ ورفاق . ينبغى أن يحفظ الإنسان لسانه ، كما يحفظ الجفن إنسانه ، فرُبّ كلمة تقال ، تُحدث عثرة لا تقال . كم كست فلتات الألسنة الحداد ، من ورائها ملابس حداد . نحن فى زمان لا يحصل فيه نفاق ، إلا من عامل بالنفاق » .

ولما كان ذوق العصر يعجب بهذه الزخارف ويرى فيها الأدب الحق والبلاغة

القصوى ، فقد أعجب الناس بما كتبه محمد وحكموا له بالتقدم . وبالرغم من ذلك لم يتبع هذه الطريقة فى تدوين رحلته غير فقرات قليلة وقصيرة منها ، ثم أرسل سائرها إرسالا .

وكان محمد شاعرا غزير الإنتاج أيضا . وقد ذكر المؤرخون أنه مدح من اتصل بهم من الموحدين ، فالمرجح إذن أن ذلك كان من أول ما نظم . ولم يصل إلينا شيء من ذلك المدح ، ولكن الرجل أعجب بصلاح الدين الأيوبى منذ وطئت قدماه أرض مصر ، وعثر فى كل مكان حل به على أثر من آثاره ، دالّ على عدله وحبه لرعيته والمسلمين عامة وتيسيره على الحجاج . فنظم فيه مدائح وصل إلينا بعضها .

وربما كان من أوائل شعره أيضا ما نظمه فى ذم الفلسفة والفلاسفة ، وتقبيح آرائهم ، واتهامهم بالخروج على الدين فربما كان ذلك الشعر نتيجة خصومة بينه وبين ابن طفيل ، عند اجتماعهما معا فى حاشية الأمير أبى سعيد . وربما كان نتيجة كراهية الموحدين للفلسفة وانقلابهم على الفلاسفة بعد سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥) .

ومن الممكن الاستدلال بالرحلة على تأريخ ما اتصل بأحداثها من شعر ، وأغلبه دينى يصور الحج ، وزيارة قبر الرسول ﷺ ، ومشاهدة الآثار الدينية ، وبقيته شعر يودع فيه الرجل أهله ووطنه ، ويتشوق إليهم فى المواطن والمواسم المتوالية . والشعر الدينى أكثر ما بقى من شعر محمد لما كان عليه من تدين وتصوف .

وأكثر محمد بن جبير من نظم الشعر فى موضوعين آخرين . فقد كان ساخطا على الزمان حانقا على الأصدقاء . ولم يرو المؤرخون سببا لذلك ، ولكن الواضح أن الرجل كان ذا إيمان راسخ بأن الوفاء بين الإخوان مفقود ، وأن الركون إلى الدنيا اغترار . وبلغ من كثرة ما نظمه فى هذا الموضوع أن جمعه فى مجلد سماه : « نظم الجمان فى التشكّى من إخوان الزمان » . ولم يعثر الدارسون على هذا الديوان ، ولكن المرجح أن المقطوعات التى أوردها المؤرخون له مقتطفة منه .

والموضوع الثانى الذى أكثر من النظم فيه الرثاء . ويبدو أنه لم يرث غير زوجته أم المجد عاتكة بنت الوزير أبى جعفر الوقشى ، التى كان يحمل لها أعظم الحب . فماتت بسبتة ، فلم يستطع البقاء بها ، وقام برحلته الثالثة إلى المشرق ليتخفف من أعباء حزنه . وأخذ — فى تلك الأثناء — يعبر عن لواعج صدره شعرا ، ملأ به ديوانا خاصا سماه « نتيجة وجد الجوانح فى تأبين القرين الصالح » . فكان أول ديوان — فيما أعلم — أفرده شاعر عربى لبكاء زوجته الراحلة . وانتزع بذلك لواء الأولية من شاعرينا المعاصرين عزيز أباظة وعبد الرحمن صدقى ، اللذين ظن بعض الدارسين سبقهما إلى هذا الفضل . والأمر الذى يؤسف له أن ذلك الديوان لم يصل إلى أيدينا ، بل لم تصل أية قصيدة منه . فلا ندرى الطريق الذى سلكه فى هذا الرثاء .

ولمحمد أشعار أخرى فى الإخوانيات وغيرها من الموضوعات الشعرية التقليدية . وبلغ من مقدار شعره أن قيل إنه كان فى ديوان يماثل ديوان أبى تمام فى الكثرة . وربما كان ذلك الديوان لا يضم الديوانين الخاصين السابق ذكرهما . ولكن الغزارة لا تعنى الجودة أو الامتياز . فما بقى من شعره يدل على أنه كان شاعرا وسطا ، تغلب عليه الصبغة التعليمية ، فإن تخلص منها فإلى الصبغة التقريرية . وجارى شعراء عصره فى الاعتماد على الجناس ، والتلاعب بالألفاظ ، والاستقا من مصطلحات العلوم (النحو خاصة) وأبوابها ، والإكثار من التشبيهات والاستعارات التقليدية التى يرصف بعضها إلى جانب بعض لتزويق العبارة لا لما تكسبه للفكرة من جمال أدبى . وكل ذلك كان طابع شعراء عصره ، ولكن انحطاطه ينزوى بعض الانزواء حتى يكاد يختفى عند الشاعر المجيد ، ويبرز حتى يكاد يخفى كل شىء عداه عند الشاعر الوسط . فإذا كان ذلك رأينا فى عصرنا هذا فيه ، فإن معاصريه ومن بعدهم يمثل رأيهم فيه ابن الخطيب الذى يقول : « نظمه فائق » ويقول : « شاعر مجيد » ، والمقرى الذى يقول : « تقدم فى صناعة القريض والكتابة » .

« الرحـلات »

لم يقم محمد بن جبير برحلة واحدة بل قام بثلاث رحلات ، قصد فيها جميعا الحج ، الذى كان مقصد جل الراحلين من المغرب إلى المشرق إن لم يكن كلهم ، والذى وهب الأدب العربى مجموعة من أجمل ما عرف من رحلات ، وخاصة إذا أضفنا إليه طلب العلم . ولم يدون محمد أخبار هذه الرحلات كلها فى كتابه الذى نتحدث عنه ، بل قصره على الرحلة الأولى وحدها .

وذكر المؤرخون بواعث معينة ، أثارت فى نفس الرجل الشوق إلى الحج وبعثت فيه العزم على قصده ، ودفعته على القيام برحلاته لأدائه . ونترك الرحلة الأولى إلى الثانية ، فنجد المؤرخين يقولون : « لما شاع الخبر المبهج بفتح المقـدس (٥٨٣ هـ /١١٨٧) على يد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن غازى ، قوى عزمه على إعمال الرحلة الثانية . فتحرك إليها من غرناطة يوم الخميس لتسع خلون من ربيع الأول سنة خمس وثمانين وخمسمائة (١١٨٩ م) ثم آب إلى غرناطة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من شعبان سنة سبع وثمانين (١١٩١ م) .

واستقر بغرناطة مدة ثم انتقل منها إلى مالقة على البحر الأبيض المتوسط ، إلى الشمال الشرقى من جبل طارق ، ثم سبتة ثم فاس التى انقطع فيها للتحديث والتصوف . وعندما توفيت زوجته أم المجد قام برحلته الأخيرة إلى الحج .

وذكر ابن الرقيق أن الذى دفعه إلى رحلته الأولى أن الأمير أبا سعيد استدعاه ليكتب له رسالة فقدم عليه فوجده فى مجلس شرابه فمد إليه الأمير يده بكأس . فأظهر الانقباض وقال : « يا سيدى ما شربتها قط » . فقال : « والله لتشربن منها سبعا » . فلما رأى العزيمة اضطر أن يشرب سبع كؤوس . فلما فرغ منها ، ملأ له الأمير الكأس من الدنانير سبع مرات وصبها فى حجره . ثم حمله إلى منزله . وأراد

محمد أن يكفر عن هذا الإثم الذى أرغم على اقترافه ، فرأى أنه لا يكفر عنه سوى الحج . فاستأذن الأمير فأذن له . فباع أملاكا وضم ثمنها إلى ما ناله من الأمير وحج . وذكر ابن الرقيق صراحة أن حجه كان فى تلك السنة التى شرب فيها الخمر .

ولما كان محمد شرع فى رحلته الأولى فى سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) ، وكان الأمير أبو سعيد قد مات فى سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ م) ، فمن المحال إذن أن يكون الحج فى السنة نفسها . بل من المستبعد أن يكون الحج للسبب الذى ذكره ابن الرقيق ، لما بين التاريخين المذكورين من مدة طويلة . أضف إلى ذلك أن الرجل نفسه يثنى فى رحلته على تدين الموحدين ثناء كبيرا ويذم غيرهم من الأمراء الذين يصمهم بالبعد عنه ، يقول : « الموحدين أنصار الدين ، وحزب الله أولى الحق والصدق ، والذابين عن حرم الله عز وجل ، والغائرين على محارمه ، والجادين فى إعلاء كلمته ، وإظهار دعوته ، ونصر ملته ... لا عدل ولا حق ولا دين على وجهه إلا عند الموحدين أعزهم الله ، فهم آخر أئمة العدل فى الزمان . وكل من سواهم من الملوك فى هذا الأوان فعلى غير الطريقة » وقد حاولت أن أستخلص من الرحلة نفسها ما يقيم سببا لها فلم أستطع ، فإن ابن جبير سكت عن ذلك سكوتا تاما . وربما لم يكن هناك دافع خاص غير الرغبة فى أداء الفرض الدينى .

الرحلة المدونة

وصرح محمد فى صدر رحلته أنه لم يكن وحيدا فيها ، إذ كان أحمد بن حسان القضاعى رفيقا له وكان أحمد من أندة من مدن مقاطعة بلنسية ، درس الطب وأصدر فيه كتابا مفيدا ، وشارك فى بعض العلوم الأخرى وسمع بدمشق أبا الطاهر الخشوعى مع محمد . وكتب للأمير أبى سعيد الذى كتب له محمد وغيرهما ، ومات بمراكش فى سنة ٨ أو ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م) ، دون أن يبلغ

الخمسين . وبالرغم من هذه الزمالة ، لم يشر إليه محمد فى الرحلة غير ثلاث مرات .

وشرع محمد ورفيقه فى الرحلة بمغادرة غرناطة فى أول ساعة من يوم الخميس ٨ شوال ٥٧٨ هـ (١١٨٣/٢/٣) وأنهياها بالعودة إليها يوم الخميس ٢٢ محرم ٥٨١ (٢٥ أبريل سنة ١١٨٥) فكانت مدتها عامين وثلاثة أشهر ونصفا . قضيا منها فى الأندلس ١٨ يوما وفى المغرب ٣ أيام ، وعلى البحر الأبيض المتوسط شهرا وفى العودة ٣ أشهر ، وفى مصر نحو ٤ أشهر ، وفى البحر الأحمر ٩ أيام ، وفى شبه الجزيرة العربية نحو ١٠ أشهر وفى العراق نحو شهر ونصف ، وفى الشام نحو ثلاثة أشهر ونصف ، وفى صقلية نحو ثلاثة أشهر ونصف .

المنهج

مر محمد بن جبير فى رحلته بمصر ، وشبه الجزيرة العربية ، والعراق ، والشام ، وصقلية ، وشاهد كبريات مدنها . فصورها فى كتابه تصويرا يتفاوت طولا وقصرا وفقا للمدة التى أقامها بها ، والانطباع الذى خلفته فى نفسه ، والأهمية التى رأى أنها تستحقها . ومن المستطاع أن نستخلص أنه كان يعنى فى وصف المدن بثلاث نواح : المرافق ، والمشاهد ، والأرباض . وتضم المرافق فى خلده : الأسوار ، والحصون ، والمساجد ، والمدارس ، والحمامات ، والمياه ، والأسواق ، والمارستانات ، والمنازل ، والشوارع ، والأبواب ، وتضم المشاهد المقابر ، والموالد ، وآثار الأنبياء والعلماء والأولياء والمواقع الإسلامية ، والمعابد والكنائس والآثار غير الإسلامية . وتضم الأرباض الأحياء والضواحى . ولست أعنى أنه وصف كل ذلك فى كل مدينة ، بل إنها هى ما يتعرض له عند وصفها فيأتى بأكثرها تارة ويهمله أخرى . وعنى فى الكتاب كله بالغرباء ، ومواطنيه المغاربة خاصة : كيف يعاملهم حكام الأقطار التى مر بها وشعوبها ، فيشيد بصاحب

الفضل عليهم ويعدد ألوان بره بهم ، وينبذ من يجفوهم ، ويتغنى بأفضال صلاح الدين الأيوبى الحربية والسلمية ، وينتهز كل فرصة للثناء عليه . ثم ينفرد علاجه لكل إقليم بنواح خاصة تغلب عليه ، ربما كان سببها طبيعته ولون الحياة فيه . فأكثر ما تحدث عنه فى مصر المشاهد والآثار ، وفى الحجاز الشعائر والمواسم والاحتفالات الدينية ، وفى العراق الوعظ والوعاظ ، وفى الشام المسجد الأموى والجوانب السياسية والحربية والاقتصادية من الحياة بين المسلمين والصليبيين وحياة الدمشقيين الاجتماعية ، وفى صقلية أحوال المسلمين ومشاعرهم تحت حكم الملك غليوم (وليم الصالح) وسياسته نحوهم . ويدل هذا على ما للكتاب من قيمة كبيرة فى الدراسات المختلفة .

الأسلـوب

ويصور الكتاب صاحبه رجلا طيب القلب ، سليم الطويلة ، يسرع إلى الالتجاء إلى الله فى حال الرضا والغضب ، والإعجاب والاستنكار ، والاطمئنان والفزع . وقد يؤثر ذلك فى أحكامه ، فيفرط فى شعوره ، فكل ما يعجب به غاية لا يستطيع وصفها الواصفون . ولكن هذا لا يفقده قدرته على التمييز ، وتمحيص الشائعات ، ولو اتصلت بأمر دينى ، بل يحاول التحقق ، كما فعل فيما شاع عن بئر زمزم ولكنه وقع فى بعض أخطاء تاريخية ، كتصديقه أن الحسن والحسين ولدا بمكة . وخالف المؤرخين فى بعض أخبار أشرت إليها . وقادته غربته عن المشرق إلى الوقوع فى أمور لها دلالتها ، إذ يكتب أسماء بعض الأشخاص والمدن كتابة تختلف عن اصطلاح المشارقة ، مثل الينبوع (ينبع) ، ونابلوس (نابلس) والدقوس (الدكز) .

وكان محمد بن جبير يدون مشاهداته على صورة مذكرات لا كتاب متصل مطرد . ثم نسق هذه المذكرات وفقا لمراحل الرحلة هو أو بعض تلاميذه كما يقول

أبو الحسن الشارى . فأثر ذلك فى عبارته تأثيرا كبيرا . فهى قريبة من العامية ، تتضمن من الألفاظ ما لا ترضى عنه اللغة الفصيحة . والضمائر مختلة لا تسير وفقا للقواعد العربية ، بل على القواعد العامية ، وخاصة فى المثنى الذى يعامل كالمؤنث فى أغلب المواضع . على غير مألوف اللغة الفصيحة . وينسى أشياء فيضطر إلى إلحاقها فى غير موضعها ، كما فعل فى وصفه للمدن المصرية . وبالرغم من ذلك ، يفتتح الكلام عن المدن الهامة بفقرة مجودة تتزين بالسجع والجناس . وإذا كان القدماء أعجبوا بفقراته المجودة فإن الذوق الحديث أكثر إعجابا بعباراته المرسلة لسهولتها وطبيعتها وجمالها غير المتكلف ولا المصنوع .

فى التراث الإنسانى

ولما كان محمد بن جبير دقيق الملاحظة ، صادق التعبير ، متنوع الالتفات ، وكان العصر الذى قام فيه برحلته ؛ عصر الحروب الصليبية ، عظيم الأهمية لدى الشرقيين ، والغربيين ، والمسلمين والمسيحيين . فقد لفتت رحلته الأنظار منذ صدورها . وجذبت القراء ، ومنحت الدارسين فى النواحى المختلفة ما يسعون وراءه من معلومات . فكثر الحديث عنها ، وكثر الأخذ منها ، وعظمت العناية بها .

فالمقّرى المغربى نوه بانتشارها بين القراء فى عصره البعيد فقال عن الرجل : « له رحلة مشهورة بأيدى الناس » .

وابن الخطيب الأندلسى . قال : « رحلته نسيجة وحدها طارت كل مطار » وقال : « صنف الرحلة المشهورة ... وهو كتاب مؤنس ممتع مثير سواكن الأنفس إلى تلك المعالم » .

وفى العصر الحاضر ، قال نفيس أحمد الهندى : « لقى الكتاب قبولا حسنا فى الشرق وفى الغرب على السواء ... وإن ما كتبه ابن جبير فى رحلته ليلقى ضوءا هاما على الوضع الجغرافى والنشاط الثقافى والتجارى للأوضاع الإسلامية من

بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط » .

وقال الدكتور نقولا زيادة اللبنانى : « عنى كاتبها بالرسوم الدينية والنواحى الاجتماعية عناية فائقة ... وهو فى كل هذا دقيق الملاحظة ، سوى العبارة ، واضح الأسلوب . وقد أثر ابن جبير فى كثير من الكتاب الذين جاءوا بعده » .

وقال الدكتور محمد زغلول سلام المصرى ... « تعد درة من درر أدب الأسفار والرحلات ... بل إنه يمتاز فيها بملكة لاقطة مصورة » .

وقالت دائرة المعارف الإسلامية ، معبرة عن رأى المستشرقين فيها : « تعد قصة رحلته من أهم مؤلفات العرب ، وخاصة فى تاريخ صقلية فى عهد وليم الصالح » .

وأشاد بونس بويْجس Pons Boigues بها ، وعد حديث ابن جبير عن الآثار ، وصقلية ، عظيم الأهمية ، وخاصة لإهمال المؤرخين معالجة أحوال المسلمين فى العهد النورمندى بالجزيرة وتفاهة ما كتبوه عنهم ونوه بأسلوب الرحالة ، وأعجب بوصفه للعواصف ورأى أن ما رسمه لها من صور جدير بالنقل والترجمة لصدقه وحيويته وجماله .

وأجمع كل من كتب عن الرحلة على أن المتأخرين أكثروا من الرجوع إليها والاقتباس منها . فاقتبس العبدرى فى رحلته منها فى وصف مكة والمدينة ، وخالد ابن عيسى البلوى فى رحلته « تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق » فى وصف الإسكندرية والقاهرة ومكة والمدينة خاصة ، وابن بطوطة فى رحلته فى وصف حلب ودمشق خاصة ، والمقريزى فى خططه وسلوكه فى وصف إخميم وعيذاب خاصة ، والفاسى فى كتابه : « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » فى كلامه عن الرسوم المفروضة على الحجاج فى عيذاب خاصة ، والمقرى فى « نفح الطيب » فى وصف دمشق خاصة ، والشريشى فى شرحه لمقامات الحريرى فى مواضع كثيرة .

وزاد نفيس أحمد إلى المستفيدين من رحلة ابن جبير لسان الدين بن الخطيب .

كل هذه العوامل جعلت المستشرقين أيضا والإيطاليين منهم خاصة يوجهون عنايتهم إلى نص الرحلة ذاته . فتلقف وليم رايت William Wright النسخة

الوحيدة الموجودة منها ، وحققها ، ونشرها فى ليدن سنة ١٨٥٢ م . ثم راجع المحقق نفسه ما طبعه واشترك فى تصحيحه جماعة من كبار المستشرقين هم دوزى Dozy وروبرتسون سميث Robertson Smith ودى غويه De Goeje ، وأعادوا نشرها بليدن عام ١٩٠٧ فى مجموعة تحمل اسم جب . وهى التى أعطيتها الرمز (ر) .

وحقق المستشرق الإيطالى أمارى Amari القسم الخاص بصقلية من الرحلة ، ونشره مع ترجمة فرنسية له فى المجلة الآسيوية Journal Asiatique المجموعة الرابعة المجلد السادس ، صفحة ٥٠٧ ، والمجلد السابع صفحة ٧٣ و ٢٠١ . وعلق الشيخ طنطاوى على ما فعل فى المجلد التاسع ، صفحة ٣٥١ من المجلة نفسها .

واعتمد على الرحلة المستشرق كرولا Crolla فى بحثه عن صقلية فى العهد النورمندى المسمى :

La Sicile au XIIe s. récit du voyage de I, J. en l'an 581 de l'h. (1187), trad. de l'ar. Muséon VI, 123/32.

وتوج الإيطاليون عنايتهم بالرحلة بأن قام كلستينو شيابرلى Celestino Schiapa relli بترجمة للنص برمته ، ونشره فى روما فى سنة ١٩٠٦ م ، تحت عنوان :

Ibn Gubayr (Giobeir) Viaggio in Ispagna, Sicilia, Siria, Palestina, Mesopotamia, Arabia, Egitto, cominto nel secolo XII.

حقق « رايت » نسخته — كما أشرت — على مخطوط وحيد ، محفوظ بمكتبة الجامعة فى ليدن . وهو يضم ٢١٠ صفحات ، وكتبه فى مكة من يسمى عبد القادر بن عبد الوهاب بن عبد المؤمن القرشى عام ٨٧٥ هـ ، عن نسخة مغربية فى أغلب الظن . ويبدو أن الناسخ لم يحسن قراءة كثير من الألفاظ فحرفها ، وخلط بين بعض الحروف وبعض ، مثل الباء والياء ، والتاء والثاء ، والفاء والقاف ، والباء والفاء ، والضاد والظاء ، والخاء والضاد ، وغيرها . وقابل

الناسخ نسخته بأخرى ، وكتب الاختلافات على الهامش ، ولكن يبدو أنه لم يكن دقيقا فى تلك المقابلة ، ولم يستقصها استقصاء كاملا . وقد أدخلت هذه التهميشات فى تعليقاتى ، مع الرمز إليها بحرف (هـ) .

واعتمد رايت فى تحقيق الكتاب على المراجع التالية :

١ — العبدرى ، الذى قام برحلة من السوس الأقصى فى المغرب للحج عام ٦٨٨ ، واقتبس من ابن جبير فى وصف المدينتين المقدستين فقرتين أو ثلاثا .

٢ — القاضى أبى البقاء خالد بن عيسى البلوى ، الذى حج عام ٧٣٦ ، ووصف حجه فى « كتاب تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق » ، واستعار كثيرا من كلام ابن جبير دون أن يذكره ، وخاصة فى وصف الإسكندرية والقاهرة ومكة والمدينة . وأشرت إليه بالحرف (ب) .

٣ — ابن بطوطة ، الذى ذكر ابن جبير فى حلب ودمشق خاصة ، وأشرت إلى رواياته بالرمز (بط) .

٤ — المقريزى ، وأفاد من ابن جبير فى الخطط والآثار ، فى وصف إخميم وعيذاب خاصة ، وفى السلوك أيضا .

٥ — الفاسى ، الذى استعار منه فى كلامه عن الضرائب المفروضة على الحجاج فى عيذاب خاصة ، فى كتابه « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » .

٦ — المقّرى ، الذى استعار فى كتابه « نفح الطيب » كثيرا من ابن جبير ، مع التصرف فى عبارته .

٧ — الشريشى ، تلميذ ابن جبير ، الذى اعتمد عليه كل الاعتماد ، واستعار منه كثيرا فى شرحه لمقامات الحريرى ، وأشير إليه بالحرف (ش) .

والحق أن الكتاب عنى به عدد من كبار المستشرقين ، فدرسوه دراسة دقيقة ، وكانت لهم عليه التعليقات النافعة ، ولذلك تعتبر النسخة الأوربية من أحسن الكتب التى وقف المستشرقون على طبعها .

واختُلف فى عنوان هذا الكتاب ، فجعله حاجى خليفة « رحلة الكنانى » .
ويبتدئ المخطوط بعبارة « تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار » التى قد تكون عنوانا للكتاب ، وقد لا تكون ، فلا تعنى غير ما نعنيه اليوم بكلمة « مذكرات » .
وينتهى بعبارة « كتاب اعتبار الناسك فى ذكر الآثار الكريمة والمناسك » . وشك رايت فى كونها عنوان الكتاب . ولهذا الشك آثر أن يقدمها بالعنوان المشهور : « رحلة ابن جبير » . وتابعته فى ذلك ، أخذا بالأسلم والأعرف .

وقد طبع فى مصر على النسخة الأوربية طبعة غاية فى عدم العناية ، دفعتنى إلى إعادة طبعه فى ٢٧ رمضان ١٣٧٤ الموافق ١٩ مايو ١٩٥٥ ، بعد أن بذلت ما استطعت من جهد فى مقابلته على الطبعة الأوربية ، والمقتبسات منه ، وتصحيحه (أعطيتها رمز ط فى طبعتى الحالية) .

وعلى الرغم من ذلك ، بقيت أتمنى أن أعثر على نسخة خطية منه تمكننى من إعادة النظر فيما فعل رايت ، وفعلت فى طبعتى ، وقد أتاح لى تحقيق الأمنية صديقان عزيزان لحقا منذ زمن بالرفيق الأعلى ، تغمدهما برحمته الواسعة . فقد عثرا على مخطوطة من الرحلة فى مكتبة الزاوية الحمزاوية بالمغرب ، صوراها لمعهد المخطوطات العربية ، وأهديانى صورة منها . ولكن مشاغل العمل صرفتنى طويلا عن إتمام الأمنية ، إلى أن شاء الله لى أن أفعل . فاتخذت من هذه النسخة القديمة النسخ وإن لم تؤرخ أصلا للتحقيق أعطيته الرمز (ص) .

وها أناذا أقدم اليوم الرحلة راجيا أن تتم ما بدأته مطبوعتى السابقة من فائدة علمية . وأهدى الشكر الجزيل إلى أستاذى المغفور له « مصطفى السقا » الذى عنى كل العناية بعملى الأول ، وإلى الصديقين المرحوم توفيق أحمد البكرى والمرحوم رشاد عبد المطلب ، اللذين أهديانى المصورة الجديدة .

وإلى المشرفين على « دار مصر للطباعة » و« مكتبة مصر » الذين بذلوا الجهود لإخراج الطبعتين الأولى والثانية فى صورة صحيحة دقيقة .

حسين نصار

محتويات الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله[1] على سيدنا محمد و[آله وصحبه وسلم][2]

تذكرة بالأخبار ، عن اتفاقات الأسفار

أبتدِئ بتقييدها[3] يوم الجمعة المُوفِى ثلاثين لشوّال[4] سنة ثمان وسبعين وخمس مئة ، ونحن[5] على مَتْن البحر بمقابلة جبل « شُلَيْر »[6] عرّفنا الله السلامة بمَنِّه[7] .

[فى الأندلس] :

كان[8] انفصالُ أحمد بن حسَّان ومحمد بن جُبَير من « غَرْناطَة »[9] ، حَرَسها الله ، للنِّيَّة الحجازية المباركة ، قَرَنها الله بالتيسير والتسهيل ، وتعريف الصُّنْع الجميل ، أولَ ساعة من يوم الخميس الثامن لشوّال المذكور ، وبموافقة اليوم الثالث لشهر فبريـــر الأعجمى[10] . وكان الاجتياز على

---

(1) ط : اللهم صل

(2) كل ما يأتى بين هذه الأقواس أكلته الأرضة من الأصل أو غير موجود فيه وأثبته عن ط ، ما عدا ما أنبه على سبب آخر له .

(3) التقييد : التدوين .

(4) ط : لشهر شوال .

(5) ونحن : ليست فى ط .

(6) شلير : جبل بالأندلس من أعمال إلبيرة .

(7) المن : الإنعام .

(8) ط : وكان .

(9) غرناطة : أعظم مدن إلبيرة ، وبينهما ٤ فراسخ .

(10) آثرت اتباع كتابة المخطوط فى أسماء الشهور الميلادية على الكتابة المعروفة بيننا الآن .

« جَيّان »[١] لقضاء بعض الأسباب بها[٢] ، ثم كان الخروج منها أولَ ساعة من يوم الاثنين التاسع عشر لشهر شوّال المذكور ، وبموافقة الرابع عشر لفبرير[٣] المذكور أيضا . فكانت[٤] مرحلتنا الأولى منها إلى « حصن القَبْذاق »[٥] ، ثم منه إلى « حصن قَبْرة »[٦] ، ثم منه إلى مدينة « إستِجَة »[٧] ، ثم[٨] منها إلى « حصن أُشُونة »[٩] ، ثم منه إلى « شَلَّبَر »[١٠] ، ثم منها[١١] إلى « حـ[ـصن] أُرْكُش » ، ثم منه إلى قرية تعرف بقرية [« القَشْمة »[١٢]] ، من قرى « مدينة ابن السَّلِيم » ، ثم منها إلى « جزيرة طَرِيف » ، وذلك [يوم الاثنين] السادس والعشرين من الشهر المؤرَّخ .

[فى شمال أفريقية] :

فلما كان يوم الثلاثاء من [اليوم الثانى[١٣] ، يسَّر] الله علينا فى عبور

---

(١) جيان : مدينة لها كورة واسعة بالأندلس تتصل بكورة إلبيرة ، مائلة عنها إلى ناحية الجوف فى شرقى قرطبة ، وبينهما ١٧ فرسخا .

(٢) بها : ليست فى ط . والأسباب هنا : الحاجات .

(٣) ط : وبموافقة اليوم الرابع عشر لشهر فبراير . خـ : الثالث عشر ، خطأ .

(٤) ط : وكانت .

(٥) قبذاق : مدينة من نواحى قرطبة بالأندلس . ر : الغيداق .

(٦) قبرة : كورة من الأندلس تتصل بأعمال قرطبة من قبليها .

(٧) استجة : كورة بالأندلس تتصل بأعمال رية بين القبلة والمغرب من قرطبة ، وهى على نهر سنجل ، بينها وبين قرطبة ١٠ فراسخ ، وأعمالها متصلة بأعمال قرطبة .

(٨) خ ، ص : وثم . (٩) أشونة : حصن بالأندلس من نواحى إستجة

(١٠) خـ : سكبر . هـ : سلبر . (١١) ط : منه .

(١٢) هى Casma ، وفى خـ ، ر : التّسمة (١٣) زادت ر هنا : عن نزولنا . ولا ضرورة لها .

البحر إلى « قصر مَصْمُودة »[1] تيسيرا عجيبا ، والحمد لله . ونهضنا [منه إلى] « سَبْتة » غدوةَ يوم الأربعاء الثامن والعشرين منه ، فألفينا بها مركبا للروم الجَنَوِيّين مُقْلِعا إلى « الإسكندرية » ، بحَوْل الله عز وجل ، فسهّل الله علينا فى الركوب فيه .

[فى البحر الأبيض المتوسط] :

وأقلع[2] ظهر يوم الخميس التاسع والعشرين منه ، وبموافقة الرابع والعشرين من فبرير المذكور ، [بحول الله] تعالى وعونه ، لا رب سواه[3] . وكان طريقنا فى البحر محاذيا لبَرّ « الأندلس » . وفارقناه يوم الخميس السادس لذى القعدة بعده ، عندما حاذينا « دانِيَة » . وفى صبيحة يوم الجمعة [السابع] من الشهر المذكور آنفا قابلنا برّ جزيرة « يابسة »[4] ، ثم يوم السبت بعده قابلنا برّ [جزيرة « مَيُورَقَة] » ، ثم يوم الأحد بعده قابلنا برّ[5] جزيرة « مَنُورَقَة » . ومن « سبتة » إليها نحو ثمانية مَجَارٍ[6] ، والمجرى مئة ميل . وفارقنا بر هذه الجزيرة المذكورة ، وقام معنا بر جزيرة « سَرْدَانِيَة » أول ليلة الثلاثاء الحادى عشر من الشهر المذكور ، وهو الثامن من مارس[7] ، دفعة واحدةً على نحو ميل أو أقل . وبين الجزيرتين « سردانية ومنورقة »[8] نحو الأربع مئة ميل ، فكان قطعا مستغرَبا فى السرعة .

---

(١) قصر مصمودة : رأس شمال إفريقية المقابل للأندلس .

(٢) ط : وأقلعنا .

(٣) ط : غيره .

(٤) يابسة : جزيرة فى طريق من يقلع من دانية يريد ميورقة ، وهى Iviza

(٥) بر : ليست فى ط .

(٦) سقط ما بعد هذا من ص إلى ص ٢٧

(٧) خـ : مرتين ، بدلا من : مارس .

(٨) خـ : ميورقة ، ثانية .

وطرأ علينا من مقابَلة[١] البر فى الليل هَوْلٌ[٢] عظيم ، عصم الله منه بريح أرسلها الله تعالى فى الحين من تلقاء البر ، فأخرجَنا عنه ، والحمد لله على ذلك .

وقام علينا نَوْءٌ[٣] هالَ له البحر صبيحة يوم الثلاثاء المذكور ، فبقِينا متردِّدين بسببه حول بر « سردانية » إلى يوم الأربعاء بعده . فأَطْلَعَ الله علينا — فى حال الوحشة ، وانغلاق الجهات بالنوء ، فلا نميِّز شرقا من غرب — مركبا للروم قَصَدَنا إلى أن حاذانا ، فسُئِل عن مقصده ، فأُخبر أنه يريد جزيرة « صِقِلِّية » ، وأنه من « قَرْطَاجَنَّة » عمل « مُرْسِيَة » . وقد كنا استقبلنا طريقه التى جاء منها من غير علم ، فأخذنا عند ذلك فى اتّباع أثره ، والله الميسّر لا رب سواه . فخرج علينا طرفٌ من برّ « سردانية » المذكور ، فأخذنا فى الرجوع عَوْدا على بَدْء ، إلى أن وصلنا طرفا من البر المذكور يعرف[٤] « بقوسمركة » ، وهو مرسى معروف عندهم . فأرسينا به ظهر يوم الأربعاء المذكور ، والمركب المذكور معنا . وبهذا الموضع المذكور أثر لبنيان قديم ذُكر لنا أنه كان منزلا لليهود فيما سلف .

ثم إنا أقلعنا منه ظهر يوم الأحد السادس عشر من الشهر المذكور ، وفى مدة مقامنا بالمرسى المذكور جددنا فيه الماء والحطب والزاد . وهبط واحد من المسلمين ممن يحفظ اللسان الرومى مع جملة من الروم إلى أقرب المواضع المعمورة منا . فأعلَمَنا أنه رأى جملة من أسرى المسلمين نحو الثمانين

---

(١) مقابلة البر : يريد مما يقابله من البحر .

(٢) الهول : الأمر المخوف الذى لا يدرى المرء ما يأتى منه ، ويريد عاصفة .

(٣) النوء : النجم إذا مال للمغيب ، وتضيف إليه العرب الأمطار والرياح والحر والبرد ، وواضح هنا أنه يريد زوبعة .

(٤) خـ : ويعرف . وقوسمركة هى Capo S. Marco

بين رجال ونساء يُباعون فى السوق . وكان ذلك عند وصول العدو — دمّره الله — بهم من سواحل البحر ببلاد المسلمين ، والله يتداركهم برحمته .

ووصل إلى المرسى المذكور ، يوم الجمعة الثالث من يوم أرسينا فيه ، سلطانُ الجزيرة المذكورة ، مع جملة من الخيل . فنزل إليه أشياخ المركب من الروم واجتمعوا به ، وطال مقامهم عنده ، ثم انصرفوا وانصرف إلى موضع سُكْناه . وتركنا المركب المذكور فى موضع إرسائه ، بسبب مغيب بعض أصحابه فى البلد ، عند هبوب الريح الموافقة لنا .

وفى[١] ليلة الثلاثاء الثامن عشر لذى القعدة المذكور ، والخامس عشر من شهر مارس المذكور أيضا ، وفى الربع الباقى منها ، فارقنا بر « سردانية » المذكورة ، وهو بر طويل جرينا بحذائه نحو المئتى ميل . ومنتهَى دَوْر[٢] الجزيرة — على ما ذُكر لنا — إلى أزيد من خمس مئة ميل ، ويَسَّر الله علينا فى التخلص من بحرها ، لأنه أصعب ما فى الطريق ، والخروج منه يتعذر فى أكثر الأحيان ، والحمد لله على ذلك .

وفى ليلة الأربعاء بعدها من أولها عصفت علينا ريح هال لها البحر ، وجاء معها مطر تُرْسِله الرياح بقوة ، كأنه شآبيبُ[٣] سِهام . فعظم الخطب ، واشتد الكرب ، وجاءنا الموج من كل مكان ، أمثالَ الجبال السائرة . فبقينا على تلك الحال الليل كله ، واليأسُ قد بلغ منا مبلغَه ، وارتجينا مع الصباح فُرْجة تخفف عنا بعض ما نزل بنا . فجاء النهار ، وهو يوم الأربعاء التاسع عشر من ذى القعدة ، بما هو أشدّ هولا وأعظم كربا ، وزاد البحر اهتياجا ،

---

(١) ر : فى .　　　(٢) دور : محيط .

(٣) الشآبيب : جمع شؤبوب ، وهو الدفعة من السهام .

واربدّت(١) الآفاق سوادا ، واستشْرت(٢) الريح والمطر عصوفا ، حتى لم يثبت معها شراع . فلُجئَ إلى استعمال الشُرُّع الصغار . فأخذت الريح أحدها ومزقته ، وكسرت الخشبة التى ترتبط الشّرع فيها ، وهى المعروفة عندهم بالقَرِيَّة(٣) . فحينئذ تمكن اليأس من النفوس ، وارتفعت أيدى المسلمين بالدعاء إلى الله عز وجل . وأقمنا على تلك الحال النهار كله . فلما جَنَّ الليل ، فترت الحال بعض فتور . وسرنا فى هذه الحال كلها ، بريح الصوارى(٤) سيرا سريعا . وفى ذلك اليوم حاذينا بر جزيرة « صقلية » . وبتنا(٥) تلك الليلة ، التى هى ليلة الخميس التالية لليوم المذكور ، مترددين بين الرجاء واليأس . فلما أسفر الصبح ، نشر الله رحمته ، وأقشعَت(٦) السحابُ ، وطاب الهواء ، وأضاءت الشمس ، وأخذ فى السكون البحر . فاستبشر الناس ، وعاد الأنس ، وذهب اليأس ، والحمد لله الذى أرانا عظيم قدرته ، ثم تلافى بجميل رحمته ولطيف رأفته ، حمدا يكون كِفاءً(٧) لِمنَّتِه ونعمته . وفى هذا الصباح المذكور ظهر لنا بر « صقلية » ، وقد أجزنا أكثره ، ولم يبق منه إلا الأقل . وأجمع من حضر من رؤساء البحر من الروم ، وممن شاهد الأسفار والأهوال فى البحر من المسلمين ، أنهم لم يُعاينوا قطُّ مثل هذا الهَوْل فيما سلف من أعمارهم ، والخبرُ عن هذه الحال يَصغُر فى خُبْرها . وبين البَرَّين المذكورين بر « سرْدانية » وبر « صقلية » نحو الأربع مئة ميل .

---

(١) اربدت : تغير لونها . (٢) استشرت : عظمت وتفاقم شرها .

(٣) الفصيح فى هذه الكلمة تشديد الياء ، ولكن العامة تخففها .

(٤) أى والصوارى عارية . (٥) هـ : ثم بتنا .

(٦) أقشعت : زالت . (٧) كفاء : مساو .

واستصحبنا من بر صقلية أزيد من مئتى ميل ، ثم ترددنا بحذائه ، بسبب سكون الريح . فلما كان عصر يوم الجمعة الحادى والعشرين من الشهر المذكور ، أقلعنا من الموضع الذى كنا أرسينا فيه ، وفارقنا البر المذكور أول تلك الليلة . وأصبحنا يوم السبت وبيننا وبينه مسافة بعيدة ، وظهر لنا إذ ذاك الجبل الذى كان فيه البُرْكان[١] . وهو جبل عظيم مُصْعِد فى جو السماء ، قد كساه الثلج . وأُعْلِمنا أنه يظهر فى البحر مع الصَّحْو على أزيد من مسيرة مئة ميل . فأخذنا مُلجِّجين[٢] ، وأقربُ ما نؤمله من البر إلينا جزيرة « أَقْرِيطِش »[٣] ، وهى من جزائر الروم ، وَنظرُها[٤] إلى صاحب القسطنطينية ، وبينها وبين جزيرة صقلية مسيرة سبع مئة ميل ، والله كفيل بالتيسير والتسهيل بمَنِّه . وفى طول هذه الجزيرة[٥] — جزيرة أقريطش » المذكورة — نحو من ثلاث مئة ميل .

وفى ليلة الثلاثاء الخامس والعشرين من الشهر المذكور ، وهى[٦] الثانى والعشرون من شهر مارس ، حاذينا البر المذكور تقديرا لا عِيانا . وفى صبيحة اليوم المذكور فارقناه متوجِّهين لقَصْدِنا . وبين هذه الجزيرة المذكورة وبين الإسكندرية ست مئة ميل أو نحوها . وفى صبيحة يوم الأربعاء السادس والعشرين منه ظهر لنا البر الكبير المتصل بالإسكندرية المعروف ببرّ العرب[٧] ، وحاذينا منه موضعا يعرف « بجزائر الحَمّام »[٨] ،

---

(١) يريد بركان أتنا فى صقلية .
(٢) أى جادين .
(٣) التى نسميها اليوم : كريت .
(٤) أى حكمها .
(٥) ينتهى هنا الساقط من ص .
(٦) ط : وهو .
(٧) ط : الغرب .
(٨) جزائر الحمام : بين السلوم وطبرق .

على ما ذُكِر لنا ، وبينه وبين « الإسكندرية » نحو الأربع المئة الميل حسب ما ذُكِر[١] فأخذنا فى السير ، والبر المذكور منا يمينا .

وفى صبيحة يوم السبت التاسع والعشرين من الشهر المذكور ، أطلع الله علينا البُشْرى بالسلامة[٢] ، بظهور منار « الإسكندرية » على نحو العشرين ميلا ، والحمد لله على ذلك حمدا يقتضى المزيد من فضله ، وكريم صنعه . وفى آخر الساعة الخامسة منه كان إرساؤنا بمرسى البلد ، ونزولنا إثر ذلك ، والله المستعان فيما بقى بمنّه . فكانت إقامتنا على متن البحر ثلاثين يوما ، ونزلنا فى الحادى والثلاثين ، لأن ركوبنا إياه كان يوم الخميس التاسع والعشرين من شهر شوال ، ونزولنا عنه فى يوم السبت التاسع والعشرين من شهر ذى القعدة ، وبموافقة السادس والعشرين من مارس ، والحمد لله على ما مَنَّ به من التسهيل والتيسير[٣] ، وهو سبحانه المسئول تتميم[٤] النعمة علينا ببلوغ الغرض المقصود[٥] ، وتعجيل الإياب إلى الوطن ، على خير وعافية ، إنه المُنْعِم بذلك لا رب سواه . وكان نزولنا فيها[٦] بفُنْدق يعرف بفندق الصَّفَّار بمقْرُبة من الصَّبَّانة .

---

(١) ط : الأربع مئة ميل على ما ذكر لنا .
(٢) خـ : والسلامة .
(٣) ط : التيسير والتسهيل .
(٤) ط : بتتميم .
(٥) ط : من المقصود .
(٦) ط : بها .

شهر ذى الحجة من السنة المؤرخة[١]

عرفنا الله بركته ويمنه

أوّله يوم الأحد ، ثانى يوم نزولنا بالإسكندرية .

[**الإسكندرية**] :

فمن أول ما شاهدناه فيها يوم نزولنا أن طلع إلى المركب أمناء[٢] من قِبَل
سلطان بها ، لتقييد جميع ما جُلِب فيه . فاستُحْضِر جميع من كان فيه من
لسلمين واحدا واحدا ، وكتِبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم ، وسُئِل
كل واحد عما لديه من سِلع أو ناضّ[٣] ، ليؤدوا[٤] زكاة ذلك كله ، دون أن
بحث عما حَال عليه الحَوْلُ من ذلك أو ما لم يَحُلْ . وكان أكثرهم
تشخِّصين لأداء الفريضة ، لم يَسْتَصْحِبوا سوى زادٍ لطريقهم ، فلَزِموا[٥]
كاة ذلك ، دون أن يُسْأَل هل حال عليه الحول أو لا[٦] . واستُنْزِل أحمد بن
حسان منا ، ليستفهم[٧] عن أنباء المغرب ، وسِلَع المركب . فطيف به
رقَّبا[٨] على السلطان أولا ثم على القاضى ثم على أهل الديوان ثم على جماعة من
حاشية السلطان . وفى كلّ ذلك يستفهم ويُقَيّد قوله . ثم خُلِّى سبيله[٩] ،

---

(١) ط : السنة المذكورة .
(٢) ط : أمناء إلى المركب .
(٣) الناض : الدراهم والدنانير ، وكذا ضبطه دوزى (انظر تكملته) .
(٤) ط : ليؤدى .
(٥) ط : فلزموا أداء زكاة .
(٦) ط : أحال .. أم لا .
(٧) ط : ليسأل .
(٨) مرقبا : محروسا .
(٩) ط : كل ذلك .. ثم يقيد .. فخلى .

وأُمِر المسلمون بتنزيل أسبابهم ، وما فضل من أزْوِدَتهم ، وعلى ساحل البحر أعوان يتوكّلون بهم ، وبحمل جميع ما أنزلوه إلى الديوان . فاستُدعوا واحدا واحدا ، وأُحْضِر ما لكل واحد من الأسباب ، والديوان قد غُصّ بالزحام . فوقع التفتيش لجميع الأسباب ، ما دقّ منها وما جَلّ ، واختلط بعضها ببعض ، وأُدْخِلت الأيدى إلى أوساطهم بحثا عما عسى أن يكون فيها . ثم استُحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجد[1] لهم أم لا . وفى أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدى ، وتكاثُر الزحام ، ثم أُطْلِقوا بعد موقف من الخزى والذل عظيم[2] ، أسأل الله أن يعظم به أجورهم بمنه[3] . وهذه لا محالة من الأمور الملبَّس[4] فيها على السلطان الكبير المعروف بصلاح الدين . ولو علم بذلك على ما يُؤْثَر عنه من العدل ، وإيثار الرفق ، لأزال ذلك ، وكفى للمسلمين[5] تلك الخطّة الشاقة ، واستُؤدوا[6] الزكاة على أجمل الوجوه . وما لقينا ببلاد هذا السلطان ما يلم بتقبيح[7] بعض الذكر سوى هذه الأحدوثة ، التى هى من نتائج عمال الدواوين .

ذكر بعض ما شاهدناه من[8] أخبار الإسكندرية وآثارها

فأول ذلك حُسْنُ وضع البلد واتساع أزقته[9] ، حتى أنا ما شاهدنا بلدا أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى ولا أعتق ولا أحفل[10] منه ، وأسواقه فى

(١) ط : وجدوا .
(٢) ط : من الذل والخزى .
(٣) ط : نسأل .. الأجر بذلك . هـ : به أجورهم .
(٤) يريد المخفية عنه .
(٥) ط : وكفى الله المؤمنين .
(٦) خـ : واستردوا .
(٧) ط : هذا الرجل ما يلم به قبيح لبعض .
(٨) ما شاهدناه من : ليست فى ط .
(٩) ط : مبانيه .
(١٠) أحفل : أكثر زحاما .

نهاية من الاحتفال أيضا . ومن أعجب ما فى وضعه[١] أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها وأعتق وأمتن ، لأن الماء[٢] من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض ، فتتّصل الآبار بعضها ببعض ، ويَمُدّ بعضها ببعض[٣] .

وعاينّا فيها أيضا من سوارى الرخام وألواحه كثرة وعُلوا واتساعا[٤] وحسنا ما لا يُتخيَّل[٥] بالوهم ، حتى إنك تلقى فى بعض الممرّات بها سَوارى ، يغصّ الجوّ بها صعودا ، لا يُدْرَى معناها[٦] ، ولا لِمَ كان أصلُ وضعها . وذُكر لنا أنه كان فى القديم عليها مبانٍ للفلاسفة[٧] خاصة ، ولأهل الرئاسة فى ذلك الزمان ، والله أعلم ، ويشبه أن يكون ذلك للرَّصْد .

ومن أعظم العجائب المنار[٨] الذى قد وضعه الله عز وجل على يدى من سخّره لذلك آية للمتوسمين[٩] ، وهداية للمسافرين ، لولاه ما اهتدوا فى البحر إلى بر « الإسكندرية » ، ويظهر[١٠] على أزيد من سبعين ميلا . ومبناه نهاية[١١] العتاقة والوثاقة طولا وعرضا ، يزاحم الجو سموا وارتفاعا ينحصر[١٢] عنه الوصف ، وينحسر دونه الطَّرْف ، الخَبَرُ عنه يضيق ، والمشاهدة له تتسع . ذَرَعْنا أحد جوانبه الأربعة[١٣] ، فألفينا فيه نيفا وخمسين

(١) وكذا فى ش ١ : ١٣٥ ج وفى سلك : وضعه . ط : ومن العجيب فى وصفه .
(٢) أضاف ش : إذا جاء .
(٣) ط : بعضا .
(٤) ش : كبرا وعلوا واتساقا .
(٥) أدخل ش : إلا .
(٦) ط : ما معناها .
(٧) خـ : الفلاسفة . ط : عليها فى القديم مبان .
(٨) ط : أعظم ما شاهدناه من عجائبها المنار .
(٩) ط : سخر . خـ : للمتوكلين بدلا من : للمتوسمين ، التى توجد فى سلك ، ش ، ب ، ص ، انظر سورة الحجر ، الآية ٧٥ .
(١٠) ط : يظهر .
(١١) ط : فى غاية .
(١٢) ط : يقصر .
(١٣) ص : الأربع . ذرعنا : قسنا بالذراع .

باعا . ويُذْكَر أن فى طوله أزيد من مئة وخمسين قامة . وأما داخله فمرأى هائل اتساع معارج ودواخل[١] ، وكثرةَ مساكن ، حتى إن المتصرّف فيها والوالج فى مسالكها[٢] ربما ضل . وبالجملة فإن أوصافه[٣] لا يحصّلها القول ، والله لا يخليه من دعوة الإسلام بمنه[٤] وفى أعلاه مسجد موصوف بالبركة ، يتبرّك الناس بالصلاة فيه ، طلعنا إليه يوم الخميس لذى حجة[٥] المؤرَّخ ، وصلينا فى المسجد المبارك المذكور . وشاهدنا من شأن مبناه عجبا ، لا يستوفيه وصف واصف .

ومن مناقب هذا البلد ، ومفاخره العائدة فى الحقيقة إلى سلطانه : المدارسُ والمَحَارس الموضوعة فيه[٦] لأهل الطلب[٧] والتعبّد ، يَفِدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى إليه ، ومدرّسا يعلّمه الفن الذى يريد تعلمه ، وإجْراءً[٨] يقوم به فى جميع أحواله . واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين ، حتى أمر بتعيين حمّامات يستحمون فيها متى احتاجوا لذلك[٩] ، ونصب لهم مارستانا[١٠] لعلاج مَنْ مرض منهم ، ووكّل به أطباء يتفقدون أحوالهم ، وتحت أيديهم خُدّام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج وغذاء . وقد رُتِّب أيضا فيه أقوام برسم

---

(١) ط : ومداخل . والمعارج : السلالم . (٢) ش : مسالكه . والوالج : الداخل .

(٣) فإن أوصافه : ليست فى ط . (٤) ط : الإسلام ويبقيه .

(٥) ط : لذى الحجة .

(٦) خـ : فيها . والمحارس : جمع محرس ، وهو مأوى مخصص للدارسين والزهاد والمسافرين والفقراء .

(٧) ط : الطب .

(٨) الإجراء : المرتب .

(٩) ط : إلى ذلك .

(١٠) المارستان : المستشفى ، وهى كلمة فارسية الأصل .

الزيارة للمَرْضَى ، الذين يتنزهون[١] عن الوصول إلى المارستان[٢] المذكور من الغرباء خاصة ، ويُنْهُون إلى الأطباء أحوالهم ، ليتكفلوا بمعالجتهم .

ومن أشرف هذه المقاصد أيضا أن السلطان عَيَّن لأبناء السبيل من هؤلاء[٣] المغاربة خُبْزَتين لكل واحد[٤] فى كل يوم ، بالغا ما بلغوا ، ونصب لتفريق ذلك كل يوم أمينا[٥] من قِبَله . فقد ينتهى فى اليوم إلى تفريق أَلْفَىْ خبزة وأزيد[٦] ، بحسب الكثرة أو القلة[٧] ، هكذا دائما ، ولهذا كله أوقاف من قِبَله حاشا ما عَيَّنه من مال زكاة العَيْن[٨] لذلك . وأكد على المُتولِّين لذلك متى نقصهم من الوظائف المرسومة شيء ، أن يرجعوا إلى صُلْبِ ماله . وأما أهلُ بلده ففى نهاية من الترفيه واتساع الأحوال ، لا يلزمهم وظيف[٩] البتة . ولا فائد لهذا السلطان[١٠] بهذا البلد سوى الأوقاف المُحبَّسة المعيَّنة من قِبَله لهذه الوجوه ، وجزية اليهود والنصارى ، وما يطرأ من زكاة العَيْن خاصة[١١] ، وليس له[١٢] منها سوى ثلاثة أثمانها ، والخمسة الأثمان مضافة للوجوه المذكورة .

وهذا السلطان الذى سن هذه السنن المحمودة ، ورسم هذه الآثار[١٣] الكريمة على عدمها فى المدّة العبيدية[١٤] ، هو صلاح الدين أبو المظفَّر يوسف

---

(١) يتنزهون : يترفعون .
(٢) ط : للمارستان .
(٣) ط : من المغاربة .
(٤) ط : لكل إنسان .
(٥) ط : يوم إنسانا أمينا .
(٦) ط : إلى ألفى خبزة أو أزيد .
(٧) ط : القلة والكثرة وهكذا .
(٨) ط : من زكاة العين .
(٩) الوظيفة : ما يقدر للإنسان فى اليوم أو الشهر أو السنة من رزق أو طعام أو نحوه ، ولم تذكر المعاجم الوظيف .
(١٠) ط : فائد للسلطان .
(١١) زكاة العين : التى تدفع من الشيء عينه لا نقودا .
(١٢) ر : ليس .
(١٣) ط : الرسوم .
(١٤) ط : البعيدة ، تحريف .

ابن أيوب ، وصل الله صلاحه وتوفيقه .

ومن أعجب ما اتفق للغرباء معه[١] أن بعض من يريد التقرب بالنصائح للسلطان ذكر له أن أكثر هؤلاء المغاربة البربريين يأخذون جِرَاية الخبز ، رغبة لا حاجة ، لأنهم[٢] لا يصلون إلا بزاد يُقلُّهم[٣] . فكاد يؤثّر سعىُ هذا المتنصّح . فلما كان فى أحد الأيام ، خرج السلطان المذكور على سبيل التطلع خارج بلده ، فتلقى منهم جماعة قد لَفَظتهم[٤] الصحراء المتصلة «بطَرَابُلُس» ، وهم قد ذهبت رسومهُم[٥] عطشا وجوعا . فسألهم عن وِجْهتهم ، واستطلع طلع ما لديهم[٦] . فأعلموه أنهم قاصِّدون بيتَ الله الحرام ، وأنهم ركبوا البر ، وكابدوا مشقة صحرائه[٧] . فقال : « لو وصل هؤلاء ، وهم قد اعتسفوا هذه المجاهل التى اعتسفوها ، وكابدوا من الشقاء ما كابدوه ، وبيد كل واحد منهم زِنَتُه ذهبا وفضة ، لَوَجب أن يُشارَكوا ولا تقطع عنهم العادة[٨] التى أجريناها لهم ، فالعجب ممن يسعى على مثل هؤلاء ، ويروم التقرّب إلينا بالسعى فى قطع ما أوجبناه لله عز وجل خالصا لوجهه » .

ومآثر هذا السلطان ومقاصده فى العدل ومقاماته فى الذّبّ[٩] عن حوزة

---

(١) معه : ساقطة من ط .

(٢) ط : ذكر أن أكثر هؤلاء يأخذون جراية الخبز ، ولا حاجة لهم بها ، رغبة فى المعيشة ، لأنهم .

(٣) يقلهم : يحملهم ويبلغهم ما يريدون .

(٤) لفظتهم : أى رمتهم ، يريد خرجوا منها .

(٥) رسومهم هنا : أجسامهم .

(٦) ط : واستطلع ما لديهم .

(٧) ط : صحرائية .

(٨) ط : ولا يقطعوا عن العادة .

(٩) الذب : الدفاع .

المسلمين[١] لا تُحْصَى كثرة .

ومن الغريب أيضا فى أحوال هذا البلد تصرّف الناس فيه بالليل كتصرفهم بالنهار فى جميع أحوالهم . وهو أكثر بلاد الله مساجد حتى إن تقدير الناس لها يطفّف[٢] ، فمنهم المكثّر والمقلّل ، فالمكثر ينتهى فى تقديره إلى اثنى عشر ألف مسجد ، والمقلل ما دون ذلك لا ينضبط ، فمنهم من يقول ثمانية آلاف ، ومنهم من يقول دون ذلك[٣] . وبالجملة فهى كثيرة جدا يكون منها الأربعة والخمسة فى موضع واحد[٤] ، وربما كانت مركّبة[٥] ، وكلها بأئمة من قِبَل السلطان[٦] ، فمنهم من له الخمسة الدنانير مصرية[٧] ، وهى عشرة مؤمنية فى الشهر[٨] ومنهم من له فوق ذلك ، ومنهم من له دونه . وهذه منقبة كبيرة من مناقب السلطان . إلى غير ذلك[٩] من المآثر التى يضيق عنها الحصر .

[الوجه البحرى] :

ثم كان الانفصال عنها على بركة الله تعالى ، وحسن عونه ، صبيحة يوم الأحد الثامن لذى الحجة المذكور ، وهو الثالث لأبريل . فكانت مرحلتنا منها[١٠] إلى موضع يعرف « بدَمَنْهُور » وهو بلد مُسَوَّر[١١] فى بسيطٍ من الأرض أفْيَح[١٢] ، متصل من « الإسكندرية » إليه ، إلى « مصر » . والبسيط

(١) ط : الدين .
(٢) يطفف : لا يعدل .
(٣) ط : غير ذلك .
(٤) واحد : ساقطة من ط .
(٥) ص : وبها كانت مركنة . ومركبة : أى مسجد ومدرسة وغيرهما .
(٦) ط : بأئمة مرتبين من قبل السلطان .
(٧) ط : الخمسة دنانير مصرية فى الشهر .
(٨) فى الشهر : ليست فى ط هنا .
(٩) زادت ط هنا : مما يطول ذكره .
(١٠) ط : منه .
(١١) مسور : أى محاط بسور .
(١٢) أفيح : واسع .

كله مَحرَث ، يعمّه النيل بفيضه ، والقرى فيها[1] يمينا وشمالا ، لا تُحْصَى كثرة . ثم أجزنا[2] النيل فى اليوم الثانى وهو يوم الاثنين لموضع يعرف « بصَا »[3] فى مركب تعدية . واتّصل سيرنا إلى موضع يعرف « بِبِرْمة »[4] ، وهى قرية كبيرة فيها السوق وجميع المرافق . ثم بكّرنا منها يوم الثلاثاء ، وهو يوم عيد النحر من سنة ثمان وسبعين وخمس مئة[5] ، فشاهدنا الصلاة بموضع يعرف « بطِنْبِدَة »[6] ، وهى من القرى الفسيحة الآهلة . فأبصرنا بها مجمعا حَفِيلا ، وخطب الخطيب بخطبة بليغة جامعة . واتصل سيرنا إلى موضع يعرف « بسُبْك »[7] ، فكان[8] مبيتنا بها . واجتزنا فى ذلك اليوم على موضع حسن يعرف « بمَليج » ، والعمارة متصلة ، والقرى منتظمة فى طريقنا كلها . ثم بكرنا منها يوم الأربعاء بعده . فمن أحسن بلد مررنا عليه موضع يعرف « بقَلْيُوب » على ستة أميال من « القاهرة » ، فيه الأسواق الحفيلة[9] ، ومسجد جامع كبير حفيل البنيان . ثم بعده « المِنْية » ، وهو موضع أيضا حفيل ، ثم منها إلى « القاهرة » ، وهى مدينة السلطان الحَفِيلة المتسعة ، ثم منها إلى « مصر » . فكان[10] دخولنا فيها إثر صلاة العصر من يوم الأربعاء ، وهو

---

(١) ط : برفيه .

(٢) ط : ثم فى اليوم الثانى — وهو يوم الاثنين — أجزنا النيل بموضع .

(٣) من مركز كفر الزيات بمحافظة الغربية .

(٤) زادت ط بعدها : فكان مبيتنا بها . وهى من مركز طنطا بمحافظة الغربية .

(٥) ط : خمس مئة المؤرخة .

(٦) ط : بطندتة . وهى الآن طنطا ، عاصمة ...

(٧) من مركز منوف بمحافظة المنوفية . (٨) ط : وكان .

(٩) ط : الجميلة . (١٠) ط : مصر المحروسة وكان .

الحادى عشر من ذى حجة[1] المذكور ، والسادس من أبريل ، عرفنا الله فيها الخير والخِيرة ، وتمم علينا صنعَه الجميل بالوصول إلى الغرض المأمول ، ولا أخلانا من التيسير والتسهيل ، بعزته وقدرته ، إنه على ما يشاء قدير . وفى يوم الأربعاء المذكور أجزنا القسم الثانى من النيل ، فى مركب تعدية أيضا [بموضع] يعرف « بدُجْوة » ، وذلك وقت الغداة الصغرى . وكان نزولنا فى مصر ، بفُنْدُق أبى الثناء ، فى زقاق القناديل ، بمقربة من جامع عمرو بن العاص ، رحمه الله[3] فى حجرة كبيرة ، على باب الفندق المذكور .

ذكر مصر والقاهرة وبعض آثارهما العجيبة

فأول ما نبدأ بذكره منها الآثار والمشاهد المباركة ، التى ببركتها يمسكها الله عز وجل :

فمن ذلك المشهد العظيم الشأن الذى بالقاهرة[4] ، حيث رأس الحسين ابن على بن أبى طالب رضوان الله[5] عليهما ، فهو[6] فى تابوت فضة مدفون[7] ، قد بُنى عليه بنيان[8] ، يقصر الوصف عنه ، ولا يحيط الإدراك به ، مُجلَّل بأنواع الديباج ، محفوف بأمثال[9] العُمُد الكبار شمعا أبيض ،

---

(١) ط : الحجة .
(٢) خـ : فى الوصول .
(٣) ط : رضى الله عنه .
(٤) ط : بمدينة القاهرة .
(٥) ط : رضى الله عنهما . وقيل : إنها رأس زيد بن على بن الحسين ـــ المقريزى ٢/٤٣٦ .
(٦) ط : وهو .
(٧) زادت ط هنا : تحت الأرض .
(٨) ط : بنيان حفيل .
(٩) خـ : بأنواع .

ومنه ما هو دون ذلك ، قد وُضِع أكثرها فى أتوار[١] فضة خالصة ، ومنها مذهبة ، وعُلقت عليه قناديل فضة ، وحُفَّ أعلاه كله بأمثال التفافيح[٢] ذهبا ، فى مصنع[٣] شبيه الروضة[٤] ، يقيّد الأبصارَ حسنا وجمالا ، فيه من أنواع[٥] الرخام المجزَّع ، الغريب الصنعة ، البديع الترصيع ، ما لا يتخيّله المتخيلون ولا يلحق أدنى وصفه الواصفون . والمدخل إلى هذه الروضة على مسجد على مثالها فى التأنق والغرابة ، حيطانُه كلها رخام على الصفة المذكورة ، وعن يمين الروضة المباركة وشمالها بيتان[٦] من كليهما المدخل إليها[٧] ، وهما أيضا على تلك الصفة بعينها . والأستار البديعة الصنعة من الديباج معلقة على الجميع . ومن أعجب ما شاهدناه فى دخولنا إلى هذا المسجد المبارك حجر موضوع فى الجدار الذى يستقبله الداخل ، شديد السواد والبَصِيص[٨] ، يَصِف الأشخاص كلها كأنه المرآة الهندية الحديثة الصقل . وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك ، وإحداقهم به ، وانكبابهم عليه ، وتمسّحهم بالكسوة التى عليه ، وطوافهم حوله مزدحمين داعين باكين متوسلين إلى الله سبحانه ، ببركة التربة المقدسة ، ومتضرعين ما[٩] يذيب الأكباد ، ويصدع الجماد . نفعنا الله ببركة ذلك المشهد الكريم . [١٠] والأمـر فيه أعظم ومرأى الحال أهول[١٠] وإنما وقع الإلماع[١١] بنبذة

---

(١) أتوار : جمع تور ، وهو الشمعدان . (٢) التفافيح : جمع تفاحة ، ويريد الكرات

(٣) المصنع : المبنى قصرا كان أو حصنا . (٤) الروضة : الأرض ذات الخضرة والماء .

(٥) من : ساقطة من ط . (٦) ص : بنيان .

(٧) ص : إليهما . (٨) البصيص : البريق واللمعان .

(٩) خـ : بما .

(١٠ ـــ ١٠) قدمت ط ما بين القوسين إلى بعد (الجماد) .

(١١) الإلماع : الإشارة .

من وصفه ليستدل[1] على ما وراء ذلك ، إذ لا ينبغى لعاقل أن يتصدى لوصفه ، لأنه يقف موقف التقصير والعجز . وبالجملة فما أظن فى الوجود كله مصنعا أحفل منه ، ولا مرأى من البناء أعجب ولا أبدع ، قدّس الله العضو الكريم الذى فيه بمنه وكرمه .

وفى ليلة اليوم المذكور ، بِتنا بالجَبّانة المعروفة بالقَرَافة ، وهى[2] أيضا إحدى عجائب الدنيا ، بما[3] تحتوى عليه من مشاهد الأنبياء صلوات الله عليهم ، وأهل البيت رضوان الله عليهم ، والصحابة والتابعين والعلماء والزّهاد والأولياء ذوى الكرامات الشهيرة والأنباء الغريبة . فأول ما شاهدناه فيها قبر[4] ابن النبى صالح ، وقبر رُوبِيل بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليهم أجمعين ، ثم قبر[5] آسية امرأة فرعون رضى الله عنها ، ومشاهد أهل البيت رضى الله عنهم[6] مشاهد أربعة عشر من الرجال ، وخمس من النساء . وعلى كل واحد منها بناء حَفْل . فهى بأسرها روضات بديعة الإتقان ، عجيبة البنيان ، قد وُكِّل بها قَوَمَةٌ[7] يسكنون فيها ويحفظونها . ومنظرها منظر عجيب ، والجرايات متّصلة لقُوّامها فى كل شهر .

---

(١) ط : صفته مستدلا .

(٢) خـ : وهو .

(٣) ط : لما .

(٤) ط : الغريبة ، وإنما ذكرنا منها ما أمكنتنا مشاهدته ، فمنها قبر .

(٥) ط : وقبر .

(٦) زادت ط : أجمعين .

(٧) القومة : القائمون المشرفون عليها .

ذكر مشاهد أهل البيت رضى الله عنهم بمصر[١]

[فـ[٢]] أولها مشهد على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضوان الله عليهم المعروف بالسجاد زين العابدين رضى الله عنه ومشهد ابنه محمد الأصغر رضى الله عنه ، ومشهد زيد ابنه رضى الله عنه[٢] ، ومشهدان لابنى جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنهم . مشهد[٣] القاسم بن محمد بن جعفر الصادق ابن محمد الباقر بن[٤] على زين العابدين المذكور رضى الله عنهم ، مشهد ابنيه[٥] الحسن والحسين رضى الله عنهما ، مشهد ابنه عبد الله بن القاسم رضى الله عنه ، مشهد ابنه يحيى بن القاسم رضى الله عنه[٦] ، مشهد على بن عبد الله ابن القاسم رضى الله عنهم ، مشهد أخيه عيسى بن عبد الله رضى الله عنهما ، مشهد يحيى بن الحسن بن زيد بن الحسن رضى الله عنهم ، مشهد محمد[٧] بن عبيد الله بن جعفر بن الحسن بن على رضى الله عنهم . مشهد .. بن محمد بن على بن محمد[٧] بن عبد الله بن محمد الباقر بن على زين العابدين [٨] بن الحسين ابن على رضى الله عنهم ، مشهد جعفر [بن محمد] من ذرية[٩] على بن الحسين رضى الله عنهم ، وذُكِر لنا أنه كان ربيب مالك[١٠] رضى الله عنه .

---

(١) بمصر : ساقطة من ط .

(٢ ــ ٢) فى ط بدلا من هذا كله : مشهد على بن الحسين بن على ، رضى الله عنه .

(٣) فى ط واو عطف قبل كل كلمة مشهد فى السياق الآتى .

(٤) الباقر : ليست فى ط .

(٥) ط : ومشهدان لابنيه .

(٦) رضى الله عنه : ليست فى ط .

(٧ ــ ٧) ساقطة من ط .

(٨) زادت ص ، خـ هنا : بن على ، وهو خطأ .

(٩) ط : جعفر بن محمد ، من ذرية .

(١٠) ط : الإمام مالك .

مشاهد الشريفات العلويات رضى الله عنهن

مشهد السيدة كلثوم[١] ابنة القاسم بن محمد بن جعفر رضى الله عنهم ، ومشهد السيدة زينب ابنة يحيى بن زيد بن الحسين بن على[٢] رضى الله عنهم ، مشهد السيدة أم[٣] كلثوم ابنة محمد بن جعفر الصادق رضى الله عنهم ، مشهد السيدة أم عبد الله بن القاسم [بن محمد رضى] الله عنهم .

وهذا ذكر ما حصّله [العيان من] هذه المشاهد العلوية المكرمة ، وهى أكثر من ذلك . وَأُخْبرنا أن فى جملتها مشهدا مباركا لمريم ابنة لعلى[٤] بن أبى طالب رضى الله عنهما[٥] ، وهو مشهور ، لكن[٦] لم نعاينه . وأسماء أصحاب هذه المشاهد المباركة نقلناها[٧] من التواريخ الثابتة عليها مع تواتر الأخبار بصحة ذلك ، والله أعلم بها . وعلى كل واحد منها بناء حفيل ، فهى بأسرها روضات بديعة الإتقان ، عجيبة البنيان ، قد وُكِّل بها قَوَمة يسكنون فيها ويحفظونها ، ومنظرها منظر عجيب ، والجرايات متصلة لقُوّامها فى كل شهر .

---

(١) كذا فى ص والمقريزى ٢/٤٤٢ . وفى ط : أم كلثوم .

(٢) ط : زيد بن على بن الحسين ، وهو الأدق .

(٣) السيدة : ليست فى ط .

(٤) ط : على .

(٥) ط : عنه .

(٦) هـ : لكنا .

(٧) ط : إنما تلقيناها .

ذكر مشاهد بعض أصحاب النبى ﷺ

بالقرافة المذكورة ومشاهد التابعين والأئمة والعلماء والزهاد

الأولياء المشهورين[١] بالكرامات رضى الله عن جميعهم[٢]

والمُقيِّد[٣] يبرأ من القطع على صحة[٤] ذلك ، وإنما رَسَم من أسمائهم ما وجده مرسوما فى تواريخها ، وبالجملة فالصحة غالبة لا يُشَك فيها ، إن شاء الله[٥] :

مشهد مُعاذ بن جَبَل رضى الله عنه ، مشهد عُقْبة بن عامر الجُهَنىّ حامل راية رسول الله ﷺ ، مشهد صاحب بردة النبى[٦] صلى الله عليه وسلم ، مشهد أبى الحسن صائغ[٧] رسول الله ﷺ ، مشهد سارية الجَبَل رضى الله عنه[٨] ، مشهد محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ، مشهد أولاده رضى الله عنهم ، مشهد أحمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ، مشهد أسماء بنت[٩] أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ، مشهد [ابن] الزُّبير[١٠]

---

(١) ط : المشتهرين .
(٢) ط : عنهم أجمعين .
(٣) المقيد : الكاتب ، يريد نفسه .
(٤) ط : بصحة .
(٥) زادت ط هنا : عز وجل .
(٦) النبى : ليست فى ط .
(٧) ص : صانع
(٨) هو سارية بن زنيم الكنانى . انظر الطبرى ١ / ٢٧٠٠ وما بعدها .
(٩) ط : ابنة .
(١٠) ط : ابن الزبير ... عنهما . كذا ط . وهو الأصوب . لأن قبر الزبير حيث قتل فى العراق .

ابن العوام رضى الله عنهما[١] . مشهد[٢] عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما . مشهد ... الله عنهما[٢] . مشهد عبد الله بن حُذافة السَّهْمى صاحب رسول الله ﷺ ، مشهد ابن حَلِيمة ، أخى[٣] رسول الله ﷺ[٤]

مشاهد الأئمة العلماء الزهاد رضى الله عنهم أجمعين[٥]

مشهد الإمام الشافعى محمد بن إدريس[٦] رضى الله عنه ، وهو من المشاهد العظيمة احتفالا واتساعا . وبُنِى بإزائه مدرسة لم يعهد[٧] بهذه البلاد مثلها ، ولا[٨] أوسع مساحة ولا أحفل بناء ، يخيل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته ، بإزائها الحمام ، إلى غير ذلك من مرافقها ، والبناءُ فيها حتى الساعة ، والنفقة عليها لا تُحصَى . تولَّى ذلك بنفسه الشيخ العالم الزاهد المعروف بنجم الدين الخُبُوشانى[٩] . وسلطان هذه الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله ، ويقول[١٠] : زد احتفالا وتأنقا ، وعلينا القيام بمئونة ذلك كله . فسبحان الذى جعله صلاح دينه كاسمه . ولقينا هذا الرجل

---

(١) ص : عنه .

(٢ — ٢) ساقط من ط .

(٣) ط : رضيع .

(٤) اختل ترتيب الورق فى ص بعد هذا فتداخلت المشاهد .

(٥) سقط هذا العنوان من ص .

(٦) محمد بن إدريس : ليست فى ط .

(٧) ط : لم يعمر .

(٨) ط : لا .

(٩) ط : الشيخ الإمام الزاهد العالم . وهو أبو البركات محمد بن الموفق ، توفى ٥٧٨ هـ . وانظر مرآة الجنان لليافعى ، فى عام وفاته .

(١٠) خـ : ويقال ، وهو خطأ .

الخُبوشانى المذكور تبركا بدعائه ، لأنه قد كان ذُكر لنا بالأندلس . فألفيناه فى مسجده بالقاهرة ، وفى البيت الذى يسكنه داخل المسجد المذكور ، وهو بيت ضيّق الفناء ، فدعا لنا . وانصرفنا ولم نلق من رجال مصر سواه . مشهد المُزَنىّ صاحب الإمام الشافعىّ رضى الله عنه ، مشهد أشهب صاحب مالك رضى الله عنهما[1] ، مشهد عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك رضى الله عنهما ، مشهد أصبغ صاحبه[2] رضى الله عنهما ، مشهد القاضى عبد الوهاب رضى الله عنه ، مشهد عبد الله بن عبد الحكم ، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم رضى الله عنهما[3] ، مشهد الفقيه القاضى[4] الواعظ الزاهد أبى الحسن الدِّينَوَرِىّ رضى الله عنه ، مشهد بُنان العابد رضى الله عنه ، مشهد الرجل الصالح الزاهد[5] المعروف بصاحب الإبريق ، وقصته عجيبة فى الكرامة . مشهد أبى مُسْلِم الخَوْلانى رضى الله عنه ، مشهد المرأة الصالحة المعروفة بالعيناء رضى الله عنها ، مشهد الرجل الصالح مُقْبل الحبشىّ رضى الله عنه ، مشهد ذى النون بن إبراهيم المصرىّ ، رضى الله عنه ، مشهد الرُّوذَبارىّ رضى الله عنه ، مشهد محمد بن مسعود بن محمد بن هارون الرشيد المعروف بالسَّبتى رضى الله عنه ، مشهد القاضى الأنبارىّ رضى الله عنه ، قبر الناطق الذى سُمِع عند وضعه فى لحده يقول : ﴿ اللَّهُمَّ « أَنْزِلْنِى مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾[6] رضى الله عنه ، مشهد العصافيرىّ رضى الله عنه[7] مشهد العروس رضىَ الله

---

(١) ط : عنه .

(٢) ط : صاحب مالك .

(٣) ص ، هـ : مشهد الحكم ومحمد بن الحكم رضى الله عنهما .

(٤) القاضى : ليست فى ط .

(٥) ط : الصالح العابد الزاهد .

(٦) سورة المؤمنين ــ الآية ٢٩ .

(٧) رضى الله عنه : ليست فى ط .

عنها[١] ولها أثر من الكرامة فى حال جلْوتها على زوجها لم يُسْمَع أعجب منه ، ومشهد الصامت الذى يُحْكى عنه أنه لم يتكلّم أربعين سنة ، مشهد عبد العزيز بن أحمد بن على بن الحسن الخوارزمىّ ، مشهد الفقيه الواعظ أبى الفضل الجوهرىّ[٢] ، ومشاهد أصحابه بإزائه رضى الله عنهم أجمعين ، مشهد شُقْران شيخ ذى النون المصرى رضى الله عنه[٣] ، مشهد الرجل الصالح المعروف بالأقطع المغربىّ رضى الله عنه[٣] ، مشهد المقرئ وَرْش رضى الله عنه[٣] ، مشهد الطبرى رضى الله عنه[٣] ، مشهد شيبان الراعى رضى الله عنه[٣] .

والمشاهد الكريمة بها أكثر من أن تُضْبَط بالتقييد ، أو تتحصل بالإحصاء . وإنما ذكرنا منها ما أمكنتْنا مشاهدتهُ .

وبقِبلة القرافة المذكورة بَسِيط متسع بموضع قبور الشهداء ، [وهم] الذين استُشهدوا مع سارية رضى الله عن جميعهم . والبسيط المذكور مُسَنَّم [كله] للعيان على مثال أَسْنِمَة[٤] القبور ، دون بناء . ومن العجب أن القرافة[٥] كلها [مساجد مبنية] ، ومشاهد معمورة ، يأوى إليها الغرباء[٦] والصلحاء والفقراء ، والإجْراء على كل موضع [منها متصل] من قِبَل السلطان فى كل شهر . والمدارس التي بمصر والقاهرة كذلك ، وحُقِّق [عندنا أن الإجراء] على ذلك كله نيِّف على الألْفىْ الدينار[٧] مصرية فى

(١) رضى الله عنها : ليست فى ط .

(٢) ط : الأفضل .

(٣) رضى الله عنه : ليست فى ط .

(٤) الأسنمة هنا : ما يرفع أو يبنى فوق القبر .

(٥) ط : القرافة المذكورة .

(٦) زادت ط هنا : والعلماء .

(٧) ط : ألفى دينار .

الشهر ، وهى أربعة آلاف [دينار مؤمنية] . وذُكر لنا أن لجامع عمرو بن العاصى رحمه الله[1] بمصر من الفائد نحو الثلاثين دينارا [مصرية] فى كل يوم ، تَتفرَّق كلها[2] فى مصالحه ، ومرتَّبات قَوَمته وسَدَنته[3] وأئمته والقرَّاء فيه . وبالقاهرة[4] ، أربعة جوامع حفيلة البنيان ، أنيقة الصنعة ، إلى مساجد عدَّة .

وفى أحد الجوامع الخُطبة اليوم ، ومأخذ الخطيب فيها مأخذٌ سُنِّىٌّ ، يجمع فيها الدعاء [للصحابة] رضى الله عنهم ، وللتابعين ، ومن سواهم ، ولأمهات المؤمنين زوجات النبى ﷺ ، ولعميه الكريمين حمزة والعباس رضى[5 الله عنهما ، وللحسن والحسين 5] رضى الله عنهما ، [ويُلطِّف] الوعظ ، ويُرقِّق التذكير[6] ، حتى تخشع القلوب القاسية ، وتتفجَّر العيون الجامدة . ويأتى [للخطبة] لابسا السَّوادَ على رسم العَبَّاسية[7] . وصِفَة لباسِه بُردة سوداء ، عليها طيلسان شَرْب[8] أسود ، وهو الذى يسمى بالمغرب الإحرام ، وعمامةٌ سوداء ، متقلدا سيفا . وعند صعوده المنبر يضرب بنعل سيفه[9] المنبر ، فى أول ارتقائه ، ضربة يُسْمِع بها الحاضرين ، كأنها

---

(١) رحمه الله : ليست فى ط .   (٢) كلها : ليست فى ط .

(٣) السدنة : جمع سادن ، وهو خادم المسجد أو المعبد

(٤) ط : ومما شاهدناه بالقاهرة .

(٥ — ٥) ساقط من ط .

(٦) يرقق التذكير : يجعله بحيث يرقق القلوب .

(٧) أى الخلافة العباسية .

(٨) الشرب : نوع من الحرير اشتهر كثير من مدن مصر بإنتاجه .

(٩) ص : بنعله سيفه .

إيذان بالإنصات ، وفى توسطه أخرى ، وفى انتهاء صعوده ثالثة . ثم يُسلم على الحاضرين يمينا وشمالا ، ويقف [بين رايتين سوداوين ، فيهما تجزيع بياض ، قد رُكزتا فى أعلى المنبر . ودعاؤه فى هذا التاريخ للإمام العباسىّ أبى العباس أحمد الناصر لدين الله بن الإمام أبى محمد الحسن المستضىء بالله بن] الإمام أبى المظفّر يوسف المستنجد بالله[١] ، ثم لمحيي دولته أبى المظفر يوسف [بن أيوب صلاح] الدين ، ثم لأخيه ولىّ عهده أبى بكر سيف الدين[٢] .

[**القلعة**] :

وشاهدنا أيضا بنيان القلعة ، وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين المَنَعة ، يريد السلطان أن يتخذه موضعَ سكناه ، ويمدّ سوره حتى ينتظم المدينتين[٣] « مصر والقاهرة » . والمسخَّرون فى هذا البنيان ، والمُتَولّون لجميع امتهاناته ومؤنه[٤] العظيمة ، كنشر الرخام ، ونحت الصخور العظام ، وحفر الخندق المُحْدِق بسور الحصن المذكور ، وهو خندق يُنْقَر بالمَعاول فى الصخر فيأتى ، عجبا[٥] من العجائب الباقية الآثار : العُلُوجُ[٦] الأُسارى من الروم ، وعددهم لا يُحْصَى كثرة ، ولا سبيل إلى أن يُمتْهن فى ذلك البنيان سواهم[٧] .

وللسلطان أيضا بمواضع أخر بنيان ، والأعلاج يخدمون[٨] فيه ، ومن يمكن استخدامه من المسلمين فى مثل هذه المنفعة العامة ، مُرَفَّه[٩] عن ذلك كله ، ولا وظيفة فى شىء من ذلك على أحد .

---

(١) تولى الخلافة من ٥٦٦ إلى ٥٧٥هـ . (٢) الملك الكامل .

(٣) ط : بالمدينتين . (٤) ط : ومئونته .

(٥) ط : بالمعاول نقرا فى الصخر عجبا . (٦) العلوج : جمع علج ، وهو الرجل من العجم .

(٧) ط : ولا سبيل أن ... البنيان أحد سواهم . هـ : غيرهم .

(٨) ط : يخدمونه . (٩) خـ : موفه .

[المارَسْتان] :

ومما شاهدناه أيضا من مفاخر هذا السلطان ، المارستان الذى بمدينة « القاهرة » . وهو قصر من القصور الرائقة حسنا واتساعا ، أبرزه لهذه الفضيلة تأجُّرا واحتسابا[١] ، وعين له[٢] قَيِّما من أهل المعرفة ، وضع لديه خزائن العقاقير ، ومَكَّنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها . ووُضِعت فى مَقَاصير[٣] ذلك القصر أُسِرَّة يتخذها المَرْضَى مضاجع كاملة الكُسَى . وبين يدى ذلك القيّم خَدَمة يتكفّلون تفقُّد[٤] أحوال المرضى بكرة وعشية ، فيقابَلون من[٥] الأغذية والأشربة بما يليق بهم . وبإزاء هذا الموضع ، موضع مُقتطَع للنساء المرضى . ولهنّ أيضا من يتكفلهن[٦] . ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء ، فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد ، اتخذت مَحابسَ للمجانين . ولهم أيضا من يتفقّد فى كل يوم أحوالهم ، ويقابلها بما يصلح لها . والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ، ويؤكد فى الاعتناء بها ، والمثابرة عليها غاية التأكيد . وبمصر مارستان آخر على مثل[٧] ذلك الرسم بعينه .

وبين مصر والقاهرة والمسجد الكبير المنسوب إلى أبى العباس أحمد بن طولون ، وهو من الجوامع العتيقة الأنيقة الصنعة ، الوثيقة[٨] البنيان ، جعله

---

(١) تأجرا : طلبا للأجر من الله . وكذلك احتسابا .

(٢) له : ليست ى ط .

(٣) المقاصير : الغرف ، جمع مقصورة .

(٤) ط : بتفقد .

(٥) ص : بين .

(٦) ط : يكفلهن .

(٧) هـ : مثال .

(٨) ط : الواسعة .

السلطان مأوى للغرباء من المغاربة ، يسكنونه ويُحلِّقون[1] فيه ، وأجرى عليهم الأرزاق فى كل شهر . ومن أعجب ما حدثنا به أحد المتخصصين منهم أن السلطان جعل أحكامهم إليهم ، ولم يجعل يدا لأحد عليهم . فقدموا من أنفسهم حاكما يمتثلون أمره ، ويتحاكمون فى طوارئ أمورهم عنده ، واستصحبوا الدَّعَة والعافية ، وتفرغوا لعبادة ربهم ، ووجدوا من فضل السلطان أفضل مُعِين على الخير الذى هم بسبيله .

[مناقب صلاح الدين] :

وما منها جامعَ من الجوامع ، ولا مسجد من المساجد ، ولا روضة من الروضات المبنية على القبور ، ولا مَحْرَس من المحارس ، ولا مدرسة من المدارس ؛ إلا وفضل السلطان يعم جميع من يأوى إليها ، ويلتزم[2] السُّكْنَى فيها ، تُهَوِّن عليه فى ذلك نفقاتُ بيوت الأموال .

ومن مآثره الكريمة المُعْرِبة عن اعتنائه بأمور المسلمين كافَّة ، أنه أمر بعمارة مَحَاضِر[3] ، ألزمها معلّمين لكتاب الله عز وجل ، يعلّمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة ، وتُجْرَى عليهم الجراية الكافية لهم .

ومن مفاخر هذا السلطان وآثاره الباقية المنفعة للمسلمين ، القناطر التى شرع فى بنائها بغربىّ مصر ، وعلى مقدار سبعة أميال منها ، بعد رصيف ابتدئ به من حيِّز النيل بإزاء « مصر » ، كأنه جبل ممدود على الأرض ، يسير فيها[4] مقدار ستة أميال حتى يتصل بالقنطرة المذكورة ، وهى نحو الأربعين قوسا من أكبر ما يكون من قِسِىّ القناطر . والقنطرة متصلة بالصحراء التى

---

(١) يحلقون : يعقدون حلقات الدرس .
(٢) ط : ويلزم .
(٣) المحاضر هنا : المدارس .
(٤) ط : تسير فيه .

يُفضَى منها إلى « الإسكندرية » ، له فى ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحَزَمة ، إعدادا لحادثة تطرأ من عدو يَدْهَم جهة ثغر « الإسكندرية » عند فيض النيل ، وانغمار الأرض به ، وامتناع سلوك العساكر بسببه . فأعد ذلك مسلكا فى كل وقت ، إن احْتِيج إلى ذلك . والله يدفع عن حوزة المسلمين كل مُتوقَّع ومحذور بمنه . ولأهل مصر فى شأن هذه القنطرة إنذار من الإنذارات الحِدْثانية[١] ، يرون أن حدوثها إيذان باستيلاء المُوحِّدين[٢] عليها وعلى الجهات المشرقية[٣] ، والله أعلم بغيبه ، لا إلـٰه سواه .

[الأهرام وأبو الهول] :

وبمقربة من هذه القنطرة المحدثة « الأهرام » القديمة ، المعجزة البناء ، الغريبة المنظر ، المربّعة الشكل ، كأنها القباب المضروبة قد قامت فى جوّ السماء ، ولا سيما الاثنان منها ، فإنهما يَغَص الهواء[٤] [بهما] سُموّا ، فى سعة الواحد[٥] منها من أحد أركانه إلى الركن الثانى ، ثلاث مئة خطوة وست وستون خطوة . قد أقيمت من الصخور العظام المنحوتة . ورُكّبت تركيبا هائلا ، بديع الإلصاق ، دون أن يتخللها ما يُعِين على إلصاقها ، محدّدة الأطراف فى رأى العين ، وربما أمكن الصعود إليها على خطر ومشقة ، فتُلْفى أطرافها المحددة كأوسع ما يكون من الرِّحاب ، لو رام أهل الأرض نقضَ بنائها لأعجزَهم ذلك . للناس فى أمرها اختلاف : فمنهم من يجعلها قبورا

---

(١) نسبة إلى حدثان الدهر ، وهى حوادثه وتقلباته .

(٢) الموحدون : الأسرة التى حكمت المغرب من ٥١٥ — ٦٦٨ ، واستولت على الأندلس أيضا .

(٣) ط : الشرقية .

(٤) ط : الجو .

(٥) ص : الواحدة ، تحريف ، بدليل بقية العبارة .

لعَاد(١) وبنيه ، ومنهم من يزعم غير ذلك . وبالجملة فلا يعلم شأنها إلا الله عز وجل . ولأحد الكبيرين منها باب يُصْعَد إليه على نحو القامة من الأرض أو أزيد ، ويُدْخَل منه إلى بيت كبير سعتُه نحو خمسين شبرا ، وطوله نحو ذلك . وفى جوف ذلك البيت رخامة مجوفة طويلة(٢) ، شبه التى تسميها العامة البِيلَة(٣) ، يقال : إنها قبر ، والله أعلم بحقيقة ذلك . ودون الكبيرين(٤) هرم سعتُه من الركن الواحد إلى الركن الثانى مئة وأربعون خطوة . ودون هذا الصغير خمسة صغار ، ثلاثة(٥) متصلة ، والاثنان على مقربة منها متصلان . وعلى مقربة من هذه الأهرام بمقدار غَلْوة(٦) صورة غريبة من حجر ، قد قام(٧) كالصومعة ، على صفة آدمىّ هائل المنظر ، وجههُ إلى الأهرام(٨) ، وظهره إلى القبلة مهبط النيل ، ويعرف(٩) « بأبى الهول » .

وبمدينة مصر المسجد الجامع المنسوب إلى عمرو(١٠) بن العاص رحمه الله(١١) . وله أيضا « بالإسكندرية » جامع آخر هو مُصَلَّى الجمعة للمالكيين . وبمدينة مصر آثار من الخراب الذى أحدثه الإحراق الحادث بها ، وقتَ الفتنة عند انتساخ دولة العُبَيْديين(١٢) ، وذلك سنة أربع وستين

---

(١) عاد : أبو قبيلة عربية جاهلية ، هلكت لما عصت نبيها هودا ، اشتهرت عند العرب بضخامة البنيان .

(٢) ط : طويلة مجوفة .

(٣) البيلة : حوض النافورة .

(٤) ط : الكبير .

(٥) ط : وثلاثة . خطأ .

(٦) الغلوة : المدى الذى يذهب السهم إليه حين يرمى به .

(٧) ط : قامت .

(٨) كذا فى الأصول ، وليس كذلك .

(٩) ويعرف : مزيدة فى ط .

(١٠) ط : لعمرو .

(١١) ط : رضى الله عنه .

(١٢) العبيديون : الفاطميون . ويقصد إحراق شاور الفسطاط خشية وقوعها فى أيدى الصليبيين .

وخمس مئة . وأكثرها الآن مستجَدّ ، والبنيان بها متصل . وهى مدينة كبيرة ، والآثار القديمة حولها ، وعلى مقربة منها ، ظاهرة تدل على عِظَم[١] اختطاطها فيما سلف .

[الجيزة والروضة] :

وعلى شط نيلها[٢] مما يلى غربيها — والنيل معترِض بينهم — قرية كبيرة حفيلة البنيان ، تعرف « بالجِيزة » . لها كل يوم أحد سوق من الأسواق العظيمة ، يُجتَمع إليها . ويعترض بينها وبين مصر جزيرة فيها مساكن حسان ، وعَلَالىّ[٣] مُشْرِفة ، وهى مجتمع اللهو والنزه[٤] . وبينها وبين مصر خليج من النيل ، يذهب بطولها نحو الميل ، ولا[٥] مَخرج له . وبهذه الجزيرة مسجد جامع يُخْطَب[٦] فيه . ويتصل بهذا الجامع المِقياس الذى يُعتبر فيه قَدْر زيادة النيلِ عند فيضه كل سنة . واستشعارُ ابتدائه فى شهر يونيه ، ومعظم انتهائه أُغُشْت[٧] ، وآخره أول شهر أكتوبر . وهذا المقياس عمود رُخام أبيض مثمَّن ، فى موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه[٨] إليه ، وهو مفصَّل على اثنين وعشرين ذراعا ، وكل ذراع مفصلة[٩] على أربعة وعشرين قسما متساوية[١٠] ، تعرف بالأصابع . فإذا انتهى الفيض عندهم إلى أن

---

(١) ط : عظمة .

(٢) ش ٢ : ١٠٠ : ومدينة مصر كبيرة عامر مختلفة الأسواق ، من المدن التى سارت بأوصافها الرفاق ، وهى على شط النيل .

(٣) العلالى : جمع علية ، وهى الغرفة فى أعلى الدار .

(٤) ط : النزهة . ش : مجتمع لهو أهل مصر وتنزههم .

(٥) ط : ولها .

(٦) ص : يختطب .

(٧) أى أغسطس .

(٨) ش : عند انتهائه .

(٩) ط : اثنتين وعشرين ذراعا مقسمة .

(١٠) متساوية : ليست فى ط .

يستوفى الماء تسع عشرة ذراعا منغمرة فيه ، فهى الغاية عندهم فى طيب العام . وربما كان الغامر فيه[١] كثيرا بعموم الفيض . والمتوسّط عندهم ما استوفى سَبْعَ عشرة ذراعا ، وهو الأحسن عندهم من الزيادة المذكورة . والذى يستحقّ به السلطانُ خراجه فى بلاد مصر ، ست عشرة ذراعا فصاعدا ، وعليها يُعْطِى البشارةَ للذى يراعى[٢] الزيادة[٣] كل يوم ، والزيادةَ فى أقسام الذراع المذكورة ، ويُعْلِم بها مُيَاوَمة ، حتى تستوفى الغاية التى يُقْضَى بها . وإن قَصّر عن ست عشرة ذراعا ، فلا مَجْبَى للسلطان[٤] فى ذلك العام ، ولا خراج[٥] .

وذُكر لنا أن بالجيزة المذكورة قبرَ كَعْب الأَحْبار رضى الله عنه . وفى صدر الجيزة المذكورة أحجار رُخام ، قد صُوّرت فيها التماسيح ، فيقال : إن بسببها لا تظهر التماسيح فيما يلى البلد من النيل ، مقدار ثلاثة أميال عُلْوا وسفلا ، والله أعلم بحقيقة ذلك لا إلٰه سواه[٦] .

[مناقب صلاح الدين] :

ومن[٧] مفاخر هذا السلطان المُزْلِفة[٨] من الله تعالى ، وآثاره التى أبقاها ذكرا ميلا للدين والدنيا : إزالتُه رسم المكس[٩] المضروب وظيفةً على الحجاج مدةَ دولة العُبَيديّين . فكان الحجاج يلاقون من الضغط فى استيدائها

(١) ط : منه . ش : الماء فيها كثيرا لعموم .

(٢) ط : الذى : ش : تعطى البشارة للذى يرقب .

(٣) ط : فى كل .

(٤) المجبى : جباية الضرائب .

(٥) زاد ش : إلا ما يعول عليه .

(٦) لا إلٰه سواه : ليست فى ط .

(٧) ط : من .

(٨) المزلفة : المقربة .

(٩) المكس : الضريبة .

عَنَتا مُجحِفا ، ويُسامون[1] فيها خُطةَ خسْف باهظة . وربما ورد منهم من لا فَضْل لديه على نفقته ، أو لا نفقة عنده ، فيُلْزَم أداء الضريبة المعلومة ، وكانت سبعة دنانير ونصف دينار ، من الدنانير المصريّة ، التى هى خمسة عشر دينارا مؤمنية على كل رأس ، فيعجِز[2] عن ذلك ، فيُتَناول بأليم العذاب « بعَيْذاب » ، فكانت كاسمها مفتوحة العين . وربما اختُرِع له من أنواع العذاب التعليق من الأُنثَيَيْن ، أو غير ذلك من الأمور الشنيعة ، نعوذ بالله من سوء قَدَره . وكان « بجُدّة » أمثال هذا التنكيل وأضعافه ، لمن لم يُؤَدِّ مكسه « بعيذاب » ، ووصل اسمه غير معلَّم عليه علامةُ الأداء . فمحا هذا السلطانُ الموفق[3] هذا الرسم اللعين ، ودفع عِوَضا منه ما يقوم مقامه من أطعمة وسواها ، وعيّن مَجْبى موضعا[4] بأسره لذلك ، وتكفّل بتوصيل جميع ذلك إلى الحجاز ، لأن الرسم المذكور كان باسم مِيرة « مكة والمدينة » أعزهما الله[5] ، فعوّض من ذلك أجملَ عوض ، وسهّل السبيل للحجّاج ، وكانت فى حيّز الانقطاع ، وعدم الاستطاع لا تجوز[6] . وكفى الله المسلمين[7] له على يدى هذا السلطان العادل حادثا عظيما وخطبا أليما . فتَرَتّبَ[8] له على كل من يعتقد من الناس أن حج البيت الحرام إحدى القواعد الخمس من الإسلام ، حق يعمّ[9] جميع الآفاق ، ويوجب الدعاء له فى كل صُقْع من الأصقاع ، وبقعة من البِقاع ، والله من وراء مجازاة المحسنين ، وهو جلّت قدرته لا يضيع أجر من أحسن

(١) خـ : ويسلبون .

(٢) خـ : يعجز . ط : ويعجز .

(٣) الموفق : ليست فى ط .

(٤) ص : موضع . ط : موضع معين .

(٥) ظ : عمرهما الله .

(٦) ط : وعدم الاستطلاع .

(٧) ط : المؤمنين .

(٨) ط : فترتب الشكر له .

(٩) ط : حت يعم .

عملا . إلى مكوس كانت فى البلاد المصريّة وسواها ، ضرائب على كل ما يُباع ويُشترى ، مما دقّ أو جلّ ، حتى كان يؤدّى على شرب ماء النيل المكس ، فضلا عن سواه[١] . فمحا هذا السلطان هذه البِدَع اللعينة كلها ، وبسط العدل ، ونشر الأمن . ومن عدل هذا السلطان وتأمينه للسُّبُل ، أن الناس فى بلاده يجعلون لباس[٢] الليل تصرفا فيما يعنيهم ، ولا يستشعرون لسواده هيبة تثنيهم . على ذلك[٣] شاهدنا أحوالهم « بمصر والإسكندرية » ، حسبما تقدم ذكره .

شهر مُحرَّم سنة تسع وسبعين ، عرفنا الله بركتها[٤]

استهلّ هلاله ليلة الثلاثاء ، وهو اليوم السادس والعشرون من أبريل ، ونحن بمصر ، يسّر الله علينا مرامنا .

[رحلة الصعيد] :

وفى صبيحة يوم الأحد السادس من محرم المذكور ، كان انفصالنا من مصر ، وصعودنا فى النيل على الصعيد ، قاصدين إلى « قُوص » ، عرفنا الله عادته الجميلة من التيسير وحسن المعونة بمَنّه . ووافق يوم إقلاعنا المذكور أولَ يوم من مايه[٥] ، بحول الله عز وجل . والقرى فى طريقنا متصلة فى شطّى النيل ، والبلاد الكبار ، حسبما يأتى ذكره إن شاء الله .

---

(١) ط : عما سواه . (٢) ط : لا يخلعون لباس الليل .

(٣) ط : على مثل ذلك . ص : عن ذلك . (٤) ط : يمنها وبركتها .

(٥) يريد شهر مايو .

فمنها قرية تعرف « بأُسْكَر[1] » فى الضفة الشرقية من النيل ، مياسرة للصاعد فيه . ويُذْكَر أن فيها كان مولد النبىّ موسى الكليم صلى الله على نبينا وعليه ، ومنها أَلْقَتْه أمّه فى اليَمّ ، وهو النيل حسبما ذُكِر .

[2] وعاينا أيضا عن يسارنا فى الصعود الجبل الذى كان مرقى موسى ﷺ ، ومنه دعا على فرعون : وفيه أثر بنيان بنى على الموضع الذى كان مقاما له ﷺ[2] . وعاينّا أيضا بغربى النيل مُيَامِنا لنا — وذلك كله يوم إقلاعنا المذكور ، وفى الثانى منه — المدينة القديمة المنسوبة ليوسف الصدّيق[3] ﷺ وبها موضع السجن الذى كان فيه ، وهو الآن يُنْقَض وتُنْقَل أحجاره إلى القلعة التى ذكرنا ابتناءها على القاهرة . وبمدينة يوسف الصديق القديمة المذكورة أهرام على الصفة المذكورة قبل ، يقال إنها كانت أهراء للأطعمة[4] التى اختزنها يوسف ﷺ ، وهى مجوَّفة على ما يُذْكَر .

ومنها الموضع المعروف «بمُنْيَة ابن الخَصِيب»[5] وهو بلد على شطّ النيل ميامنا للصاعد فيه ، كبير فيه الأسواق والحمامات وسائر مرافق المدن ، اجتزنا عليه ليلة الأحد الثالث عشر لمحرم المذكور ، وهو الثامن من يوم إقلاعنا من مصر ، لأن الريح سكنت عنا فتربصنا فى الطريق . ولو ذهبنا إلى رسم كلّ موضع يعترضنا فى شطّى النيل يمينا وشمالا ، لضاق

---

(١) من مركز الصف فى محافظة الجيزة . وفى ص : أشكور .

(٢ — ٢) زيادة ليست فى ط . ويبدو أن فيها لبسا . لأن الجبل المعروف فى حياة موسى عليه السلام فى سيناء لا وادى مصر .

(٣) هى بوصير ، كانت من أعمال الجيزة ، وهى اليوم فى مركز ملوى من محافظة المنيا .

(٤) ط : القلعة المبتناة الآن على القاهرة ، وهو حصن حصين المنعة ، وبهذه المدينة المذكورة مخازن الطعام .

(٥) ط : المذكور .

الكتب[١] عنه لكنا[٢] نقصد من ذلك إلى الأكبر الأشهر .

وقابلنا على مقربة من هذا الموضع مياسرا لنا : المسجد المبارك المنسوب لإبراهيم خليل الرحمن صلوات الله على نبينا وعليه[٣] ، وهو مسجد مذكور مشهور معلوم بالبركة مقصود ، ويقال : إن بفنائه أثر الدابة التى كان يركبها إبراهيم[٤] ﷺ .

ومنها موضع يعرف « بأَنْصِنَا »[٥] مياسرا لنا ، وهى قرية فسيحة جميلة بها آثار قديمة . وكانت فى السالف مدينة عتيقة ، وكان لها سور عتيق هدمه صلاح الدين ، وجعل على كل مركب منحدر فى النيل وظيفةً من حمل صخره إلى القاهرة ، فنُقِل بأسره إليها .

وفى صبيحة يوم الاثنين الرابع عشر من محرم المذكور ، وهو التاسع من إقلاعنا من مصر اجتزنا على الجبل المعروف بجبل « المُقْلَة »[٦] ، وهو بالشط الشرقىّ من النيل ، مياسرا للصاعد فيه ، وهو نصف الطريق إلى « قُوص » ، من مصر إليه ثلاثة عشر بريدا ، ومنه إلى « قوص » مثلها .

---

(١) اختلفت المراجع فى اسم هذه المدينة بين منية ابن الخصيب وأبى الخصيب وابن الخصيب . وهى عاصمة محافظة المنيا ، نسبت إلى الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر من قبل الخليفة هارون الرشيد .

(٢) ط : الكتاب عنه لكن .

(٣) ذكريا قوت ومرتضى الزبيدى أن هذا المسجد فى قبالة (أمام) المنيا ، ولكن الكلمة تحرفت إلى (فى قبلة) .

(٤) ط : الخليل .

(٥) تسمى الآن قرية الشيخ عبادة ، وتقع فى مركز ملوى من محافظة المنيا .

(٦) لم أجد اسم هذا الجبل فى مراجع أخرى .

ومما يجب ذكره على جهة التعجّب ، أن من حَيِّز « مصر » فى شط النيل الشرقىّ مياسراً[1] للصاعد فيه ، حائطا متصلا قديم البنيان ، منه ما قد تهدم ومنه ما بقى أثره ، يتمادى على الشطِ المذكور إلى « أُسْوان » آخر صعيد مصر ، وبين « أسوان » وبين « قُوص » ثمانية بُرُد . والأقوال فى أمر هذا الحائط تتشعّب وتختلف ، وبالجملة فشأنه عجيب ولا يعلم سره إلا الله عز وجل . وهو يعرف بحائط العَجُوز ، ولها خبر مذكور ، [2] اسم هذه العجوز دلوكَ[2] أظنّ هذه العجوز هى الساحرة المذكور[3] خبرها فى المسالك والممالك ، التى كانت لها المملكة بها مدة .

* * *

(١) خـ : مصاعدا .   (٢ — ٢) العبارة ليست فى ط .

(٣) خـ : المذكورة . وتقول الخرافات العربية إن العجوز هى دلوكة بنت ربا ، وخبرها أنه لما أغرق الله فرعون وقومه بعد خروج موسى عليه السلام ، بقيت مصر وليس فيها من أشراف أهلها أحد ، ولم يبق إلا العبيد والأجراء والنساء . فأعظم أشراف النساء أن يولين أحدا من العبيد والأجراء ، وأجمع رأيهم أن يولين دلوكة ، وكان لها عقل ومعرفة وتجربة وشرف ، وقد بلغت يومئذ مئة عام أو أكثر ، فملكوها . فخافت أن يغزوها ملوك الأرض إذا علموا قلة رجالها ، فبنت على النيل بناء أحاطت به على جميع ديار مصر : المزارع والمدن والقرى . وجعلت دونه خليجا يجرى فيه الماء وعليه القناطر ، وأقامت فيه المحارس والمسالح . وهذا البناء هو حائط العجوز .

ذكر ما استُدْرِك تقييده مما كان أُغْفِل[١]

[خروج بعض نصارى الشرق] :

وذلك أنا لما حللنا « الإسكندرية » فى الشهر المؤرخ[٢] المذكور أولا ، عايَنّا مجتمعا من الناس عظيما بَرزوا لمعاينة أسرى من الروم ، أُدْخِلوا البلد راكبين على الجمال ، ووجوههم إلى أذنابها ، وحولهم الطبول والأبواق . فسألنا عن قصتهم ، فأُخْبرنا بأمر تتفطّر له الأكباد إشفاقا وجزعا . وذلك أن جملة من نصارى الشام[٣] اجتمعوا ، وأنشئوا مراكب فى[٤] أقرب المواضع التى لهم من بحر القُلْزُم[٥] ، ثم حملوا أَنْقاضها على جِمال العرب المجاورين لهم بكِرَاء اتّفقوا معهم عليه ؛ فلما حطوا[٦] بساحل البحر ، سَمَّروا مراكبهم ، وأكملوا إنشاءها وتأليفها ، ودفعوها فى البحر ، وركبوها قاطعين بالحجاج . وانتهوا إلى بحر النعم[٧] ، فأحرقوا فيه نحو الستة عشر[٨] مركبا . وانتهوا إلى « عَيْذاب » ، فأخذوا فيها مركبا كان يأتى بالحجاج من « جُدّة » ، وأخذوا أيضا فى البر قافلة كبيرة ، (٩من الحجاج كانت تأتى٩) من « قوص »

---

(١) ط : خبره . هـ : مما أغفل . (٢) المؤرخ ليست فى ط .

(٣) ذكر كثير من المؤرخين أنهم كانوا من نصارى حصن الكرك ، ومعهم بعض الشرقيين . وانظر الخبر فى الكامل لابن الأثير ١١ / ٣٢٣ طبع أوربا .

(٤) خـ : من . (٥) هو البحر الأحمر الآن .

(٦) ط : حصلوا . (٧) لم أجد هذا الاسم فى مراجع أخرى ، وإنما فيها بحر عيذاب . ولعل الكلمة محرفة عنه أو عن بحر اليمن .

(٨) ط : ستة عشر . (٩ — ٩) العبارة ليست فى ط .

إلى « عيذاب » ، وقتلوا الجميع ولم يُحيوا أحدا . وأخذوا مركبين كانا مقبلين بتُجّار اليمن[١] ، وأحرقوا أطعمة كثيرة على ذلك الساحل ، كانت مُعَدّة لميرة « مكة والمدينة » أعزهما الله . وأحدثوا حوادث شنيعة ، لم يُسْمَع بمثلها[٢] فى الإسلام ، ولا انتهى رومىّ إلى ذلك الموضع قط . ومن أعظمها حادثة تسك[٣] المسامع شناعة وبشاعة ، وذلك أنهم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول ﷺ ، وإخراجه من الضريح المقدس . أشاعوا ذلك ، وأجروا ذكره على ألسنتهم . فآخذهم الله باجترائهم عليه ، وتعاطِيهم ما تَحُول عنايةُ القدرة[٤] بينهم وبينه . ولم يكن بينهم وبين المدينة أكثر من مَسِيرة يوم . فدفع الله عاديتهم بمراكب عُمِّرت من مصر والإسكندرية ، دخل فيها الحاجب المعروف بلُؤْلُؤ[٥] ، مع أنجاد[٦] من المغاربة البحريّين . فلحقوا العدوّ ، وهو قد قارب النجاة بنفسه ، فأُخِذوا عن آخرهم . وكانت آية من آيات العنايات الجَبّارية ، وأدركوهم عن مدة طويلة كانت بينهم من الزمان ، نيّف على شهر ونصف أو نحوه[٧] . وقُتِلوا وأُسِروا ، وفُرّق من الأسرى[٨] على البلاد ليُقْتلوا بها ، ووُجّه منهم إلى « مكة والمدينة » . وكفى الله بجميل صنعه الإسلام والمسلمين أمرا عظيما ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) ط : بتجار من اليمن .　　(٢) ط : مثلها .

(٣) ط : تسد .　　(٤) ط : القدر .

(٥) من كبار رجال الدولة الأيوبية ، تولى الأسطول المصرى ، وخدم صلاح الدين مقدما . وكان أينما توجه انتصر وفتح ، وله مواقف حميدة بالسواحل . وهو من أصل أرمنى ، توفى سنة ٥٩٨ هـ .

(٦) الأنجاد : جمع النجد ، وهو الشجاع الماضى فيما يعجز فيه غيره أو السريع الإجابة إلى ما دعى إليه .

(٧) ط : أو حوله .　　(٨) ط : الأسارى .

رَجْــع الذِّكــر(١)

[تكملة رحلة الصعيد] :

ومن المواضع التى(٢) اجتزنا عليها فى الصعيد بعد جبل « المقلة » الذى ذكر لنا(٣) أنه نصف الطريق من « مصر » إلى « قوص » ، حسبما تقدم ذكره ، موضع يعرف « بمَنْفَلُوط » ، بمقربة من الشط الغربى ميامنا للصاعد فى النيل ، فيه الأسواق وسائر ما يُحتاج إليه من المرافق ، ومَدَرته(٤) فى نهاية من الطيب ، ليس فى الصعيد مثلها ، وقمحها(٥) يُجْلَب إلى مصر ، لطيبه ورزانة(٦) حبته ، قد اشتهر عندهم بذلك . فالتجار يصعدون فى المراكب لاستجلابه .

ومنها مدينة « أُسْيُوط » ، وهى من مدن الصعيد الشهيرة ، بينها وبين الشط الغربىّ من النيل مقدار ثلاثة أميال . وهى جميلة المنظر ، حولها بساتين النخل ، وسورها سور عَتيق .

ومنها موضع يعرف « بأبى تِيج » ، وهو بلد فيه الأسواق وسائر مرافق المدن ، وهو فى الشط الغربىّ من النيل .

ومنها مدينة « إِخْمِيم » وهى أيضا من مدن الصعيد الشهيرة المذكورة بشرقىّ النيل على شطه(٧) ، قديمة الاختطاط ، عتيقة الوضع ، فيها مسجد

---

(١) العنوان غير موجود فى الأصل . (٢) ص : الذى . وهو خطأ .
(٣) ط : ذكرنا . (٤) المدرة : المدينة والحاضرة ، وموضعها فراغ فى خـ . وجعلتها ط : وهى بلدة . (٥) ص : وقمحه .
(٦) رزانة هنا : كبر وضخامة . (٧) هـ : وعلى شطه . ط : وبشطه .

ذى النون المصرىّ ، ومسجد داود أحد الصالحين المشتهرين بالخير والزهادة . وهما[1] مسجدان موسومان بالبركة ، دخلنا إليهما متبركين بالصلاة فيهما ، وذلك يوم السبت التاسعَ عَشَر لمحرم المذكور . وبهذه المدينة المذكورة آثار ومصانع من بنيان القبط ، وكنائس معمورة إلى الآن بالمعاهِدين من نصارى القبط . ومن أعجب[2] الهياكل المتحدَّث بغرائبها فى الدنيا هيكل عظيم فى شرقىّ المدينة المذكورة ، وتحت سورها ، طوله مئتا ذراع وعشرون ذراعا ، وسعته مئة وستون[3] ذراعا ، يعرف عند أهل هذه الجهة بالبَرْبَة[4] ، وكذلك يعرف كل هيكل عندهم ، وكل مصنع قديم . قد قام هذا الهيكل العظيم على أربعين سارية ، حاشا حيطانه ، دَوْر كل سارية منها خمسون شبرا ، وبين كل سارية وسارية ثلاثون شبرا ، ورءوسها فى نهاية من العظم والإتقان ، قد نُحِتت نحتا غريبا ، فجاءت مُرَكَّنة[5] بديعة الشكل ، كأن الخرّاطين تناولوها ، وهى كلها مرقّشة بأنواع الأصبغة اللّازَوَرْدِيّة[6] وسواها . والسوارى كلها منقوشة من أسفلها إلى أعلاها . وقد انتصب على رأس كل سارية منها إلى رأس صاحبتها التى تليها ، لوح عظيم من الحجر المنحوت ، من أعظمها ما كِلْنا[7] فيه ستة وخمسين شبرا طولا وعشرة أشبار

---

(١) خـ : ومنها . (٢) ط : أعظم .

(٣) اقتبس المقريزى (الخطط ١ : ٢٣٩) هذا الوصف مختصرا : مع نسبته إلى ابن جبير . وعنده : وسبعون .

(٤) البربة : كلمة مصرية قديمة معناها المقبرة ، وظنها العرب اسما لموضع العبادة أو البناء المحكم أو موضع السحر . وفى ر : البربا . (٥) مركنة : ذات أركان .

(٦) مرقشة : منقوشة . واللازوردية : الزرقاء فى خضرة .

(٧) يستعمل المؤلف كلمة كال بمعنى قاس .

عرضا ، وثمانية أشبار ارتفاعا . وسقف هذا الهيكل العظيم[١] كله من ألواح[٢] الحجارة المنتظمة ببديع الإلصاق ، فجاءت كأنها فَرْش واحد . قد[٣] انتظمت جميعَه التصاويرُ البديعة ، والأصبغة الغريبة ، حتى يُخيَّلَ للناظر فيها أنها سقف من الخشب المنقوش . والتصاوير على أنواع فى كل بلاط من بلاطاته ، فمنها ما قد جَلَّلتْه[٤] طيور بصُوَر رائقة ، باسطة أجنحتها ، توهم الناظر إليها أنها تَهُمّ بالطَّيَران ؛ ومنها ما قد جللتْه تصاوير آدمية رائقة المنظر ، رائعة الشكل . قد أُعِدت لكل صورة منها هيئة هى عليها ، كإمساك تمثال بيدها ، أو سلاح ، أو طائر ، أو كأس ، أو إشارة شخص إلى آخر بيده ، أو غير ذلك ، مما يطول الَوصف له ، ولا تتأتَّى العبارة لاستيفائه . وداخلَ هذا الهيكل العظيم وخارجه ، وأعلاه وأسفله ، تصاوير كلها مختلفات الأشكال والصفات[٥] ، منها تصاوير هائلة المنظر ، خارجة عن صور الآدميين ، يستشعر الناظر إليها رعبا ، ويتملأ منها عِبرة وتعجّبا . وما فيه مَغْرِز إشْفَى[٦] ولا إبرة ، إلا وفيه صورة أو نقش أو خط بالمُسْنَد[٧] لا يُفْهَم . قد عمّ هذا الهيكلَ العظيم الشأن كله هذا النقشُ البديع . ويتأتّى[٨] فى صُمّ الحجارة من ذلك ما لا يتأتى فى الرخو من الخشب ، فيحسب الناظر له[٩] استعظاما له ، أن عمر الزمان لو شُغِل برقشه[١٠]

---

(١) العظيم : ليست فى ط .

(٢) خد : أنواع .

(٣) ط : وقد .

(٤) جلل : غطى .

(٥) ط : والصفة .

(٦) الإشفى : المثقب أو المخرز .

(٧) أطلق المؤلف هنا (خط المسند) على الخط الهيروغليفى ، وهو فى الأصل الخط الحميرى فى اليمن .

(٨) ص : ويأتى .

(٩) له : ليست فى ط .

(١٠) ط : بترقيشه .

وترصيعه وتزيينه ، لضاق عنه . فسبحان المُوجِد للعجائب ، لا إلٰه سواه .
وعلى أعلى هذا الهيكل سطح مفروش بألواح الحجارة العظيمة ، على الصفة المذكورة ، وهو فى نهاية الارتفاع ، فيحار الوهم فيها ، ويضلّ العقل فى الفكرة فى تطليعها ووضعها . وداخل هذا الهيكل من المجالس والزوايا ، والمداخل والمخارج ، والمصاعد والمعارج ، والمسارب والموالج[1] ما تضل فيه الجماعات من الناس ، ولا يهتدى بعضهم لبعض إلا بالنداء العالى . وعرض حائطه ثمانية عشر شبرا . وهو كله من حجارة مرصوصة على الصفة التى ذكرناها . وبالجملة فشأن هذا الهيكل عظيم ، ومَرْآه إحدى عجائب الدنيا التى لا يبلغها الوصف ، ولا ينتهى إليها[2] الحد ، وإنما وقع الإلماع بنبْذة من وصفه دلالة[3] عليه ، والله المحيط بالعِلْم فيه ، والخبير بالمعنى الذى وُضِع له .
فلا يظنَّن[4] المتصفِّح لهذا المكتوب أن فى الإخبار عنه بعض غلوّ . فإن كل مُخبِر عنه — ولو كان قُسّا[5] بيانا ، أو سَحْبانا[6] — يقف موقف العجز والتقصير ، والله المحيط بكل شىء علما ، لا إلٰه سواه .

[الضرائب والزكاة] :

وبلاد هذا الصعيد المعترضة فى الطريق للحجاج والمسافرين ، كإخميم وقُوص ومنية ابن الخَصِيب ، من التعرّض لمواكب المسافرين وتكشيفها[7]

---

(١) المسارب : المنافذ . والموالج : المداخل . (٢) ص : إليه .
(٣) ص : ودلالة عليه . (٤) ط : يظن .
(٥) هو قس بن ساعدة الإيادى ، أسقف نجران ، وحكيم العرب ، اشتهر بالبلاغة .
(٦) هو سحبان رجل من وائل ، بليغ لسن ، يضرب به المثل فى البيان والفصاحة .
(٧) ط : وتكشفها .

والبحث عنها ، وإدخال الأيدى لأوساط المسافرين التجار[١] ، فحصا عما تأبّطوه واحتضنوه[٢] من دراهم أو دنانير ، ما يقبح سماعه ، وتستشنع[٣] الأحدوثة عنه ، كل ذلك برسم الزكاة ، دون مراعاة لمحلها ، أو ما يدرك النصابَ منها ، حسبما وصفناه[٤] فى ذكر الإسكندرية من هذا المكتوب . وربما ألزموهم الأَيمان على ما بأيديهم ، وهل عندهم غير ذلك ، ويُحْضِرون كتاب الله العزيز لتقع[٥] اليمين عليه . فيقف[٦] الحجاج بين أيدى هؤلاء المتناولين لها ، مواقفَ خزى ومهانة ، تذكّرهم بأيام[٧] المكوس . وهذا أمر يقع القطعُ على أن صلاح الدين لا يعرفه . ولو عرفه لأمر بقطعه ، كما أمر بقطع ما هو أعظم منه ، ولجاهد المتناولَ له ، فإن جهاده من الواجبات ، لما يصدر عنه[٨] من التعسف ، وعسير الإرهاق ، وسوء المعاملة مع غرباء انقطعوا إلى الله تعالى[٩] ، وخرجوا مهاجرين إلى حرمه الأمين ، ولو شاء الله لكان لمتولى هذه الخِطة[١٠] مندوحة فى اقتضاء الزكاة على أجمل الوجوه ، من ذوى البضائع والتجارات[١١] ، مع مراعاة رأس كل حَوْل ، الذى هو محل الزكاة ، وبتجنب اعتراض الغرباء المنقطِعين ممن تَجب الزكاة له لا عليه ، وكان يُحافَظ على جانب هذا السلطان العادل ، الذى قد شَمَل البلاد عدله ، وسار فى الآفاق ذكره ، ولا يُسْعَى فيما يسىء الذكر لمن[١٢] قد

(١) ط : إلى أوساط التجار .
(٢) ط : أو احتضنوه .
(٣) ط : وتشنع .
(٤) ط : ذكرناه .
(٥) ط : فيقع .
(٦) ط فيقع .
(٧) ط : أيام .
(٨) ط : جهادهم ... عنهم
(٩) ط : عز وجل .
(١٠) ط : شاء الله لكانت [عن] الخطة .
(١١) ط : فى التجارات .
(١٢) ط : بمن .

حَسّن الله ذكره ، ويقبّح المقالة فى جانب ... عنه مَنْ أجْمَل الله المقالة عنه .

ومن أشنع ما شاهدناه من ذلك ، خروج شِرْذِمة من مَرَدة أعوان الزكاة ، فى أيديهم المَسَالّ الطوال ، ذوات الأُنْصِبة[١] ، فيصعدون إلى المراكب ، استكشافا لما فيها ، فلا يتركون عِكْما[٢] ولا غِرارة[٣] إلا ويتخللونها بتلك المسالّ الملعونة ، مخافةَ أن يكون فى تلك الغرارة أو العِكْم اللذين لا يحتويان سوى الزاد ، شىء غُيِّب عليه[٤] من بضاعة أو مال . وهذا أقبح ما يؤثر فى الأحاديث الملعَّنة ، وقد نهى الله عن التجسس[٥] ، فكيف عن الكشف لما يُرْجى سَتر[٦] الصون دونه ، من حال لا يريد صاحبها أن يُطَّلع عليها ، إما استحقارا أو استنفاسا ، دون بُخْل بواجب يلزمها . والله الآخذ على أيدى هؤلاء الظَّلَمة ، بيد هذا السلطان العادل وتوفيقه ، إن شاء الله .

ومن المواضع التى اجتزنا عليها بعد « إخميم » المذكورة موضع يعرف « بمُنْشَاة السودان »[٧] على الشط الغربىّ من النيل ، وهى قرية معمورة ، ويقال : إنها كانت فى القديم[٨] مدينة كبيرة . وقد قام أمام هذه القرية ، بينها وبين النيل ، رصيف عال من الحجارة كأنه السور ، يضرب فيه النيل ، ولا يعلوه عند فيضه ومَدِّه ، فالقرية بسببه فى أمن من أَتِيّه[٩] .

---

(١) الأنصاب : جمع نصاب ، وهو المقبض ، وأظن أنه يريد النصل .

(٢) العكم : ما يجمع ويشد به من ثوب أو سواه أو ما يسميه عامة مصر : البقجة .

(٣) الغرارة : الجوالق أو ما يسميه عامة مصر : الشوال .

(٤) ر : شيئا ، وهو اسم يكون ، فحقه الرفع .

(٥) خـ : التجسيس . يشير إلى الآية ١٢ من سورة الحجرات .

(٦) ر : بستر .

(٧) الإدريسى ١٤٨ : منية السودان .

(٨) ط : القدم .

(٩) الأتى : السيل لا يدرى من أين أتى

ومنها موضع يعرف « بالبُلْيَنة » وهى قرية حسنة ، كثيرة النخل ، بالشط الغربىّ من النيل ، بينها وبين « قُوص » أربعة بُرُد .

ومنها موضع يعرف « بدَشْنَة » بالشط الشرقى من النيل ، وهى مدينة مُسوّرة ، فيها[1] جميع مرافق المدن ، وبينها وبين « قوص » بريدان .

ومنها موضع بغربى النيل ، وعلى مقربة من شطّه يعرف « بدَنْدَرة » ، وهى مدينة من مدن الصعيد ، كثيرة النخيل ، مستحسنة المنظر ، مشتهرة بطيب الرُّطَب ، بينها وبين « قوص » بريد . وذُكر لنا أن فيها هيكلا عظيما ، وهو المعروف عند أهل هذه الجهات بالبَرْبة ، حسبما ذكرناه[2] عند ذكر إخميم ، وهيكلها ويقال[3] : إن هيكل دندرة أحفل منه وأعظم .

ومنها مدينة « قِنَا » ، وهى من مدن الصعيد ، بيضاء أنيقة المنظر ، ذات مبان حفيلة ، ومن مآثرها المأثورة صَوْنُ نساء أهلها والتزامهنّ البيوت ، فلا تظهر فى زُقاق من أزقّتها امرأة البتّةَ . صحت بذلك الأخبار عنهن ، وكذلك نساء « دشنة » المذكورة قُبَيل هذا . وهذه المدينة المذكورة فى الشط الشرقىّ من النيل ، وبينها وبين « قوص » نحو البريد .

ومنها قِفْط » ، وهى مدينة بشرقىّ النيل ، وعلى مقدار ثلاثة أميال من شطه . وهى من المدن المذكورة فى الصعيد : حسنا ، ونظافة بنيان ، وإتقان وضع .

ثم كان الوصول إلى « قوص » يوم الخميس الرابع والعشرين لمحرم المؤرخ ، وهو التاسعَ عشَر من مايه ، فكان مُقامنا فى النيل ثمانية عشر يوما ، ودخلنا « قوص » فى التاسعَ عَشَر . وهذه المدينة حفيلة الأسواق ، متّسعة

---

(١) ر : فى . تحريف .

(٢) ط : ذكرنا .

(٣) ط : يقال .

المرافق ، كثيرة الخلق ، لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجّار اليمنيين والهنديّين ، وتجار أرض الحبشة ، لأنها مَخْطَر[١] للجميع ، ومَحَطٌّ للرِّحال[٢] ، ومجتمع الرفاق ، وملتقَى الحجاج : المغاربة ، والمصريين ، والإسكندريين ، ومن يتصل بهم ، ومنها يُفوِّزون لصحراء[٣] « عَيْذاب » ، وإليها انقلابهم فى صَدَرهم من حجهم[٤] وكان نزولنا فيها بفندق يُنْسَب لابن العجميّ بالمُنْية ، وهى رَبَض[٥] كبير خارج البلد ، فى حجرة على باب[٦] الفندق المذكور .

شهر صفر عرفنا الله بركته ويمنه[٧]

استهل هلاله ليلة الأربعاء ، وهو الخامس والعشرون من شهر مايه ، ونحن « بقُوص » نروم السفر إلى « عَيْذاب » يسّر[٨] الله علينا مرامنا بمنه وكرمه .

[الصحراء الشرقية] :

وفى يوم الاثنين الثالث عشر منه ، وهو السادس من يونيه ، أخرجنا جميع رحالنا[٩] من زاد وسواه إلى المَبْرَز ، وهو موضع بقبليّ البلد ، وعلى مقربة

---

(١) مخطر : مجتمع . (٢) خـ : للأرحال .
(٣) ط : بصحراء . وفوَّز : اخترق المفازة ، وهى الصحراء لا ماء بها .
(٤) ط : الحج . والانقلاب والصدر : الرجوع .
(٥) الربض : ما حول المدينة من بيوت ومساكن ، أو ما نسميه اليوم : الضاحية .
(٦) ط : خارج المدينة على باب . (٧) ط : يمنه وبركته .
(٨) هـ : تمم . (٩) ص : رحلنا .

منه ، فسيحُ الساحة ، مُحْدَق بالنخيل ، تجتمع فيه رحال الحجاج[١] والتجار ، وتُشَدّ فيه ، ومنه يَستقلّون[٢] ويَرْحَلُون ، وفيه يُوزَن ما يُحتاج إلى وزنه على الجَمَّالين . فلما كان إثر صلاة العشاء الآخرة ، رفعنا منه إلى ماء يعرف « بالحاجر » ، فبِتنا به . وأصبحنا يوم الثلاثاء بعده مقيمين به ، بسبب تفقُّد بعض الجمالين من العرب لبيوتهم ، وكانت على مقربة منهم . وفى ليلة الأربعاء الخامس عَشَرَ منه ، ونحن « بالحاجر »[٣] المذكور ، خُسِف القمر خسوفا كليا أول الليل ، وتمادى إلى هَدْءٍ[٤] منه . ثم أصبحنا يوم الأربعاء المذكور ظاعنين[٥] ، وقِلْنا[٦] بموضع يعرف « بِقِلاع الضياع » . ثم كان المبيت بموضع يعرف « بمَحَطّ اللَّقِيطة » . كل ذلك فى صحراء لا عمارة فيها .

ثم غدونا يوم الخميس ، فنزلنا على ماء يُنْسَب للعَبْدَين ، ويُذْكَر أنهما ماتا عطشا قبل أن يَرِدا[٧] ، فسُمِّى ذلك الموضع بهما ، وقبراهما فيه[٨] ، رحمهما الله . ثم تزودنا منه الماء لثلاثة أيام ، وفوّزنا سَحَر يوم الجمعة السابعَ عَشَر منه ، وسرنا فى الصحراء ، نبيت منها حيث جَنَّ الليل[٩] علينا ، والقوافل العَيْذابية والقُوصية صادرة وواردة ، والمفازة معمورة أمْنا .

فلما كان يوم الاثنين الموفى عشرين منه ، نزلنا على ماء بموضع يعرف « بدنقاش » ، وهى بئر مَعِينة[١٠] ، يَرِد فيها من الأنعام والأنام ما لا يُحصيهم إلا الله عز وجل ، ولا يُسافَر فى هذه الصحراء إلا على الإبل ، لصبرها على

---

(١) ط : الحاج .

(٢) ص : يستقبلون .

(٣) خـ هنا : بالحاجز ، بالزاى .

(٤) هدء من الليل : مدة منه .

(٥) ظاعنون : مسافرون .

(٦) قال : نام القيلولة ، وهى الظهر .

(٧) ط : يرداه .

(٨) ط : به .

(٩) ط : جن علينا الليل .

(١٠) المعينة : الجارية الماء .

الإظماء[١] وأحسنُ ما يستعمل عليها ذوو الترفيه الشّقَاديف[٢] ، وهى أشباه المَحَامل ، وأحسن أنواعها اليمانية ، لأنها كالأشاكيز[٣] السفرية مجلَّدة متسعة ، يُوصَل منها الاثنان بالحبال الوثيقة ، وتوضع على البعير ، ولها أذرُع قد حفّت بأركانها ، يكون عليها مِظَلّة ، فيكون الراكب فيها مع عَدِيله[٤] فى كِنٍّ[٥] من لَفْح الهاجِرة ، ويقعد مستريحا فى وطائه ومتكئه[٦] ، ويتناول مع عَدِيله ما يحتاج إليه من زاد وسواه ، ويطالع متى شاء المطالعة فى مصحف أو كتاب . ومن شاء — ممن يستجيز اللعب بالشطرنج — أن يلاعب عَدِيله تفكها وإجماما للنفس ، لاعَبَه . وبالجملة ، فإنها مُرِيحة من نَصَب[٧] السفر . وأكثر المسافرين يركبون الإبل على أحمالها ، فيكابدون من مباشرة سَمُوم[٨] الحر عنتا[٩] ومشقة . وفى هذا الماء وقعتْ بين بعض جَمَّالى العرب اليمنيين أصحاب طريق « عيذاب » وضامنيها[١٠] ، وهم من بَلِىّ من أفخاذ قُضَاعة[١١] ، وبين بعض الأَغْزَاز[١٢] ، بسبب التزاحمُ على الورد[١٣] ،

---

(١) ط : الظمأ .

(٢) الشقدف : مركب معروف بالحجاز ، يركبا الحجاج ، وهو أوسع من العمارى وأعظم حجما . وجمعه — كما صرح التّاج — شقادف . وذوو الترفيه : الأغنياء المرفهون .

(٣) الأشاكيز : جمع أشكز كطرطب ، وهو شيء كالأديم إلا أنه أبيض توثق به السروج .

(٤) العديل : الراكب مع الإنسان من الناحية الأخرى من الجمل ليعادله .

(٥) الكن : الستر .

(٦) ط : ومتكئا .

(٧) النصب : التعب .

(٨) ط : مشقة سموم . والسموم : الريح الحارة .

(٩) ط : غما .

(١٠) ط : وضمانها .

(١١) بلى : قبيلة من قبائل قضاعة ، من العرب .

(١٢) ص : الأعراب . والأغزاز : جمع غز . وهم جنس من الترك .

(١٣) ط : الماء . والمهاوشة : الفتنة والهيج والاضطراب .

مُهاوَشَة كادت تُفضِى إلى فتنة ،[١] ، ثم عصم الله منها . والقصد إلى « عَيْذاب » من « قُوص » على طريقين : أحدهما يُعرف بطريق العبدين ، وهى هذه التى سلكناها ، وهى أقْصَد مسافة ؛ والأخرى[٢] طريق دون « مَرْية »[٣]، وهى قرية على شاطئ النيل . ومجتمع هاتين الطريقين بإزاء[٤] ماء « دنقاش » المذكور . ولهما مجتمع آخر على ماء يعرف « بشاعث »[٥] ، أمام ماء « دنقاش » بيوم .

فلما كان عشى[٦] يوم الاثنين المذكور ، تزودنا الماء ليوم وليلة ، ورفعنا إلى ماء بموضع يعرف « بشاعث » ، فوردناه ضَحْوة يوم الأربعاء الثانى والعشرين لصفر المذكور . وهذا الماء ثِماد[٧] يُحْفَر عليه فى الأرض ، فتسمح به قريبا غير بعيد ، ثم رفعنا[٨] منه سَحَر يوم الخميس بعده ، وتزوَّدنا الماء لثلاثة أيام ، إلى ماء بموضع يعرف « بأَمتان » ، وتركنا طريق ماء بموضع يعرف بالحمثيرة[٩] يسارا إلا أنه زُعاق ، وليس بينه وبين « شاعث » غير مسافة يوم ، والطريق عليه وَعْر للإبل . فلما كان ضَحوةُ يوم الأحد السادس[١٠] والعشرين لصفر المذكور ، نزلنا « بأَمْتان » المذكور. وفى هذا اليوم المذكور، كان فراغنا من حفظ كتاب الله عز

---

(١) ط : الفتنة .
(٢) ط : والآخر .
(٣) هامش ص : مرين . وفى ر : تخمينا : قنا ، وتبعتها ط .
(٤) ط : على مقربة من ماء .
(٥) ط هنا وبعد : بشاغب .
(٦) ط : عشاء .
(٧) الثماد : الماء القليل لا مادة له .
(٨) ط : رحلنا .
(٩) ط : ماء ... ثم بياض موضع الاسم .
(١٠) وضعت ط (إلا أنه زعاق) بعد (غير بعيد) السابقة .

وجل ، والحمد لله والشكر[١] ، على ما يسّره[٢] لنا من ذلك . وهذا الماء « بأمتان »[٣] هو فى بئر مَعِينة ، قد خصّها الله بالبركة . وهو أطيب مياه الطريق وأعذبها ، فيُلْقَى[٤] فيها من دِلاء الوارد ما لا يُحْصَى عددا[٥] فتَروِى القوافل النازلة عليها على كثرتها ، وتُرْوِى من الإبل البعيدة الإظماء ، ما لو وردت نهرا من الأنهار لأنضبتْه وأنزفتْه .

ورُمْنا فى هذه الطريق إحصاء القوافل الواردة والصادرة ، فما تمكّن لنا ، ولا سيما القوافل العَيْذابية المتحملة لسِلَع « الهند » ، الواصلة إلى « اليمن » ، ثم من « اليمن » إلى « عَيذاب » . وأكثر ما شاهدنا من ذلك أحمال الفُلْفُل ، فلقد خُيِّل إلينا لكثرته أنه يوازى الترابَ قيمة . ومن أعجب ما شاهدناه من أمن هذه[٦] الصحراء ، أنك تَلقى[٧] بقارعة الطريق أحمال الفلفل والقِرْفة ، وسائرها من السلع ، مطرحة[٨] لا حارس لها ، تُتْرَك بهذه السبيل ، إما لإعياء الإبل الحاملة لها ، أو غير ذلك من الأعذار ، فتبقى بمكانها إلى أن يتسلمها[٩] صاحبها مصونةً من الآفات ، على كثرة المارّ عليها من أطوار الناس .

ثم كان رَفْعُنا من « أُمْتان » المذكور صبيحة يوم الاثنين بعد الأحد المذكور . ونزلنا على ماء بموضع يعرف « بمُجَاج » ، بمقربة من الطريق ، ظهر

---

(١) ط : له الحمد وله الشكر .
(٢) ط : يسر .
(٣) ط : بأمتان المذكور .
(٤) خـ والأصل : فيلتقى .
(٥) ط : كثرة .
(٦) ط : عجيب ما شاهدناه بهذه .
(٧) ط : تلتقى .
(٨) ط : مطروحة .
(٩) ط وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها .

يوم الاثنين المذكور . ومنه يتزود[١] الماء لأربعة أيام ، إلى ماء بموضع يعرف « بالعُشَراء » ، على مسافة يوم من « عيذاب » . ومن هذه المَرْحلة[٢] المجاجية ، يُسْلَكُ الوَضَح[٣] ، وهى رملة مَيْثاء[٤] تتصل بساحل بحر « جُدّة » ، يُمْشَى فيها إلى « عيذاب » إن شاء الله ، وهى أَفْيَح من الأرض مَدَّ البصر يمينا وشِمالا . وفى ظهر يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من الشهر المذكور ، كان رَفْعُنا من « مجاج » المذكور ، سالكين على الوضح .

شهر ربيع الأول ، عرفنا الله بركته

استهلّ هلاله ليلة الجمعة الرابع والعشرين من شهر يونيه ، ونحن بآخر الوَضَح ، على نحو ثلاث مراحل من « عَيْذاب » . وفى وقت الغَدَاة من يوم الجمعة المذكور ، كان نزولنا على الماء بموضع يعرف « بالعُشَراء » على مرحلتين من « عيذاب » . وبهذا الموضع كثير من شجر العُشَر ، وهو شبيه بشجر الأترجّ ، لكن لا شوك له[٥] . وماء هذا الموضع ليس خالص[٦] العذوبة ، وهو فى بئر غير مطويّة[٧] . وألفينا الرمل قد انهال عليها وغطى ماءها ، فرام الجمّالون حفرها ، واستخراج مائها ، فلم يقدروا على ذلك ،

(١) ط : تزودنا . (٢) خـ : الرحلة .

(٣) الوضح : وسط الطريق ومحجته . (٤) الميثاء : الرملة اللينة السهلة .

(٥) فى القاموس : العشر : شجر فيه حراق ، لم يقتدح الناس فى أجود منه : ويحشى فى المخاد ، ويخرج من زهره وشعبه سكر معروف ، وفيه مرارة .

(٦) ط : بخالص .

(٧) المطوية : المبنية بالحجارة ، منعا لانطمارها بالرمال .

وبقيت القافلة لا ماء عندها . فأسرينا تلك الليلة ، وهى ليلة السبت الثانى من الشهر المذكور . فنزلنا ضحوةً على ماء « الخُبَيب » ، وهو بموضع بِمرْأى العين من « عيذاب » (١وعلى نحو ميلين منها ، وماؤه فى بئر معينة١) يستقى منها القوافل وأهل البلد ، ويعم الجميع . وهى بئر كبيرة كأنها الجُبّ(٢) الكبير .

[عَيْذاب] :

فلما كان عشية(٣) يوم السبت المذكور(٤) دخلنا « عيذاب » ، وهى مدينة على ساحل « بحر جُدّة » غير مُسوَّرة ، أكثر بيوتها الأَخْصاص ، وفيها الآن بناء مستحدَث بالجصّ . وهى من أحفل مَرَاسِى الدنيا ، بسبب أن مراكب الهند واليمن تحطِ فيها(٥) ، وتقلع منها ، زائدا إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة . وهى فى صحراء لا نبات فيها ، ولا يؤكل فيها شىء إلا مَجْلوب ، لكن أهلها بسبب الحُجَّاج والتجار(٦) تحت مَرْفَق كبير(٧) ولا سيما مع الحاجّ ، لأن لهم على كل حِمْلِ طعام يحملونه(٨) ، ضريبةً معلومة خفيفة المؤنة ، بالإضافة إلى الوظائف المكوسية التى كانت قبل اليوم ، التى ذكرنا رفعَ صلاح الدين لها . ولهم أيضا من المرافق مع الحجاج(٩) ، إكراء الجِلاب منهم ، وهى المراكب . فيجتمع لهم فى ذلك(١٠) مال كثير ، فى

(١ — ١) ليست فى ط .

(٢) الجب : البئر الكثيرة الماء البعيدة القعر أو التى وجدت ولم يحفرها الناس .

(٣) ط : عشى .

(٤) المذكور : ليست فى ط .

(٥) ص : فيه .

(٦) والتجار : ليست فى ط .

(٧) ط : كثير .

(٨) م : يجلبونه .

(٩) ط : من الحاج .

(١٠) ط والخطط : من ذلك .

حملهم إلى « جدة » ، وردهم منها[١] وقتَ انفضاضهم من أداء الفريضة . وما من أهلها ذوى اليسار إلا مَنْ له الجَلْبة والجلبتان ، فهى تعود عليهم برزق واسع . فسبحان قاسم الأرزاق على اختلاف أسبابها ، لا إلٰه سواه .

وكان نزولنا فيها بدار تُنْسَب لمويخ[٢] أحد قُوَّادها الحبشيين ، الذين تأثّلوا فيها[٣] الديار والرِّبَاع والجلب[٤] . وفى بحر عيذاب مَغَاص على اللؤلؤ ، فى جزائر على مقربة منها . وأوان الغوص عليه[٥] فى هذا التاريخ المقيد فيه هذه الأحرف[٦] وهو شهر يونيه العجمىّ ، والشهر الذى يتلوه ، ويُستخرج منه جوهر نفيس ، له قيمة سنية ، يذهب الغائصون عليه إلى تلك الجزائر فى الزوّاريق ، ويقيمون فيها الأيام ، فيعودون بما قسم الله لكل واحد منهم ، بحسب حظه من الرزق . والمغَاصُ منها قريب القعر ليس ببعيد . ويستخرجونه فى أصداف لها أرواح[٧] ، كأنها نوع من الحيتان ، أشبه شىء بالسلحفاة . فإذا شُقّت ظهرت الشفتان من داخلها ، كأنهما مَحَارتا فضة ، ثم يشقونها[٨] ، فيجدون فيها الحبّة من الجوهر قد غَطّى عليها لحمُ الصدف . فيجتمع لهم من ذلك بحسب الحظوظ والأرزاق . فسبحان مُقدِّرها ، لا إلٰه سواه . لكنهم ببلدة لا رَطْبَ فيها ولا يابس ، قد أَلِفوا بها عَيْشَ البهائم ، فسبحان محبّب الأوطان لأهلها[٩] ، على أنهم أقرب إلى الوحْش منهم إلى الإنس .

---

(١) منها : ليست فى ط .

(٢) ط : لموخ .

(٣) تأثل : اكتسب وامتلك . ط : بها .

(٤) ط : والجلاب . والرباع : جمع ربع ، وهو الدار .

(٥) ص : وآن الغوص عليه .

(٦) ط : المقيدة . خـ : للأحرف .

(٧) ط : أزواج .

(٨) ط : يشقون عليها .

(٩) ط : إلى أهلها .

والركوب من « جُدَّة » إليها آفة للحجاج عظيمة ، إلا الأقل منهم ، ممن يسلمه الله عزّ وجل ، وذلك أن الرياح تُلقِيهم على الأكثر فى مراسٍ بصحار تبعد[١] مما يلى الجنوب ، فينزل إليهم البُجَاة ، وهم نوع من السودان ساكنون بالجبال ، فيُكْرُون منهم الجمال ، ويسلكون بهم غير طريق الماء . فربما ذهب أكثرهم عطشا ، وحَصَلوا على ما يتخلّفه من نفقة أو سواها . وربما كان من الحجاج من يتعسّف[٢] تلك المَجْهلة[٣] على قدميه ، فيضلّ ، ويهلك عطشا . والذى يَسْلَم منهم يصل إلى « عيذاب » كأنه مُنْشَر من كفن ، شاهدنا منهم مدةَ مُقامِنا بها[٤] أقواما قد وصلوا على هذه الصفة ، فى مناظرهم المستحيلة[٥] ، وهيئاتهم المتغيّرة ، آيةً للمتوسِّمين[٦] . وأكثر هلاك الحجاج بهذه المراسى . ومنهم من تساعده الريح إلى أن يحطَّ بمُرْسَى « عيذاب » ، وهو الأقل .

والجُلُب[٧] التى يُصرِّفونها فى هذا البحر الفرعونى ، ملفّقة[٨] الإنشاء ، لا يُستعمل فيها مسمار البتّةَ ، إنما هى مخيَّطة بأمراس[٩] من القِنْبَار ، وهو قشر جوز النارَجيل[١٠] يدرسونه[١١] إلى أن يتخيّط ، ويفتلون منه أمراسا يخيطون بها المراكب ، ويُخَلِّلونها بدُسُر[١٢] من عيدان النخل ، فإذا فرغوا من إنشاء الجلبة على هذه الصفة ، سَقَوْها بالسمن ، أو بدهن الخِرْوَع ، أو بدهن

---

(١) ط : تبعد منها .

(٢) تعسف الصحراء : خبط فيها على غير هداية

(٣) المجهلة : الأرض لا يهتدى فيها .

(٤) بها : ليست فى ط .

(٥) المستحيلة : المتحولة المتغيرة .

(٦) المتوسمون : المتفرسون .

(٧) ط : والجلاب .

(٨) الملفقة : التى ضمت قطعة منها إلى أخرى

(٩) الأمراس : الحبال .

(١٠) النارجيل : ما نسميه اليوم : جوز الهند

(١١) الدرس : الدوس .

(١٢) الدسر هنا : ما نسميه اليوم : الخوابير .

القِرْش ، وهو أحسنها ، وهذا القِرْش حوت عظيم فى البحر ، يبتلع الغَرْقى فيه . ومَقْصِدهم فى دهان الجلب[1] ليلين عودها ويرطب ، لكثرة الشِّعَاب المعترضة فى هذا البحر . ولذلك لا يصرفون فيه المركب المسماريّ . وعود هذه الجلب مجلوب من الهند واليمن ، وكذلك القنبار المذكور . ومن عجيب أمر هذه الجلب[2] أن شُرُعها حصر[3] منسوجة من خُوص شجر المُقْل[4] . فمجموعها متناسب فى اختلال البنية وَوهْنِها ، فسبحان مُسخِّرَها على تلك الحال ، والمُسلِّم فيها لا إلٰه سواه . ولأهل « عيذاب » فى الحجّاج حكم[5] الطواغيت . وذلك أنهم يَشْحِنون بهم الجلب[6] ، حتى يجلس بعضهم على بعض ، وتعود بهم كأنها أقفاص الدَّجاج المملوءة ، يحمل أهلَها على ذلك الحرصُ والرغبة فى الكِرَاء حتى يَسْتوفى صاحبُ الجلبة منهم ثمنها[7] فى طريق واحد[8] ، ولا يبالى بما يصنع البحرُ بها بعد ذلك ، ويقولون : « علينا بالألواح ، وعلى الحُجّاج بالأرواحِ » . هذا[9] مَثَل متعارَف بينهم . فأَحَقُّ بلاد الله بحِسْبَةٍ[10] يكون السيفُ دِرَّتَها[11] ، هذه البلدةُ ، والأَوْلى لمن يمكنه ذلك أن لا يراها ، وأن يكون طريقه على الشام إلى العراق ، ويصل مع أمير الحاجّ

---

(١) ط : الجلبة . (٢) ط : الجلاب .

(٣) حصر : ليست فى ط . (٤) المقل : شجر الدوم .

(٥) ط : أحكام . والطواغيب : جمع طاغوت ، وهو الشيطان .

(٦) ط : الجلاب . وزادت خـ بعدها : وهى المراكب ، ولعلها تهميشة أقحمت فى الأصل . (٧) هـ : حقها .

(٨) ط : واحدة . (٩) ط : وهذا .

(١٠) الحسبة : الإشراف على الأسواق والآداب العامة ، وكان يقوم بها المحتسب ، وهو موظف له سلطة قضائية وتنفيذية .

(١١) الدرة : السوط ، وكان المحتسب يحملها ليؤدب بها الناس .

البغدادى . وإن لم يمكنه ذلك أولا ، فيمكنه آخرا عند انفضاض الحجاج[1] ، يتوجّه مع أمير الحاج[2] المذكور إلى « بغداد » ، ومنها إلى * عَكة » ، فإن شاء دخل[3] منها إلى « الإسكندرية » ، وإن شاء إلى « صقلية » أو سواهما . ويمكن أن يجد مركبا من الروم يُقْلِع إلى « سَبْتة » أو سواها من بلاد المسلمين . وإن طال طريقه بهذا التحليق[4] ، فيهون لما يلقى « بعيذاب » ونحوها .

وأهلها الساكنون بها من قَبِيل السُّودان[5] ، يعرفون بالبُجَاة ، ولهم سلطان من أنفسهم ، يسكن معهم فى الجبال المتصلة بها . وربما وصل فى بعض الأحيان ، واجتمع بالوالى الذى فيها من الغُزّ ، إظهارا للطاعة . ومُسْتَنابه[6] مع الوالى فى البلد ، والفوائد كلها له ، إلا البعض منها . وهذه الفرقة من السودان المذكورين فرقة أضلُّ من الأنعام سبيلا وأقلّ عقولا ، لا دين لهم سوى كلمة التوحيد ، التى ينطقون بها إظهارا للإسلام ، ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة وسِيَرهم ما لا يُرْتَضى[7] ولا يَحِل ، ورجالهم ونساؤهم يتصرفون عُراة ، إلا خِرَقا لا يستترون[8] بها عوراتهم ، وأكثرهم لا يَشْتَرون[9] . وبالجملة فهم أمة لا خَلاقَ[10] لهم ، ولا جُناح[11] على لاعِنِهم .

[البحر الأحمر] :

وفى يوم الاثنين الخامس والعشرين[12] لربيع الأول المذكورْ ، وهو الثامن

---

(١) ط : الحاج . (٢) هـ : الحجاج .

(٣) ر : رجل . (٤) التحليق : التطواف .

(٥) زادت ر بعد السودان : الذين ، ولا ضرورة لها .

(٦) مستنابه : لعل معناها مقر إقامته الرسمى . (٧) ط : يرضى .

(٨) ط : يسترون . (٩) يستترون .

(١٠) الخلاق : الحظ والنصيب من الخير . (١١) الجناح : الإثم .

(١٢) ص : وعشرين .

عشر من يوليه ، ركبنا الجلبة للعبور إلى « جُدة » . فأقمنا يومَنا ذلك بالمُرْسَى لركود الريح ، ومغيب النَّواتية . فلما كان صبيحة يوم الثلاثاء بعده[1] ، أقلعنا على بركة الله عز وجل ، وحسن عونه المأمول . فكانت مدة المقام « بعيذاب » حاشا يوم الاثنين المذكور ، ثلاثة وعشرين يوما ، محتسَبة عند الله عز وجل ، لشظَف العيش بها[1] ، وسوء الحال ، واختلال الصحّة ، لعدم الأغذية الموافقة . وحسبُك من بلد كلُّ شيءٍ فيه مجلوب[2] حتى الماء ، والعطشُ أشهى إلى النفس منه . فأقمنا بين هواء يُذيب الأجسام ، وماءٍ يَشْغَل المعدة عن اشتهاء الطعام ، فما ظَلَمَ مَنْ غَنّى عن هذه البلدة بقوله :

مـاءٌ زُعَـاقٌ وَجَـوٌّ كُلُّـهُ لَهَـبُ

فالحلول بها من أعظم المكاره التى حُفَّ بها السبيل إلى البيت العتيق ، زاده الله تشريفا وتكريما ، وأعظَمَ أجورَ الحجاج على ما يكابدونه ، ولا سيما فى تلك البلدة الملعونة . ومما لَهِج[3] الناس بذكره قبائحُها ، حتى إنهم[4] يزعمون أن سليمان بن داود على نبينا وعليه السلام كان اتخذها سجنا للعفارتة[5] ، أراح الله الحجاج منها بعمارة السبيل القاصدة[6] إلى بيته الحرام ، وهى السبيل التى من مصر على « عَقَبَةِ أَيْلَةَ » ، إلى المدينة المقدسة ، وهى مسافة قريبة يكون البحر منها يمينا ، « وجبل الطُّور » المعظَّم يسارا ، لكن للإفرنج بمقربة منها حصن مندوب[7] ، يمنع الناس من سلوكه ، والله

---

(١) ليست فى ط .
(٢) ص : مجلوب فيه .
(٣) لهج به : ثابر عليه وواظب .
(٤) إنهم : ليست فى ط .
(٥) العفارتة : العفاريت . وفى ص وهـ : للفراعنة .
(٦) القاصدة : المستقيمة التى يقصدها المسافرون .
(٧) المندوب : المطلوب . ولعله يريد أنه حصن ينتدب له شجعان المحاربين للإغارة عليه .

ينصر دينه ، ويعز كلمته بمنه .

فتمادى سيرنا[1] فى البحر ، يوم الثلاثاء السادس والعشرين لربيع الأول المذكور ، ويوم الأربعاء بعده بريح فاترة[2] المَهَبّ . فلما كان إثر[3] العشاء الآخرة من ليلة الخميس — ونحن قد استبشرنا برؤية الطير المحلِّقة من برِّ الحجاز — لَمَع برق من جهة البر المذكور ، وهى جهة الشرق ، ثم نشأ نَوْءٌ أظلم له الأفق ، إلى أن كسا الآفاق كلها ، وهبت ريح شديدة ، صرفت المركب عن طريقه ، راجعا وراءه ، وتمادى عُصوف الريح[4] ، واشتدت حُلْكة الظلمة وعمّيت[5] الآفاق ، فلم نَدْرِ الجهة المقصودة منها ، إلى أن ظهر بعض النجوم[6] فاستُدِل بها بعض الاستدلال ، وحُطّ القِلْع إلى أسفل الدَّقَل ، وهو الصَّارِى . وأقمنا ليلتَنا تلك فى هول يؤذِن باليأس ، وأرانا بحرُ فرعون بعض أهواله الموصوفة ، إلى أن أتى الله بالفرج مقترِنا مع الصباح .

فسلس [قياد] الريح[7] ، وأقشع الغيمُ ، وأصْحَت السماءُ ، ولاح لنا برّ الحجاز على بُعْد ، لانبصر منه إلا بعض جباله ، وهى شرق من « جُدّة » زعم رُبّان المركب وهو الرَّائس ، أن بين تلك الجبال التى لاحت لنا وبين « جُدّة »[8] يومين ، والله يسهّل لنا كل صعب ، وييسّر[9] كل عسير ، بعزته وكرمه .

فجرينا يومَنا ذلك — وهو يوم الخميس المذكور — بريح رُخاء طيبة ، ثم أرسينا عشيةً فى جزيرة صغيرة فى البحر ، على مقربة من البر المذكور ، بعد أن

---

(١) هـ : جرينا .
(٢) خـ : فاتر .
(٣) ليست فى ط .
(٤) ط : الرياح .
(٥) ط : وعمت .
(٦) ص : بعض من النجوم .
(٧) ط : فهدأ قياد الريح .
(٨) ط : وبرجدة .
(٩) ط : وييسر لنا .

لقينا شِعابا كثيرة يكثر فيها الماء ويَضْحَد عليها[1] فتخللنا أثناءها على حذر وتحفّظ . وكان الرّبان بصيرا بصنعته حاذقا فيها ، فخلصنا الله منها ، حتى أرسينا بالجزيرة المذكورة ، ونزلنا إليها ، وبِتْنا بها ليلة الجمعة التاسعة[2] والعشرين لربيع الأول المذكور . وأصبح الهواء راكدا ، والريح غير مُتنفسة إلا من الجهة التى لا تُوافقنا ، فأقمنا بها يوم الجمعة المذكور . فلما كان يوم السبت الموفّى ثلاثين ، تنفّست الريح بعض تنفس ، فأقلعنا بذلك النَّفَس ، نسير سيرا رُوَيدا . وسكن البحر حتى خُيّل لناظره أنه صحن زجاج أزرق . فأقمنا على تلك الحال نرجو لطيف صنع الله عز وجل . وهذه الجزيرة تعرف « بعائِقة السُّفُن »[3] ، فعصمنا الله عز وجل من فأل اسمها المذموم ، وله الحمد والشكر على ذلك .

شهر ربيع الآخر ، عرفنا الله بركته

استهلّ هلاله ليلة السبت ونحن بالجزيرة المذكورة ، ولم يظهر تلك الليلة للأبصار بسبب النَّوْء ، لكن ظهر فى الليلة الثانية كبيرا مرتفعا ، فتحقّقنا إهلاله ليلة السبت المذكور ، وهو الثالث والعشرون من شهر يوليه[4] . وفى عشيّ يوم الأحد ثانيه ، أرسينا بمرسى يعرف « بأبحر »[5] ، وهو على بعض يوم من « جدة » وهو من أعجب المراسى وضعا . وذلك أن خليجا من البحر

(١) ص : ويضحك . ط : علينا . (٢) ط : التاسع .

(٣) ط : بجزيرة عائقة . وفى هامش الأصل : السفر .

(٤) ص : يونيه . (٥) لم أعثر على هذا الاسم . وربما كان محرفا .

يدخل إلى البر ، والبر مُطِيف به من كلتا حافتيه[١] ، فترسَى الجلب[٢] منه فى قرارة مُكَنَّة[٣] هادئة . فلما كان ضحوة[٤] يوم الاثنين بعده ، أقلعنا منه على بركة الله تعالى بريح فاترة ، والله المُيسِّر لا رب سواه . فلما جن الليل أرسينا على مقربة من « جُدّة » وهى بمرْأى العين منا . وحالت الريح صبيحة يوم الثلاثاء بعده ، بيننا وبين دخول مرساها ، ودخول هذه المراسى صعب المرام ، بسبب كثرة الشِّعَاب والتفافها . وأبصرنا من صنعة هؤلاء الرؤساء والنَّوَاتِيّة فى التصرف بالجلبةِ أثناءها أمرا عجيبا[٥] ، يُدْخِلونها على مضايق ، ويُصرِّفونها خلالها تصرف[٦] الفارس للجواد الرَّطْب العِنان[٧] ، السَّلِس القياد ، ويأتون فى ذلك بعجب يضيق الوصف عنه .

[جُـدَّة] :

وفى ظهر يوم الثلاثاء الرابع من شهر ربيع الآخر المذكور ، وهو السادس والعشرون من شهر يوليه[٨] ، كان نزولنا « بجُدّة » حامدين لله عز وجل وشاكرين له[٩] ، على السلامة والنجاة من هول ما عاينّاه فى تلك الثمانية الأيام ، مدةَ[١٠] مُقامنا على البحر ، وكانت أهوالا شتى ، عصمَنا الله منها بفضله وكرمه . فمنها ما كان يطرأ من البحر ، واختلاف رياحه ، وكثرة شِعَابه المعترضة فيه . ومنها ما كان يطرأ من ضَعْف عُدّة المركب ، واختلالها ،

---

(١) والبر : ليست فى الأصل . خـ : كلتا جهاته .

(٢) ط : الجلاب .

(٣) مكنة : مستورة .

(٤) ط : سحر .

(٥) ط : ضخما .

(٦) ط : تصريف .

(٧) الرطب العنان : الطيع السلس .

(٨) ص : يونيه .

(٩) ليست فى ط .

(١٠) ط : طول .

وانقصَامها(١) المرة بعد المرة ، عند رفع الشراع أو حَطِّه ، أو جذب مِرسْى من مراسيه . وربما مسحت(٢) الجلبة بأسفلها على شِعب من تلك الشعاب أثناء تخلّلها ، فنسمع لها هَدًّا يُؤذِن باليأس ، فكنا فيها نموت مرارا ونحيا مرارا ، فالحمد(٣) لله على ما مَنّ به من العصمة ، وتكفّل به من الوقاية والكفاية ، حمدا يبلغ رضاه ، ويستهدى المزيد من نعماه ، بعزته وقدرته ، لا إلٰـه سواه .

وكان نزولنا فيها بدار القائد علىّ ، وهو صاحب « جُدة » من قِبَل أمير مكة المذكور(٤) ، فى صَرْح(٥) من تلك الصُّرُوح الخُوصية التى يبنونها فى أعالى ديارهم ، ويخرجون منها إلى سطوح يبيتون فيها . وعند احتلالنا(٦) « جُدة » المذكورة عاهدنا الله عز وجل ، سرورا بما أنعم الله به من السلامة ، ألَّا يكون انصرافنا على هذا البحر الملعون إلا إن طرأت ضرورة تحول بيننا وبين سواه من الطرق ، والله ولىّ الخِيرة فى جميع ما يَقْضِيه ويُسنِّيه(٧) بعزته .

و« جُدّة » هذه قرية على ساحل البحر المذكور ، أكثر بيوتها أَخْصَاص ، وبها(٨) فنادق مبنية بالحجارة والطين ، وفى أعلاها بيوت من الأخصاص كالغُرَف ، ولها سطوح يُستراح فيها بالليل من أَذَى الحرّ . وبهذه القرية آثار قديمة ، تدل على أنها كانت مدينة كبيرة(٩) ، وأثر سورها المُحدِق بها باق إلى

---

(١) ط : واقتصامها . والكلمتان بمعنى انكسارها .

(٢) ط : سنحت .

(٣) ط : والحمد .

(٤) لم يذكر الأمير بعد .

(٥) الصرح : القصر .

(٦) احتلالنا : يريد حلولنا ونزولنا .

(٧) يسنيه : يتيحه .

(٨) ط : وفيها .

(٩) ط : قديمة .

اليوم[١] . وبها موضع فيه قبّة مشيدة عتيقة ، يُذْكَر أنه كان منزل حَوّاء أمّ البشر صلى الله عليها عند توجّهها إلى مكة ، فبُنى ذلك المبنى عليه ، تشهيرا لبركته وفضله ، والله أعلم بذلك . وفيها مسجد مبارك منسوب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ومسجد آخر له ساريتان من خشب الآبَنُوس ، يُنسب أيضا إليه رضى الله عنه . ومنهم من ينسبه إلى هارون الرشيد رحمة الله عليه . وأكثر سُكّان هذه البلدة مع ما يليها من الصحراء والجبال ، أشْراف عَلَوِيُّون : حَسَنِيُّون وحُسَيْنِيون وجَعْفريّون ، رضى الله عن سلفهم الكريم . وهم من شظف العيش بحالٍ يتصدّع له الجماد إشفاقا ، ويستخدِمون أنفسهم فى كلّ مهنة من المِهَن : من إكراء جمال[٢] إن كانت لهم ، أو مبيع لبن أو ماء ، إلى غير ذلك من تمر يلتقطونه ، أو حَطَب يَحْتَطِبونه . وربما تناول ذلك نساؤهم الشريفات بأنفسهن ، فسبحان المُقَدِّر لما يشاء . ولا شكّ أنهم أهل بيت ارتضى الله لهم الآخرة ، ولم يرتضِ لهم الدنيا . جعلنا الله ممن يَدِين بحُبّ أهل البيت ، الذين أذهب عنهم الرِّجْسَ وطَهَّرهم تطهيرا[٣] .

وبخارج هذه البلدة مصانع كثيرة[٤] ، تدل على قِدَم اختطاطها ، ويُذْكر أنها كانت من مدن الفرس . وبها أجباب[٥] منقورة فى الحجر الصلد ، يتّصل بعضها ببعض ، تفوت الإحصاء كثرة . وهى داخل البلد وخارجه ، حتى إنهم يزعمون أن التى خارج البلد منها نحو ثلاث مئة والستين جُبا[٦] . ومثل

(١) هـ : إلى الآن .   (٢) هـ : الجمال .

(٣) يشير إلى الآية ٣٣ من سورة الأحزاب .

(٤) كذا مصححا فى هامش ص . وفيه و فى ط : قديمة .

(٥) ط : جباب . وهى الآبار الكثيرة الماء البعيدة القعر .

(٦) ط : البلد ثلاث مئة وستون جبا .

ذلك داخل البلد . وعاينّا نحن منها[1] جملة كثيرة لا يأخذها الإحصاء . وعجائب الموضوعات كثيرة ، فسبحان المُحِيط علما بها .

وأكثر[2] هذه الجهات الحجازية وسواها فِرَق وشِيَع لا دين لهم ، قد تفرّقوا على مذاهب شتى . وهم يعتقدون فى الحاجّ ما لا يُعتقَد فى أهل الذمَّة ، قد صَيَّروهم من أعظم غَلَّاتهم التى يستغلّونها : ينتهبونهم انتهابا ، ويُسبِّبون لاستجلاب ما بأيديهم أسبابا[3] . فالحاجّ معهم لا يزال فى غَرَامة ومئونة ، إلى أن ييسر الله رجوعه إلى وطنه . ولولا ما تلافى الله به المسلمين بهذه[4] الجهات بصلاح الدين ، لكانوا من الظلم فى أمر لا يُنادَى وليدُه ، ولا يليِّن شديدُه[5] . فإنه رفع ضرائب المكوس عن الحاج ، وجعل عِوَضَ ذلك مالا وطعاما ، يأمر بتوصيلهما إلى مُكْثِر[6] أمير مكة ، فمتى أبطأتْ عنهم تلك الوظيفةُ المترتبة لهم ، عاد هذا الأمير إلى ترويع الحاجّ ، وإظهار تَثْقِيفهم[7] ، بسبب المكوس . واتفق لنا من ذلك أن وصلنا « جدة » ، فأُمْسِكنا بها خلالَ ما خُوطِب مكثر الأمير المذكور . فورد أمره أن يَضْمَن الحاجُّ بعضهم بعضا ، ويدخلوا إلى حرم الله ، فإن ورد المال والطعام اللذان برسمه من قِبَل صلاح الدين ، وإلا فهو لا يترك ماله عند الحجاج[8] . هذا لفظه ، كأنّ

---

(١) ليست فى ط .

(٢) زاد ط بعدها أهل . ولا ضرورة لها .

(٣) ط : استجلابا .

(٤) ط : فى هذه .

(٥) أى هو أمر جليل شديد لا ينادى فيه الوليد ، ولكن ينادى فيه الكبار ، أو أنه أمر اشتغلوا به ، حتى لو مد الوليد يده إلى أعز الأشياء لا ينادى عليه زجرا .

(٦) هو مكثر بن عيسى بن فليتة : أحد أمراء بنى فليتة الذين حكموا مكة منذ ٣٥٦ إلى ٥٩٣ . وتولى إمرة مكة مرتين ، أولاهما ٥٧١ — ٥٧٢ ، وثانيتهما ٥٨٤ — ٥٩٣ هـ .

(٧) التثقيف : التقويم والتهذيب .

(٨) ط : قبل الحاج .

حَرَم الله ميراثٌ بيده ، محلل له اكتراؤه من الحاجّ . فسبحان مُغيِّر السُّنَن ومُبَدِّلها . والذى جعل له صلاح الدين عوضا[١] من مكس الحاجّ ألفا دينار اثنان ، وألفا إردب من القمح ، وهى نحو الثمان المئة القفيز[٢] ، بالكَيْل الإشبيليّ عندنا ، حاشا إقطاعات أقطعها بصعيد مصر وبجهة اليمن لهم ، بهذا الرسم المذكور . ولولا مغيب هذا السلطان العادل صلاح الدين المذكور[٣] بجهة الشام ، فى حروب له هناك مع الإفرنج ، لَمَا صدر عن هذا الأمير المذكور هذا الذى[٤] صدر فى جهة الحاجّ . فأحقُّ بلاد الله بأن يُطهِّرها السيف ، ويغسل أَرْجاسَها[٥] وأدناسها ، بالدماء المسفوكة فى سبيل الله ، هذه البلادُ الحجازية ، لِمَا هم عليه من حلّ عُرَا الإسلام ، واستحلال أموال الحاجّ ودمائهم .

[المُوَحِّدون] :

فمن يعتقد من فقهاء أهل الأندلس إسقاط هذه الفريضة عنهم ، فاعتقاده صحيح لهذا السبب ، وبما يُصْنَع بالحجاج[٦] مما لا يرتضيه الله عز وجل . فراكب هذه[٧] السبيل راكب خَطَر ، ومُعتسِف غَرَر[٨] . والله قد أوجد الرُّخصَة فيه على غير هذه الحال ، فكيف وبيتُ الله الآن بأيدى قوم[٩] قد اتخذوه معيشةَ حَرام ، وجعلوه سببا إلى[١٠] استلاب الأموال واستحقاقها

---

(١) ط : أى بدلا من

(٢) ط : وهو نحو الثمانمئة قفيز .

(٣) ليست فى ط .

(٤) المذكور ما صدر .

(٥) الأرجاس : جمع رِجْس ، وهو القذر .

(٦) ط : بالحاج .

(٧) ط : هذا .

(٨) الغَرَر : الهلاك . ومعتسفه : راكبه على غير هدى .

(٩) ط : أقوام .

(١٠) يبدأ من هنا سقط لا ينتهى إلا فى ص ٨٩

من غير حِلّ ، ومصادرة الحجاج عليها ، وضَرْب الذلة والمَسْكنة الدَّنِيَّة عليهم ، تلافاها الله عن قريب ، بتطهير يرفع هذه البِدَع المُجْحِفة عن المسلمين ، بسيوف المُوحِّدين أنصار الدين ، وحزب الله أُولِى الحق والصدق ، والذَّابِّين عن حَرَم الله عز وجل ، والغائرين[1] على مَحَارِمه ، والجادّين فى إعلاء كلمته ، وإظهار دعوته ، ونصر ملته ، إنه على ما يشاء قدير ، وهو نِعْمَ المولى ، ونعم النصير .

ولْيتحقَّق المتحقِّق ، ويعتقد الصحيح الاعتقاد ، أنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب ، لأنهم على جَادّة واضحة لا بُنَيّات[2] لها . وما سوى ذلك مما بهذه الجهات المشرقية ، فأهواء وبدع ، وفرق ضالّة وشيَع ، إلا من عصم الله عز وجل من أهلها . كما أنه لا عدل ولا حق ولا دين على وجهه إلا عند الموحدين ، أعزهم الله ، فهم آخر أئمة العدل فى الزمان . وكل من سواهم من الملوك فى هذا الأوان[3] فعلى غير الطريقة ، يَعْشِرون[4] تجار المسلمين كأنهم أهل ذمة لديهم ، ويستجلبون أموالهم بكل حيلة وسبب ، ويركبون طرائق من الظلم لم يُسْمَع بمثلها ، اللهم إلا هذا السلطان العادل صلاح الدين ، الذى قد ذكرنا سيرته ومناقبه ، لو كان له أعوان على الحق ..... مما أريد الله عز وجل يتلافى المسلمين بجميل نظره ، ولطيف صنعه .

ومن عجيب ما شاهدناه فى أمر الدعوة المُؤْمنية المُوحِّدية ، وانتشار

---

(١) الغائرون : ذوو الغيرة .

(٢) الجادة : معظم الطريق ووسطه . وبنياتها : الطرق الصغيرة المتفرعة منها ، وأراد أنهم على الحق المستقيم لا يعدلون عنه . (٣) هـ : الزمان .

(٤) يعشرون : يأخذون واحدا من كل عشرة .

كلمتها بهذه البلاد ، واستشعار أهلها لمَلَكتها : أن أكثر أهلها بل الكل منهم يرمزون بذلك رمزا خفيًّا ، حتى يُؤدِّيَ ذلك بهم إلى التصريح ، وينسبون ذلك لآثار حِدْثانية وقعت بأيدى بعضهم ، أنذرت بأشياء من الكوائن ، فعاينوها صحيحة فمن بعض الآثار المُؤذِنة بذلك عندهم ، أن بين جامع ابن طولون والقاهرة بُرجَيْن مقتربين عتيقَى البناء ، على أحدهما تمثال ناظر إلى جهة المغرب ، وكان على الآخر تمثال ناظر إلى المشرق . فكانوا يرون أن أحدهما إذا سقط ، أنذر بغلبة أهل الجهة التى كان ناظرا إليها على ديار مصر وسواها . وكان من الاتفاق العجيب أن وقع التمثال الناظر إلى المشرق ، فتَلا وقوعَه استيلاءُ الغُزّ[1] على الدولة العُبَيدية ، وتملُّكهم ديار مصر وسائر البلاد . وهم الآن مُتوقِّعون سقوط التمثال الغربى ، وحِدثانَ ما يؤمِّلونه من مَلَكة أهله لهم إن شاء الله . ولم يبقَ إلا الكائنة السعيدة من تملُّك الموحّدين لهذه البلاد ، فهم يستطلعون بها صُبحا جليا ، ويقطعون بصحتها ، ويرتقبونها ارتقاب الساعة التى لا يمترون فى إنجاز وعدها . شاهدنا من ذلك « بالإسكندرية ومصر » وسِواهما مشافَهة وسَماعا أمرا غريبا ، يدل على أن ذلك الأمر العزيز ، أمرُ الله الحق ودعوته الصدق . ونُمِى إلينا أن بعض فقهاء هذه البلاد المذكورة وزعمائها قد حَبَّر[2] خُطَبا أعدّها للقيام بها بين يدى سيدنا أمير المؤمنين ، أعلى الله أمره ، وهو يرتقب ذلك اليوم ارتقابَ يوم السعادة ، وينتظره انتظار الفرج بالصبر الذى هو عبادة . والله عز وجل يَبْسُطها من كلمة ، ويُعْلِيها من دعوة ، إنه على ما يشاء قدير .

---

(١) الغز : جنس من الترك ، ويريد صلاح الدين وجيشه .

(٢) حبر : كتب .

وفى عَشِيّ يوم الثلاثاء الحادى عشر من الشهر[1] المذكور ، وهو الثانى من شهر أُغُشْت ، كان انفصالنا من « جدة » بعد أن ضمن الحجاج بعضهم بعضا ، وثُبِّتت أسماؤهم فى زمام ، عند قائد « جدة » علىّ بن مُوفَّق ، حسبما نفذ إليه[2] ذلك من سلطانه صاحب مكة ، مُكْثِر بن عيسى المذكور . وهذا الرجل مكثر من ذرية الحسن بن على ، رضوان الله عليهما ، لكنه ممن يعمل غير صالح ، فليس من أهل سلفه الكريم رضى الله عنهم . وأسرينا تلك الليلة إلى أن وصلنا « القَرِين » مع طلوع الشمس . وهذا الموضع هو منزل الحاجّ ، ومحطّ رحالهم ، ومنه يُحْرِمون ، وبه يُرِيحون اليوم الذى يصبحونه . فإذا كان فى عشيةٍ رَفَعُوا وأَسْرَوا ليلتَهم ، وصَبَّحوا الحرم الشريف ، زاده الله تشريفا وتعظيما . والصادرون من الحج ينزلون به أيضا ، ويُسْرُون منه إلى « جدة » . وبهذا الموضع المذكور بئر مَعِينة عذبة ، والحاج بسببها لا يحتاجون إلى تزوّد الماء غير ليلة إسرائهم إليه . فأقمنا بياضَ يوم الأربعاء المذكور مُرِيحين « بالقَرين » . فلما حان العشىّ رُحْنا منه مُحْرِمين بعُمْرة ، فأسرينا ليلتَنا تلك ، فكان وصولنا مع الفجر إلى قَرِيب الحرم . فنزلنا مُرتقِبين لانتشار الضوء .

[مكة المكرمة] :

ودخلنا مكة حرسها[3] الله فى الساعة الأولى من يوم الخميس الثالث عشر لربيع المذكور ، وهو الرابع من شهر أغشت ، على باب العُمْرة . وكان إسراؤنا تلك الليلة المذكورة ، والبدر قد ألقى على البسيطة شعاعه ، والليل

(١) هـ . ربيع الآخر ، فى موضع : الشهر . (٢) زادت ص هنا : أمر ، ولا ضرورة لها .

(٣) هـ : قدسها .

قد كشف عنا قِناعه ، والأصوات تَصُكّ الآذان ، بالتلبية من كل مكان ، والألسنة تَضِجُّ بالدعاء ، وتبتهل إلى الله بالثناء[١] فتارة تشتد بالتلبية ، وآونة تتضرع بالأدعية . فيا لها ليلة كانت فى الحسن بيضة العُقْر[٢] ، فهى عروس ليالى العمر ، وبِكْر بُنَيّات الدهر . إلى أن وصلنا ، فى الساعة المذكورة من اليوم المذكور ، حَرَمَ الله العظيم ، ومُبوَّأ[٣] الخليل إبراهيم . فألفينا الكعبة الحرام عروسا مجلوّة مزفوفة إلى جنة الرضوان ، محفوفة بوفود الرحمن ، فطُفْنا طواف القُدوم ، ثم صلينا بالمقام الكريم ، وتعلقنا بأستار الكعبة عند المُلْتَزم ، وهو بين الحجر الأسود والباب ، وهو موضع استجابة الدعوة . ودخلنا قبة زمزم وشربنا من مائها ، وهو لِمَا شُرِب له ، كما قال ﷺ[٤] . ثم سعينا بين الصَّفَا والمَرْوَة ، ثم حَلَقْنا وَأَحْللنا . فالحمد لله الذى كرمنا بالوفادة عليه ، وجعلنا ممن انتهت الدعوة الإبراهيمية[٥] إليه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل . وكان نزولنا فيها بدار تُعْرف بالنسبة إلى الحلال ، قريبا من الحرم ، ومن باب السُّدّة أحد أبوابه ، فى حجرة كثيرة المرافق المسْكَنِيّة ، مُشْرِفة على الحرم وعلى الكعبة المقدسة .

---

(١) هـ : بالرغباء . (٢) أى لا مثيل لها .

(٣) المبوأ : المنزل .

(٤) يشير إلى قول رسول الله ﷺ : « ماء زمزم لما شرب له : إن شربته تستشفى به شفاك الله ، وإن شربته ليشبعك أشبعك الله ، وإن شربته لقطع ظمئك قطعه الله . وهى هزمة جبريل ، وسقيا الله إسماعيل » . أخرجه الدار قطنى ، وسعيد بن منصور موقوفا ، وأخرجه أحمد وابن ماجة (انظر القرى لقاصد أم القرى للمحب الطبرى ٤٤٧) .

(٥) الدعوة الإبراهيمية . الإسلام ، نسبه إلى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام .

شهر جمادى الأولى ، عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الاثنين الثانى والعشرين لأغشت ، وقد كمل لنا بمكة شرفها الله تعالى ثمانية عشر يوما ، فهلال هذا الشهر أسعد هلال اجتلتْه[1] أبصارنا ، فيما سلف من أعمارنا ، طلع علينا ، وقد تبوَّأْنا مقعد الجِدار الكريم ، وحَرَم الله العظيم ، والقُبَّة التى فيها مقام إبراهيم ؛ مبعث الرسول ، ومَهبِط الرُّوح الأمين جبريل ، بالوحى والتنزيل ، فأوزعَنا[2] الله شكرَ هذه المنة ، وعرّفنا قدر ما خصنا به من نعمة ، وختم لنا بالقَبول ، وأجرانا على كريم عَوائده من الصنع الجميل ، ولطيف التيسير والتسهيل ، بعزته وقدرته ، لا إلـٰه سواه .

ذكر المسجد الحرام ، والبيت العتيق ، كرّمه الله وشرّفه

البيت المكرَّم له أربعة أركان . وهو قريب من التَّربيع . وأخبرنى زعيم الشَّيْبيّين الذين إليهم سِدَانة للبيت ، وهو محمد بن إسماعيل بن عبد الرحمن ابن ... من ذرية عثمان بن طلحة بن شَيْبة بن طلحة بن عبد الدار ، صاحب رسول الله ﷺ ، وصاحب حِجَابة البيت : أن ارتفاعه فى الهواء من الصَّفْح[3] الذى يُقابل باب الصفا ، وهو من الحجر الأسود ، إلى [الركن]

(١) اجتلته : نظرت إليه .　　(٢) أوزعنا : ألهمنا .

(٣) الصفح : الجانب والوجه .

اليمانى ، تسع وعشرون ذراعا ، وسائر الجوانب ثمان وعشرون ، بسبب انصباب السطح إلى المِيزاب . فأول أركانه الركن الذى فيه الحجر الأسود ، ومنه ابتداء الطواف ، ويتقهقر الطائف عنه ليمرّ جميع بدنه به[١] ، والبيت المكرّم عن يساره . وأول ما يُلْقَى بعده الركن العراقىّ ، وهو ناظر إلى جهة الشمال . ثم الركن الشامى ، وهو ناظر إلى جهة الغرب . ثم الركن اليمانى ، وهو ناظر إلى جهة الجنوب . ثم يعود إلى الركن الأسود ، وهو ناظر إلى جهة الشرق . وعند ذلك يُتمّ شوطا واحدا .

وباب البيت الكريم فى الصفح الذى بين الركن العراقىّ وركن الحجر الأسود ، وهو قريب من الحَجَر بعشرة أشبار مُخفَّفة . وذلك الموضع الذى بينهما من صفح البيت يسمى الملْتَزم ، وهو موضع استجابة الدعاء . والباب الكريم مرتفع عن الأرض بأحد عشر شبرا ونصف . وهو من فضة مُذْهبة ، بديع الصنعة ، رائق الصفة ، يستوقف الأبصار حسنا وخشوعا ، للمهابة التى كساها الله بيته . وعُضَادتاه كذلك ، والعتبة العليا كذلك أيضا . وعلى رأسها لوح ذهب خالص إبريز ، فى سعته مقدار شبرين . وللباب نَقَّارَتا[٢] فضة كبيرتان ، يتعلق عليهما قُفل الباب ، وهو ناظر للشرق ، وسعته ثمانية أشبار ، وطوله ثلاثة عشر شبرا . وغِلَظ الحائط الذى ينطوى عليه الباب خمسة أشبار . وداخل البيت الكريم مفروش بالرخام المجزّع ، وحيطانه رخام كلها مجزع ، قد قام على ثلاثة أعمدة من الساج[٣] مُفْرطة[٤] الطول ، وبين

---

(١) ب : كأنه يمس جميعه ببدنه .

(٢) خـ : نقازتا . اقتبس ش٢ : ١١٧ (١٠٩) هذه القطعة .

(٣) الساج : شجر .　　　(٤) خـ : معترضة ، خطأ .

كل عمود وعمود أربع خُطا . وهى على طول البيت متوسِّطة فيه . فأحد الأعمدة ، وهو أولها ، يقابل نصف الصفح الذى يَحُفّ به الركنان اليمانيان . وبينه وبين الصفح مقدار ثلاث خُطا . والعمود الثالث ، وهو آخرها ، يقابل الصفح الذى يحف به[١] الركنان العراق والشامى .

ودائر البيت كله من نصفه الأعلى مطلىّ بالفضة المذْهبة المستحسنة[٢] ، يخيل للناظر إليها أنها صفيحة ذهب لغلظها . وهى تحف بالجوانب الأربعة[٣] ، . وتمسك مقدار نصف الجدار الأعلى . وسقف البيت مُجلَّل بكساء من الحرير الملون . وظاهر الكعبة كلها من الأربعة الجوانب مكسوّ بستور من الحرير الأخضر ، وسَدَاها قُطْن ، وفى أعلاها رسم بالحرير الأحمر[٤] ، فيه مكتوب : « إنَّ أَوَّلَ بيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسَ لَلَّذِى بِبَكَّةَ » الآية[٥] ، واسم الإمام الناصر لدين الله فى سعته قدرُ ثلاث[٦] أذرع يطيف بها كلها . قد شُكِّل فى هذه الستور من الصنعة الغريبة التى تبصرها[٧] أشكال مَحَاريب رائقة ، ورسوم مقروءة مرسومة بذكر الله تعالى ، وبالدعاء للناصر العباسىّ المذكور الآمر بإقامتها ، وكل ذلك لا يخالف لونَها . وعدد الستور من الجوانب الأربعة ، أربعة وثلاثون سترا . وفى الصفحين الكبيرين[٨] منها ثمانية عشر ، وفى الصفحين الصغيرين ستة عشر ، وله خمسة مضاوئ[٩] ،

---

(١) خـ : يقابله ، فى موضع : يحف به . (٢) هـ : الثخينة .
(٣) خـ : الأربع . (٤) خـ : الأخضر ، خطأ كما يظهر بعد .
(٥) سورة آل عمران ، الآية ٩٦ . (٦) خـ : ثلاثة .
(٧) خـ : تبصره ، بدون نقط . (٨) هـ : الصفحة الكبرى .
(٩) المضاوئ : جمع مضوأ ، وهو ما نسميه اليوم المنور .

وعليها زجاج عراقيّ بديع النقش ، أحدها[١] فى وسط السقف ، ومع كل ركن مَضْوَأ ، والواحد منها لا يظهر لأنه تحت القبو المذكور بعد . وبين الأعمدة أكواس من الفضة ، عددها ثلاث عشرة[٢] ، وإحداها من ذهب .

وأول ما يلقى[٣] الداخل على الباب عن[٤] يساره ، الركن الذى خارجه الحجر الأسود ، وفيه صندوقان فيهما مصاحف ، وقد علاهما فى الركن بُوَيْبان من فضة ، كأنهما طاقان مُلْصَقان بزاوية الركن . وبينهما وبين الأرض أزيد من قامة . وفى الركن الذى يليه وهو اليمانى كذلك ، لكنهما انقلعا وبقى العود الذى كانا ملصقَيْن عليه . وفى الركن الشامىّ كذلك ، وهما باقيان . وفى جهة الركن العراقى كذلك . وعن يمينه الركن العراقىّ ، وفيه باب يسمى بباب الرحمة ، يُصْعَد منه إلى سطح البيت المكرّم . وقد قام له قَبو ، فهو متصل بأعلى سطح البيت ، داخله الأدراج .

وفى أوله البيت المحتوى على المقام الكريم . فتَجِد للبيت الكريم[٥] ، بسبب هذا القبو خمسة أركان ، وفى سعة صفحَيْه قامتان ، وهو محتو على الركن العراقى بنصفين من كل صفح ، وثلثا قناة هذا القبو مكسوّان بستُر[٦] الحرير الملون كأنه قد لُفّ فيه ثم وُضِع . وهذا المقام الكريم الذى داخل هذا القبو ، هو مقام إبراهيم صلى الله على نبينا وعليه ، وهو حَجَر مغشّى بالفضة ، وارتفاعه مقدار ثلاثة أشبار ، وسعتُه مقدار شبرين ، وأعلاه أوسع من

---

(١) ش : أدرجت : فى موضع : أحدها .

(٢) خـ : وما الأعمدة لكوا (كذا) من الفضة عددها مثله عشر . وصححت من ب .

(٣) ش : يلقى ... من الباب .	(٤) هـ : من .

(٥) هـ : العتيق .

(٦) هـ : سرق ، وهى شقق الحرير الأبيض أو الحرير عامة .

أسفله ، فكأنه — وله التنزيه والمثل الأعلى — كانون فَخّار كبير ، أوسطه يضيق عن أسفله وعن أعلاه ، عاينّاه وتبرّكنا بلمسه وتقبيله ، وصُبّ لنا فى أثر القدمين المباركتين[١] ماء زمزم فشر بناه ، نفعنا الله به . وأثرهما بيّن ، وأثر الأصابع المكرمة المباركة . فسبحان مَنْ أَلَانه لواطئه حتى أثرت فيه ولا تأثير القدم فى الرمل الوَثِير ، سبحان جاعله من الآيات البَيِّنات . ولمعاينته ومعاينة البيت الكريم هولٌ يُشْعِر النفوسَ من الذهول ، ويُطِيش الأفئدة والعقول ، فلا تُبْصِر إلا لَحَظات[٢] خاشعة ، وعَبَرات هامِعة[٣] ، ومدامع باكية ، وألسنة إلى الله عز وجل ضارعة داعية .

وبين الباب الكريم والركن العراقى حوضٌ طوله اثنا عشر شبرا ، وعرضه خمسة أشبار ونصف ، وارتفاعه نحو شبر ، متصل من قُبَالة عُضادة الباب التى تلى الركن المذكور آخذا إلى جهته ، وهو علامة موضع المقام مدةَ إبراهيم عليه السلام ، إلى أن صرفه النبى ﷺ إلى الموضع الذى هو الآن مصلّى . وبقى الحوض المذكور مَصَبًّا لماء البيت إذا غُسِل ، وهو موضع مبارك ، يقال : إنه روضة من رياض الجنة ، والناس يزدحمون للصلاة فيه . وأسفله مفروش برملة بيضاء وثيرة .

وموضع المقام الكريم هو الذى يُصَلَّى خلفه ، يقابل ما بين الباب الكريم والركن العراقى ، وهو إلى الباب أميل بكثير . وعليه قبة خشب فى مقدار القامة أو أزيد ، مُرَكّنة[٤] ، محدّدة ، بديعة النقش ، سعتُها من ركنها الواحد إلى الثانى أربعة أشبار . وقد نُصِبت على الموضع الذى كان فيه المقام وحوله

---

(١) خـ : المباركين .

(٢) لحظات : يريد ألحاظا .

(٣) هامعة : هاطلة منسكبة .

(٤) مركنة : ذات أركان . وفى خـ : مركبة .

تكفيف(١) من حجارة ، نُصِبت على حرف(٢) كالحوض المستطيل فى ارتفاعه نحو شبر ، وطوله خمس خُطا ، وعرضه ثلاث خطا . وأُدْخل(٣) المقام إلى الموضع الذى وصفناه فى البيت الكريم احتياطا عليه ، وبينه وبين صفح البيت الذى يقابله سبع عشرة خطوة ، والخطوة كلها فيها ثلاثة أشبار . ولموضع المقام أيضا قبة مصنوعة من حديد ، موضوعة إلى جانب قبة زمزم . فإذا كان فى أشهر الحج ، وكثر الناس ، ووصل العراقيون والخراسانيون ، رُفِعت قبة الخشب ، ووُضِعت قبة الحديد ، لتكون أَحْمَل(٤) للازدحام .

ومن الركن الذى فيه الحجر الأسود إلى الركن العراقى أربعة وخمسون شبرا مخفّفة . ومن الحجر الأسود إلى الأرض ستة أشبار ، فالطويل يتطأمن إليه(٥) ، والقصير يتطاول إليه . ومن الركن العراقى إلى الركن الشامىّ ثمانية وأربعون شبرا مخففة ، وذلك داخل الحِجْر ، وأما من خارج ، فمنه إليه أربعون خطوة ، وهو مِئة وعشرون شبرا مخففة ، ومن خارجه يكون الطواف . ومن الركن الشامى إلى الركن اليمانى ما من الركن الأسود إلى العراق ، لأنه الصفح الذى يقابله . ومن اليمانى إلى الأسود ما من العراق إلى الشامى داخل الحجر ، لأنه الصفح الذى يقابله .

وموضع الطواف مفروش بحجارة مبسوطة ، كأنه الرخام حسنا ، منها

---

(١) التكفيف : يبدو أنه يريد به هنا ما يشبه السور ، مأخوذ من الكفة ، وهى حاشية كل شىء .

(٢) أراد رايت أن يجعلها : جرن ، ودوزى : جرف ، وربما لم تكن محرفة .

(٣) أدخل : كذا ص ؛ خ : داخل . (٤) ش : لأنها أجمل .

(٥) يتطأمن : ينحنى . هـ : له . ش : لتقبيله ... يتطاول له .

سُود وسُمر وبيض ، قد أُلْصِق بعضها إلى بعض ، واتسعت عن البيت بمقدار تسع خُطا ، إلا فى الجهة التى تقابل المقام ، فإنها امتدت إليه حتى أحاطت به . وسائر الحرم مع البلاطات كلها مفروش برمل أبيض . وطواف النساء فى آخر الحجارة المفروشة . وبين الركن العراقى وبين أول جدار الحِجْر مدخل إلى الحِجْر ، سعته أربع خطا ، وهى ستّ أذرع محقّقة ، كِلْناها[١] باليد . وهذا الموضع الذى لم يُحَجَّر[٢] عليه هو الذى تركتْ قُرَيش من البيت ، وهو ست أذرع ، حسبما وردت به الآثار الصحاح . ويقابله عند الركن الشامى مدخل آخر ، على مثال تلك السعة . وبين جدار البيت الذى تحت الميزاب والذى يقابله من جدار الحِجْر ، على خط استواء ، يشق وسطَ الصحن المذكور أربعون شبرا ، وسعته من المدخل إلى المدخل ست عشرة خطوة ، وهى ثمانية وأربعون شبرا[٣] وهو يعنى دَوْر الجدار رخام كله مجزع بديع الإلصاق ... قضبان صفر مذْهَبة ، وُضِع منها فى صفحة أشكال شِطْرَ نجِيّة متداخلة بعضها على بعض ، وصفات محاريب ، فإذا ضربت الشمس فيها لاح لها بَصِيص وَلألاء ، يخيل للناظر إليها أنها ذهب ، يرتمى بالأبصار شعاعه . وفى ارتفاع جدار هذا الحِجْر الرخامىّ خمسة أشبار ونصف ، وسعتُه أربعة أشبار ونصف . وداخل الحجر بلاط واسع ، ينعطف عليه الحِجْر كأنه ثلثا دائرة ، وهو مفروش بالرخام المجزّع المقطّع فى دَوْر الكف[٤] ، إلى دَوْر

---

(١) كلناها : قسناها .　　(٢) يحجر : يجعل عليه سور أو حاجز .

(٣) زاد ش هنا : « وعليه [أى الحجر] جدار دوره تسع وعشرون خطوة ، وهى أربعة وسبعون شبرا من داخل الدويرة ، ودور جداره » . وواضح أن الفقرة كلها مضطربة حتى فى الأعداد التى تضمها .

(٤) ب : الكعب .

الدينار ، إلى ما فوق ذلك . ثم ألْصِق بانتظام بديع ، وتأليف معجز الصنعة ، غريب الإتقان ، رائق الترصيع والتجزيع ، رائع التركيب والرصف ، يبصر الناظر فيه من التعاريج والتقاطيع والخواتم والأشكال الشطرنجية وسواها ، على اختلاف أنواعها[١] وصفاتها ، ما يقيّد بصره حسنا ، فكأنه يجيله فى أزهار مفروشة مختلفات الألوان ، إلى محاريب قد انعطف عليها الرخام انعطافَ القِسِيّ ، وداخلها هذه الأشكال الموصوفة ، والصنائع المذكورة .
وبإزائها رخامتان متصلتان بجدار الحِجْر المقابل للميزاب ، أحدثَ الصانعُ فيهما من التوريق الرقيق والتشجير والتقضيب[٢] ما لا يحدثه الصَّنَّعُ اليدين[٣] فى الكاغِد[٤] قطعا بالجَلَمَيْن[٥] ، فمرآهما عجيب ، أمر بصنعتهما على هذه الصفة إمام المشرق أبو العباس أحمد الناصر بن المستضىء بالله أبى محمد الحسن بن المستنجد بالله أبى المظفر يوسف العباسىّ رضى الله عنه .

ويقابل الميزابَ فى وسط الحِجْر ، وفى نصف جداره الرخامىّ ، رخامَة قد نُقِشت أبدع نقش ، وحَفَّت بها طرة منقوشة نقشا مُكحَّلا عجيبا ، فيه مكتوب : « مما أمر بعمله عبد الله وخليفته أبو العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، وذلك فى سنة ست وسبعين وخمس مِئة » . والميزاب فى أعلى الصفح الذى يلى[٦] الحِجْر المذكور ، وهو من صُفْر[٧] مذهب ، قد خرج إلى الحِجْر بمقدار أربع أذرع ، وسعتُه مقدار شبر . وهذا الموضع تحت

---

(١) هـ : ألوانها .
(٢) خـ : والتقصد ... والتقضيب ... نحت صور القضبان . والتشجير : نحت الأشجار والتوريق : نحت صور أوراق الشجر .
(٣) الصنع اليدين : الحاذق فى العمل بها . (٤) الكاغد : الورق .
(٥) الجلمان : المقص .
(٦) يلى : كذا ص . خـ : على .
(٧) الصفر : النحاس الأصفر .

الميزاب ، هو أيضا مَظَنَّة استجابة[1] الدعوة بفضل الله تعالى . وكذلك الركن اليمانى ، ويسمَّى المُستجَار ما يليه ، وهذا الصفح المتصل به من جهة الركن الشامى .

وتحت الميزاب فى صحن الحِجْر ، بمقربة من جدار البيت الكريم ، قبر إسماعيل ﷺ ، وعلامته رخامة خضراء مستطيلة قليلا شكل محراب ، تتّصل بها رخامة خضراء مستديرة . وكلتاهما[2] غريبة المنظر ، فيهما نُكَت[3] تنفتح عن لونها إلى الصفرة قليلا كأنها تجزيع ، وهى أشبه الأشياء بالنُّكَت التى تبقى فى البيدق[4] من حَلِّ الذهب فيه . وإلى جانبه مما يلى الركن العراقى قبر أمه هاجَر رضىَ الله عنها ، وعلامته رخامة خضراء سعتها مقدار شبر ونصف . يتبرك الناس بالصلاة فى هذين الموضعين من الحِجْر . وحُقّ لهم ذلك لأنهما من البيت العتيق ، وقد انطبقا على جَسَدين مقدَّسين مكرَّمين ، نَوَّرهما الله ، ونفع ببركتهما كلَّ من صلّى عليهما . وبين القبرين المقدّسَين سبعة أشبار .

وقبة بئر زمزم تقابل الركن ، ومنها إليه أربع وعشرون خطوة . والمقام المذكور الذى يُصلَّى خلفه عن يمين القبة ، ومن ركنها إليه عشر خُطا . وداخلها مفروش بالرخام الأبيض الناصع البياض . وتَنُّور[5] البئر المباركة فى وسطها ، مائل عن الوسط إلى جهة الجدار الذى يقابل البيتَ المكرّم ، وعمقها إحدى عشرة قامة ، حسبما ذَرَعْناه . وعمق الماء سبع قامات ، على

---

(١) مظنة استجابة : يظن أنه موضع استجابة .

(٢) خـ : وكلاهما .

(٣) النكت : النقط .

(٤) البيدق : البوتقة .

(٥) التنور : مفجر الماء .

ما يُذْكَر . وباب القبة ناظر إلى الشرق ، وبابا قبة العباس وقبة اليهودية ناظران إلى الشمال .

والركنُ من الصَّفْح الناظر إلى البيت العتيق من القبة المنسوبة إلى اليهودية ، يتصل بالركن الأيسر من الصفح الأخير الناظر إلى الشرق من القبة العباسية . فبينهما هذا القَدُّ[١] من الانحراف . وتلي قبةَ بئر زمزم من ورائها قبةُ الشَّراب ، وهي المنسوبة للعباس ، رضى الله عنه . وتلي هذه القبة العباسية على انحراف عنها قبة تنسب لليهودية . وهاتان القبتان مَخْزَنان لأوقاف البيت الكريم ، من مصاحف وكتب وأتوار شمع وغير ذلك . والقبة العباسية لم تخلُ من نسبتها الشَّرابيّة لأنها كانت سقاية الحاجّ ، وهي حتى الآن يُبَرَّد فيها ماء زمزم ، ويُخْرَج مع الليل لسقى الحاجّ فى قِلَال يسمونها الدَّوَارِق ، كل دَوْرَق منها ذو مقبض واحد . وتَنوّر بئر زمزم من رخام ، قد أُلصِق بعضه ببعض إلصاقا لا تحيله الأيام ، وأُفْرِغ فى أثنائه الرّصاص . وكذلك داخل التنور . وحَفّت به أعمدة الرصاص المُلْصَقة إليه ، إبلاغا فى قوة لَزّه[٢] ورَصّه : اثنان وثلاثون عمودا ، قد خرجت لها رءوس قابضة على حافّة البئر ، دائرة بالتنور كله . ودَوْرهُ أربعون شبرا ، وارتفاعه أربعة أشبار ونصف ، وغِلَظه شبر ونصف . وقد استدارت بداخل القبة سقاية سَعتُها شبر ، وعمقها نحو شبرين ، وارتفاعها عن الأرض خمسة أشبار ، تملأ ماء للوضوء ، وحولها مصطبة دائرة يرتفع الناس إليها ، ويتوضئون عليها .

والحجر الأسود المبارك مُلْصَق فى الركن الناظر إلى جهة المشرق ، ولا يُدْرَى قدرُ ما دخل فى الركن ، وقيل : إنه داخل فى الجدار بمقدار ذراعين .

---

(١) القد : المقدار .   (٢) اللز : الرص والإلصاق .

وسعتُه ثلثا شبر . وطوله شبر وعُقَد ، وفيه أربع قِطَع ملصَقة . ويقال : إن القَرْمَطِيّ(١) لعنه الله كان الذى كسره . وقد شُدّت جوانبه بصفيحة فضة ، يلوح بصيص بياضها على بصيص سواد الحجر ورَوْنقه الصقيل ، فيبصر الرائى من ذلك منظرا عجيبا ، هو قَيْد الأبصار . وللحجر عند تقبيله لُدُونة ورطوبة ، يتنعَّم بها الفمُ ، حتى يَوَدّ اللاثم أن لا يقلع فمه عنه ، وذلك خاصّة من خواص العناية الإلـٰهية . وكفى أن النبى ﷺ قال : « إنه يَمِين الله فى أرضه »(٢) . نفعنا الله باستلامه ومصافحته ، وأوفد عليه كل شَيِّق(٣) إليه بمنه . وفى القطعة الصحيحة من الحجر ، مما يلى جانبه الذى يلى يمين المستلم له إذا وقف مُستقبِلَه ، نقطة بيضاء صغيرة مُشْرِقة ، تلوح كأنّها خَالٌ فى تلك الصفحة المباركة . وفى هذه الشامة البيضاء أَثَر : « أن النظر إليها يجلو البصر » . فيَجِب على المقبّل أن يقصد بتقبيله موضعَ الشامة المذكورة ما استطاع .

والمسجد الحرام يُطِيف به ثلاث بلاطات ، على ثلاث سَوارٍ من الرخام منتظمة ، كأنها بلاط واحد ، ذَرْعُها فى الطول أربع مئة ذراع ، وفى العرض ثلاث مئة ذراع . فيكون تكسيره محققا ثمانية وأربعين مَرْجعا . وما بين البلاطات فضاء كبير ، وكان على عهد رسول الله ﷺ صغيرا . وقبّة زمزم خارجة عنه . وفى مقابلة الركن الشامى رأس سارية ثابتة فى الأرض ، منها

---

(١) يشير إلى ما فعله أبو طاهر الجنابى من الإغارة على مكة ، وقتل الحاج ، وقلع الحجر الأسود ، وأخذه إلى البحرين عام ٣١٧ هـ .

(٢) يشير إلى الحديث : « الركن يمين الله فى الأرض ، يصافح بها عباده ، كما يصافح أحدكم أخاه » . (انظر القرى لقاصد أم القرى للمحب الطبرى ٢٤٦) .

(٣) الشيق : المشتاق .

كان حدّ الحرم أوّلا . وبين رأس السارية وبين الركن الشامي المذكور اثنتان وعشرون خطوة ، والكعبة في وسطه على استواء من الجوانب الأربعة ، ما بين الشرق والجنوب والشمال والغرب . وعدد سواريه الرخامية التي عددتُها بنفسي أربع مئة سارية ، وإحدى وسبعون سارية ، حاشا الجصيّة التي منها في دار النَّدْوَة ، وهي التي زِيدَتْ في الحرم . وهي داخلة في البلاط[1] الآخذ من الغرب إلى الشمال . ويقابلها المقام مع الركن العراقي ، وفضاؤها متسع يُدْخَل من البلاط[1] إليه . ويتصل بجدار هذا البلاط كله مصاطب تحت قِسِيِّ حَنايا ، يجلس فيها النساخون ، والمقرئون ، وبعض أهل صنعة الخياطة . والحرم مُحدق بحلقات المدرّسين وأهل العلم . وفي جدار البلاط الذي يقابله أيضا [مصاطب][2] تحت حنايا على تلك الصفة ، وهو البلاط الآخذ من الجنوب إلى الشرق . وسائر البلاطات تحت جداراتها مصاطب دون حنايا عليها ، والبنيان فيها الآن على أكمل ما يكون . وعند باب إبراهيم مدخل آخر من البلاط الآخذ[3] من الغرب إلى الجنوب ، فيه أيضا سوارٍ جِصيّة[4] . ووجدتُ بخط أبي جعفر بن علي[5] الفَنَكي القُرْطُبي الفقيه المحدّث : أن عدد سواريه أربعُ مئة وثمانون ، لأني لم أحسب التي خارج باب الصفا .

وللمهديّ محمد بن أبي جعفر المنصور العباسيّ في توسعة المسجد الحرام ، والتأنُّق في بنائه آثار كريمة . ووجدت في الجهة التي من الغرب إلى الشمال ،

---

(١) خـ : البلاد ، تحريف .

(٢) مصاطب : ساقطة من خـ .

(٣) خـ : الآخر ، تحريف .

(٤) بعد هذا في خـ : ورأيت بتقييد أحد الأصحاب أن عدد جميعا .

(٥) علي : ساقطة من خـ .

مكتوبا فى أعلى جدار البلاط : « أُمَرَ عبد الله محمد المهدىّ أمير المؤمنين — أصلحه الله — بتوسعة المسجد الحرام ، لحاجّ بيت الله وعمّاره ، فى سنة سبع وستين ومئة » .

وللحرم سبع صوامع : أربع فى الأربعة[١] جوانب ، وواحدة فى دار النَّدْوة ، وأخرى على باب الصفا ، وهى أصغرها ، وهى عَلَم لباب الصفا ، وليس يُصْعَد إليها لضيقها ؛ وعلى باب إبراهيم صومعة ، قد ذُكرت عند باب إبراهيم فيما بعد .

وباب الصفا يقابل الركن الأسود بالبلاط الذى من الجنوب إلى الشرق . وفى وسط البلاط المقابل للباب ساريتان مقابلتان[٢] الركنَ المذكور ، فيهما منقوش : « أُمَرَ عبد الله محمد المهدىّ أمير المؤمنين — أصلحه الله — بإقامة هاتين الأسطوانتين ، عَلَما لطريق رسول الله ﷺ إلى الصفا ، ليتأسَّى[٣] به حاجُّ بيت الله وعُمّاره ، على يَدَىْ يَقْطِين بن موسى وإبراهيم بن صالح ، فى سنة سبع وستين ومئة » .

وفى باب الكعبة المقدسة نقش بالذهب رائق الخط ، طويل الحروف غليظها ، يرتمى الأبصار[٤] برونقه وحسنه ، مكتوب فيه : « مما أمر بعمله عبد الله وخليفته ، الإمام أبو عبد الله محمد المقتفى لأمر الله أمير المؤمنين ، صلى الله عليه وعلى الأئمة آبائه الطاهرين ، وخَلّد ميراث النبوة لديه ، وجعلها كلمة باقية فى عقبه إلى يوم الدين ، فى سنة خمسين وخمس مئة » فى صفحتى البابين على هذا النص المذكور .

---

(١) خـ : الأربع .
(٢) خـ : مقابلان .
(٣) يتأسى : يقتدى .
(٤) خـ : للأبصار .

ويكتنف البابين الكريمين عِضادة غليظة من الفضة المذْهبة ، البديعة النقش ، تصعد إلى العتبة المباركة ، تشف[١] عليها ، وتستدير بجانبى البابين . ويعترض أيضا بين البابين عند إغلاقهما شبه العضادة الكبيرة من الفضة المذهبة ، هى بطول البابين ، متصلة بالواحد منهما الذى عن يسار الداخل إلى البيت .

وكسوة الكعبة المقدسة من الحرير الأخضر ، حسبما ذكرناه . وهى أربع وثلاثون شُقَّة : فى الصفح الذى بين الركن اليمانىّ والشامىّ منها تسع ، وفى الصفح الذى يقابله بين الركن الأسود والعراقىّ تسع أيضا ، وفى الصفح بين العراقى والشامىّ ثمان ، وفى الصفح بين اليمانى والأسود ثمان أيضا ؛ قد وُصلت كلها فجاءت كأنها ستر واحد يعمّ الأربعة[٢] جوانب . وقد أحاط بها من أسفلها تكفيف مبنى بالجصّ ، فى ارتفاعه أزيد من شبر ، وفى سعته شبران أو أزيد قليلا ، فى داخله خشب غير ظاهر ، وقد سُمِّرت فيه أوتاد حديد فى رءوسها حلقات حديد ظاهرة ، قد أُدْخل فيها مَرَس[٣] من القِنَّب[٤] غليظ مفتول . واستدار بالجوانب الأربعة[٢] ، بعد أن وُضِع فى أذيال الستور ، شبه حُجَز السراويلات ، وأُدْخل فيها ذلك المرس ، وخُيِّط عليه بخيوط من القطن المفتولة الوثيقة . ومجتمع الستور فى الأركان الأربعة مخيَّط إلى أزيد من قامة ، ثم مِنها إلى أعلاها تتصل بعُرا من حديد ، يُدْخَل بعضها فى بعض . واستدار أيضا بأعلاها على جوانب السطح تكفيف ثان ، وقعت فيه أعالى الستور فى حَلَقات حديد ، على تلك الصفة المذكورة .

---

(١) خـ : المبارك وتشق . وتشف : تزيد . (٢) خـ : الأربع .
(٣) مرس : حبل . (٤)القنب : نبات يفتل من لحائه الحبال .

فجاءت الكسوة المباركة مخيطة الأعلى والأسفل، وثيقة الأزرار، لا تخلع إلا من عام إلى عام عند تجديدها، فسبحان من خَلّد لها الشرف إلى يوم القيامة، لا إلٰه سواه.

وباب الكعبة الكريم يُفْتَح كلَّ يوم اثنين ويوم جمعة، إلا فى رَجَب فإنه يفتح فى كل يوم. وفَتحُه أولَ بزوغ الشمس، يُقبل سَدَنةُ البيت الشّيْبيون، فيبادر منهم مَنْ ينقل كرسيا كبيرا شبه المنبر الواسع، له تسعة أدراج مستَطيلة، قد وُضِعت له قوائم من الخشب مُتَطْأمِنة(١) مع الأرض، لها أربع بكرات كبار مصفّحة بالحديد لمباشرتها الأرض، يُجْرَى الكرسىّ عليها حتى يصل إلى البيت الكريم. فيقع دَرَجُه الأعلى متصلا بالعتبة المباركة من الباب. فيصعد زعيم الشيبيين إليه، وهو كهل جميل الهيئة والشارة(٢)، وبيده مفتاح القفل المبارك، ومعه من السَّدَنة من يمسك فى يده سترا أسود، يفتخ(٣) يديه به أمام الباب، خلالَ ما يفتحه الزعيم الشيبى المذكور. فإذا فتح القفل قبّل العتبة ثم دخل البيت وَحْدَه، وسَدَّ الباب خلفه، وأقام قدرَ ما يركع ركعتين. ثم يدخل الشيبيون، ويسدّون الباب أيضا ويركعون. ثم يُفْتَح الباب ويبادر الناس بالدخول. وفى أثناء محاولة فتح الباب الكريم، يقف الناس مستقبِلين إياه بأبصار خاشعة، وأيد مبسوطة إلى الله ضارعة. وإذا انفتح الباب كَبّر الناس، وعلا ضجيجهم، ونادوا بألسنة مُستهِلّة: «اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك، يا أرحمَ الراحمين». ثم دخلوا(٤). بسلام آمنين.

وفى الصفح المقابل للداخل فيه، الذى هو من الركن اليمانى إلى الركن

---

(١) متطأمنة: منخفضة.

(٢) الشارة: الهيئة واللباس.

(٣) يفتخ: يثنى ويلين.

(٤) دخلوا: كذا فى خـ على صيغة الماضى.

الشامى ، خمس رخامات منتصبات طولا كأنها أبواب ، تنتهى إلى مقدار خمسة أشبار من الأرض ، وكل واحدة منها نحو القامة ، الثلاثُ منها حُمْر والاثنتان خضراوان . فى كل واحدة منها تجزيع بياض ، لم يُرَ أحسن منظرا منه ، كأنه فيها تنقيط . فيتصل بالركن اليمانى منها الحمراء ، ثم تليها بخمسة أشبار الخضراء ، والموضع الذى يقابلها ، مقهقرا عنها بثلاثة أذرع ، هو مصلّى النبى ﷺ ، فيزدحم الناس على الصلاة فيه تبرّكا به . ووضعهُنّ على هذا الترتيب ، وبين كل واحدة وأخرى القدر المذكور . ويتصل بينهما رخام أبيض ، صافى اللون ، ناصع البياض ، قد أحدث الله عز وجل فى أصل خلقته أشكالا غريبة ، مائلة إلى الزرقة مُشجَّرة مُغصَّنة ، وفى التى تليها مثل ذلك بعينه من الأشكال كأنها مقسومة ، فلو انطبقتا لعادَ كلُّ شكل يصافح شكلَه ، فكلُّ واحدة شقة الأخرى لا محالةَ ، عندما نُشِرت انشقّت على تلك الأشكال ، فوُضِعت كل واحدة بإزاء أختها . والفاصل منها بين كل خضراء وحمراء رخامتان ، سعتهما خمسة أشبار لأعداد[1] الأشبار المذكورة[2] والأشكال فيها تختلف هيئاتها . وكلّ أخت منها بإزاء أختها . وقد شَدّت جوانب هذه الرخامات تكافيف ، غلظها قدر إصبعين من الرخام المجزع من الأخضر والأحمر المنقطين ، والأبيض ذى الخِيلان[3] ، كأنها أنابيب مخروطة ، يحار الوهم فيها ، فاعترضت فى هذا الصفح المذكور من فُرَج الرخام الأبيض ست فرج .

---

(١) خـ : لا . وأصلحتها ر كما فوق ، واعتبرت أنه يعنى : وفقا لأعداد .

(٢) خـ : المذكور .

(٣) الخيلان : جمع خال ، وهو النقطة السوداء فى الخد .

وفى الصفح الذى عن يسار الداخل ، وهو من الركن الأسود إلى اليمانى ، أربع رخامات : اثنتان خضراوان ، واثنتان حمراوان . وبينهما خمس فُرَج من الرخام الأبيض . وكل ذلك على الصفة المذكورة .

وفى الصفح الذى عن يمين الداخل ، وهو من الركن الأسود إلى العراق ، ثلاثٌ : اثنتان حمراوان ، وواحدة خضراء . ويتصل بها ثلاث فرج من الرخام الأبيض . وهذا الصفح هو المتصل بالركن الذى فيه باب الرحمة ، وسعتُه ثلاثة أشبار ، وطوله سبعة[1] . وعضادته التى عن يمينك إذا استقبلتَه رخامةٌ خضراء فى سعة ثلثى شبر .

وفى الصفح الذى من الشامى إلى العراق ثلاثٌ : اثنتان حمراوان ، وواحدة خضراء . ويتصل بها ثلاث فُرَج من الرخام الأبيض ، على الصفة المذكورة .

ويكلل هذا الرخام المذكور طُرَّتان : واحدة على الأخرى ، سعةُ كل واحدة منهما قدر شبرين ، ذهب مرسوم فى اللازورد ، قد خطَّ فيه خط بديع . وتتصل الطرتان بالذهب المنقوش على نصف الجدار الأعلى . والجهة التى عن يمين الداخل لها طرة واحدة ، وفى هاتين الطرتين بعض مواضع دارسة[2] .

وفى كل ركن من الأركان الأربعة ، مما يلى الأرض ، رخامتان خضراوان صغيرتان تكتنفان الركن[3] ، وتكتنف أيضا كلَّ بابين من الفضة ، اللذين فى كل ركن كأنهما طاقان : عضادتان من الرخام الأخضر ، صغيرتان على

---

(١) خـ : سبع .

(٢) دارسة : ممحوة .

(٣) خـ : الركنين .

قدر نَقْبَيهما . وفى أول كل صفح من الصفحات المذكورة رخامة حمراء ، وفى آخره مثلها ، والخضراء بينهما على الترتيب المذكور ، إلا الصفح الذى عن يسار الداخل ، فأول رخامة تَجدها متّصلة بالركن الأسود رخامة خضراء ، ثم حمراء ، إلى كمال الترتيب الموصوف .

وبإزاء المَقام الكريم منبر الخطيب ، وهو أيضا على بكرات أربع شبه التى[1] ذكرناها . فإذا كان يوم الجمعة وقَرُب وقت الصلاة ، ضُمّ إلى صَفْح الكعبة الذى يقابل المقام ، وهو بين الركن الأسود والعراق ، فيُسْنَد المنبر إليه . ثم يُقبل الخطيب داخلا على باب النبى ﷺ ، وهو يقابل المقام فى البلاط الآخذ من الشرق إلى الشمال ، لابسا ثوبَ سواد مرسوما بذهب ، ومتعمما بعمامة سوداء مرسومة أيضا ، وعليه طيلسان شَرْب رقيق ؛ كلُّ ذلك من كُسَا الخليفة التى يُرْسِلها إلى خطباء بلاده ، يرفل فيها وعليه السكينة والوقار ، يتهادى رُوَيدا بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من قَوَمة المؤذّنين ، وبين يديه ساعيا أحدُ القَوَمة ، وفى يده عود مخروط أحمر ، قد رُبِط فى رأسه مَرَسٌ من الأديم المفتول رقيق طويل ، فى طرفه عَذَبة صغيرة ينفضُها بيده فى الهواء نفضا ، فتأتى بصوت عال يُسْمَع من داخل الحرم وخارجه ، كأنه إيذان بوصول الخطيب ، ولا يزال فى نفضها إلى أن يقرب من المنبر ، ويسمونها الفَرْقَعة . فإذا قَرُب من المنبر ، عرّج إلى الحجر الأسود فقبّله ، ودعا عنده ، ثم سعى إلى المنبر والمُؤذّن الزَّمْزَمِىُّ ، رئيس المؤذّنين بالحرم الشريف ، ساعٍ أمامه ، لابسا ثيابَ السواد أيضا ، وعلى عاتقه السيف يمسكه بيده دون تَقَلُّد له . فعند صعوده فى أوّل درجة قلّده المؤذّن المذكور

(١) خـ : الذى .

السيفَ . ثم ضرب بنعلة سيفه فيها ضربةً أسمع بها الحاضرين ، ثم فى الثانية ، ثم فى الثالثة . فإذا انتهى إلى الدرجة العليا ضرب ضربة رابعة ، ووقف داعيا مُستقبِلَ الكعبة بدعاء خفى . ثم انفتل عن يمينه وشماله وقال : « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » . فيرد الناس عليه السلام . ثم يقعد ويبادر المؤذِّنون بين يديه فى المنبر بالأذان ، على لسان واحد . فإذا فرغوا قام للخطبة ، فذكَّر ووعَظ وخَشَّع فأبلغ . ثم جلس الجلسة الخَطِيبيّة ، وضرب بالسيف ضربة خامسة . ثم قام للخطبة الثانية فأكثر بالصلاة[1] على محمد ﷺ ، وعلى آله ، ورَضِىَّ عن أصحابه ، واختصّ الأربعة الخلفاء بالتسمية رضى الله عن جميعهم ، ودعا لعمّى النبى ﷺ حمزة والعباس ، وللحسن والحسين ، وَوَالَى التَّرضِّىَ[2] عن جميعهم . ثم دعا لأمهات المؤمنين زوجات النبى ﷺ ، ورَضِى عن فاطمة الزهراء ، وعن خَدِيجة الكبرى ، بهذا اللفظ ، ثم دعا للخليفة العباسى أبى العباس أحمد الناصر ، ثم لأمير مكة مُكْثِر بن عيسى ابن فُلَيْتة بن قاسم بن محمد بن جعفر بن أبى هاشم الحسنى ، ثم لصلاح الدين أبى المظفّر يوسف بن أيوب ، ولولىّ عهده أخيه أبى بكر بن أيوب . وعند ذكر صلاح الدين بالدعاء ، تخفق الألسنة بالتَّأمين عليه من كل مكان :

وإذا أحبَّ اللهُ يوما عبــدَه ... ألقـى عليــه محبــةً للنّــاسِ

وحُقَّ ذلك عليهم لما يبذله من جميل الاعتناء بهم ، وحسن النظر لهم ، ولما رَفَعَه من وظائف المكوس عنهم .

وفى هذا التاريخ أُعْلمنا بأن كتابه وصل إلى الأمير مكثر ، وأهَمّ فصوله

(١) كذا ص ولعل الباء زائدة .
(٢) خـ : الرضى .

التوصية بالحاجّ ، والتأكيد فى مَبَرّتهم وتأنيسهم ، ورفع أيدى الاعتداء عنهم ، والإيعاز فى ذلك إلى الخُدَّام والأتباع والأَوْزاع[١] ، وقال : « إنه إنما نحن وأنت مُتقلّبون فى بركة الحاجّ » . فتأمَّل هذا المنزع الشريف ، والمقصد الكريم ، وإحسانُ الله يتضاعف إلى من أحسن إلى عباده ، واعتناؤه الكريم موصول لمن جعل هَمَّه الاعتناءَ بهم ، والله عز وجل كَفِيل بجزاء المحسنين ، إنه وَلِيُّ ذلك ، لا رب سواه .

وفى أثناء الخطبة تُرْكَز الرايتان السوداوان فى أول درجة من المنبر ، ويمسكهما رجلان من المؤذّنين ، وفى جانبى باب المنبر حلقتان تُلْقَى الرايتان فيهما مركوزتين . فإذا فرغ من الصلاة خرج ، والرايتان عن يمينه وشماله ، والفرقعة أمامه على الصِّفة التى دخل عليها ، كأن ذلك أيضا إيذان بانصراف الخطيب ، والفراغ من الصلاة . ثم أُعيد المنبر إلى موضعه بإزاء المَقام .

وليلةَ أَهَلَّ هلال الشهر المذكور ، وهو جُمادى الأولى ، بَكَّر أمير مكة مكثر المذكور فى صبيحتها إلى الحرم الكريم ، مع طلوع الشمس ، وقُوّاده يَحُفّون به ، والقُرّاء يقرءُون أمامه . فدخل على باب النبى ﷺ ، ورجاله السودان الذين يعرفونهم بالحَرّابة يطوفون أمامه ، وبأيديهم الحِرَاب . وهو فى هيئة اختصار[٢] عليه السكينة والوقار ، وسَمْتُ سَلفه الكريم رضى الله عنهم ، لابسا ثوب بياض ، متقلدا سيفه ، مختصِرا ، متعمّما بكُرْزيّة[٣] صوف بيضاء رقيقة . فلما انتهى بإزاء المقام الكريم وقف ، وبُسِط له وِطَاء كَتَّان ، فصلىّ ركعتين . ثم تقدم إلى الحجر الأسود فقبله ، وشرع فى

---

(١) الأوزاع : الجماعات ، ويريد هنا الأتباع . (٢) هيئة اختصار : فى غير زينة .

(٣) الكرزية : نوع من العمائم من نسيج خفيف .

الطواف ، وقد علا فى قبة زمزم صَبِىّ ، هو أخو المؤذن الزمزمىّ ، هو أول المؤذنين أذانا ، به يقتدون ، وله يتبعون ، وقد لبس أفخر ثيابه وتعمّم . فعندما يُكْمِل الأمير شوطا واحدا ، ويقرب من الحِجْر ، يندفع الصبىّ فى أعلى القبة رافعا صوته بالدعاء ، ويستفتحه بصَبَّحَ الله مولانا الأمير بسعادة دائمة ، ونعمة شاملة . ويَصِل ذلك بتهنئة الشهر ، بكلام مسجوع مطبوع ، حفيل الدعاء والثناء . ثم يختم ذلك بثلاثة أبيات أو أربعة من الشعر فى مدحه ، ومدح سلفه الكريم ، وذكْر سابقة النبوة رضى الله عنهم . ثم[1] يسكت فإذا أطل من الركن اليمانىّ يريد الحجر ، اندفع بدعاء آخر ، على ذلك الأسلوب ووصله بأبيات من الشعر غير الأبيات الأُخَر فى ذلك المعنى بعينه ، كأنها منتزعة من قصائد مُدِح بها . هكذا فى السبعة الأشواط ، إلى أن يفرغ منها . والقراء فى أثناء طوافه أمامه . فينتظم من هذه الحال والأبّهة ، وحسن صوت ذلك الداعى على صِغَره لأنه ابن إحدى عشرة سنة أو نحوها ، وحُسْن الكلام الذى يورده نثرا ونظما ، وأصوات القرّاء وعلوّها بكتاب الله عز وجل ، مجموعٌ يحرِّك النفوس ويُشْجِيها ، ويَسْتَوْكِف[2] العيون ويُبْكِيها ، تذكّرا لأهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا . فإذا فرغ من الطواف ركع عند الملتزَم ركعتين ، ثم جاء وركع خلف المقام أيضا . ثم ولّى منصرفا وحلبته[3] تحف به . ولا يظهر فى الحرم إلا لمُستَهلّ هلال آخر ، هكذا دائما .

والبيت العتيق مبنىّ بالحجارة الكبار الصُمّ السُّمْر ، قد رُصّ بعضها على

---

(١) خـ : وثم .

(٢) يستوكف : يبكى .

(٣) حلبته : جماعته .

بعض ، وأُلْصِقت بالعَقْد الوثيق إلصاقا لا تُحِيله[1] الأيام ، ولا تقصمه الأزمان . ومن العجيب أن قطعة انصدعت من الركن اليمانىّ ، فسُمّرت بمسامير فضّة ، وأُعيدت كأحسن ما كانت ، والمسامير فيها ظاهرة .

ومن آيات البيت العتيق أنه قائم وسط الحرم كالبُرْج الْمُشَيَّد ، وله التنزيه الأعلى . وحمام الحَرَم لا تُحْصَى كثرة ، وهى من الأمن بحيث يُضْرَب بها المثل ، ولا سبيل أن تنزل بسطحه الأعلى حمامة ، ولا تحلّ فيه بوجه ولا على حال . فترى الحمامَ يتجلى على الحرم كله ، فإذا قربت من البيت عَرَّجت عنه يمينا أو شمالا . والطيور سواها كذلك . وقرأتُ فى أخبار مكة أنه لا ينزل عليه طائر إلا عند مرض يصيبه ، فإما أن يموت لحينه أو يبرأ . فسبحان من أورثه التشريف والتكريم .

ومن آياته أن بابه الكريم يُفْتَح فى الأيام المعلومة المذكورة ، والحرم قد غصّ بالخلق ، فيدخله الجميع ولا يضيق عنهم بقدرة الله عز وجل ، ولا يبقى فيه موضع إلا ويصلى فيه كلُّ أحد . ويتلاقى الناس عند الخروج منه ، فيسأل بعضهم بعضا : هل دَخَل البيت ذلك اليومَ ؟ فكلٌّ يقول : دخلتُ وصليتُ فى موضع كذا وموضع كذا ؛ حيث صلَّى الجميع . ولله الآيات البينات ، والبراهين المعجزات ، سبحانه وتعالى .

ومن عجائب اعتناء الله تبارك وتعالى به ، أنه لا يخلو من الطائفين ساعةً من النهار ولا وقتا من الليل . فلا تجد من يُخبر أنه رآه دون طائف به . فسبحان من كرَّمه وعظَّمه ، وخلَّد له التشريف إلى يوم القيامة .

وفى أعلى بلاطات الحرم سطح يُطيف بها كلها من الجوانب الأربعة

---

[1] تحيله : تحوله وتغيره .

وهو مشرَّف كله بشُرُفات مبسوطة مركّنة ، فى كل جانب من الشرفة ثلاثة أركان ، كأنها أيضا شرفات أخر صغار . والركن الأسفل منها متّصل بالركن الذى يليه من الشرفة الأخرى . وتحت كل صِلة منها ثقب مستدير فى دور الشبر ، منفوذ يخترقه ، يضرب فيه شعاعُ الشمس أو القمر ، فيلوح كأنها أقمار مستديرة ، يتصل ذلك بالجوانب الأربعة[١] كلها ، كأن الشرفات المذكورة بُنيت شقة واحدة ، ثم أُحْدثت فيها هذه التقاطيع والتراكين ، فجاءت عجيبة المنظر والشكل . وفى النصف من كل جانب من الجوانب الأربعة المذكورة شُقة من الجص ، معترضة بين الشرفات ، مُخَرَّمة فرجيَّة[٢] ، طولها نحو الثلاثين شبرا تقديرا ، تقابل كلُّ شقة منها صفحا من صفحات الكعبة المقدسة ، قد عَلَتْ على الشرفات كالتاج . وللصوامع أيضا أشكال بديعة ، وذلك أنها ارتفعت بمقدار النصف ، مركّنة من الأربعة[١] جوانب بحجارة رائقة النقش ، عجيبة الوضع ، قد أحاط بها شُبّاك من الخشب الغريب الصنعة . وارتفع عن الشباك عمود فى الهواء كأنه مخروط ، مختمٌ كله بالآجرّ تختيما يتداخل بعضه على بعض ، بصنعة تستميل الأبصار حسنا . وفى أعلى ذلك العمود ، الفَحْلُ[٣] وقد استدار به أيضا شبّاك آخر من الخشب ، على تلك الصنعة بعينها . وهى متميزة الأشكال كلها ، لا يشبه بعضها بعضا . لكنها على هذا المثال المذكور ، من كَوْن نصفها الأول مركّنا ، ونصفها الأعلى عمودا لا ركنَ له .

وفى النصف الأعلى من قبة زمزم ، والقبة العبّاسية التى تسمّى السقاية ،

---

(١) خـ : الأربع .　　(٢) خـ : ... جية .

(٣) الفحل : الكرة التى فى أعلى العمود أو المئذنة أو القبة .

والقبة التى تليها[1] منحرفة عنها يسيرا المنسوبة لليهودية : صنعةٌ من قَرْنَصة[2] الخشب عجيبة ، قد تأنّق الصانع فيها ، وأحدق بأعلاها شبّاك مُشَرْجَب[3] من الخشب ، رائق الخَلَل والتأريج ، وداخل شبّاك قبة زمزم سطحٌ ، وقد قام فى وسطه شبه فحل الصومعة . وفى ذلك السطح يؤذّن الزمزمىّ ، وقد انخرط من ذلك الفحل عمود من الجص ، واستقر فى رأسه حديد ، تُتَّخذ مِشْعَلا فى شهر رمضان المعظم .

وفى الصفح الناظر إلى البيت العتيق من القبة ، سلاسل فيها قناديل من زجاج معلَّقة ، توقد كل ليلة . وفى الصفح الذى عن يمينه ، كذلك ، وهو الناظر إلى الشمال . وفى كل جانب منها ثلاثة شراجيب مقوَّمة كأنها أبواب ، وقد قامت على سَوَار من الزجاج صغار ، لم يُرَ أبدع منها صنعة ، منها ما هو مفتول فتل السوار ، ولا سيما الجانب الذى يقابل الحجرَ الأسود من قبة زمزم ، فإن سواريه فى نهاية من إتقان الصنعة ، قد أُدِير بكل سارية منها رءوس ثلاثة أو أربعة ، وتحت ما بين كل رأس ورأس ... وأُحْدثت[4] فيه صنائع من النقش عجيبة المنظر ، وربما فُتِل بعضها على الصفة السواريّة . وهذا الجانب الذى يقابل الحجر الأسود من القبة المذكورة تتصل به مصطبة من الرخام دائرة بالقبة ، يجلس الناس فيها مُعتبِرين بشرف ذلك الموضع ، لأنه أشرف مواضع الدنيا المذكورة بشرف مواضع الآخرة ، لأن الحجر الأسود أمامك ، والباب الكريم مع البيت قبالتك ، والمقام عن يمينك ، وباب الصفا عن يسارك ، وبئر زمزم وراء ظهرك . وناهيك بهذا !

---

(١) خـ : إليها ، انظر ص ٨٩ . (٢) قرنصة : نحت .

(٣) مشرجب : مشبك على هيئة مربعات صغيرة .

(٤) خـ : ورفو واحد من (كذا) .

وينطبق على كل شرجب من تلك الشراجيب أعمدة حديد ، قد تركّب بعضها على بعض كأنها شراجيب أخر . وأحد أركان شبّاك الخشب المحدق بالقبة العباسيّة يتصل بأحد أركان شباك القبة اليهودية حتى يتماسا . فمن يكون فى أعلى سطح هذه ينفتل إلى سطح الأخرى من الركنين المذكورين . وداخل هذه القباب صنعة من القرنصة الجصية رائقة الحسن .

وللحرم أربعة أئمة سنية ، وإمام خامس لفرقة تسمى الزيدية[١] . وأشراف أهل هذه البلدة على مذهبهم ، وهم يزيدون فى الأذان : « حَيَّ على خيرِ العمل » ، إثرَ قول المؤذّن : « حَيَّ على الفَلاح » ، وهم روافض سبّابون ، والله من وراء حسابهم وجزائهم ، ولا يُجمِّعون[٢] مع الناس ، إنما يصلّون ظُهرا أربعا . ويصلّون المغرب بعد فراغ الأئمة من صلاتها .

فأول الأئمة السنية الشافعيُّ رحمه الله ، وإنما قدمنا ذكره لأنه المقدَّم من الإمام العباسى . وهو أول من يصلّى ، وصلاته خلف مقام إبراهيم ، عليه السلام وعلى نبينا الكريم ، إلا صلاة المغرب فإن الأربعة الأئمة يصلونها فى وقت واحد مُجتمِعين ، لضيق وقتها : يبدأ مؤذن الشافعي بالإقامة ، ثم يقيم مؤذنو سائر الأئمة . وربما دخل فى هذه الصلاة على المُصلّين سَهوٌ وغفلة ، لاجتماع التكبير فيها من كل جهة . فربما ركع المالكىّ بركوع الشافعى أو الحنفى ، أو سلّم أحدهم . بغير سلام إمامه . فترى كل أُذُن مُصيخة لصوت إمامها أو صوت مؤذّنه ، مخافةَ السهو . ومع هذا فيحدث السهو على كثير من الناس . ثم المالكىّ رحمه الله ، وهو يصلّى قُبالة الركن اليمانى . وله محراب[٣] حجر ،

---

(١) الزيدية : إحدى فرق الشيعة .　　(٢) يجمعون : يصلون الجمعة .

(٣) خـ : محاريب .

يشبه محاريب الطرق الموضوعة فيها . ثم الحنفى رحمه الله ، وصلاته قبالة الميزاب ، تحت حَطِيم مصنوع له . وهو أعظم الأئمة أبّهة ، وأفخرهم آلة من الشمع وسواها ، بسبب أن الدولة الأعجمية كلها على مذهبه . فالاحتفال له كثير ، وصلاته آخِرا . ثم الحنبلىّ رحمه الله ، وصلاته مع صلاة المالكى فى حين واحد ، موضع صلاته يقابل ما بين الحجر الأسود والركن اليمانى . ويصلى الظهر والعصر قريبا من الحنفى ، فى البلاط الآخذ من الغرب إلى الشمال . والحنفى يصليهما فى البلاط الآخذ من الغرب إلى الجنوب ، قبالة محرابه ، ولا حَطِيم له . وللشافعى بإزاء المقام حطيم حفيل .

وصِفَةُ الحطيم خشبتان موصول بينهما بأذرع شبه السُلّم ، تقابلهما خشبتان على تلك الصفة ، قد عُقِدت هذه الخُشُب على رِجْلَيْن من الجص غير بائنة الارتفاع . واعترض فى أعلى الخشب خشبة مسمّرة فيها ، قد نزلت منها خطاطيف حديد ، فيها قناديل معلَّقة من الزجاج . وربما وُصِل بالخشبة المعترضة العليا شبّاك مشرجَب بطول الخشبة .

وللحنفى بين الرِّجْلَين الجصيّتين المتعقّدتين على الخشب ، محراب يصلّى فيه . وللحنبلى حطيم معطَّل ، هو قريب من حطيم الحنفى ، وهو منسوب لرامَشْت[١] أحد الأعاجم ذوى الثراء ، وكانت له فى الحرم آثار كريمة من النفقات ، رحمه الله . ويقابل الحجرَ حطيم معطَّل أيضا ، يُنْسَب للوزير المقدَّم ، بهذا اللفظ المجهول .

ويطيف بهذه المواضع كلها ــ دائرَ البيت العتيق وعلى بُعْد منه يسيرا ــ مَشاعيلُ توقد فى صحاف حديد فوق خُشُب مركوزة ، فيتّقد الحر

---

(١) انظر عنه ابن حوقل ١٩٨ ، التعليقة i

الشريف كله نورا . ويوضع الشمع بين أيدى الأئمة فى محاريبهم . والمالكىّ أقلهم شمعا ، وأضعفُهم حالا ، لأن مذهبه فى هذه البلاد غريب . والجمهور على مذهب الشافعى ، وعليه علماء البلاد وفقهاؤها ، إلا الإسكندرية وأكثر أهلها مالكيون وبها الفقيه ابن عوف ، وهو شيخ كبير من أهل العلم ، بقية الأئمة المالكية .

وفى إثر كل صلاة مغرب ، يقف المؤذن الزمزمىّ فى سطح قبة زمزم ، ولها مَطْلع على أدراج من عود ، فى الجهة التى تقابل باب الصفا ، رافعا صوته بالدعاء للإمام العباسى أحمد الناصر لدين الله ، ثم للأمير مكثر ، ثم لصلاح الدين أمير الشام وجهات مصر كلها واليمن ، ذى المآثر الشهيرة ، والمناقب الشريفة فإذا انتهى إلى ذكره بالدعاء ، ارتفعت أصوات الطائفين بالتأمين ، بألسنة تمدّها القلوب الخالصة ، والنيات الصادقة . وتَخفُق[١] الألسنة بذلك خفقا يُذيب القلوب[٢] خشوعا ، لما وهب الله لهذا السلطان العادل من الثناء الجميل ، وألقى عليه من محبة الناس ، وعباد الله شهدائه فى أرضه . ثم يصل ذلك بدعاء لأمراء اليمن من جهة صلاح الدين ، ثم لسائر المسلمين والحجّاج والمسافرين ، وينزل . هكذا دأبه دائما أبدا .

وفى القبة العباسية المذكورة خزانة تحتوى على تابوت مبسوط متسع ، وفيه مصحف أحد الخلفاء الأربعة[٣] ، أصحاب رسول الله ﷺ ، وبخط يد زيد بن ثابت رضى الله عنه ، مُنتَسخ سنة ثمان عشرة من وفاة رسول الله

---

(١) تخفق : تتحرك وتردد . (٢) هـ : الأنفس .
(٣) هو مصحف عثمان بن عفان رضى الله عنه .

ﷺ ، وينقص منه ورقات كثيرة . وهو بين دفتى عودٍ مجلد[١] بِمَغَاليق من صُفْر ، كبير الورقات واسعها ، عايَنَّاه وتبركنا بتقبيله ، ومسح الخدود فيه . نفع الله بالنية فى ذلك . وأعلمنا صاحبُ القبة المتولى لعرضه علينا : أن أهل مكة متى أصابهم قحط ، أو نالتهم شدة فى أسعارهم ، أخرجوا المصحف المذكور ، وفتحوا باب البيت الكريم ، ووضعوه فى القبة المباركة مع المقام الكريم : مقام الخليل إبراهيم صلى الله على نبينا وعليه . واجتمع الناس كاشفين رءوسهم ، داعين متضرعين ، وبالمصحف الكريم والمقام العظيم إلى الله متوسلين . فلا ينفصلون عن مقامهم ذلك إلا ورحمة الله عز وجل قد تداركتهم ، والله لطيف بعباده ، لا إلـٰه سواه .

وبإزاء الحرم الشريف ديار كثيرة لها أبواب يُخْرَج منها إليه . وناهيك بهذا الجوار الكريم ! كدار زُبَيدة ، ودار القاضى ، ودار تعرف بالعَجَلة ، وسواها من الديار ، وحول الحرم أيضا ديار كثيرة تُطيف به ، لها مناظر وسطوح يُخْرَج منها إلى سطح الحرم ، فيبيت أهلها فيه ، ويبرّدون ماءهم فى أعالى شرفاته ، فهم من النظر إلى البيت العتيق دائما فى عبادة متصلة ، والله يَهْنِئهم ما خصّهم به من مجاورة بيته الحرام ، بمَنّه وكرمه .

وألفيتُ بخط الفقيه الزاهد الورع أبى جعفر الفنكىّ القرطبىّ : أن ذَرْع المسجد الحرام فى الطول والعرض ما أثبتُّه أولا ، وطول مسجد رسول الله ﷺ ثلاث مئة ذراع ، وعرضه مئتان ، وعدد سواريه ثلاث مئة ، ومناراته ثلاث ، فيكون تكسيره أربعة وعشرين مَرْجِعا[٢] من المراجع المغربية ، وهى

---

(١) خـ : مجه ..

(٢) المرجع : مقياس للأراضى استعمل فى المغرب

خمسون ذراعا فى مثلها ؛ وطول مسجد بيت المقدس أعاده الله للإسلام سبع مئة وثمانون ذراعا ، وعرضه أربع مئة وخمسون ذراعا ، وسواريه أربع مئة وأربع عشرة سارية ، وقناديله خمس مئة ، وأبوابه خمسون بابا ، فيكون تكسيره من المراجع المذكورة مئة مرجع وأربعين مرجعا وخُمْسى مرجع .

ذكر أبواب الحرم الشريف ، قَدَّسَه الله

للحرم تسعة عشر بابا أكثرها مُفتَّح على أبواب كثيرة ، حسبما يأتى ذكره إن شاء الله :

« باب الصفا » : يفتح على خمسة أبواب ، وكان يسمى[1] قديما « باب بنى مَخْزوم » .

« باب الخلقيّين » : ويسمّى « بباب جِيَاد الأصغر » ، مفتّح على بابين : هو مُحْدَث .

« باب العباس » رضى الله عنه : هو يفتح على ثلاثة أبواب .

« باب علىّ » رضى الله عنه : مفتح على ثلاثة أبواب .

« باب النبىّ » ﷺ : يفتح على بابين .

باب صغير أيضا بإزاء باب بنى شيبة المذكور : لا اسم له[2] .

« باب بنى شيبة » : وهو يفتح على ثلاثة أبواب ، وهو « باب بنى عبد شمس » ، ومنه كان دخول الخلفاء .

---

(١) هـ : يعرف .

(٢) تقترح ر إدخال هذه الفقرة بعد باب الرباط .

« باب [دار] الندوة » : ثلاثة[١] ، البابان من دار الندوة منتظمان ، والثالث فى الركن الغربى من الدار .

فيكون عدد أبواب الحرم بهذا الباب المنفرد عشرين بابا .

باب صغير بإزاء بنى شيبة شبه خَوْخة الأبواب[٢] : لا اسم له ، وقيل : إنه يسمى « باب الرِّباط » ، لأنه يُدْخَل منه لرباط الصوفية .

باب صغير لدار العَجَلة : مُحْدَث .

« باب السُّدة » : واحد .

« باب العُمْرة » : واحد .

« باب حَزْوَرة » : على بابين .

« باب إبراهيم » ﷺ : واحد .

باب يُنْسَب لحَزْوَرة أيضا : على بابين .

« باب جِيَاد الأكبر » : على بابين .

« باب جياد الأكبر أيضا » : على بابين[٣] .

باب ينسب لجياد أيضا : على بابين . ومنهم من ينسب البابين من هذه الأبواب الأربعة الجيادية إلى الدَّقَّاقين ، والروايات فيها تختلف ، لكنا اجتهدنا فى إثبات الأقرب من أسمائها إلى الصحة ، والله المستعان ، لا رب سواه .

وباب إبراهيم ﷺ هو فى زاوية كبيرة متسعة ، فيها دار المِكْنَاسىّ الفقيه ، الذى كان إمام المالكية فى الحرم ، رحمه الله . وفيها أيضا غرفة هى

---

(١) أى يفتح على ثلاثة أبواب ، وكذا الأمر فيما يلى .

(٢) الخوخة : الباب الصغير فى الباب الكبير .

(٣) تذهب ر إلى أن هذه العبارة محرفة ، لتكرار الاسم .

خزانة للكُتُب[١] المُحْبَسة على المالكية فى الحرم . والزاوية المذكورة متصلة بالبلاط الآخذ من الغرب إلى الجنوب ، وخارجة عنه . وبإزاء الباب المذكور عن يمين الداخل عليه ، صومعة على غير أشكال الصوامع المذكورة ، فيها تَخَاريم فى الجص ، مستطيلة الشكل كأنها محاريب ، قد حَفّت بها قرنصة غريبة الصنعة . وعلى الباب قبة عظيمة ، بائنة العلُوّ ، يقرب من الصومعة ارتفاعُها ، قد ضمن داخلها غرائبَ من الصنعة الجصّية ، والتخاريم القرنصية ، يعجز عنها الوصف . وظاهرها أيضا تقاطيع فى الجَص ، كأنها أرجُل مُدَوَّرة ، قد تركّبت دائرة على دائرة . وفحل الصومعة المذكورة على أرجل من الجصّ ، مفتَّح ما بين [كل] رِجْل ورِجْل . وخارج باب إبراهيم بئر تُنْسَب إليه عليه السلام .

وإنما بُدِئ بباب الصفا لأنه أكبر الأبواب ، وهو الذى يُخْرَج عليه إلى السعى . وكل وافد إلى مكة ، شرفها الله ، يدخلها بعُمْرة ، فيستحبّ له الدخول على باب بنى شيبة ، ثم يطوف سبعا ، ويخرج على باب الصفا ، ويجعل طريقه بين الأسطوانتين اللتين أمر المهدىّ ، رحمه الله بإقامتهما عَلَما لطريق رسول الله ﷺ إلى الصفا ، حسبما تقدم ذكره . وبين الركن اليمانى ست وأربعون[٢] خطوة ، ومنهما إلى باب الصفا ثلاثون خطوة . ومن باب الصفا إلى الصفا ست وسبعون خطوة . وللصفا أربعة عشر دَرَجا ، وهو على ثلاثة أقواس مشرَّفة ، والدرجة العليا متسعة كأنها مصطبة ، وقد أحدقت به الديار ، وفى سعته سبع عشرة خطوة .

وبين الصفا والميل الأخضر ما يأتى ذكره . والميل سارية خضراء ، وهى

---

(١) خـ : لكتب . المحبسة : الموقوفة . (٢) هـ : وسبعون .

خُضرة صباغيّة . وهى التى إلى ركن الصومعة ، التى على الركن الشرقىّ من الحرم ، على قارعة المسيل[١] إلى المروة ، وعن يسار الساعى إليها . ومنها يُرْمَل[٢] فى السعى إلى الميلين الأخضرين ، وهما أيضا ساريتان خضراوان ، على الصفة المذكورة . الواحدةُ منهما بإزاء باب على ، فى جدار الحرم ، وعن يسار الخارج من الباب . والميل الآخر[٣] يقابله ، فى جدار دار تتصل بدار الأمير مكثر . وعلى كل واحدة منهما لوح ، قد وُضِع على رأس السارية كالتاج ، ألفيتُ فيه منقوشا برسم مذْهَب : « إنَّ الصَّفَا والْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ » ... الآية[٤] . وبعدها « أَمَرَ بعمارة هذا الميل عبد الله وخليفته ، أبو محمد المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين ، أعز الله نصره ، فى سنة ثلاث وسبعين وخمس مئة » . وبين الصفا والميل الأول ثلاث وتسعون خطوة ، ومن الميل إلى الميلين خمس وسبعون خطوة ، وهى مسافة الرَّمَل جائيا وذاهبا من الميل إلى الميلين ، ثم من الميلين إلى الميل . ومن الميلين إلى المروة ثلاث مئة وخمس وعشرون خطوة . فجميع خُطَا الساعى من الصفا إلى المروة أربع مئة خطوة وثلاث وتسعون خطوة .

وأدراج المروة خمسة ، وهى بقوس واحد كبير ، وسعتُها سعة الصفا سبع عشرة [خطوة] . وما بين الصفا والمروة مسيل ، هو اليوم سوق حفيلة بجميع الفواكه ، وغيرها من الحبوب ، وسائر المبيعات الطعاميّة . والساعون لا يكادون يَخْلُصُون من كثرة الزحام . وحوانيتُ الباعة يمينا وشمالا . وما للبلدة سوق منتظمة سواها إلا البزّازين والعطّارين ، فهم عند باب بنى

---

(١) خـ : المسل مع علامة ط .
(٢) يرمل : يمشى سريعا .
(٣) كذا فى ب ؛ خـ : الأخضر .
(٤) سورة البقرة ، الآية ١٥٨ .

شية ، تحت السوق المذكورة ، وبمقربة تكاد تتصل بها .

وعلى الحرم الشريف جبل أبي قُبَيْس ، وهو فى الجهة الشرقية ، يقابل ركنَ الحجر الأسود . وفى أعلاه رِباط مبارك ، فيه مسجد ، وعليه سطح مُشْرِف على البلدة الطيبة ، ومنه يظهر حسنُها ، وحسن الحرم واتّساعه ، وجمال الكعبة المقدّسة القائمة وسطه . وقرأتُ فى أخبار مكة لأبى الوليد الأزرقىّ(١) أنه أول جبل خلقه الله عز وجل ، وفيه استُودِع الحَجَر زمن(٢) الطوفان ، وكانت قريش تسميه الأَمِين ، لأنه أدّى الحَجَر إلى إبراهيم ، ﷺ ، وفيه قبر آدم صلوات الله عليه ، وهو أحد أَخْشَبَىْ(٣) مكة ، والأخشب الثانى(٤) الجبل المتصل بقُعَيقِعان فى الجهة الغربية . صعدنا إلى جبل أبى قبيس المذكور ، وصلّينا فى المسجد المبارك . وفيه موضع موقف النبىّ ، ﷺ ، عند انشقاق القمر له ، بقدرة الله عز وجل . وناهيك بهذه الفضيلة والبركة ! والفضل بيد الله ، يؤتيه من يشاء ، حتى الجمادات من مخلوقاته ، لا إلٰه سواه . وفى أعلاه آثار بناء جص مشيد ، كان اتخذه مَعقِلا أميرُ البلد عيسى أبو مكثر المذكور ، فهدمه عليه أمير الحاج العراقىّ ، لمخالفة صدرت عنه ، فغادره خرابا(٥) .

---

(١) ١ : ٤٧٧ طبع وستنفلد . (٢) كذا ش ؛ خـ : من ؛ الأزرقى : عام .

(٣) أخشبا مكة : جبلا أبى قبيس وقعقعان ، والأخشب من الجبال : الخشن الغليظ ، أو الذى لا يرتقى فيه . (٤) كذا ش ، ب ؛ خـ : والجبل الثانى .

(٥) ذكر ابن الأثير فى الكامل فتنتين : وقعت أولاهما عام ٥٥٦ وولى فيها أمير الحاج أرغش عيسى بن قاسم أبا مكثر (١١ : ١٨٤) ، ووقعت الثانية عام ٥٧٩ ، وحدث فيها « بمكة حرب شديدة بين أمير الحاج طاشتكين وبين الأمير مكثر بن عيسى ، أمير مكة ، وكان الخليفة قد أمر أمير الحاج بعزل مكثر ، وإقامة أخيه داود مقامه ... فهرب أمير مكة =

وألفيتُ منقوشا على سارية خارج باب الصفا ، تقابل السارية الواحدة من اللتين أُقيمتا عَلَما لطريق النبى ، ﷺ ، إلى الصفا ، داخل الحرم ، المتقدمتى الذكر : « أمَر عبد الله محمد المهدى ، أمير المؤمنين ، أصلحه الله تعالى ، بتَوْسِعَة المسجد الحرام[1] ، مما يلى باب الصفا ، لتكون الكعبة فى وسط المسجد ، فى سنة سبع وستين ومئة » . فدل ذلك المكتوب على أن الكعبة المقدسة فى وسط المسجد ، وكان يُظَن بها الانحرافُ إلى جهة باب الصفا ، فاختبرنا جوانبها المباركة بالكَيْل ، فوجدنا الأمر صحيحا حسبما تضمّنه رسم السارية .

وتحت ذلك النقش ، فى أسفل السارية ، منقوش أيضا : « أمر عبد الله [محمد] المهدى أمير المؤمنين ، أصلحه الله ، بتوسعة الباب الأوسط ، الذى بين هاتين الأسطوانتين ، وهو طريق رسول الله ، ﷺ ، إلى الصفا » .

وفى أعلى السارية التى تليها منقوش أيضا : « أمر عبد الله المهدى محمد[2] أمير المؤمنين ، أصلحه الله ، بصَرْف الوادى إلى مَجْراه على عهد أبيه إبراهيم ، ﷺ ، وتوسعته بالرحاب[3] التى حول المسجد الحرام ، لحاجّ بيت الله وعُمّاره » . وتحتها أيضا منقوش ما تحت الأول ، من ذكر توسعة الباب الأوسط . والوادى المذكور هو الوادى المنسوب لإبراهيم ، ﷺ ، ومجراه على باب الصفا المذكور ، وكان السيل قد خالف مجراه ، فكان يأتى على

= مكثر ، فصعد إلى القلعة التى بناها على جبل أبى قبيس ، فحصروه بها ففارقها ... وأحرقوا دورا كثيرة » . وواضح أن الفتنة الثانية هى التى تتفق مع خبر المؤلف ، وإن حدثت فى أيام مكثر لا أيام أبيه .

(١) كذا هـ ؛ خـ : الحرم الشريف .

(٢) جعلتها ر : محمد المهدى .

(٣) خـ : وبالرحاب .

المسيل بين الصفا والمروة ، ويدخل الحرم ، فكان مدةَ مَدِّه بالأمطار يُطاف حول الكعبة سَبْحا . فأمر المهدى ، رحمه الله ، برفع موضع فى أعلى البلد ، يسمى رأس الرَّدْم ، فمتى جاء السيل عَرّج عن ذلك الردم إلى مجراه ، واستمر على باب إبراهيم إلى الموضع الذى يسمى المَسْفَلة ، ويخرج عن البلد ، ولا يجرى الماء فيه إلا عند نزول دِيَم[1] المطر الكثير . وهو الوادى الذى عَنَى ﷺ[2] بقوله ، حيث حكى الله تبارك وتعالى عنه : ﴿ رَبَّنَا أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْع ﴾[3] ، فسبحان من أبقى له الآيات البينات .

ذكر مكة ، شرفها الله تعالى ، وآثارها الكريمة ، وأخبارها الشريفة

هى بلدة قد وضعها الله عز وجل بين جبال مُحْدِقة بها ، وهى بطن واد مقدس ، كبيرة[4] ، مستطيلة ، تسع من الخلائق ما لا يحصيه إلا الله عز وجل .

ولها ثلاثة أبواب : أولها « باب المَعْلَى » : ومنه يُخْرَج إلى الجَبّانة المباركة ، وهى بالموضع الذى يعرف بالحَجُون . وعن يسار المارّ إليها جبل ، فى أعلاه ثنيّة عليها عَلَم شبيه[5] البرج ، يُخْرَج منها إلى طريق العُمْرة ، وتلك الثنية تعرف بكَداء ، وهى التى عنى حَسّان بقوله فى شعره[6] :

(١) الديم : جمع ديمة ، وهى مطر يدوم فى سكون بلا رعد ولا برق .

(٢) يريد إبراهيم الخليل عليه السلام .

(٣) سورة إبراهيم ، الآية ٣٧ .

(٤) ش ٣ : ١١٤ (١٠٧) : فى بطن واد مدينة كبيرة .

(٥) ش : يشبه .

(٦) الشطر المذكور هو الثانى ، وتمامه : * عدمنا خيلنا إن لم تروها * والبيت من قصيدته التى فى ص ١ من ديوانه ، طبع أوربا .

* تُثِير النَّقْعَ موعدُها كَدَاءُ *

فقال النبىّ ﷺ يومَ الفتح : « ادْخلُوا من حيث قال حسّان » . فدخلوا من تلك الثنية . وهذا الموضع الذى يعرف بالحَجُون هو الذى عناه الحارث ابن مُضاض الجرهمىّ[(١)] بقوله :

كَأنْ لم يكنْ بين الحَجُونِ إلى الصَّفَا … أَنِيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكةَ سامِرُ

بَلَى نحن كُنّا أهلَها فأبادنا … صُرُوفُ اللّيالى والجُدودُ العَوَاثرُ

وبالجبّانة المذكورة مدفن جماعة من الصحابة ، والتابعين ، والأولياء ، والصالحين ، قد دَثَرت[(٢)] مشاهدهُم المباركة ، وذهبت عن أهل البلد أسماؤهم . وفيه الموضع [الذى] صلب فيه الحجاج بن يوسف ، جازاه الله ، جثة عبد الله بن الزبير ، رضى الله عنهما . وعلى الموضع بقية عَلَم ظاهر إلى اليوم ، وكان عليه مَبْنىً[(٣)] مرتفع ، فهدمه أهل الطائف غَيْرةً منهم ، على ما كان يُجَدَّد من لعنة صاحبهم الحجّاج المذكور . وعن يمينك — إذا استقبلتَ الجبانة المذكورة — مسجد فى مسيل بين جبلين ، يقال : إنه المسجد الذى بايعت فيه الجنُّ النبىّ[(٤)] ﷺ وشرّف وكرّم .

وعلى هذا الباب المذكور طريق الطائف ، وطريق العراق ، والصعود إلى عرفات ، جعلنا الله ممن يفوز بالموقف فيها . وهذا الباب المذكور بين الشرق والشمال ، وهو إلى المشرق أَمْيل .

ثم « باب المَسْفَل »[(٥)] : وهو إلى جهة الجنوب ، وعليه طريق اليمن ، ومنه

---

(١) أورد ياقوت البيتين (٢ : ٢١٥) ونسبه إلى مضاض بن عمرو .

(٢) دثرت : بليت وانمحت .

(٣) ش : بناء .

(٤) خ : للنبى .

(٥) ش : باب السفلى .

كان دخول خالد بن الوليد ، رضى الله عنه ، يوم الفتح .

ثم « باب الزّاهِر »[١] : ويعرف أيضا بباب العُمْرة ، وهو غربىّ ، وعليه طريق مدينة الرسول ﷺ ، وطريق الشام ، وطريق جُدّة ، ومنه يُتوجّه إلى التَّنعِيم ، وهو أقرب ميقات المعتمرين ، يُخْرَج من الحرم إليه على باب العمرة ، ولذلك[٢] أيضا يسمى هو بهذا الاسم . والتنعيم من البلدة على فرسخ ، وهو طريق حسن فسيح ، فيه الآبار العذبة التى تسمّى بالسُّبَيكة .

وعندما تخرج من البلدة بنحو ميل تلقى مسجدا ، بإزائه حجر موضوع على طريق كالمصطبة[٣] ، يعلوه حجر آخر مُسنَد فيه نقش دائر الرسم ، يقال إنه الموضع الذى قعد فيه النبىّ ، ﷺ ، مستريحا ، عند مجيئه من العمرة . فيتبرّك الناس بتقبيله ، ومسح الخدود فيه . وحُقَّ لهم ذلك[٤] . ويستندون إليه لتنال أجسامُهم بركةَ لمسه . ثم بعد هذا الموضع بمقدار غَلْوة ، تلقى على قارعة الطريق ، من جهة اليسار للمتوجّه إلى العمرة ، قبرين قد علَتْهما أكوام من الصخر عظام ، يقال : إنهما قبر أبى لَهَب وامرأته ، لعنهما الله . فما زال الناس فى القديم إلى هَلُمّ جَرّا يتخذون سنةً : رَجْمَهما بالحجارة ، حتى علاهما من ذلك جبلان عظيمان .

ثم تسير منها بمقدار ميل وتلقى الزاهر[٥] ، وهو مُبتَنى[٦] على جانبى

---

(١) كذا ش ، ب ؛ خـ : الزهراء . وفى هـ التعليقة التالية : باب الزهراء يسمى الآن باب الشبيكة . وانظر معجم البلدان لياقوت ٣ : ٢٥٩ ، وأخبار مكة للأزرقى ، فهرسه .

(٢) خـ : وكذلك .

(٣) ينتهى السقط هنا .

(٤) ط : وحق ذلك لهم .

(٥) خـ ثانية : الزهراء .

(٦) ش : مبنى .

الطريق ، يحتوى على دار[١] وبساتين ، والجميع ملك أحد المكيين[٢] ، وقد أُحْدَث فى المكانِ مَطَاهر وسِقَاية للمُعْتَمِرين . وعلى جانب الطريق دكَّان مستطيل ، تصَفّ عليه كِيزان الماء ، ومَرَاكن مملوءة للوضوء ، وهى القَصَارِىّ الصغار . وفى الموضع بئر عذبة ، يُمْلأ منها المَطَاهر المذكورة ، فيَجِد المعتمرون فيها مَرْفقا كبيرا[٣] للطهور ، والوضوء ، والشرب . فصاحبها على سبيل معمورة بالأجر والثواب . وكثير من الناس المتأجِّرين[٤] من يعينه على ما هو بسبيله . وقيل : إن له من ذلك فائدا كبيرا .

وعن جانبى الطريق ، فى هذا الموضع[٥] ، جبال أربعة : جبلان من هنا ، وجبلان من هنا ، عليها أعلام من الحجارة ، وذُكر لنا أنها الجبال المباركة ، التى جعل إبراهيم عليه السلام عليها أجزاء الطير ثم دعاهن ، حسبما حَكَى الله عز وجل عنه ، عند[٦] سؤاله إياه جل وتعالى أن يُرِيَه كيف يحيى الموتى[٧] . وحول تلك الجبال الأربعة جبال غيرها ، وقيل : إن التى جعل إبراهيم عليها الطير سبعة منها ، والله أعلم .

وعند إجازتك الزاهر[٨] المذكور ، تمر بالوادى المعروف بذى طُوَى ، الذى ذُكِر أن النبىّ ﷺ نزل فيه عند دخوله مكة ، وكان ابن عمر ، رضى الله عنه[٩] ، يغتسل فيه ، وحينئذ يدخلها . وحوله آبار تعرف بالشُّبَيْكة . وفيه مسجد يقال : إنه مسجد إبراهيم ، عليه السلام . فتأمّل بركة هذا

---

(١) ب : ديار .

(٢) خـ : الملكيين ، تحريف .

(٣) ش : منفعة كبيرة .

(٤) المتأجرون : طالبو الأجر . وفى خـ : المتأخرين .

(٥) ش : وعلى جانبى الطريق فى الزاهر .

(٦) عنه عند : ليست فى ط .

(٧) الآية ٢٦٠ من سورة البقرة .

(٨) خـ : الزهراء .

(٩) ط : عنهما .

الطريق ، ومجموع هذه[١] الآيات التى فيه ، والآثار المقدسة التى اكتنفتْه . ثم تُجيز[٢] الوادى إلى مضيق ، تخرج منه إلى الأعْلام التى وُضِعت حَجْزا بين الْحِلّ والْحَرَم ، فما داخلها إلى مكة حرم ، وما خارِجُها حِلّ ، وهى كالأبراج مصفوفة[٣] ، كبار وصغار ، واحد بإزاء آخر ، وعلى مقربة منه تأخذ من أعلى جبل يعترض[٤] عن يمين الطريق ، فى التوجّه إلى العُمرة ، وتشقّ الطريقَ إلى جبل[٥] عن يساره ، ومنه[٦] ميقات المُعْتَمِرين ، وفيها مساجد مبنية بالحجارة ، يصلى المعتمرون فيها ، ويحْرِمون منها . ومسجد عائشة ، رضى الله عنها ، خارج هذه الأعلام بمقدار غَلْوتين ، وإليه يصل المالكيّون ، ومنه يُحْرِمون . وأما الشافعيون فيحرمون من المساجد التى حول الأعلام المذكورة . وأمام مسجد عائشة رضى الله عنها ، مسجد يُنْسَب لعلىّ بن أبى طالب ، رضى الله عنه .

ومن عجيب ما عُرض علينا بباب بنى شيبة المذكور ، عَتَبٌ من الحجارة العظام ، طوال كأنها مصاطب ، صُفّت أمام الأبواب الثلاثة المنسوبة لبنى شيبة ، ذُكِر[٧] لنا أنها الأصنام التى كانت قريش تعبدها فى جاهليتها ، وكبيرها هُبَل بينها ، قد كُبَّت على وجوهها ، تطؤها الأقدام ، وتمتهنها بأنْعِلتها العوامّ ، ولم تُغْنِ عن أنفسها فضلا عن عابديها شيئا ؛ فسبحان المُنفرِد بالوحدانية ، لا إلٰه سواه . والصحيح فى أمر تلك الحجارة أن النبىّ ﷺ ،

(١) ليست فى ط .
(٢) ط : وتجيز . ب : وتجىء .
(٣) ش : المصفوفة .
(٤) ط : الجبل الذى يعترض . خـ : الجبل يعترض .
(٥) ط : أعلى الجبل .
(٦) ش : وهما .
(٧) خـ : ذكرت .

أمر يومَ فتح مكة بكسر الأصنام وإحراقها . وهذا الذى نُقِل إلينا غير صحيح ، وإنما تلك التى على الباب حجارة منقولة ، وعُنِيت العوام[١] بتشبيهها إلى الأصنام لعظمها .

ومن جبال مكة المشهورة — بعد جبل أبى قبيس — جبل حِرَاء ، وهو فى الشرق ، على مقدار فرسخ أو نحوه ، مُشْرِف على مِنًى ، وهو مرتفع فى الهواء ، عالى القُنَّة[٢] وهو جبل مبارك ، كان النبىّ ﷺ كثيرا ما ينتابه[٣] ، ويتعبّد فيه ، واهتزّ تحته فقال له النبىّ ﷺ : « اسكُنْ حِرَاءُ ، فما عليك إلا نبىّ وصِدِّيق وشَهِيد »[٤] ، وكان معه أبو بكر ، وعمر رضى الله عنهما ، ويروى : « اثبُتْ فما عليك إلا نبىّ وصدّيق وشَهِيدان » ، وكان عثمان رضى الله عنه معهم . وأول آية نزلت من القرآن على النبى ، ﷺ ، فى الجبل[٥] المذكور ، وهو آخذ من الغرب إلى الشمال . ووراء طرفه الشمالى جبانة المعلى[٦] التى تقدم ذكرها . وسور مكة إنما كان من جهة المَعْلَى ، وهو مدخل إلى البلد ، ومن جهة المَسْفَل ، وهو مدخل أيضا إليه . ومن جهة باب العمرة وسائر الجوانب جبال ، لا يُحْتَاج معها إلى سور . وسورها اليوم متهدم إلا آثاره الباقية ، وأبوابه القائمة .

---

(١) ط : القوم .
(٢) القنة : القمة . وفى خ : القبة .
(٣) ينتابه : يأتيه مرة بعد أخرى .
(٤) كذا فى ر . ورواية كتب الحديث : أو ، فى موضوع واوى العطف ، أو فإنما عليك نبى وصديق ... وانظر سنن أبى داود ٢/٢٨٣ ، وجامع الترمذى ٢/٢١٠ .
(٥) زادت ر : نزلت فى الجبل . ولا ضرورة لها .
(٦) ط : الحجون .

ذكر بعض مشاهدها المقدسة ، وآثارها المعظمة[١]

مكة ، شرّفها الله ، كلها مشهد كريم ، كفاها شرفا ما خصَّها الله به من مَثابةِ[٢] بيته العظيم ، وما سبق لها من دعوة الخليل إبراهيم[٣] ، وأنها حرم الله وأمنه ، وكفاها أنها مَنْشأ النبى الأمى الذى[٤] آثره الله بالتشريف والتكريم ، وابتعثه بالآيات والذكر الحكيم ، فهى مبدأ نزول الوحى والتنزيل ، وأول مهبط الرُّوح الأمين جبريل ، وكانت مثابة أنبياء الله ورُسُله الأكرمين ، وهى أيضا مسقط رءوس جماعة من الصحابة القُرَشيين المهاجرين ، الذين جعلهم الله مَصابيح الدين ، ونجوما للمهتدين .

فمن مشاهدها التى عايَنّاها « قُبَّة الوحى » ، وهى فى دار خَدِيجة أم المؤمنين ، رضى الله عنها ، وفيها[٥] كان ابتناء النبى ﷺ بها ، وقبة[٦] صغيرة أيضا ، فى الدار المذكورة ، فيها كان مولد فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، وفيها أيضا وَلَدت هى[٧] سَيِّدَىْ شباب أهل الجنة : الحسنَ والحسين ، رضى الله عنهما[٨] . وهذه المواضع المقدسة المذكورة مُغْلقة مصونة ، قد بُنِيت بناء يليق بمثلها .

---

(١) ط : المعظمة ... المقدسة .

(٢) المثابة : المأوى ، ومجتمع الناس .

(٣) يشير إلى الآيات ٣٥ ــ ٣٧ من سورة إبراهيم .

(٤) ط : النبى ﷺ الذى .

(٥) ط : وبها .

(٦) خـ : وفيه قبة .

(٧) هى : ليست فى ط .

(٨) هـ : هنا وهم المؤلف . وذلك حق لأن الحسن والحسين ولدا فى المدينة لا مكة .

ومن مشاهدها الكريمة أيضا مَوْلِد النبيّ ﷺ ، والتربة الطيبة[١] التى هى أول تربة مست جسمَه الطاهر ، بُنِى عليها مسجد لم يُرَ أحفل بناءً منه ، أكثره ذهبٌ منزَّل به . والموضع المقدس الذى سقط فيه ﷺ ، ساعة الولادة السعيدة المباركة ، التى جعلها الله رحمةً للأمة أجمعين ، محفوف ... صهريج صغير سطحه فضة[٢] . فيا لها تربة شرفها الله بأن جعلها مسقط أطهر الأجسام ، ومولد خير الأنام ، صلى الله عليه ، وعلى آله وأصحابه[٣] الكرام ، وسلّم تسليما . يُفْتَح هذا الموضع[٤] ، فيدخله الناس كافة متبرّكين به ، فى شهر ربيع الأول ، ويوم الاثنين منه ؛ لأنه كان شهر مولد النبىّ ﷺ ، وفى اليوم المذكور وُلِد ﷺ . وتفْتَح المواضع المقدسة المذكورة كلها . وهو يوم مشهور[٥] بمكة دائما .

ومن مشاهدها الكريمة أيضا « دار الخَيْزُران » ، وهى الدار التى كان النبىّ ﷺ يعبد الله فيها سِرا ، مع الطائفة الكريمة المبادِرة للإسلام من أصحابه ، رضى الله عنهم ، حتى نشر اللهُ الإسلام منها ، على يدى الفاروق عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه . وكفى بهذه الفضيلة .

ومن مشاهدها الكريمة[٦] أيضا « دار أبى بكر الصّدّيق » رضى الله عنه ، وهى اليوم دار سكة الأمير[٧] ، ويقابلها جدار فيه حجر مبارك ، يتبرّك الناس بلمسه ، يقال : إنه كان يسلّم على النبىّ ، ﷺ ، متى اجتاز عليه .

---

(١) ط : الطاهرة .
(٢) ط : محفوف بالفضة .
(٣) ﷺ آله وأهله وأصحابه .
(٤) ط : الموضع المبارك .
(٥) رجحت رأنها : مشهود ، وهى أصوب .
(٦) الكريمة : ليست فى ط .
(٧) ط : دارسة الأثر .

وذُكِر أنه ﷺ جاء يوما إلى[1] دار أبى بكر ، رضى الله عنه ، فنادى به ولم يكن حاضرا ، فأنطق الله عز وجل الحجرَ المذكور ، وقال : « يا رسول الله ، ليس بحاضر » . وكانت من إحدى آياته المعجزات ، ﷺ .

ومن مشاهدها أيضا[2] قبة بين الصفا والمروة ، تُنْسَب لعمر بن الخطاب ، رضى الله عنه . [وفى وسطها بئر][3] ويقال : إنه كان يجلس فيها للحُكْم رضى الله عنه . والصحيح فى هذه القبة : أنها قبة حفيده عمر بن عبد العزيز ، رضى الله عنه ، وبإزاء داره المنسوبة إليه ، وفيها كان يجلس للحكم أيامَ تَوَلِّيه مكة . كذلك حَكى لنا أحدُ أشياخنا الموثوقين . ويقال : إن البئر كانت فى القديم فيها ، ولا بئر فيها الآن ، لأنا دخلناها فألفيناها مسطَّحة ، وهى حفيلة الصنعة .

وكانت بمقربة من الدار التى نزلنا فيها دارُ جعفر بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، ذى الجَناحَيْن .

وبجهة المسفل ، وهو آخر البلد : مسجد منسوب لأبى بكر الصديق ، رضى الله عنه ، يحف[4] به بستان حسن ، فيه النخل[5] والرمان وشجر العُنّاب ، وعاينّا فيه شجر الحِنّاء . وأمام المسجد بيت صغير فيه محراب ، قيل[6] : إنه كان مختبأ له ، رضى الله عنه ، من المشركين الطالبين له .

وعلى مقربة من دار خديجة ، رضى الله عنها[7] ، وفى الزقاق الذى الدار المكرمة فيه : مصطبة فيها مُتّكأ ، يقصد الناس إليها ، ويصلون فيها ،

---

(١) ط : أنه جاء يوما — ص — إلى .
(٢) أيضا : ليست فى ط .
(٣) زيادة ضرورية عن ط .
(٤) خـ : محتفا .
(٥) ط : النخيل .
(٦) ط : يقال .
(٧) ط : رضى الله عنها المذكورة .

ويتمسّحون بأركانها ؛ لأن موضعها[١] كان موضع قعود النبى ، صلى الله عليه وسلم .

ومن الجبال التى فيها أثر كريم ، ومشهد عظيم : الجبلُ المعروف « بجبل ثور »[٢] ، وهو فى الجهة اليمنية من مكة ، على مقدار فرسخ أو أزيد . وفيه الغار الذى آوى إليه النبىّ ، صلى الله عليه وسلم ، مع صاحبه الصِّدّيق ، رضى الله عنه ، حسبما ذكره الله تعالى فى كتابه العزيز[٣] . وقرأت فى « كتاب أخبار مكة » لأبى الوليد الأزرقى[٤] : أن الجبل نادى النبىّ ، صلى الله عليه وسلم ، فقال : إلىّ يا محمد[٥] ! فقد آويتُ قبلك سبعين[٦] نبيا . وخص الله عز وجل رسوله فيه بآيات بينات[٧] : فمنها أنه ، صلى الله عليه وسلم ، دخل مع صاحبه على شَقّ ، فيه سعته[٨] ثلثا شبر وطوله ذراع ؛ فلما اطمأنّا فيه ، أمر الله عز وجل[٩] العنكبوت فاتّخذت عليه بيتا ، والحمامَ[١٠] فصنعت فيه[١١] عُشّا ، وفرّخت فيه . فانتهى المشركون إليه بدليل قَصَّاصٍ للأُثُر مُسْتَافٍ أخلاقَ الطرق[١٢] ، فوقف لهم على الغار ، وقال : ههنا انقطع الأثر ، فإما صُعِد بصاحبكم من ههنا إلى السماء ، أو غِيضَ به فى الأرض . ورأوا العنكبوت ناسجة على فم الغار ، والحمامَ مفرّخة فيه ، فقالوا : ما دخل هنا أحد . فأخذوا فى الانصراف .

---

(١) ط : فى موضعها . (٢) ص : ثور .

(٣) ط : ذكر الله . ويريد الآية ٤٠ من سورة التوبة . (٤) لم أجد الخبر فيه . وانظر ٢/٤٢٨ .

(٥) كررت ط (إلى يا محمد) مرتين .

(٦) سبعين : ليست فى ط . (٧) ط : نبيه فيه بآيات .

(٨) سعته : ليست فى ط . (٩) عز وجل : ليست فى ط .

(١٠) رأى روبرتسون بمث أنها : والحمامة . (١١) ط : عليه .

(١٢) ط : الطريق . واستاف : لشتم . وأخلاق : جمع خلق بمعنى قديم ، وكانوا يشمون الطرق للاهتداء .

فقال الصديق رضى الله عنه : يا رسول الله ! لو ولَجوا علينا من فم الغار ، ما كنا نصنع ؟ فقال ﷺ[١] : لو ولجوا علينا منه ، كنا نخرج من هناك . وأشار بيده المباركة إلى الجانب الآخر من الغار ، ولم يكن فيه شق ، فانفتح فيه للحين باب[٢] ، بقدرة الله عز وجل ، وهو سبحانه قدير على ما يشاء . وأكثر الناس ينتابون هذا الغار المبارك ، ويتجنَّبون دخوله من الباب الذى أحدث الله عز وجل فيه ، ويرومون دخوله من الشق الذى دخل النبى ﷺ منه ، تبركا به . فيمتد المحاول لذلك على الأرض ، ويبسط خدّه بإزاء الشق ، ويولج يديه ورأسه أولا ، ثم يعالج إدخالَ سائر جسده . فمنهم من يتأتّى له ذلك ، بحسب قَضَافة[٣] بدنه ، ومنهم من يتوسط بدنه فم الغار فَيَعضّه[٤] ، فيروم الدخول أو الخروج فلا يقدر على ذلك فينتشب[٥] ، ويلاقى مشقة وصعوبة ، حتى يُتَناوَل بالجذب العنيف من ورائه . فالعقلاء من الناس يجتنبونه لهذا السبب ، ولا سيما ويتصل به سبب آخر مُخجِل فاضح ، وذلك أن عَوّام الناس يزعمون أن الذى لا يَسَع عليه ، ويُمْتَسك فيه ، ولا يَلجه ، ليس لِرشْدة[٦] . جرى هذا الخبر على ألسنتهم ، حتى عاد عندهم قطعا على صحته لا يشكّون . فبِحَسْبِ المُنتشِب فيه ، المُتعذِّر وُلوجُه عليه ، ما يكسوه من[٧] هذا الظن الفاضح المخجل ، زائدا إلى ما يكابده بدنُه من اللّزّ فى ذلك المضيق ، وإشرافه منه على المنية توجّعا ، وانقطاعَ نفس ، وبَرْحَ ألم . فالبعض من الناس يقولون فى مَثَل : « ليس يصعد جبل ثور[٨] إلا ثور » .

---

(١) ط : فقال رسول الله — ص . (٢) ط : للحين فيه .

(٣) القضافة : النحافة . (٤) يعضه هنا : يمسك به .

(٥) ط : فلا يقدر فينشب . وينتشب : يعلق . (٦) ليس لرشدة : أى ابن زنا .

(٧) من : ليست فى ط . (٨) ط : أبى ثور .

وعلى مقربة من هذا الغار ، فى الجبل بعينه : عمود منقطع من الجبل ، قد قام شبه الذراع المرتفعة ، بمقدار نصف القامة[1] ، وانبسط له فى أعلاه شبه الكفّ ، خارجا عن الذراع ، كأنه القبة المبسوطة ، بقدرة الله عز وجل ، يستظلّ تحتها نحو العشرينَ رجلا ، وتسمى « قبة جبريل » ﷺ .

ومما يجب أن يُثْبَت ويؤثر ، لبركة معاينته ، وفضل مشاهدته : أن فى يوم الجمعة التاسعَ عشر من جمادى الأولى ، وهو التاسع من شتنبر[2] ، أنشأ الله بَحْرِيّة فتشاءمتْ ، فانهلّت عينا غَدِيقة ، كما قال رسول الله ﷺ[3] وذلك إثر صلاة العصر ومع العشى من اليوم المذكور ، فجاءت بمطر جَوْدٍ[4] . وتبادر الناس إلى الحِجْر ، ووقفوا[5] تحت الميزاب المبارك ، متجرّدين عن ثيابهم ، يتلقّوْن الماء الذى يصبه الميزاب برءوسهم وأيديهم وأفواههم ، مزدحمين عليه ازدحاما عظيما ، أحدث ضوضاء عظيمة ، كلٌّ يحرِص على أن ينال جسمُه من رحمة الله نصيبا ، ودعاؤهم قد علا ، ودموع أهل الخشوع منهم تسيل ، فلا تسمع إلا ضجيج دعاء ، أو نشيج[6] بكاء . والنساء قد وقفن خارج

---

(١) ط : شبه القامة . (٢) هو سبتمبر .

(٣) ذكر الزمخشرى فى الفائق (٢/٢٤٥) الحديث ، ونصه : « إذا نشأت بحرية ثم تشاءمت ، فتلك عين غديقة » . وفسره بقوله : « هو من قولهم : من أين نشأت وأنشأت : أى خرجت وابتدأت . وأنشأ يفعل كذا : أى أخذ يفعل . نسب السحابة إلى البحر لأنه أراد كونها ناشئة من جهته ، والبحر من المدينة فى جانب اليمن ، وهو الجانب الذى منه تهب الجنوب . وإذا نشأت منه السحابة ثم تشاءمت ، أى أخذت نحو الشام ، وهو الجانب الذى [منه] تهب الشمال ، كانت غزيرة غديقة ، أى كثيرة الماء . وقوله : عين : تشبيه لها بالعين التى ينبع منها الماء » . وروته النهاية لابن الأثير (٣/١٥١) : غديقة ، بالتصغير .

(٤) المطر الجود : الغزير . (٥) ط : فوقفوا .

(٦) ص : تسبيح بكاء . ونشج بالبكاء : غص به من غير انتحاب .

الحِجْر ، ينظرن بعيون دوامع ، وقلوب خواشع ، يتمنَّين ذلك الموقف لو ظفرن به . فكان[١] بعض الحجّاج المتأجّرين[٢] المُشْفِقين يَبُلّ ثوبه ، بذلك الماء المبارك ، ويَخرج إليهن ويَعْصِره فى أيدى البعض منهن ، فيتلقونه[٣] شُرْبا ومَسْحا على الوجوه والأبدان . وتمادت تلك السحابة المباركة إلى قريب المغرب . وتمادى الناس على تلك الحال ، من الازدحام على تَلَقِّى ماء الميزاب بالأيدى والوجوه والأفواه ، وربما رفعوا الأوانى ليَقَع فيها . فكانت عشية عظيمة ، استشعرتِ النفوسُ فيها الفوز برحمة الله عز وجل[٤] ، ثقة بفضله وكرمه ، ولِما اقترن بها من القرائن المباركة : فمنها أنها كانت عشية الجمعة ، وفضل اليوم فضله ، والدعاء فيها يُرْجَى من الله تعالى قَبولُه ، لما ورد فيها من الأثر الصحيح[٥] ، وأبواب السماء تُفْتَح عند نزول المطر . وقد وقف الناس تحت الميزاب ، وهو من مواضع البيت[٦] التى يستجاب فيها الدعاء ، وطَهَّرت أبدانَهم رحمةُ الله ، النازلة من سمائه إلى سطح بيته العتيق ، الذى هو حِيَال البيت المعمور ، وكفى بهذا المجتمَع الكريم ، والمُنتظَم[٧] الشريف ، جعلنا الله ممن طُهِّر فيه من أرجاس الذُّنوب ، واختُص من رحمة الله تعالى بذَنُوب[٨] ، ورحمته سبحانه واسعة تَسَع عباده المذنبين ، إنه غفور رحيم .

وذكروا أن الإمام أبا حامد الغَزَالىّ دعا الله عز وجل بدعوات ، وهو فى

---

(١) ط : وكان .

(٢) المتأجرون : طالبو الأجر والثواب ، وفى خـ : المتأخرين .

(٣) ط : فتلقينه .

(٤) ط : الفوز بالرحمة .

(٥) لعله يريد الحديث الذى رواه البخارى (كتاب الجمعة ، الباب ٣٧) : « فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم ، وهو قائم يصلى ، يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه .. » .

(٦) ط : من المواضع التى .

(٧) ص : المنتظم .

(٨) الذنوب : الدلو المملوءة ماء .

حَرَمه الكريم ، فى رَغَبات رفعها إلى[١] الله جل وتعالى ، فأُعْطِى بعضا ومُنِع بعضا . فكان[٢] مما مُنِع نزول المطر ، وقت مُقامه بمكة ، وكان تمنّى أن يغتسل به تحت الميزاب ، ويدعو الله عز وجل عند بيته الكريم ، فى الساعة التى أبواب سمائه فيها مفتوحة ؛ فمُنِع ذلك ، وأُجِيب دعاؤه فى سائر ما سأله . فالحمد لله على[٣] ما أنعم به علينا . ولعلّ عبدا من عباده الصالحين الوافدين على بيته الكريم ، خصَّه الله بهذه الكرامة ، فدخلْنا — جميعَ المُذنبين — فى شفاعته ، والله ينفعنا بدعاء المخلصين من عباده ، ولا يجعلنا ممن شقى بدعائه ، إنه مُنْعِم كبير .

ذكر بعض[٤] ما خص الله تعالى به مكة من الخيرات والبركات[٥]

هذه البلدة المباركة سبقت لها ولأهلها الدعوة الخليليّة الإبراهيمية ، وذلك أن الله عز وجل يقول ، حاكيا عن خليله ﷺ : ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ ، وارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ ، لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾[٦] ، وقال عز وجل : ﴿ أَوَلَم نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَما آمِنا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[٧] . فبرهان ذلك فيها ظاهر متصل إلى يوم القيامة ، وذلك أن أفئدة الناس تهوى إليها من الأصقاع النائية ، والأقطار الشاحطة[٨] . فالطريق إليها ملتقَى

---

(١) إلى ساقطة من خ . (٢) ط : وكان .

(٣) ط : فله الحمد وله الشكر على . (٤) بعض : ليست فى ط .

(٥) يبدأ من هنا سقط ينتهى فى ص ١٦٨ .

(٦) سورة إبراهيم ، الآية ٣٧ . (٧) سورة القصص ، الآية ٥٧ .

(٨) الشاحطة : البعيدة . ب : والأقطار الشاسعة .

الصادر والوارد ، ممن بلغته الدعوة المباركة . والثمرات تُجْبَى إليها من كلّ مكان ، فهى أكثر البلاد نِعَما ، وفواكه ، ومنافع ، ومرافق ، ومتاجر ، ولو لم يكن لها من المتاجر إلا أوانَ الموسم ، ففيه مُجتمَع أهل المشرق والمغرب ، فيُباع فيها فى يوم واحد — فضلا عما يتبعه — من الذخائر النفيسة : كالجواهر ، والياقوت ، وسائر الأحجار ؛ ومن أنواع الطيب : كالمسك ، والكافور والعنبر ، والعود ؛ والعقاقير الهندية ، إلى غير ذلك من جَلَب[١] الهند والحبشة ، إلى الأمتعة العراقية واليمانية ، إلى غير ذلك من السلع الخُرَاسانية ، والبضائع المَغْرِبية ، إلى ما لا ينحصر ولا ينضبط ؛ ما لو فُرِّق على البلاد كلها لأقام لها الأسواق النافقة ، ولَعَمَّ جميعها بالمنفعة التجارية[٢] ، كل ذلك فى ثمانية أيام بعد الموسم ، حاشا ما يطرأ بها مع طول الأيام من اليمن وسواها . فما على الأرض سلعة من السلع ، ولا ذخيرة من الذخائر ، إلا وهى موجودة فيها مدةَ الموسم . فهذه بركة لا خَفَاء بها ، وآية من آياتها التى خصها الله بها .

وأما الأرزاق والفواكه وسائر الطيّبات ، فكنا نظن أن الأندلس اختصت من ذلك بحظ له المزيّة على سائر حظوظ البلاد ، حتى حللنا بهذه البلاد المباركة ، فألفيناها تَغَصّ بالنعم والفواكه : كالتين ، والعنب ، والرمّان ، والسَّفَرجل ، والخوخ ، والأُتْرُجّ ، والجوز ، والمُقْل ، والبطيخ ، والقِثّاء ، والخيار ، إلى جميع البقول كلها : كالباذِنجان ، واليَقْطِين[٣] ، والسَّلْجَم[٤] ،

---

(١) جلب الهند : ما يجلب منها .
(٢) خـ : التجارة .
(٣) اليقطين : ما لا ساق له من النبات كالقثاء ، وغلب على القرع المستدير .
(٤) السلجم : اللفت .

والجَزَر ، والكُرُنب ، إلى سائرها ، إلى غير ذلك من الرياحين العَبِقة ، والمشمومات العَطِرة . وأكثر هذه البقول كالباذِنجان والقِثَّاء والبطّيخ لا يكاد ينقطع مع طول العام . وذلك من عجيب ما شاهدناه ، مما يطول تَعْداده وذكره . ولكل نوع من هذه الأنواع فضيلة موجودة فى حاسّة الذوق ، يفضُل بها نوعَها الموجود فى سائر البلاد ؛ فالعجب من ذلك يطول .

ومن أعجب ما اختبرناه من فواكهها البطيخ والسفرجل ، وكل فواكهها عجب ، لكن للبطيخ فيها خاصة من الفضل عجيبة ، وذلك لأن رائحته من أعطر الروائح وأطيبها ، يدخل به الداخلُ عليك ، فتَجِد رائحته العبقة قد سبقت إليك ، فيكاد يَشْغَلك الاستمتاعُ بطيب رَيّاه[1] عن أَكْلِك إياه ، حتى إذا ذُقْتَه خُيِّل إليك أنه شِيبَ[2] بسكّر مُذَاب أو بجَنَى النحل[3] اللُّباب . ولعل متصفحَ هذه الأحرف يظن أن فى الوصف بعض غلوّ ، كلّا لعَمْرُ الله ! إنه لأكثر مما وصفتُ وفوق ما قلتُ ، وبها عسل أطيب من الماذِىّ[4] المضروب به المثَل ، يعرف عندهم بالمَسْعودىّ .

وأنواع اللبن بها فى نهاية من الطيب ، وكلّ ما يصنع منها من السمن ، فإنه لا تكاد تميّزه من العسل طِيبا ولَذاذة . ويَجْلِب إليها قوم من اليمن يعرفون « بالسَّرْو » نوعا من الزبيب الأسود والأحمر ، فى نهاية الطيب ، ويجلبون معه من اللوز كثيرا . وبها قصب السكر أيضا كثير ، يُجْلَب من حيث تجلب البقول التى ذكرناها . والسكر بها كثير مَجْلوب ، وسائر النعم والطيبات من الرزق ، والحمد لله . وأما الحَلْوى فيُصْنَع منها أنواع غريبة من العسل ،

---

(١) رياه : رائحته .

(٢) شيب : خلط .

(٣) جنى النحل : عسله .

(٤) الماذى : نوع من العسل .

والسكّر المعقود ، على صفات شتى ، إنهم يصنعون[١] بها حكايات جميع الفواكه الرطبة واليابسة . وفى الأشهر الثلاثة : رجب ، وشعبان ، ورمضان ، يتصل منها أَسْمِطة[٢] بين الصفا والمروة ، ولم يُشاهِد أحد أكملَ منظرا منها ، لا بمصر ولا بسواها ، قد صُوِّرت منها تصاوير إنسانية وفاكهية ، وجُلِيت فى مِنَصّات كأنها العرائس ، ونُضّدت بسائر أنواعها المُنضَّدة الملوّنة ، فتلوح كأنها الأَزَاهِر حسنا ، فتقيّد الأبصار ، وتستنزل الدرهم والدينار .

وأما لحوم ضأنها فهناك العجب العجيب ، قد وقع القَطْعُ من كل مَنْ تَطَوّف على الآفاق ، وضرب نواحى الأقطار : أنها أطيب لحم يؤكل فى الدنيا . وما ذاك ، والله أعلم ، إلا لبركة مَراعيها ، هذا على إفراط سِمَنه ، ولو كان سواه من لحوم البلاد ينتهى ذلك المنتهَى فى السمن ، لَلَفَظَتْه الأفواه زَهَما[٣] ولعافتْه وتجنبته ، والأمر فى هذا بالضد ، كلما ازداد سِمَنا زادت النفوس فيه رغبة ، والنفس له قَبُولا ، فتجده هنيئا رَخْصا ، يذوب فى الفم قبل أن يُلَاك مضغا ، ويسرع لخفته عن المعدة انهضاما . وما أرى ذلك إلا من الخواصّ الغريبة ، وبركة البلد الأمين قد تكفلت بطيبه لا شكّ فيه . والخَبَر عنه يضيق عن الخُبْرِ له ، والله يجعل فيه رزقا لمن تَشوّق بلدته الحرام ، وتمنّى هذه المشاهد العظام ، والمناسِك الكرام ، بعزته وقدرته .

وهذه الفواكه تُجْلَب إليها مِن الطائف ، وهى على مسيرة ثلاثة أيام منها ،

---

(١) يصنعون : زادها « رايت » ، وموضعها بياض .

(٢) الأسمطة : جمع سماط ، وهى الموائد .

(٣) لفظ : رمى . وزهما : تخمة من الدسم ، وفى خـ : دهما ، وصححتها ر . إلى : ودكا .

على الرفق والتُّؤَدة ، ومن قرى حولها . وأقربُ هذه المواضع يعرف بأُدُم[١] ، هو من مكة على مسيرة يوم أو أزيد قليلا ، وهو من بطن الطائف ، ويحتوى على قرى كثيرة ؛ ومن بطن مَرّ ، وهو على مسيرة يوم أو أقل ؛ ومن نَخْلة ، وهى على مثل هذه المسافة ؛ ومن أودية بقربٍ من البلد كعين سليمان وسواها . قد جلب الله إليها من المغاربة ذوى البَصَارة[٢] بالفلاحة والزراعة ، فأحدثوا فيها بساتين ومزارع ، فكانوا أحدَ الأسباب فى خصب هذه الجهات ، وذلك بفضل الله عز وجل ، وكريم اعتنائه بحرمه الكريم ، وبلده الأمين .

ومن أغرب ما ألفيناه ، فاستمتعنا بأكله ، وأجْرَينا الحديث باستطابته — ولا سيما لكوننا لم نعهده — الرُّطَب ، وهو عندهم بمنزلة التين الأخضر فى شجره ، يُجْنَى ويؤكل ، وهو فى نهاية الطيب واللذاذة ، لا يُسْأَم التفكُّه به ، وإبّانهُ عندهم عظيم ، يخرج الناس إليه كخروجهم إلى الضَّيْعَة ، أو كخروج أهل المغرب لقُرَاهم أيام نضج التين والعنب ، ثم بعد ذلك عند تَنَاهِى نضجه يُبْسَط على الأرض قدر ما يجف قليلا ، ثم يُرْكَم بعضه على بعض فى السِّلال والظُّروف ويُرْفَع .

ومن صُنْع الله الجميل لنا ، وفضله العميم علينا ، أنا وصلنا إلى هذه البلدة المكرمة ، فألفينا كل من بها من الحجاج المجاورين ممن قدُم عهدُه فيها ، وطال مُقامه بها ، يتحدّث على جهة العجب بأَمْنها من الحَرَّابة المُتلصِّصين فيها على الحاجّ ، المُختلِسين ما بأيديهم ، والذين كانوا آفةَ الحرم الشريف ، لا يغفل

(١) فى موضع أدم فى خـ بياض ، ورجحت ص أنها أدم .

(٢) البصارة : المعرفة .

أحد عن متاعه طَرْفةَ عين إلا اختُلِس من يديه أو من وسطه ، بحِيَل عجيبة ، ولَطافةٍ غريبة ، فما منهم إلا أَخذّ يد القَمِيص[١] ، فكفى الله فى هذا العام شرهم إلا القليل ، وأظهر أميرُ البلد التشديد عليهم ، فتوقف شرُّهم ؛ وبطيبِ هوائها[٢] فى هذا العام ، وفتور حَمَارَّة[٣] قيظها المعهود فيها ، وانكسار حِدّة سَمُومها[٤] . وكنا نبيت فى سطح الموضع الذى كنا نسكنه ، فربما يصيبنا من برد هواء الليل ما نحتاج معه إلى دِثَار يَقِينا منه . وذلك أمر مستغرَب بمكة . وكانوا أيضا يتحدثون بكثرة نِعَمها فى هذا العام ، ولين سِعْرها ، وأنها خارقة للعَوَائد السالفة عندهم ؛ كان سَوْمُ[٥] الحِنْطَة أربعة أَصْواع بدينار مؤمنىّ ، وهى أوبتان[٦] من كَيْل مصر وجهاتها ، والأوبتان قَدَحان ونصف قدح من الكيل المغربىّ . وهذا السعر فى بلد لا ضيعة فيه ، ولا قِوام معيشة لأهله إلا بالمِيرَة المجلوبة إليه ، سعر لا خفاء بيُمْنه[٧] وبركته ، على كثرة المُجَاوِرِين فيها فى هذا العام ، وانجلاب الناس إليها وترادُفهم عليها . فَحدَّثنا غيرُ واحد من المجاورين الذين لهم بها سنون طائلة : أنهم لم يَرَوْا هذا الجمع بها قطُّ ، ولا سُمِع بمثله فيها . والله يجعله جمعا مَرْحُوما معصوما بمنه .

وما زال الناس فيها يُسَلْسِلون[٨] أوصاف أحوالها فى هذه السنة ، وتمييزها عما سلف من السنين ، حتى لقد زعموا أن ماء زمزم المبارك زاد عذوبة ، ولم يكن قبلُ بصَادِقِها[٩] . وهذا الماء المبارك فى أمره عجب ، وذلك أنك تشربه

(١) أحذ يد القميص : لص . وفى خـ : أخديد ، تحريف .

(٢) أى يتحدثون أيضا بطيب هوائها . (٣) حمارة القيظ : شدة الحر .

(٤) السموم : الريح الشديدة الحرارة . (٥) سوم الشىء : سعره فى السوق .

(٦) أوبتان : يريد « ويبتان » ، ولم أجد فيها أوبة .

(٧) بيمنه : زادها رايت تخمينا وموضعها بياض .

(٨) يسلسلون : يتابعون الوصف . (٩) صادق العذوبة : شديدها .

عند خروجه من قرارته ، فتجده فى حاسّة الذوق كاللّبن عند خروجه من الضّرْع دَفيئا ، وتلك فيه من الله تعالى آية وعناية . وبركته أشهر من أن يحتاج لوصف واصف ، وهو لِمَا شُرِب له كما قال ﷺ(١) ، أَرْوَى الله منه كل ظامئ إليه ، بعزته وكرمه . ومن الأمور المجربة فى هذا الماء المبارك ، أن الإنسان ربما وجد مَسَّ الإعياء ، وفتور الأعضاء ، إما من كثرة الطواف ، أو من عمرة يعتمرها على قدميه ، أو من غير ذلك من الأسباب المؤدية إلى تعب البدن ، فيصبّ من ذلك الماء على بدنه ، فيجد الراحة والنشاط لحينه ، ويذهب عنه ما كان أصابه .

شهر جمادى الآخرة ، عَرَّفنا الله يُمْنه وبركته

استهلّ هلاله ليلة الأربعاء ، وهو الحادى والعشرون من شهر شتنبر العجمىّ ، ونحن بالحرم المقدس ، زاده الله تعظيما وتشريفا . وفى صبيحة الليلة المذكورة وافى الأمير مُكْثِر بأتباعه وأشياعه ، على العادة السالفة المذكورة فى الشهر الأوّل ، وعلى ذلك الرسم بعينه ، والزمزمىّ المُغرِّد بثنائه(٢) والدعاء له فوق قبة زمزم ، يرفع عَقِيرته(٣) بالدعاء والثناء عند كل شَوْط يطوفه الأمير ، والقُرَّاء أمامه ، إلى أن فرغ من طوافه ، وأخذ فى طريق انصرافه .

ولأهل هذه الجهات المشرقيّة كلها سيرة حسنة ، عند مستهلّ كل شهر

---

(١) انظر ص ٥٥ .

(٢) خـ : ببيانه .

(٣) عقيرته : صوته .

من شهور العام : يتصافحون ويهنّئ بعضهم بعضهم ، ويتغافَرون ، ويدعو بعضهم لبعض ، كفِعْلِهم فى الأعياد ؛ هكذا دائما . وتلك طريقة من الخير واقعة فى النفوس ، تُجدِّد الإخلاص ، وتستمد الرحمة من الله عز وجل ، بمصافحة المؤمنين بعضهم بعضا ، وبركة ما يتهادونه من الدعاء . والجماعة رحمة ، ودعاؤهم من الله بمكان .

[حَمَّاما مكة ، ومناقب جمال الدين] :

ولهذه البلدة المباركة حمّامان : أحدهما يُنْسَب للفقيه المَيَّانِشىّ[1] ، أحد الأشياخ المحلِّقين[2] ، بالحرم المكرّم ؛ والثانى ، وهو الأكبر ، ينسب لجمَال الدين[3] ، وكان هذا الرجل كصفته جمال الدين ، له رحمه الله بمكة والمدينة ، شرفهما الله ، من الآثار الكريمة ، والصنائع الحميدة ، والمصانع المبنية فى ذات الله المشيدة ، ما لم يسبقه أحد إليه فيما سلف من الزمان ، ولا أكابر الخلفاء ، فضلا عن الوزراء . وكان رحمه الله وزير صاحب المَوْصل ، تمادَى على هذه المقاصد السنيّة ، المشتملة على المنافع العامة للمسلمين ، فى حرم الله تعالى ، وحرم رسوله ، ﷺ ، أكثر من خمسَ عشرة سنة ، ولم يزل فيها باذلا أموالا لا تُحصَى ، فى بناء رِبَاع بمكة ، مُسبَّلة فى طُرُق الخير والبر ، مؤبَّدة ، مُحْبَسة ، واختطاطِ صهاريج للماء ، ووضع جِبَاب فى الطرق يستقر فيها ماء المطر ، إلى تجديدِ آثار من البناء فى الحرمين الكريمين . وكان من أشرف أفعاله أن جلب الماء إلى عَرَفات ، وقاطَعَ عليه العربَ بنى شُعبة : سكَّانَ تلك النواحى

---

(١) هو أبو حفص عمر بن عبد المجيد بن عمر الميانشى أو الميانجى .

(٢) المحلقون : الذين لهم حلقات للعلم . (٣) هو محمد بن على بن منصور ، يلقب بمحمد الجواد ، عاش حوالى عام ٥٥٠ هـ . انظر أخبار مكة ٣ : ٥٤ .

المجلوب منها الماء ، بوظيفةٍ من المال كبيرة ، على أن لا يقطعوا الماء عن الحاجّ . فلما توفى الرجل ، رحمة الله عليه ، عادوا إلى عادتهم الذميمة من قطعه . ومن مفاخره ومناقبه أيضا أنه جعل مدينة الرسول ، ﷺ ، تحت سورين عتيقين ، أنفق فيهما أموالا لا تُحْصَى كثرة . ومن أعجب ما وفّقه الله تعالى إليه أنه جدّد أبواب الحرم كلها .

وجدّد باب الكعبة المقدسة ، وغشّاه فِضَّة مذهَبة ، وهو الذى فيها الآن ، حسبما تقدم وصفه ، وجلّل العتبة المباركة بلوح ذهب إبريز ، وقد تقدم ذكره أيضا . فأخذ الباب القديم ، وأمر بأن يُصْنَع له منه تابوت يُدْفَن فيه ، فلما حانت وفاته أوصى بأن يوضع فى ذلك التابوت المبارك ، ويُحَجّ به ميتا . فسِيقَ إلى عرفات ، ووُقِف به على بُعْد ، وكُشِف عن التابوت ، فلما أفاض الناس أُفِيض به ، وقُضِيت له المناسك كلّها ، وطيف به طواف الإفاضة ، وكان الرجل رحمه الله لم يحجّ فى حياته ، ثم حُمِل إلى مدينة الرسول ، ﷺ ، وله فيها من الآثار الكريمة ما قدمنا ذكره ، وكاد أشرافها يحملونه على رءوسهم . وبُنِيت له روضة بإزاء روضة المصطفى ، ﷺ ، وفُتِح فيها موضع يلاحظ الروضة المقدّسة ، وأُبِيح له ذلك على شدة الضنانة بمثله ، لسابق أفعاله الكريمة ، ودُفِن فى تلك الروضة ، وأسْعَده الله بالجوار الكريم ، وخصه بالمُواراة فى تربة التقديس والتعظيم ، والله لا يُضِيع أجر المحسنين ، وسنذكر تاريخ وفاته ، إذا وقفنا عليه من التاريخ الثابت فى روضته[١] ، إن شاء الله عز وجل ، وهو ولىّ التيسير ، لا رب غيره .

ولهذا الرجل رحمه الله من الآثار السنية ، والمفاخر العَلِيَّة التى لم يسبقه إليها

---

(١) لم يذكر المؤلف هذا التاريخ فى كلامه عن المدينة .

الأكابر الأجواد ، وسَراةُ الأمْجاد ، فيما سلف من الزمان ، ما يَفُوت الإحصاء ويَسْتغرف الثناء ، ويَسْتَصحِب طول الأيام من الألسنة الدعاء ، وحسبُك أنه اتّسع اعتناؤه بإصلاح عامة طرق المسلمين بجهة المشرق ، من العراق إلى الشام إلى الحجاز ، حسبما نذكره ، واستنبط المياه ، وبنى الجبَاب ، واختط المنازل فى المَفَازات ، وأمر بعمارتها مأوى لأبناء السبيل وكافة المسافرين ، وابتنى بالمدن المتصلة من العراق إلى الشام فنادق عيّنها لنزول الفقراء أبناء السبيل ، الذين يضعف أحدهم عن تأدية الأُكْرِية ، وأجرى على قَوَمة تلك الفنادق والمنازل ما يقوم بمعيشتهم ، وعَيَّن لهم ذلك فى وجوه تأبَّدت لهم ، فبقيت تلك الرسوم الكريمة ثابتة على حالها إلى الآن . فسارت بجميل ذكر هذا الرجل الرِّفَاق ، ومُلِئت ثناءً عليه الآفاق .

وكان مدةَ حياته بالموصل — على ما أخبرَنا به غيرُ واحد من ثِقَات الحجاج التجار ، ممن شاهد ذلك — قد اتّخذ دار كرامة واسعة الفناء ، فسيحة الأرجاء ، يدعو إليها كل يوم الجَفَلَى[1] من الغُرباء ، فيَعُمُّهم شِبَعا ورِيّا ، ويَرِد الصادر والوارد من أبناء السبيل فى ظله عيشا هنيّا ، لم يزل على ذلك مدة حياته ، رحمه الله . فبقيت آثاره مخلَّدة ، وأخباره بألسنة الذكر مُجدَّدة ، وقضى حَمِيدا سعيدا ، والذكر الجميل للسعداء حياة باقية ، ومدة من العمر ثانية ، والله الكفيل بجزاء المحسنين إلى عباده ، فهو أكرم الكرماء ، وأكفل الكفَلاء .

[منع النفقة لإصلاح الحرم] :

ومن الأمور المَحْظُورة بهذا الحرم الشريف ، زاده الله تعظيما وتكريما ،

---

(١) الجفلى : الجماعة .

أن النفقة فيه ممنوعة ، لا يجد المتأجِّر من ذوى اليَسَار إليها سبيلا ، فى تجديد بناء ، أو إقامة حطيم ، أو غير ذلك مما يختص بالحرم المبارك . ولو كان الأمر مُبَاحا فى ذلك ، لجعل الراغبون فى نفقات البرّ من أهل الجِدَة[1] حيطانَه عَسْجَدا وترابَه عنبرا ، لكنّهم لا يجدون السبيل إلى ذلك . فمتى ذهب أحد أرباب الدنيا إلى تجديد أثر من آثاره ، أو إقامة رسم كريم من رسومه ، أُخذ إذْنَ الخليفة فى ذلك . فإن كان مما يُنْقَش عليه أو يُرْسَم فيه ، طُرِّز باسم الخليفة ونُفوذِ أمره بعمله ، ولم يُذْكَر اسم المُتولِّى لذلك . ولا بدّ مع ذلك من بذل حظّ وافر من النفقة لأمير البلد ، ربما يوازى قدرَ المنفوق فيه . فتتضاعف المئونة على صاحبه ، وحينئذ يصل إلى غرضه من ذلك .

ومن أغرب ما اتفق لأحد دُهَاة الأعاجم ، ذوى الملك والثراء ، أنه وصل إلى الحرم الكريم ، مدةَ جدّ هذا الأمير مكثر ، فرأى تَنوّر بئر زمزم وقبّتها على صفة لم يرضها . فاجتمع بالأمير ، وقال : أريد أن أتأنق فى بناء تنور زمزم ، وطَيِّه ، وتجديد قبته ، وأُبْلُغ فى ذلك الغاية الممكنة ، وأُنْفِق فيه من صميم مالى ، ولك علىّ فى ذلك شرطٌ أَبْلُغ بالتزامه لك غرض المقصود ، هو أن تجعل ثِقة من قِبَلك يُقيِّد مبلغ النفقة فى ذلك ، فإذا استوفى البناء التمام ، وانتهت النفقة منتهاها ، وتحصّلت مُحْصَاةً ، بذلتُ لك مثلها جزاءً على إباحتك لى ذلك . فاهتزّ الأمير طمعا ، وعلم أن النفقة فى ذلك تنتهى إلى آلاف من الدنانير ، على الصفة التى وصفها له ، فأباح له ذلك ، وألزمه مُقيِّدا يحصى قليل الإنفاق وكثيره . وشرع الرجل فى بنائه واحتفل واسْتَفْرَغ الوُسْعَ[2] ، وتأنّق وبذل المجهودَ ، فِعْلَ مَنْ يقصد بفعله ذاتَ الله عز وجل ،

---

(١) الجدة : الغنى . والعسجد : الذهب . (٢) الوسع : الطاقة والاستطاعة .

ويُقْرِضُه قَرْضا حسنا[١] . والمُقيِّد يُسَوِّد طَوَامِيرَه[٢] بالتقييد ، والأمير يتطلع إلى ما لديه ، ويؤمّل لقبض تلك النفقات الواسعَة بَسْطَ يديه ، إلى أن فرغ البناء على الصفة التى تقدّم ذكرها أوّلا عند ذكر بئر زمزم وقبّته . فلما لم يبقَ إلا أن يصبِّحَ صاحب النفقة بالحساب ، ويَسْتقضِيَ منه العدد المجتمِع[٣] فيها ، خلا منه المكان ، وأصبح فى خَبَرِ كان ، وركب الليلَ جملا . وأصبح الأمير يقلب كَفّيه ، ويضرب أَصْدَرَيْه[٤] ، ولم يمكنه أن يُحْدِث فى بناء وُضِع فى حرم الله تعالى حادثا يُحِيله ، أو نقضا يُزيله . وفاز الرجل بثوابه ، وتكفّل الله به فى انقلابه ، وتحسين مآبه : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخلِفُهُ وَهُوَ خَيرُ الرَّازِقِينَ ﴾[٥] . وبقى خبر هذا الرجل مع الأمير ، يُتهادَى غرابةً وعجبا ، ويدعو له كل شارب من ذلك الماء المبارك .

شهر رجب الفَرْد ، عرَّفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الخميس الموفى عشرين لشهر أكتوبر ، بشهادة خَلْق كثير من الحجّاج المجاورين ، والأشراف أهل مكة ، ذكروا أنهم رأوه بطريق العُمْرة ، ومن جبل قُعَيقِعان ، وجبل أبى قُبَيس ، فثبتت شهادتهم بذلك عند الأمير والقاضى . وأما من المسجد الحرام فلم يبصره أحد . وهذا الشهر

---

(١) يشير إلى الآية ٢٤٥ من سورة البقرة ، والآية ١١ من سورة الحديد .

(٢) الطوامير . جمع طامور وطومار ، وهو الصحيفة . ويسودها : يملؤها كتابة .

(٣) هـ : المجمع .

(٤) الأصدران : عرقان تحت الصدغين .

(٥) سورة سبأ ، الآية ٣٩ .

المبارك عند أهل مكة موسم من المواسم المعظّمة ، وهو أكبر أعيادهم ، ولم يزالوا على ذلك قديما وحديثا ، يتوارثه خَلَف عن سَلَف ، متّصلا ميراثُ ذلك إلى الجاهلية ، لأنهم كانوا يسمونه مُنْصِل الأسنّة[١] . وهو أحد الأشهر الحرم ، وكانوا يحرّمون القتال فيه ، وهو شهر الله الأصم[٢] ، كما جاء فى الحديث عن رسول الله ، ﷺ .

[العُمْرة الرَّجَبِيّة] :

والعُمْرة الرَّجَبِيّة عندهم أخت الوقفة العَرَفيّة ، لأنهم يحتفلون لها الاحتفال الذى يُسْمَع بمثله ، ويُبادِر إليها أهل الجهات المتصلة بها ، فيجتمع لها خلق عظيم لا يحصيهم إلا الله عز وجل . فمن لم يشاهدها بمكة لم يشاهد مرأى ، يُسْتَهدَى ذكره غرابة وعجبا ، شاهدنا من ذلك أمرا يعجز الوصف عنه ، والمقصود منه الليلة التى يَسْتهل فيها الهلال مع صَبِيحتها[٣] . ويقع الاستعداد لها من قبل ذلك بأيام ، فأبصرنا من ذلك ما نَصِفُ بعضه على جهة الاختصار . وذلك لأنّا عاينّا شوارع مكة وأزِقّتها ، من عصر يوم الأربعاء ، وهى العشيّة التى ارتُقِب فيها الهلال ، قد امتلأت هوادج مشدودة على الإبل ، مكسوة بأنواع كُسَا الحرير وغيرها من ثياب الكتان الرفيعة ، بحسب سَعَة أحوال أربابها ووَفْرِهم[٤] ، كلٌّ يتأنق ويحتفِل بقدر استطاعته . فأخذوا فى الخروج إلى التَّنعِيم ميقاتِ المعتمرين ، فسالت تلك الهوادج فى

---

(١) أنصل الأسنة : أزال نصالها ، وسمى الشهر بذلك لأن القتال محرم فيه .

(٢) الأصم هنا : الذى لا ينادى فيه : يالفلان ، وياصباحاه ، وكانوا يفعلون ذلك للإغارة ، أو هو الذى لا يسمع فيه صوت السلاح .

(٣) خـ : صبحتها .

(٤) الوفـر : السعـة . وفى خـ : وو.. هم ، وصححها رايت .

أَبَاطِح مكة وشِعَابِها ، والإبل قد زُيِّنت تحتها بأنواع التزيين ، وأُشْعِرت[١] بغير هَدْى بقلائد رائقة المنظر من الحرير وغيره ، وربما فاضت الأستار الّتى على الهوادج ، حتى تسحب أذيالها على الأرض . ومن أغرب ما شاهدناه من ذلك هودجُ الشريفة جمانة بنت فُلَيتة ، عمة الأمير مُكثِر ، فإن أذيال ستره كانت تنسحب[٢] على الأرض انسحابا ، وغيرُه من هوادج حرم الأمير ، وحرم قُوّاده ، إلى غير ذلك من هوادج لم نستطع تقييد عِدّتها عَجْزا عن الإحصاء . فكانت تلوح على ظهور الإبل كالقباب المضْرُوبة ، فيُخيَّل للناظر إليها أنها مَحِلَّة قد ضُرِبت أَبْنيتها من كل لون رائق . ولم يبقَ ليلة الخميس المذكور بمكة إلا مَنْ خرج للعمرة من أهلها ، ومن المجاورين ، وكُنّا فى جُمْلة من خرج ابتغاءَ بركة الليلة العظيمة ، فكدنا لا نتخلّص إلى مسجد عائشة من الزحام ، وانسداد ثَنِيَّات الطريق بالهوادج ، والنيرانُ قد أُشْعِلت بحافتَى الطريق كله ، والشمع يَتّقِد بين أيدى الإبل التى عليها هوادجُ مَنْ يُشار إليه من عقائل نساء مكة . فلما قضينا العمرة وطُفْنا ، وجئنا للسعى بين الصفا والمروة ، وقد مضى هَدْءٌ من الليل ، أبصرناه كله سُرُجا ونيرانا ، وقد غصّ بالساعين ، والساعيات على هوادجهنّ . فكنّا لا نتخلص إلا بين هوادجهن ، وبين قوائم الإبل ، لكثرة الزحام ، واصطكاك الهوادج بعضها على بعض . فعاينّا ليلة هى أغرب ليالى الدنيا ، فمن لم يُعَاين ذلك لم يعاين عجبا يحدّث به ، ولا عجبا يذكّره مَرْأَى الحشر يومَ القيامة ، لكثرة الخلائق فيه ، مُحْرِمين ، مُلبِّين ، داعين ، إلى الله عز وجل ضارعين . والجبال المكرمة التى بحافتى

(١) أشعرت : أعلمت .

(٢) ص : تسحب ، وفضلت أن أجعلها : تنسحب ، للمصدر بعدها .

الطريق تجيبهم بصَدَاها ، حتى سُكّت المسامع ، وسُكِبت من هول تلك المعاينة المدامع ، وذابت القلوب الخواشع . وفى تلك الليلة مُلِئ المسجد الحرام كله سُرُجا ، فتلألأ نورا . وعند ثبوت رؤية الهلال عند الأمير ، أمر بضرب الطبول ، والدَّبادِب[١] والبُوقات ، إشعارا بأنها ليلة الموسم .

فلما كانت صبيحة ليلة الخميس ، خرج إلى العمرة فى احتفال لم يُسْمَع بمثله ، انحشد له أهلِ مكة عن بَكْرَة أبيهم ، فخرجوا على مراتبهم قبيلةً قبيلةً ، وحارةً حارةً ، شاكِّين فى الأَسْلِحة[٢] ، فُرْسانا ورَجَّالة ، فاجتمع منهم عدد لا يحصى كثرة ، يتعجَّب المُعاينِ لهم لوفور عددهم ، فلو أنهم من بلاد جمة لكانوا عجبا ، فكيف وهم من بلد واحد ؟ وهذا أدلُّ الدلائل على بركة الله . فكانوا يخرجون على ترتيب عجيب : فالفرسان منهم يخرجون بخيلهم ، ويلعبون بالأسلحة عليها ، والرجالة يتواثبون ، ويَتَثاقَفُون[٣] بالأسلحة فى أيديهم حِرابا وسيوفا وحَجَفا[٤] ، وهم يُظْهِرون التطاعُن بعضهم لبعض ، والتضارُب بالسيوف ، والمُدافَعة بالحَجَف التى يَسْتَجِنّون[٥] بها . وأظهروا من الحذق بالثِّقاف كلَّ أمر مُستغرَب ، وكانوا يرمون بالحِرَاب إلى الهواء ، ويبادرون إليها لَقْفا بأيديهم ، وهى قد تَصَوَّبت أَسِنَّتُها على رءوسهم ، وهم فى زحام لا يمكن فيه المَجَال . وربما رمى بعضهم بالسيوف فى الهواء ، فيَتَلقَّونها قَبْضا على قَوائمها ، كأنها لم تُفارق أيديهم ، إلى أن خرج الأمير يزحف بين قُوّاده ، وأبناؤه أمامه ، وقد قاربوا سِنَّ الشباب ، والرايات

---

(١) الدبادب : جمع دبداب ، وهو نوع من الطبل .

(٢) شاكون فى الأسلحة : لبسوا سلاحا تاما .

(٣) يتثاقفون : يتبارزون . (٤) الحجف : جمع حجفة ، وهى الترس من جلد .

(٥) يستجنون : يحتمون .

تخفق أمامه ، والطبول والدَّبادب بين يديه ، والسَّكِينة تَفِيض عليه ، وقد امتلأت الجبال والطُّرُق والثَّنِيّات بالنَّظّارة من جميع المجاورين .

فلما انتهى إلى المِيقَات ، وقضى غَرَضه ، أخذ فى الرجوع ، وقد ترتّب العَسْكران بين يديه على لعبهم ومَرَحهم ، والرجّالة على الصفة المذكورة من التَّجَاوُل . وقد ركب جملةٌ من أعراب البوادى نُجُبا[1] صُهْبا ، لم يُرَ أجمل منظرا منها ، ورُكّابها يسابقون الخيل بها ، بين يدى الأمير ، رافعين أصواتهم بالدعاء له والثناء عليه ، إلى أن وصل المسجد الحرام ، فطاف بالكعبة ، والقرّاء أمامه ، والمؤذّن الزمزمىّ يُغرِّد فى سطح قبّة زمزم ، رافعا عَقِيرته بتهنئته بالموسم ، والثناء عليه ، والدعاء له على العادة . فلما فرغ من الطواف صلّى عند المُلْتزَم ، ثم جاء إلى المَقام وصلّى خلفه ، وقد أُخْرج له من الكعبة ، ووُضِع فى قبّته الخشبيّة التى يُصَلَّى خلفها . فلما فرغ من صلاته رُفعت له القبة عن المقام فاستلمه ، وتمسّح به ، ثم أُعيدت القبّة عليه ، وأخذ فى الخروج على باب الصّفا إلى المسعى .وانجُفِل[2] بين يديه ، فسَعَى راكبا ، والقُوّاد مُطيفون به ، والرجّالة الحرّابة أمامه . فلما فرغ من السعى استُلَّت السيوف أمامه ، وأَحْدَقت الأشياع به ، وتوجّه إلى منزله ، على هذه الحالة الهائلة مزحوفا به . وبقى المَسْعَى يومَه ذلك يموج بالساعين والساعيات .

فلما كان اليوم الثانى ، وهو يوم الجمعة ، كان طريق العمرة فى العِمارة قريبا من أمسه ، راكبين وماشين ، رجالا ونساء ، والنساء الماشيات المتأجِّرات كثير ، يسابقن الرجال فى تلك السبيل المباركة ، تقبّل الله من

---

(١) النجب : جمع نجيب ، وهو الكريم الحسيب من الإبل . والصهب : التى فيها حمرة مع بياض .

(٢) انجفل الناس : انقلعوا فمضوا .

جميعهم بمنه . وفى أثناء ذلك يلاقى الرجال بعضهم بعضا فيتصافحون ، ويَتهادَون الدعاء والتغافُر بينهم ، والنساء كذلك . والكلّ منهم قد لبس أفخر ثيابه ، واحتفل احتفال أهل البلاد للأعياد . وأما أهل البلد الأمين فهذا الموسم عيدهم ، له يَعْبَئُون ، وله يحتفلون ، وفى المباهاة فيه يتنافسون ، وله يُعظِّمون ، وفيه تَنفُق أسواقهم وصنائعهم ، يقدّمون النظر فى ذلك والاستعداد له بأشهر .

[السَّرْو] :

ومن لطيف صنع الله عز وجل ــ لهم فيه اعتناءٌ كريم منه سبحانه بحرمه الأمين ــ أن قبائل من اليمن تعرف بالسَّرْو ، وهم أهل جبال حصينة باليمن تعرف بالسَّراة ، كأنها مضافة لسَرَاةِ الرجال ، على ما أخبرنى به فقيه من أهل اليمن ، يعرف بابن أبى الصَّيْف ، فاشتقّ الناس لهم هذا الاسم المذكور من اسم بلادهم ، وهم قبائل شتّى كبَجِيلة وسواها ، يستعدّون للوصول إلى هذه البلدة المباركة قبل حلولها بعشرة أيام ، فيجمعون بين النّية فى العُمْرة ومِيرَة البلد بضروب من الأطعمة كالحنطة وسائر الحبوب ، إلى اللوبياء ، إلى ما دونها ، ويجلبون السمن والعسل والزبيب واللوز . فتجمع ميرتهُم بين الطعام والإدام والفاكهة . ويَصِلون فى آلاف من العَدَد رجالا وجمالا مُوقَرة بجميع ما ذُكِر . فيُرْغِدون مَعَايِش أهل البلد والمجاورين فيه ، يَتَقَوَّتون ويدّخرون ، وترخصُ الأسعار ، وتعم المرافق . فيُعِدّ منها الناس ما يكفيهم لعامهم إلى مِيرة أخرى . ولولا هذه الميرة لكان أهل مكة فى شظف من العيش . ومن العجب فى أمر هؤلاء المائرين أنهم لا يبيعون من جميع ما ذكرناه بدينار ولا بدرهم ، إنما يبيعونه بالخِرَق والعَبَاءات والشِّمَل ، فأهل مكة يُعِدّون لهم من ذلك مع

الأَقْنِعة والمَلاحِف المِتَان ، وما أشبه ذلك مما يلبسه الأعراب ، ويبايعونهم به ويُشارُونهم . ويُذْكَر أنهم متى أقاموا عن هذه المِيرة ببلادهم تجدب ، ويقع المُوتان فى مواشيهم وأَنْعامهم ، وبوصولهم بها تخصب بلادُهم ، وتقع البركة فى أموالهم . فمتى قَرُب الوقت ، ووقعت منهم بعض غفلة فى التأهُّب للخروج ، اجتمع نساؤهم فأخرجْنَهم . وكلّ هذا لطف من الله تعالى ، لحُرمة البلد الأمين .

وبلادهم على ما ذُكِر لنا خصيبة ، متّسعة ، كثيرة التين والعِنَب ، واسعة المَحْرَث ، وافرة الغلات . وقد اعتقدوا اعتقادا صحيحا أن البركة كلّها فى هذه المِيرة التى يجلبونها ، فهم من ذلك فى تجارة رابحة مع الله عز وجل . والقوم عرب صُرَحاء ، جُفاة ، أصحّاء ، لم تُغذِّهم الرِّقَّةُ الحَضرِيَّة ، ولا هَذَّبتْهم السِّيَر المدنيّة ، ولا سَدَّدت مَقاصدَهم السُّنَن الشرعيّة ، فلا تَجِد لديهم من أعمال العبادات سوى صِدْق النية ، فهم إذا طافوا بالكعبة المقدّسة يتطارحون عليها تَطارُحَ البنينَ على الأم المشفقة ، لائذين بجوارها ، مُتعلّقين بأستارها . فحيثما علقت أيديهم منها تمزّق لشدة اجتذابهم لها ، وانكبابهم عليها . وفى أثناء ذلك تصدع ألسنتُهم بأدعية تتصدّع لها القلوب ، وتتفجّر لها الأعين الجوامد فتَصُوب[1] . فترى الناس حولهم ، باسطى أيديهم ، مُؤَمِّنين على أدعيتهم ، مُتلقِّنين لها من ألسنتهم ، على أنهم طولَ مُقامهم لا يَتمكَّن معهم طوافٌ ، ولا يوجد سبيل إلى استلام الحجر . وإذا فُتِح الباب الكريم فهم الداخلون بسلام ، فتراهم فى محاولة دخولهم يتسلسلون ، كأنهم بعض ببعض مرتبطون ، يتصل منهم على هذه الصفة الثلاثون والأربعون ،

---

(١) تصوب : تسقط الدمع .

إلى أزيد من ذلك ، والسلاسل منهم يتبع بعضهم بعضا ، وربما انفصمت بواحد منهم ، يميل عن المَطْلَع المبارك إلى البيت الكريم ، فيقع الكلّ لوقوعه . فيشاهِد الناظر لذلك مرأى يؤدى إلى الضحك .

وأما صَلاتهم فلم يُذْكَر فى مُضْحِكات الأعراب أظرف منها ، وذلك أنهم يستقبلون البيت الكريم ، فيسجدون دون ركوع ، ويَنْقُرون[1] بالسجود نقرا ؛ ومنهم من يسجد السجدة الواحدة ، ومنهم من يسجد الثِّنْتَين والثلاث والأربع ، ثم يرفعون رءوسهم من الأرض قليلا ، وأيديهم مبسوطة عليها ، ويلتفتون يمينا وشِمالا التفاتَ المُروَّع ، ثم يُسلِّمون أو يقومون دون تسليم ولا جلوس للتشهّد ، وربّما تكلّموا فى أثناء ذلك ، وربما رفع أحدهم رأسه من سجوده إلى صاحبه ، وصاح به ، ووصّاه بما شاء ، ثم عاد إلى سجوده ، إلى غير ذلك من أحوالهم الغريبة . ولا مَلْبَس لهم سوى أُزُر وَسِخة أو جلود يستترون بها . وهم مع ذلك أهل بأسٍ ونَجْدة ، لهم القِسِيّ العربية الكبار ، كأنها قسى القطَّانين ، لا تفارقهم فى أسفارهم . فمتى رحلوا إلى الزيارة ، هاب أعراب الطريق المُمسِكون للحاجّ مَقْدَمَهم ، وتجنّبوا اعتراضهم ، وخَلَّوا لهم عن الطريق . ويصحبهم الحُجّاج الزائرون فيحمدون صحبتهم . وعلى ما وصفنا من أحوالهم فهم أهل اعتقاد للإيمان صحيح ، وذُكِر أن النبىّ ، ﷺ ، ذكرهم ، وأثنى عليهم خيرا ، وقال : « علِّموهم الصلاة يعلمونكم[2] الدعاء » . وكفى بأن دخلوا فى عموم قوله ﷺ : « الإيمان يَمانٍ »[3] ، إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة فى اليمن وأهله . وذُكِر أن

---

(١) ينقرون : يسرعون فى السجود . (٢) كذا خـ ؛ ر : يعلموكم ، وكل صحيح .

(٣) ذكره البخارى ومسلم فى كتابى المناقب وغيرهما من صحيحيهما وابن حنبل ١٩ مرة .

عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، كان يحترم وقتَ طوافِهم ، ويتحرّى الدخولَ فى جملتهم ، تبرُّكا بأدعيتهم . فشأنُهم عجيب كلّه .

وشاهدنا منهم صبيّا فى الحِجْر ، قد جلس إلى أحد الحجاج يعلّمه فاتحة الكتاب وسورة الإخلاص . فكان يقول له : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فيقول الصبىّ : ﴿ الله أحدٌ ﴾ . فيُعيد عليه المعلّم ، فيقول له : « ألم تأمُرْنى بأن أقول : هو الله أحد ، قد قلتُ » . فكابَدَ فى تلقينه مشقة ، وبعدلأْيٍ ما عَلِقت بلسانه . وكان يقول له : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله ربّ العالمين » ، فيقول الصبى : « بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله » . فيعيد عليه المعلم ، ويقول له : « لا تقلْ : والحمد لله ، إنما قُلْ : الحمد لله » . فيقول الصبى : « إذا قلتُ : بسم الله الرحمن الرحيم ، أقول : والحمد لله ، للاتصال ، وإذا لم أقل : بسم الله ، وبدأتُ قلت : الحمد لله » . فعجبنا من أمره ، ومن معرفته طَبْعا بصِلَة الكلام وفصله[1] دون تعلّم . وأما فصاحتهم فبديعة جدّا ، ودعاؤهم كثير التخشيع للنفوس ، والله يُصْلِح أحوالهم ، وأحوال جميع عباده ، بمنه .

[تكملة وصف العمرة] :

والعُمْرَة فى هذا الشهر كله متصلة ليلا ونهارا ، رجالا ونساءً ، لكن المجتمع كله إنما كان فى الليلة الأولى ، وهى ليلة الموسم عندهم . والبيت الكريم يُفْتَح كل يوم من هذا الشهر المبارك . فإذا كان اليوم التاسع والعشرون منه ، أُفْرِد للنساء خاصة ، فيظهر للنساء بمكة فى ذلك اليوم احتفال عظيم ، فهو عندهم يوم زينتهم المشهور المستعَدّ له . وفى يوم الخميس الخامسَ عشر من الشهر المذكور ، شاهدنا من الاحتفال للعُمرة قريبا من المشهد الأول ،

---

(١) فصله : كذا صححها رايت ؛ خـ : فعله .

المذكور فى أوله ، فكان لا يبقى أحد من الرجال والنساء إلا خرج لها . وبالجملة فالشهر المبارك كله معمور بأنواع العبادات من العُمرة وسواها ، ويختص[١] أوله ونصفه من ذلك بحظ مُتَميِّز ، وكذلك السابع والعشرون منه .

وفى عشىّ يوم الخميس المذكور ، كنّا جلوسا بالحِجْر المكرم ، فما راعنا إلا الأمير مكثر طالعا مُحْرِما ، قد وصل من ميقات العمرة ، تبركا بذلك اليوم ، وجريا فيه على الرَّسْم ، وأبناؤه وراءه محرمين ، وقد حَفّ به بعض خاصته . وبادر المؤذّن الزمزمىّ للحِين إلى سطح قبة زمزم داعيا على عادته ، ومتناوبا[٢] فى ذلك مع أخيه صغيرِه . وحانت صلاة العشاء[٣] ، مع فراغ الأمير من طوافه ، فصلّى خلف الإمام الشافعى ، وخرج إلى المسعى المبارك .

وفى يوم الجمعة السادسَ عشر منه ، خرجت قافلة كبيرة من الحاجّ فى نحو أربع مئة جمل ، مع الشريف الدّاوُدىّ ، إلى زيارة الرسول ﷺ . وفى جمادى الثانية قبله ، كانت أيضا زيارةٌ أخرى لبعض الحجَّاج ، فى قافلة أصغر من هذه المذكورة . وبقيت الزيارة الشّوّاليّة ، والتى مع الحاجّ[٤] العراقىّ ، إثرَ الوقفة ، إن شاء الله عز وجل . وفى التاسعَ عشر من شعبان ، كان انصراف هذه القافلة الكبيرة ، فى كَنَف[٥] السلامة ، والحمد لله .

وفى ليلة الثلاثاء السابع والعشرين منه — أعنى من رجب — ظهر لأهل مكة أيضا احتفال عظيم فى الخروج إلى العمرة ، لم يقصر عن الاحتفال

---

(١) خـ : ومختص .
(٢) خـ : ومتناولا .
(٣) العشاء : ساقطة من خـ .
(٤) الحاج : زادها رايت .
(٥) كنف : جانب .

الأول ، فانجفل الجميع إليها ، تلك الليلة ، رجالا ونساء ، على الصفات والهيئات المتقدمة الذكر ، تبرّكا بفضل هذه الليلة ، لأنها من الليالى الشهيرة الفضل . فكانت مع صبيحتها عجبا فى الاحتفال ، وحسن المنظر ، جعل الله ذلك كله خالصا لوجهه الكريم . وهذه العمرة يسمونها عُمْرة الأَكَمة ، لأنهم يُحْرِمون فيها من أكمة ، أمام مسجد عائشة رضى الله عنها بمقدار غَلْوة ، وهى على مقربة من المسجد المنسوب لعلى عليه السلام .

والأصل فى هذه العمرة الأَكَمِية عندهم ، أن عبد الله بن الزبير ، رضى الله عنهما ، لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة ، خرج ماشيا ، حافيا ، معتمرا ، وأهل مكة معه ، فانتهى إلى تلك الأكمة ، فأحرم منها ، وكان ذلك فى اليوم السابع والعشرين من رجب . وجعل طريقه على ثنيّة الحَجُون المُفْضِية إلى المَعْلَى ، التى كان دخول المسلمين يومَ فتح مكة منها ، حسبما تقدم ذكره . فبقيت تلك العمرة سنّة عند أهل مكة ، فى ذلك اليوم بعينه ، وعلى تلك الأكمة بعينها . وكان يوم عبد الله رضى الله عنه ، مذكورا مشهورا ؛ لأنه أهدى فيه كذا وكذا بَدَنة ، عددا لم تتحصَّل صحتُه ، فكنتُ أثبتّه ، لكنه بالجملة كثير[1] . ولم يبقَ من أشراف مكة وذوى الاستطاعة فيها إلا من أهدى ، وأقام أهلها أياما يَطْعَمون ويُطْعِمون ، ويتنعَّمون ويُنعِّمون ، شكرا لله عز وجل ، على ما وهبهم من المعونة والتيسير فى بناء بيته الحرام ، على الصفة التى كان عليها مدةَ الخليل إبراهيم ﷺ ؛ فنقضها الحجّاج ، لعنه الله ، وأعادها على ما كانت عليه مدةَ قريش ؛ لأنهم كانوا اقتصروا فى بنائه عن قواعد إبراهيم ،

---

(١) ذكر الأزرق أنه نحر مئة بدنة .

ﷺ ، وأبقى نبينا محمد ، ﷺ ، ذلك على حاله ، لحِدْثَان(١) عهدهم بالكفر ، حسبما ثبت فى رواية عائشة رضى الله عنها ، فى موطأ مالك ابن أنس(٢) رضى الله عنه .

[إفراد البيت للنساء] :

وفى اليوم التاسع والعشرين منه ، وهو يوم الخميس ، أُفْرِدَ البيت للنساء خاصة ، فاجتمعن من كل أَوْب(٣) . وقد تقدم احتفالهن لذلك بأيام ، كاحتفالهن للمشاهد الكريمة ، ولم تبقَ امرأة بمكة إلا حضرت المسجد الحرام ذلك اليوم . فلما وصل الشَّيبيّون لفتح [البيت] الكريم ، على العادة ، وأسرعوا فى(٤) الخروج منه ، وأفرجوا للنساء عنه ، وأفرج الناسُ لهنَّ عن الطواف وعن الحجر ، ولم يبقَ حول البيت المبارك أحد من الرجال ، تبادر(٥) النساء إلى الصعود ، حتى كاد الشيبيون لا يخلصون بينهنَّ عند هبوطهم(٦) من البيت الكريم ، وتسلسلَ النساءُ بعضهنَّ ببعض وتشابكن ، حتى تواقعن ؛ فمن صائحة ومُعْوِلة ، ومكبّرة ومهللة ، وظهر من تزاحُمهنَّ ما ظهر من السَّرْو اليمنيين(٧) ، مدةَ مُقامهم بمكة ،

---

(١) حدثان عهدهم بالكفر : قرب عهدهم به والخروج منه ، والدخول فى الإسلام وأنه لم يتمكن فى قلوبهم ، فإن هدمت الكعبة وغيرت ربما نفروا من ذلك .

(٢) كتاب الحج ، باب ما جاء فى بناء الكعبة ، ص ١٤١ ، طبع دهلى ١٣٠٧ هـ . وأورد الحديث أيضا البخارى : الحج ٤٢ ، الأنبياء ١٠ ؛ ومسلم : الحج ٣٩٩ ، ٤٠٤ ؛ والنسائى : الحج ١٢٥ ؛ وابن حنبل ٦ : ١١٣ ، ١٧٧ ، ٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ٢٦٢ .

(٣) الأوب : الجهة .

(٤) كذا خـ ؛ ر : أسرعوا .

(٥) خـ ، ر : وتبادر .

(٦) خـ : هبوطهن .

(٧) خـ : واليمنيين .

وصعودهم ، يومَ فتح البيت المقدس ، وأشبهت الحالُ الحالَ ، وتمادَيْن على ذلك صدرا من النهار ، وانفسحن فى الطواف والحِجْر ، وتشفَّيْن من تقبيل الحجر واستلام الأركان . وكان ذلك اليوم عندهنّ الأكبر ، ويومهن الأزهر الأشهر ، نفعهن الله به ، وجعله خالصا لكريم وجهه . وبالجملة فهن مع الرجال مسكينات مغبونات ، يرين البيت الكريم ولا يَلِجْنه ، ويلحظن الحجر المبارك ولا يستلمنه . فحظُّهنّ من ذلك كله النظر ، والأسف المستطِير المستشعَر . فليس لهنّ سوى الطواف على البُعْد ، وهذا اليوم الذى هو من عام إلى عام ، فهنّ يرتقِبْنه[1] ارتقابَ أشرف الأعياد ، ويُكثِرن له من التأهُّب والاستعداد ، والله ينفعهنَّ فى ذلك ، بحسن النية والاعتقاد ، بمنه وكرمه .

[**غسل البيت**] :

وفى اليوم الثانى منه ، بكّر الشيبيون إلى غسله بماء زمزم المبارك ، بسبب أن كثيرا من النساء أدخلن أبناءهن الصغار والرُّضَّع معهن ، فيُتحرَّى غسله تكريما وتنزيها ، وإزالةً لما يَحِيك فى النفوس من هَوَاجِس الظنون ، فيمن ليست له مَلَكة عقلية تمنعه من أن تصدر عنه حادثة نَجَس فى ذلك الموطن الكريم ، والمحل المخصوص بالتقديس والتعظيم . فعند انسياب الماء عنه ، كان كثير من الرجال والنساء يبادرون إليه ، تبركا بغسل أوجههم وأيديهم فيه ، وربما جمعوا منه فى أَوَانٍ قد أعدّوها لذلك ، ولم يراعوا العِلَّة التى غُسِل لها . وكان منهم من توقَّف عن ذلك ، وربما لحَظَ مَنْ لا يَسْتَجِيزها ، ولا يصوّب العقلَ فى ذلك . وما ظَنُّك بماء زمزم المبارك ، قد صُبَّ داخل بيت الله الحرام ،

(١) خـ : يرقبنه .

وماج فى جنبات أركانه الكرام[١] . ثم انصبَّ بإزاء الملتزَم ، والركن الأسود المستلَم ، أليس جديرا بأن تتلقّاه الأفواه ، فضلا عن الأيدى ، وتُغْمَس فيه الوجوه ، فضلا عن الأقدام . وحاشا لله أن تَعْرِض فى ذلك علة تمنع منه ، أو شُبْهة من شبهات الظنون تدفع[٢] عنه ، والنيات عندَ الله تعالى مقبولة ، والمثابرة على تعظيم حرماته برضاه موصولة ، وهو المُجازِى على الضمائر ، وخَفيَّات السَّرائر ، لا إلـٰه سواه .

شهر شعبان المكرم ، عَرّفنا الله بركته

استهلَّ هلاله ليلة السبت التاسع عشر لشهر نونبر[٣] . وفى صبيحته بَكّر الأمير مكثر إلى الطواف ، على العادة فى ذلك رأسَ كل شهر مع أخيه وبنيه[٤] ، ومَنْ جرى الرسم باستصحابه من القُوَّاد والأشياع والأتباع ، وعلى الأسلوب المتقدم الذكر ، والزمزميُّ يصرخ فى مَرْقَبته[٥] على عادته ، متناوبا مع أخيه صغيره .

وفى سحر يوم الخميس الثالث عشر منه ، وهو أولُ يوم من دجنبر[٦] ، بعد طلوع الفجر ، كُسِف القمر ، وبدأ الكسوف والناس فى صلاة الصبح ، فى الحرم الشريف ، وغاب مكسوفا ، وانتهى الكسوف إلى ثلثيه[٧] ، والله

(١) خـ : الكرائم .
(٢) خـ : ترفع ، وصححها دوزى .
(٣) أى نوفمبر ، وكذا رسمه فى المخطوط كله ، وفى خـ هنا : يونيه ، تحريف .
(٤) خـ : وابنيه .
(٥) المرقبة : المكان المرتفع يعلوه الرقيب .
(٦) أى ديسمبر .
(٧) خـ هنا : ثلثه ، وانظر ص ١٦٧ .

يعرّفنا حقيقة الاعتبار بآياته .

[خرافة عن زمزم] :

وفى يوم الجمعة الثانى من ذلك اليوم ، أصبح بالحرم أمر عجيب ، وذلك أنه لم يبقَ بمكة صبي إلا وصبَّحه ، واجتمعوا كلهم فى قبة زمزم ، وينادون بلسان واحد : « هَلِّلوا وكَبِّروا يا عباد الله » فيهلّل الناس ويكبّرون . وربما دخل معهم من عُرْض[1] العامّة مَنْ ينادى معهم بندائهم ، والناس والنساء يزدحمون على قبّة البئر المباركة ، لأنهم يزعمون ، بل يقطعون [قطعا] جَهْلِيّا ، لا قطعا عقليا أن ماء زمزم يَفِيض ليلة النصف من شعبان . وكانوا على ظنٍّ من هلال الشهر ؛ لأنه قيل : إنه رؤى ليلة الجمعة فى جهة اليمن . فبكر الناس إلى القبة ، وكان فيها من الازدحام ما لم يُعْهَد مثله ، ومقصد الناس فى ذلك التبرّك بذلك الماء المبارك ، الذى قد ظهر فيضُه ، والسُّقاة فوق التنور يستبقون ، ويُفِيضون على رءوس الناس الماء[2] بالدِّلاء قذفا ؛ فمنهم من يصيبه فى وجهه ، ومنهم من يصيبه فى رأسه ، إلى غير ذلك . وربما تمادى لشدة نفوذه من أيديهم ، والناس مع ذلك يستزيدون ويبكون ، والنساء من جهة أخرى يُساجِلْنهم[3] بالبُكاء ، ويُطارِحْنَهم بالدعاء . والصبيان يَضِجّون بالتهليل والتكبير ؛ فكان مرأى هائلا مسموعا رائعا ، لم يتخلّص للطائفين بسببه طواف ، ولا للمصلين صلاة ، لعُلوّ تلك الأصوات ، واشتغال الأسماع والأذهان ، ودخل إلى القبة المذكورة أحدُنا ذلك اليوم ، فكابد من لزّ الزحام عَنَتا ومشقة ، فسمع الناس يقولون : « زاد الماءُ

---

(١) عرض العامة : معظمهم .
(٢) الماء : زادها رايت وفى موضعها بياض .
(٣) يساجلنهم : يسابقنهم .

سَبْع[1] أذرع » . فجعل يقصد إلى مَنْ يتوسّم فيه بعض عقل ونظر ، من ذوى السِّبَال[2] البيض ، فيسأله عن ذلك ، فيقول وأدمعه تسيل : « نعم زاد الماء سبع[1] أذرع ، لاشك فى ذلك » . فيقول : « أَعَنْ خبرة وحقيقة ؟ » فيقول : « نعم » . ومن العجيب أن كان منهم من قال : إنه بكّر سَحَر يوم الجمعة المذكور[3] ، فألفى الماء قد قارب التنوّر بنحو القامة . فياعجبا ، لهذا الاختراع الكاذب ، نعوذ بالله من الفتنة ! وكان من الاتّفاق أن اعتنينا بهذا الأمر ، لغلبة الاستفاضة التى سمعناها فى ذلك ، واستمرارها مع سوالف الأزمنة عند عوامّ أهل مكة . فتوجّه منا ليلة الجمعة مَنْ أدلى دلوَه فى البئر المباركة ، إلى أن ضرب فى صفح الماء ، وانتهى الحبل إلى حافة التنوّر ، وعَقَد فيه عقدا عقدا يصح عندنا القياسُ به فى ذلك . فلما كان فى صبيحتها ، وتنادى الناس بالزيادة ، الزيادة الظاهرة ، خَلَص أحدنا فى ذلك الزحام على صعوبة ، ومعه من استصحب الدلو ، وأُدْلاه فوجد القياس على حاله ، لم ينقص ولم يزد ، بل كان من العجب أن عاد للقياس ليلة السبت ، فألفاه قد نقص يسيرا لكثرة ما امتاح[4] الناس منه ذلك اليوم . فلو امْتِيح من البحر لظهر النقصُ فيه ، فسبحان من خصّ ذلك الماء بما خُصَّ به من البرَكة ، ووُضع فيه من المنفعة . وفى صبيحة يوم السبت الخامسَ عشر منه ، تتبعنا هذا القياس استبراء لصحة الحال ، فوجدناه على ما كان عليه ، ولو أن لافظا ، يلفظ ذلك اليوم بأنه لم يزد ، لصُبَّ فى البئر صبًّا ، أو لداستْه الأقدام حتى تذيبه ، نعوذ بالله من غَلَبات العوّام واعتدائها ، وركوبها جَوَامِح أهوائها .

---

(١) خـ : سبعة .　　(٢) السبال : جمع سبلة ، وهو مقدم اللحية .

(٣) خـ : يوم الخميس المذكورة .　　(٤) امتاح : استقى .

[ليلة نصف شعبان] :

وهذه الليلة المباركة ــ أعنى ليلة النصف من شعبان ــ عند أهل مكة معظّمة ، للأثر الكريم الوارد فيها[١] ، فهم يبادرون فيها إلى أعمال البرّ ، من العُمْرَة والطواف والصلاة أفرادا وجماعة[٢] ، فينقسمون فى ذلك أقساما مباركة ؛ فشاهدنا ليلة السبت ، التى هى ليلة النصف حقيقة ، احتفالا عظيما فى الحرم المقدس إثر صلاة العَتَمة ؛ جعل الناس يصلّون فيها جماعات جماعات ، تراويحَ يقرءون فيها بفاتحة الكتاب وبقُلْ هو الله أحد ، عشر مرات فى كل ركعة ، إلى أن يكملوا خمسين تسليمة بمئة ركعة ، قد قدّمت[٣] كلُّ جماعة إماما ، وبُسِطت الحُصُر ، وأُوقِدت الشُّمُع ، وأُشْعِلت المَشَاعل ، وأُسْرِجت المصابيح ، ومصباح السماء الأزهر الأقمر قد أفاض نوره على الأرض ، وبسط شعاعه . فتلاقت الأنوار فى ذلك الحرم الشريف[٤] ، الذى هو نور بذاته ، فيالك مرأى لا يتخيّله المتخيّل ، ولا يتوهّمه المتوهم ! فأقام الناس تلك الليلة على أقسام : فطائفة التزمت تلك التراويح مع الجماعة ، وكانت سبع جماعات أو ثمانيا ؛ وطائفة التزمت الحِجْر المبارك للصلاة على انفراد ؛ وطائفة خرجت للاعتمار ، وطائفة آثرت الطواف على هذا كله ،

---

(١) يشير إلى الحديث الذى رواه ابن حنبل فى مسنده (١٠ : ١٦٦ الحديث ٦٦٤٢) : « يطلع الله عز وجل إلى خلقه ليلة النصف من شعبان ، فيغفر لعباده ، إلا لاثنين : مشاحن وقاتل نفس » أو الحديث الذى رواه الترمذى (١ : ٩٢ طبع دهلى ١٣١٥ هـ) : « إن الله تبارك وتعالى ينزل ليلة النصف من شعبان إلى سماء الدنيا ، فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كلب » . وانظر مسند ابن حنبل ٦ : ٢٣٨ .

(٢) خ : وجماعته . (٣) خ : تقدمت .

(٤) هـ : المقدس .

أغلبُها المالكية ، فكانت من الليالى الشهيرة ، المأمولة أن تكون غُرَر القُرُبات ومحاسنها ، نفع الله بها ، ولا أخلَى من بركتها وفضلها ، وأوصل إلى هذه المثابة المقدّسة كلَّ شيّق إليها ، بمنه .

وفى تلك الليلة المباركة شاهد أحمد بن حسان منا[1] أمرا عجيبا ، هو من غرائب الأحاديث المأثورات فى رقّة النفوس . وذلك أنه أصابه النوم عند الثلث الباق من الليل ، فأوى إلى المصطبة التى تحف بها قبة زمزم ، مما يقابل الحجرَ الأسود وبابَ البيت ، فاستلقى فيها لينام ، فإذا بإنسان من العجم قد جلس على المصطبة بإزائه ، مما يلى رأسه . فجعل يقرأ بتشويق وترقيق ، ويتبع ذلك بزفير وشهيق ، أحسنَ قراءة ، وأوقعَها فى النفوس[2] ، وأشدها تحريكا للساكن ، فامتنع المذكورُ من المنام ، استمتاعا بحسن ذلك المسموع ، وما فيه من التشويق والتخشيع ، إلى أن قطع القراءة ، وجعل يقول :

إن كان سوءُ الفِعال أبْعَدَنى   فحُسْنُ ظنّى إليك قرَّبنى

ويردد ذلك بلحن يتصدّع له الجماد ، وينشقّ عليه الفؤاد . ومضى فى ترديد ذلك البيت ، ودموعه تكِف[3] ، وصوته يرِقّ وتضْعُف ، إلى أن وقع فى نفس أحمد بن حسان المذكور أنه سيُغشى عليه ؛ فما كان بين اعتراض هذا الخاطر بنفسه[4] ، وبين وقوع الرجل مغشيا عليه من المصطبة إلى الأرض ، إلا كَلّا ولَا[5] ، وبقى مُلْقىً كأنه لقيً[6] لا حَرَاك به . فقام ابن حسان مذعورا لهول ما عاينه ، متردّدا فى حياة الرجل أو موته ، لشدة تلك

---

(١) كذا هـ ؛ خ : بها .   (٢) هـ : النفس .

(٣) تكف : تهطل .   (٤) هـ : فى نفسه .

(٥) كلا ولا : أى مدة قليلة أو لحظة .   (٦) اللقى : الشيء المطروح .

الوجبة[١] ، والموضع من الأرض بائن الارتفاع ، وقام أحد من كان بإزائه نائما ، وأقاما متحيِّرَيْـن ، ولم يُقْدِما على تحريك الرجل ، ولا على الدنوّ منه ، إلى أن اجتازت امرأة أعجمية ، وقالت : « هكذا تتركون هذا الرجل ، على مثل هذا الحال ؟ » . وبادرت إلى شْيء من ماء زمزم ، فنَضَحت به وجهه . ودنا المذكوران منه وأقاماه . فعندمَا أبصرهما زَوَى وجهه للحِين عنهما ، مخافة أن تثبتَ له صفةٌ فى أعينهما ، وقام من فَوْره آخذا إلى جهة باب بنى شَيبة . وبقيا مُتعجِّبَيْن مما شاهداه ، وعض ابن حسان بنانَ الأسف على ما فاته من بركة دعائه ، إذ لم يمكنه الحال استدعاءه منه ، وعلى أنه لم تثبت له صورةٌ فى نفسه فكان يتبرّك به متى لقيه . ومَقاماتُ هؤلاء الأعاجم فى رقة الأنفس ، وتأثرها[٢] وسرعة انفعالها ، وشدة مُجَاهداتها فى العبادات ، وطول مُثابراتها على أفعال البر ، وظهور بركاتها ، مقامات عجيبة شريفة ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء . وفى سَحَر يوم الخميس الثالث عشر من الشهر المذكور ، **كُسِف القمر ، وانتهى الكسوف منه إلى مقدار ثلثيه ، وغاب مكسوفا عند طلوع الشمس ، والله يُلْهِمنا الاعتبار بآياته .**

شهر رمضان المعظم ، عرفنا الله بركته

استهل هلالُه ليلة الاثنين التاسع عشر لدجنبر ، عرّفنا الله فضله وحَقَّه ، ورزقنا القَبُول فيه . وكان صيام أهل مكة له يوم الأحد ، بدعوى فى رؤية الهلال لم تصحّ ، لكن أمضى الأمير ذلك ، ووقع الإيذان بالصوم بضرب

---

(١) الوجبة : السقطة .

(٢) كذا فى هـ ؛ خـ : تأثيرها .

دَبَادِبِه ليلة الأحد المذكور ، لموافقته مذهبَه ، ومذهبَ شِيعَتِه العلويين ، ومن إليهم ؛ لأنهم يرون صيام يوم الشك فرضا ، حسبما يُذْكَر ، والله أعلم بذلك .
ووقع الاحتفال فى المسجد الحرام لهذا الشهر المبارك ، وحُقَّ ذلك من تجديد الحُصُر ، وتكثير الشمع والمشَاعيل ، وغير ذلك من الآلات ، حتى تلألأ الحرم نورا ، وسطع ضياء ، وتفرقت الأئمة لإقامة التراويح فِرَقا ؛ فالشافعية فوق كلّ فرقة منها ، قد نصبت إماما لها فى ناحية من نواحى المسجد ؛ والحنبلية كذلك ، والحنفية كذلك ، والزَّيدية ؛ وأما المالكية فاجتمعت على ثلاثة قُرّاء يتناوبون القراءة ، وهى فى هذا العام أحفلِ جمعا ، وأكثر شمعا ، لأن قوما من التجار المالكيين تنافسوا فى ذلك ، فجلبوا لإمام الكعبة شمعا كثيرا ، من أكبره شمعتان نُصِبتا أمام المحراب ، فيهما قنطار ، وقد حَفّت بهما شمع دونهما صغار وكبار . فجاءت جهة المالكية تروق حسنا ، وترتمى الأبصار[١] نورا . وكاد لا يبقى فى المسجد زاوية ولا ناحية إلا وفيها قارئ يصلى بجماعة خلفه ، فيرتج المسجد لأصوات القَرَأَة من كلّ ناحية ، فتُعاين الأبصار ، وتُشاهِد الأسماع من ذلك مرأى ومُستَمَعا تنخلع له النفوس خشية ورقّة . ومن الغرباء من اقتصر على الطواف والصلاة فى الحِجْر ، ولم يحضر التراويح ، ورأى أن ذلك أفضل ما يُغتَنَم[٢] ، وأشرف عمل يلتزَم ، وما بكلّ مكان يوجد[٣] الركن الكريم والملتزَم .

والشافعىّ فى التراويح أكثر الأئمة اجتهادا ، وذلك أنه يُكْمِل التراويح المعتادة التى هى عشر تسليمات ، ويدخل الطواف مع جماعته[٤] . فإذا فرغ

---

(١) خـ : للأبصار .
(٢) خـ : مما .
(٣) ينتهى هنا السقط .
(٤) ط : جماعة .

من الأُسبوع[١] وركع، عاد لإقامة تراويح أُخر، وضرب بالفرقعة الخطيبية المتقدمة الذكر ضربة استكّ[٢] المسجد، لعُلوّ صوتها، كأنها إيذان بالعَوْدة[٣] إلى الصلاة. فإذا فرغوا من تسليمتين، عادوا لطواف أسبوع. فإذا أكملوا[٤] ضُرِبت الفرقعة، وعادوا لصلاة تسليمتين، ثم عادوا للطواف، هكذا إلى أن يفرغوا من عشر تسليمات، فيكمل لهم عشرون تسليمة[٥]، ثم يصلون الشفع والوِتر، وينصرفون. وسائر الأئمة لا يزيدون على العادة شيئا، والمُتناوِبون لهذه التراويح المَقَاميّة خمسة أئمة، أولهم إمام الفريضة، وأوسطهم صاحبنا الفقيه الزاهد الورع أبو جعفر بن [على] الفَنَكيّ القرطبيّ، وقراءته تُرِقّ الجمادات خشوعا. وهذه الفرقعة المذكورة تُسْتعمل فى هذا الشهر المبارك، وذلك أنه يُضْرَب بها ثلاثُ ضَرَبات عند الفراغ من أذان المغرب، ومثلها عند الفراغ من أذان[٦] العشاء الآخرة. وهى لا محالَة من جملة البِدَع المُحْدَثة فى هذا المسجد المعظّم قدسه الله.

والمؤذن الزمزميّ يتولّى فى الصومعة التى فى الركن الشرقيّ من المسجد، بسبب قربها من دار الأمير، فيقوم فى وقت السحور فيها داعيا، ومُذكّرا، ومُحرِّضا على السحور، ومعه أخوان صغيران يُجاوبانه ويُقَاوِلانه، وقد نُصِبت فى أعلى الصومعة خشبة طويلة، فى رأسها عود كالذراع، وفى طرفيه بَكَرتان صغيرتان، يُرْفَع عليهما قنديلان من الزجاج كبيران، لا يزالان يَقِدان مدةَ التّسحير. فإذا قرب تبين خيطَى الفجر، ووقع الإيذان بالقطع

(١) الأسبوع هنا بمعنى السبعة. (٢) أستك: أصابه الصمم. وفى ط: يسمعها، وهى كلمة زادها رايت لأن موضعها كان فارغا.
(٣) ط: بالعود. (٤) ط: أكملوه.
(٥) ط: ركعة. (٦) ص: إيذان.

مرَّة بعد مرة[١] ، حط المؤذن المذكور القنديلين من أعلى الخشبة ، وبدأ بالأذان ، وثَوَّب[٢] المؤذّنون من كل ناحية بالأذان . وفى ديار مكة كلها سطوح مرتفعة فمن لا يسمع[٣] نداء التسحير ممن يَبْعُد مسكنُه من المسجد ، يُبْصِر القنديلين يَقِدان فى أعلى الصومعة ، فإذا لم يبصرْهما علم أن الوقت قد انقطع .

[الأمير طغتكين] :

وفى ليلة الثلاثاء الثانى من الشهر مع العشىّ ، طاف الأمير مكثر بالبيت مودّعا ، وخرج للقاء الأمير سيف الإسلام طُغْتِكِين[٤] بن أيوب أخى صلاح الدين ، وقد كان[٥] تقدم الخبر بوروده من مصر منذ مدة ، ثم تواتر إلى أن صحّ وصوله إلى « اليَنْبوع »[٦] ، وأنه عَرَّج إلى المدينة لزيارة الرسول ، ﷺ ، وتقدمت أثْقَاله إلى الصَّفْراء[٧] . والمتحدَّث به فى وِجْهَته قَصْدُ اليمن ، لاختلاف وقع فيها ، وفتنة حدثت بين أمرائها[٨] لكن وقع فى نفوس المكّيين منه إيجَاسُ[٩] خيفة ، واستشعار خشية . فخرج هذا الأمير المذكور متلقّيا [ومسلّما] ، وفى الحقيقة مستسلما ، والله تعالى يُعرّف المسلمين خيرا .

---

(١) خـ : مدة بعد مدة . (٢) ثوب : رجّع الأذان .
(٣) ط : لم يسمع . (٤) ص : طشتكين .
(٥) ساقطة من ط . (٦) يقصد ينبع ، ولم تصرح المراجع بهذا المد فيها .
(٧) أثقاله : أحماله . والصفراء : قرية فوق ينبع ، على يوم من جبل رضوى فى غربه ، وهى كثيرة المزارع والنخل ، ماؤها عيون ، يجرى فضلها إلى ينبع .
(٨) ط : من أمرائها . والفتنة المذكورة حدثت فى عام ٥٧٧ هـ بين نواب شمس الدولة أخى صلاح الدين ، بعد أن غادر اليمن . فسير صلاح الدين جماعة من أمرائه منهم صارم الدين قتلغ أبه ، فقضى على الفتنة . ولكن ما لبث أن مات فتجددت ، فأرسل صلاح الدين أخاه طغتكين فقضى عليها .
(٩) خـ : إيحاس .

وفى ضحوة يوم الأربعاء الثالث من الشهر المبارك المذكور ، كنا جلوسا بالحِجْر المكرم ، فسمعنا دبادب الأمير مكثر ، وأصوات نساء مكة يُوَلْوِلن عليه . فبينا نحن كذلك ، دخل مُنصرِفا من لقاء الأمير سيف الإسلام المذكور ، وطائفا بالبيت المكرّم طوافَ التسليم ، والناس قد أظهروا الاستبشار لقدومه[١] ، والسرور بسلامته ، وقد شاع الخبر بنزول سيف الإسلام « بالزاهر »[٢] ، وضرب أَقْبِيته[٣] فيه ، ومقدّمتُه من العسكر قد وصلت إلى الحرم ، وزاحمت الأمير مكثرا فى الطواف . فبينما الناس ناظرون[٤] إليهم ، إذ سمعوا ضوضاء عظيمة ، وزَعَقات هائلة ، فما راعهم إلا الأمير سيف الإسلام داخلا[٥] من باب بنى شَيبة ، ولَمَعان السيوف أمامه يكاد يحول بين الأبصار وبينه ، والقاضى عن يمينه ، وزعيم الشيبيين عن يساره ، والمسجد الحرام[٦] قد ارتجّ وغُصّ بالنظارة والوافدين ، والأصواتُ بالدعاء له ولأخيه صلاح الدين قد عَلَتْ من الناس حتى سكت[٧] الأسماع ، وأذهلت الأذهان ، والزمزمىّ المؤذن[٨] فى مَرْقَبته رافعا عَقِيرتَه بالدعاء له والثناء عليه ، وأصوات الناس تعلو على صوته ، والهَوْل قد عَظُم مَرْأى ومُستمَعا . فَلِحِين دُنُوّ الأمير من البيت المعظّم ، أُغْمِدت السيوف ، وتضاءلت النفوس ، وخُلعت ملابس العزة ، وذلّت الأعناق ، وخضعت الرقاب ، وطاشت العقول والألباب[٩] ، مهابة وتعظيما لبيت ملك الملوك ،

---

(١) ط : لقدومه .
(٢) ط : الزاهر .
(٣) ص : أفنيته . ط : أبنيته . خـ : أخبيته . وهى أوضحها .
(٤) ط : فبينا الناس ينظرون .
(٥) خـ : داخل .
(٦) الحرام : ليست فى ط .
(٧) ط : صكت .
(٨) ر : والمؤذن الزمزمى .
(٩) ط : وطاشت الألباب .

العزيز الجبّار ، الواحد القهار ، مُؤْتِي المُلْكَ من يشاء ، ونازع الملك ممن يشاء ، سبحانه ، جلت قدرته ، وعز سلطانه . وتهافتت[١] هذه العصابة الغُرِّية على بيت الله العتيق تهافُتَ الفَراش على المصباح ، وقد نكس أذقانَهم الخضوعُ ، وبلّت سِبالَهم الدموع . وطاف القاضى وزعيم الشيبيين بسيف الإسلام ، والأمير مكثر قد غمره ذلك الزحام ، فأسرع فى الفراغ من الطواف ، وبادر إلى منزله . وعندما أكمل سيف الإسلام طوافه صلّى خلف المقام ، ثم دخل قبّة زمزم ، فشرب من مائها ، ثم خرج على باب الصفا إلى المسعى ، فابتدأه ماشيا على قدمَيْه[٢] ، تواضُعا وتذلّلا لمن يجب التواضُع له ، والسيوف مسلولة[٣] أمامه ، وقد اصطفّ الناس من أول المسعى إلى آخره سِماطَيْن ، مثل ما صنعوا أيضا فى الطواف ، فسعى على قدمَيْه[٢] طريقَيْن من الصفا إلى المروة ، ومنها إلى الصفا ، وهَرْوَل بين الميلين [الأخضرين] ، ثم قيّده الإعياء فركب ، وأكمل السعى راكبا ، وقد حُشِر الناسُ ضُحًى معنى ووقتا[٤] . ثم عاد هذا[٥] الأمير إلى المسجد الحرام على حالته من الإرهاب والهيبة ، وهو يتهادى بين بُرُوق خَوَاطف من الصوارم[٦] المُصْلَتة ، وقد تبادر[٧] الشيبيون إلى باب البيت المكرم ليفتحوه ، ولم يكن يوم فتحه ، وضُمَّ الكرسيّ الذى يُصْعَد عليه ، فرقِى الأمير فيه ، وتناول زعيم الشيبيين[٨] فتح الباب ، فإذا المفتاح قد سقط من كُمّه فى ذلك الزحام ، فوقف وقفةَ دَهِش

---

(١) ر : ثم تهافتت ، وكان موضع (ثم) فارغا . (٢) ص : قدمه .
(٣) خ : مسلوته . ص : مصلوتة . (٤) معنى ووقتا : ليست فى ط .
(٥) هذا : ليست فى ط . (٦) ط : خواطف السيوف .
(٧) ط : بادر . (٨) ص : أمير الشيبيين .

مذعور ، ووقف الأمير على الأَدْرَاج ، فيسّر الله للحين فى وجود المفتاح ، ففتح الباب الكريم . ودخل الأمير وحدَه مع الشيبى ، وأغلق الباب ، وبقى وجوه الأَغْزاز وأعيانهم مزدحمين على ذلك الكرسى ، فبعد لأيٍ ما فتح لأحد أمرائهم المقرَّبين فدخل[١] . وتمادى مقام سيف الإسلام فى البيت الكريم مدةً طويلة ، ثم خرج ، وانفتح الباب للكافّة منهم . فيا له من ازدحام وتراكُم وانتظام ، حتى صاروا كالعقد المستطيل ، وقد اتصلوا وتسلسلوا . فكان يومهم أشبه شيء بأيام السرو[٢] فى دخولهم البيت ، حسبما تقدم الوصف له[٣] . وركب الأمير سيف الإسلام ، وخرج إلى مضرب أبنيته بالموضع المذكور . وكان هذا اليوم بمكة من الأيام الهائلة المنظر ، العجيبة المشهد ، الغريبة الشأن ، فسبحان من لا ينقضى سلطانه ولا يبيد ملكه[٤] ، لا إلـٰه سواه . وصحب هذا الأمير جملةٌ كثيرة[٥] من حُجّاج مصر وسواها ، اغتناما لطريق البرّ والأمن ، فوصلوا فى عافية وسلامة ، والحمد لله .

وفى ضحوة يوم الخميس بعده كُنَّا أيضا بالحِجْر المكرم ، فإذا بأصوات طبول ودبادِب وبُوقات قد قَرَعت الآذان ، وارتجَّت لها نواحى الحرم الشريف . فبينا نحن نَتطلَّع لاستعلام خبرها ، طلع[٦] الأمير مُكثِر ، وغاشيته

---

(١) ط : فتح لأمرائهم المقربين فدخلوا . خـ : لأمرائهم .. فدخل .

(٢) خـ : السراة . والأصل : السارة .

(٣) ط : وصفه .

(٤) ط : ملكه ... سلطانه .

(٥) ليست فى ط .

(٦) ط : طلع علينا .

الأقربون حوله ، وهو رافِل فى حُلّة ذهب كأنها الجمر المتقد ، يسحب أذيالها ، وعلى رأسه شَرْب رقيق سَحَابىّ اللون ، قد علا كَوْرُها[١] على رأسه كأنها سحابة مركومة ، وهى مصفَّحة بالذهب ، وتحت الحلّة خِلْعَتان من الدَّبِيقىّ المرسم[٢] ، البديع الصنعة ، خلعها الأمير سيف الإسلام عليه[٣] ، فوصل بها فَرِحا جِذْلان ، والطبول والدبادب والبوقات[٤] تشيّعه عن أمر الأمير[٤] سيف الإسلام إشادةً بتكرمته ، وإعلاما بمأثرة[٥] منزلته . فطاف بالبيت المكرّم ، شكرا لله على ما وهبه من كرامة هذا الأمير ، بعد أن كان أوجس فى نفسه خيفة منه ، والله يصلحه ويوفّقه بمنه .

وفى يوم الجمعة وصل الأمير سيف الإسلام للصلاة أولَ الوقت ، وفُتِح له[٦] البيت الكريم[٧] ، فدخله مع الأمير مكثر ، وأقاما[٨] به مدة طويلة ثم خرجا . وتزاحم الغُز للدخول تزاحُما أبْهَتَ الناظرين ، حتى أُزِيل الكرسى الذى يُصْعَد عليه فلم يُغْنِ عن ذلك شيئا ، وأقاموا على الازدحام فى الصعود بإشالة بعضهم على بعض ، وداموا على هذه الحالة إلى أن وصل الخطيب ، فخرجوا لاستماع الخطبة ، وأغلق باب البيت[٩] . وصلّى الأمير سيف الإسلام مع الأمير مكثر فى القبة العباسية . فلما انقضت الصلاة خرج على باب الصفا ، وركب إلى مضرب أبنيته . وفى يوم الأربعاء العاشر منه ،

---

(١) كورها : الدور منها .

(٢) ط : المرسوم .

(٣) ط : خلعها عليه .

(٤) ليست فى ط .

(٥) ص : وإعلانا بأثرة .

(٦) له : ليست فى ط .

(٧) ط : المكرم .

(٨) خـ ، ص : وأقام .

(٩) ط : خرج الأمير .

فوصل هذا الأمير[١] المذكور بجنوده إلى اليمن ، والله يُعرِّف أهلها من المسلمين فى مَقْدَمه خيرا بمنه .

[احتفالات رمضان] :

وهذا الشهر المبارك قد ذكرنا اجتهاد المجاورين للحرم الشريف ، فى قيامه وصلاة تراويحه ، وكثرة الأئمة فيه ، وكلُّ وِتْرٍ من الليالى العشر الأواخر يُخْتم فيه[٢] القرآن . فأوَّلها ليلة إحدى وعشرين ، خَتَم فيها أحدُ أبناء أهل مكة ، وحضر الختمةَ القاضى ، وجماعة من الأشياخ . فلما فرغوا منها قام الصبىُّ فيهم خطيبا ، ثم استدعاهم أبو الصبى المذكور إلى منزله إلى طعم وحَلْوى ، قد أعدّهما واحتفل فيهما .

ثم بعد ذلك ليلة ثلاث وعشرين ، وكان المُختتِم فيها أحد أبناء المكيين ذوى اليسار ، غلاما لم يبلغ سنُّه الخمس عشرة سنة ، فاحتفل أبوه لهذه الليلة احتفالا بديعا . وذلك أنه أعدَّ لها[٣] ثُرَيّا مصنوعة من الشمع مغصَّنة ، قد انتظمت أنواع الفواكه الرطبة واليابسة ، وأعدَّ إليها شمعا كثيرا ، ووضع فى وسط الحرم مما يلى باب بنى شيبة شبيه المحراب المربّع ، من أعواد مشرجبة ، قد أُقيم على قوائم أربع ، ورُبِطت فى أعلاه عيدان تدلت[٤] منها قناديل ، وأُشْرِجت فى أعلاها مصابيح ومشاعيل ، وسمّرت دائر المحراب كله مسامير[٥] حديدة الأطراف ، غُرِز فيها الشمع ، فاستدار بالمحراب كلّه ، وأُوقدت الثريّا المغصنة ذات الفواكه ، وأُمْعِن الاحتفال فى هذا كله . ووضع

---

(١) ط : له .

(٢) ط : نزلت .

(٣) ط : وسمر ... بمسامير .

(٤) الأصل : انحشر .

(٥) ط : المسجد الحرام .

بمقربة من المحراب منبر ، مجلَّل بكسوة مجزَّعة مختلفة الألوان . وحضر الإمام الطفل فصلّى التراويح وختم ، وقد انحشد[1] أهل المسجد[2] إليه رجالا ونساء ، وهو فى محرابه لا يكاد يُبْصَر من شعاع[3] الشمع المحدق به . ثم برز من محرابه ، رافلا فى أفخر ثيابه بهيبة إمامية ، وسكينة غُلامية ، مكحَّل العينين ، مخضب[4] الكفين إلى الزَّنْدين ، فلم يستطع الخلوص إلى منبره من كثرة الزحام ، فأخذه أحد سَدَنة تلك الحال[5] فى ذراعيه[6] ، حتى ألقاه على ذروة منبره ، واستوى[7] مُبتسِما ، وأشار على الحاضرين مُسلّما . وقعد بين يديه قُرّاء ، فابتدءوا[8] القراءة على لسان واحد . فلما أكملوا عشرا من القرآن ، قام الخطيب فصدع بخطبة ، تحرَّك لها أكثر النفوس من جهة الترجيع والتشجيع[9] لا من جهة التذكير والتخشيع ، وبين يديه فى درجات المنبر نفرٌ ، يمسكون أتوار الشمع فى أيديهم ، ويرفعون أصواتهم بياربّ[10] ، عند كل فصل من فصول الخطبة ، يكرّرون ذلك[11] ، والقرّاء يبتدرون القراءة فى أثناء ذلك ، فيسكت الخطيب إلى أن يفرغوا ، ثم يعود لخطبته . وتمادى فيها مُتصرِّفا فى فنون من التذكير . وفى أثنائها اعترضه ذكرُ البيت العتيق ، كرَّمه الله ، فحسَر عن ذراعه[12] مشيرا إليه ، وأردفه بذكر زمزم والمقام ، فأشار

---

(١) الأصل : انحشر .

(٢) ط : المسجد الحرام .

(٣) ط : كثرة شعاع .

(٤) ط : مخضوب .

(٥) كان مكانها فارغا ، فخمنت ر : أنها (الناحية) وأخذتها ط عنها . وهى أوضح مما هنا

(٦) ط : ذراعه .

(٧) ط : فاستوى .

(٨) ط : فابتدروا .

(٩) ليست فى ط .

(١٠) ط : بيارب يا رب .

(١١) خـ : بذ ... ص : مذكر هز وصححتها ر إلى ما أثبتناه هنا وفى ط .

(١٢) ط : ذراعيه .

إليهما بكلتا إصبعيه ، ثم ختمها بتوديع الشهر المبارك ، وترديد السلام عليه ، ثم دعا للخليفة ، ولكلّ من جَرَت العادة بالدعاء له من الأمراء ، ثم نزل . وانفضّ ذلك الجمع العظيم ، وقد استُظرِف ذلك الخطيب واستُنْبِل ، وإن لم تبلغ الموعظة من النفوس ما أُمِّل ، والتذكرة إذا خرجت من اللسان ، لم تتعدَّ مسافة الآذان . ثم ذُكر أن المعيَّنين من ذلك الجمع كالقاضى وسواه ، خُصُّوا بطعام حفيل وحَلْوى ، على عادتهم فى مثل هذا المجتمع . وكانت لأبى الخطيب فى تلك الليلة نفقة واسعة فى جميع ما ذكر .

ثم كانت ليلة خمس وعشرين ، فكان المختتِم فيها الإمام الحنفى ، وقد أعد ابنا له لذلك ، سِنُّه نحو من سن الخطيب الأول المذكور . فكان احتفال الإمام الحنفى لابنه فى هذه الليلة عظيما ، أحضر فيها من ثُريّات[١] الشمع أربعا مختلفات الصنعة : منها مشجَّرة مغصَّنة مثمرة بأنواع الفواكه الرطبة واليابسة ؛ ومنها غير مغصَّنة . فصُفت[٢] أمام حَطيمِة ، وتُوِّج الحطيم بخشب وألواح وضعت أعلاه ، وجُلِّل ذلك كله سُرُجا ومشاعيل وشمعا ، فاستنار الحطيم كله ، حتى لاح فى الهواء كالتاج العظيم من نور[٣] . وأُحْضِر الشمع فى أتوار الصُّفْر ، ووُضِع المحراب العودىّ المشرجَب ، فجُلّل دائره الأعلى كله شمعا ، وأحدق الشمع فى الأتوار به ، فاكتنفتْه هالات من نور ، ونصب المنبر قُبَالتَه مجلّلا أيضا بالكسوة الملوّنة . واحتفل[٤] الناس لمشاهدة هذا المنظر النيّر أعظم من الاحتفال الأوّل . فختم الصبىُّ المذكور ثم برز من محرابه إلى منبره ،

(١) ص و خـ : ثريا .
(٢) ط : فصففت .
(٣) ط : النور .
(٤) ص : واحتفال .

يسحب أذيال الخَفَر ، فى أثواب رائقة المنظر ، فتسوَّر محرابه[١] وأشار بالسلام على الحاضرين ، وابتدأ خطبته بسَكِينة ولِين ، ولسان على ذلك[٢] الحياء مُبين . فكأنّ الحال على طفولتها كانت أوقر من الأولى وأخشع ، والموعظة أبلغ ، والتذكرة أنفع[٣] . وحضر القُرّاء بين يديه على الرسم الأوّل . وفى أثناء فصول الخطبة يبتدرون القراءة ، فيسكت خلالَ إكمالهم الآيةَ التى انتزعوها من القرآن ، ثم يعود إلى خطبته . وبين يديه فى درجات المنبر طائفة من الخَدَمة يمسكون أتوار الشمع بأيديهم ، ومنهم من يمسك المِجْمَرة تسطع بَعرْف[٤] العود الرّطب الموضوع فيها مرّة بعد أخرى . فعندما يصل إلى فصل من تذكير[٥] أو تخشيع ، رفعوا أصواتهم بيا ربّ يا رب ، يكررونها ثلاثا أو أربعا ، وربما جاراهم فى النطق بها[٦] بعضُ الحاضرين ، إلى أن فرغ من خطبته ونزل . وجرى الإمام أبوه[٧] على الرسم ، من الإطعام لمن حضر من أعيان المكان ، إما باستدعائهم إلى منزله تلك الليلة ، أو بتوجيه ذلك إلى منازلهم .

ثم كانت ليلة سبع وعشرين ، وهى ليلة الجمعة بحساب يوم الأحد ، فكانت الليلة الغَرّاء ، والخَتْمة الزهراء ، والهيبة الموفورة الكَهْلاء[٨] ، والحالة التى تمكّن عند الله تعالى فى القبول الرجاء[٩] . وأى حالة توازى شهودَ ختم

---

(١) ط : منبره .

(٢) ط : حالة .

(٣) ص : وأخشع والموعظة أبلغ من التذكرة وأنفع .

(٤) العرف : الرائحة .

(٥) ص : تذكرة .

(٦) بها : ليست فى ط .

(٧) ط : أثره . وهو تحريف .

(٨) وصفها بالكهولة لأنها موطن الهيبة والوقار .

(٩) ط : والرجاء .

القرآن ليلة سبع وعشرين من رمضان ، خلف المقام الكريم ، وتُجاهَ البيت العظيم ؟ إنها لَنعمة تتضاءَل لها النِّعَم ، تضاؤُلَ سائر البقاع للحرم . ووقع النظر والاحتفال لهذه الليلة المباركة ، قبل ذلك بيومين أو ثلاثة . فأُقيمت[١] إزاء حطيم إمام الشافعية خُشُبٌ عِظام ، بائنة الارتفاع ، موصول بين كل ثلاث منها بأذرع من الأعواد الوثيقة ، فاتّصل منها صفٌّ كاد يمسك نصف الحرم عرضا ، ووصلت بالحطيم المذكور . ثم عُرضت بينها ألواح طوال ، مُدَّت على الأذرع المذكورة ، وعَلَتْ طبقة منها طبقةً أخرى حتى استكملت ثلاث طبقات ، فكانت الطبقة العليا منها خُشُبا مستطيلة مَغْرُوزة ، كلها مسامير محدّدة الأطراف ، لاصقا بعضها ببعض كظهر الشَّيْهَم[٢] ، نُصِب عليها الشمع ، والطبقتان تحتها ألواح مثقوبة ثقبا متّصلا ، وضعت فيها زجاجات المصابيح ذوات الأنابيب المنبعثة من أسافلها .

وتدلّت من جوانب هذه الألواح والخشب ، ومن جميع الأذرع المذكورة ، قناديلُ كبار وصغار ، وتخلّلها أشباه الأطباق المبسوطة من الصّفر ، قد انتظم كلَّ طبق منها ثلاث سلاسل تقلّها فى الهواء ، وخرمت[٣] كلها ثقبا ، ووضعت فيها الزجاجات ذوات الأنابيب[٤] المذكورة ، فخرجت الأنابيب[٤] من أسفل تلك الأطباق الصفرية ، لا يزيد منها فى القَدّ[٥] أنبوبة على أنبوب . وأُوقدت فيها المصابيح ، فجاءت كأنها موائد ذوات أرجل كثيرة تشتعل نورا ، ووُصِلت بالحطيم الثانى ، الذى يقابل الركنَ

---

(١) ط : وأقيمت .

(٢) الشيهم : ذكر القنافذ .

(٣) ط : وخرقت .

(٤ ـــ ٤) ليست فى ط .

(٥) ط : منها أنبوب على أنبوب فى القد

الجنوبىّ من قبّة زمزم ، خُشُبٌ على الصفة المذكورة ، اتّصلت إلى الركن المذكور ، وأوقد المشعل الذى فى رأس فحل القبة المذكورة ، وصُفّفت طرّة شبّاكها شَمْعا ، مما يقابل البيت المكرم . وحُفَّ المقام الكريم بمحراب من الأعواد المشرجبة المخرّمة ، محفوفة الأعلى بمسامير حديدة ، على الصفة المذكورة ، جُلّلت كلها شمعا . ونُصِب عن يمين المقام ويساره شمع كبير الجِرْم ، فى أتوار تناسبه[١] كبرا ، وصُفّت تلك الأتوار على الكراسىّ التى يصرّفها السَّدَنة مطالعَ عند الإيقاد ، وجُلّل جدار الحِجْر المكرم كله شمعا ، فى أتوار رائقة[٢] من الصفر ، فجاءت كأنها دائرة نور ساطع ، وأحدقت بالحرم المشاعل . وأوقد جميع ما ذكر .

وأحدق بشُرُفات الحرم كلّها صبيانُ مكة ، وقد وُضِعت بيد كل صبى[٣] منهم كُرَةٌ من الخِرَق المُشْبَعة سَلِيطا[٤] ، فوضعوها متقدة[٥] فى رءوس الشرفات . وأخذت كلّ طائفة منهم ناحيةً من نواحيها الأربع ، فجعلت كلّ طائفة تُبَارى صاحبتَها فى سرعة إيقادها . فيخيّل للناظر أن النار تَثِب من شرفة إلى شرفة ، لخفاء أشخاصهم وراء ضوئها المرتمى للأبصار[٦] . وفى أثناء محاولتهم لذلك ، يرفعون أصواتهم بيارِبّ يا ربّ ، على لسان واحد ، فيرتجّ الحرم لأصواتهم . فلما كمل إيقادُ الجميع مما[٧] ذكر ، كاد يُغْشِى الأبصار شعاعُ تلك الأنوار ، فلا تقع لمحةُ طرف إلا على نور ، يشغل حاسة البصر عن استبانة[٨] النظر . فيتوهّم المتوهم لهول ما يعاينه من ذلك ، أن تلك

---

(١) ط : تناسبها .

(٢) ليست فى ط .

(٣) صغير .

(٤) السليط : الزيت الجيد .

(٥) ط : متقدة .

(٦) ط : الضوء المرتمى الأبصار .

(٧) ط : بما .

(٨) ط : استمالة . وهو تحريف .

الليلة المباركة نُزِّهت لشرفها عن لباس الظَّلْماء ، فزُيِّنت بمصابيح السماء .

وتقدم القاضى فصلّى فريضة العشاء الآخرة ثم قام ، وابتدأ بسورة القَدْر . وكان أئمة المقام[1] فى الليلة قبلها قد انتهوا فى القراءة إليها . وتعطّل فى تلك الساعة سائرُ الأئمة من قراءة التراويح ، تعظيما لختمة المقام ، وحضروا مُتبرِّكين بمشاهدتها . وقد كان المقام المطهّر أُخْرِج من موضعه المستحدَث فى البيت العتيق ، حسبما تقدّم الذكر أولا له ، فيما سلف من هذا التقييد ، ووُضِع فى محلّه الكريم المتّخَذ مصلّى ، مستورا بقبّته التى يصلّى الناس خلفها . فختم القاضى بتسليمتين ، وقام خطيبا ، مُستقبِلَ المقام والبيت العتيق . فلم يتمكّن سماع الخطبة للازدحام وضوضاء العوام . فلما فرغ من خطبته عاد الأئمة لإقامة تراويحهم . وانفضّ الجمع ، ونفوسهم قد استطارت خشوعا ، وأعينهم[2] قد سالت دموعا ، والضمائر قد استشعرت من فضل تلك المشاهدة الكريمة[3] رجاء مُبشِّرا بمَنِّ الله تعالى بالقَبُول ، ومُشْعِرا أنها ولعلها ليلة القدر المشرَّف ذكرها فى التنزيل ، والله عز وجهه[4] لا يُخْلِى الجميع من بركة مشاهدتها ، وفضل معاينتها ، إنه كريم منّان ، لا إلٰه سواه .

ثم ترتبت قراءة أئمة المقام الخمسة المذكورين أولا ، بعد هذه الليلة المذكورة ، بآيات ينتزعونها من القرآن ، على اختلاف السور ، تتضمَّن التذكير والتحذير والتبشير ، بحسب اختيار كل واحد منهم . ورَسْمُ طوافهم

---

(١) ط : الحرم . (٢) خـ ، ص : وأفئدتهم .

(٣) ط : والأنفس قد أشعرت من فضل تلك (٤) ط : عز وجل .

الليلة المباركة .

إثرَ كل تسليمتين باق على حاله ، والله وَلِيُّ القبول من الجميع .

ثم كانت ليلة تسع وعشرين منه ، فكان المختتم فيها سائر أئمة التراويح ، ملتزمين رسم الخطبة إثر الختمة ، والمشار إليه منهم المالكى ، فتقدّم بإعداد أعواد إزاء[١] محرابه ، نصبها ستة على هيئة دائرة محراب ، مرتفعة عن الأرض بدون القامة ، يعترض[٢] على كلّ اثنين منها عود مبسوط ، فأُدير بالشمع أعلاها ، وأحدق أسفلها ببقايا شمع كثير ، قد تقدّم ذكره عند ذكر[٣] أوّل الشهر المبارك . وأحدق أيضا داخل تلك الدائرة بشمع[٤] آخر متوسّط ، فكان منظرا مختصرا ، ومشهدا عن احتفال المباهاة مُنزَّها موقّرا ، رغبةً فى احتفال الأجر والثواب ، ومناسبة لموضوع[٥] هيئة المحراب ؛ نُصِبت للشمع فيه عوضا من الأتوار أثافىَّ[٦] من الأحجار . فجاءت الحال غريبة فى الاختصار ، خارجة عن محفل التعاظُم والاستكبار ، داخلة مدخلَ التواضُع والاستصغار . واحتفل جميع المالكيّة للختمة ، فتناوبها أئمة التراويح ، فقضوا صلاتهم سِراعا عِجَالا ، كاد يلتقى طرفاها خفوفا واستعجالا . ثم تقدّم أحدهم فعقد حُبْوَته[٧] بين تلك الأثافى ، وصدع بخطبة منتزعة من خطبة الصبى ابن الإمام الحنفى ، فأرسلها معادة إلى الأسماع ، ثقيلا لحنُها على الطباع . ثم انفضّ الجمع ، وقد جمد فى شُئُونه[٨] الدمع ، واختُطِف للحين من أثافيّه ذلك الشمع ؛ أُطْلِقت عليه أيدى الانتهاب ، ولم يكن فى الجماعة

---

(١) ط : بإزاء .

(٢) ص : معترضا .

(٣) ليست فى ط .

(٤) ط : شمع .

(٥) ط : لموضوع .

(٦) الأثافى : أحجار توضع عليها القدر وتشعل النار بينها للطبخ .

(٧) عقد حبوته : أى جلس وجمع بين ظهره وساقيه بثوب .

(٨) الشئون : العروق التى تجرى فيها الدموع .

من يُسْتَحى منه أو يُهَاب ، وعند الله تعالى فى ذلك الجزاء والثواب ، إنه سبحانه الكريم الوهّاب . (١لا إلٰه سواه١) .

وانقضت(٢) ليالىْ الشهر المباركة(٣) ذاهبة عنا بسلام ، جعلنا الله ممن طَهُر فيه(٤) من الآثام ، ولا أخلانا من فضل القَبُول ، ببركة صومه فى جوار الكعبة البيت الحرام ، وختم الله لنا ولجميع أهل الملة الحنيفية بالوفاة على الإسلام ، وأوزعنا(٥) حمدا لهذه(٦) النعمة وشكرا ، وجعلها للمعاد لنا ذخرا ، ووفّانا عليها ثوابا من لدنه(٧) وأجرا ، يُرْجَى بفضله وكرمه ألا يَضِيع(٨) لديه أيام اتُّخِذ لصيامها ماءُ زمزم فِطْرا ، إنه الحَنّان المَنّان ، لا رب غيره(٩) .

شهر شوّال ، عرّفنا الله بركته ويمنه(١٠)

استهل هلاله ليلة الثلاثاء السادس عشر من ينير(١١) ، يَمّن الله مَطْلعه ، ورزقنا بركته . وهذا الشهر المبارك هو فاتحة أشهر الحج المعلومات ، وبعده تتّصل ثلاث الأشهر الحُرُم المباركات . وكانت ليلة استهلال هلاله من الليالى الحَفِيلة فى المسجد الحرام ، زاده الله تكريما ؛ جرى الرسم فى إيقاد

(١ — ١) ليست فى ط .

(٢) ط : وانتهت .

(٣) ليست فى ط .

(٤) ط : فيها .

(٥) أوزعنا : ألهمنا .

(٦) ط : يحق هذه .

(٧) ط : لديه .

(٨) ط : يرجى .. إنه لا يضيع .

(٩) ط : سواه .

(١٠) ويمنه : ساقطة من ط .

(١١) أى يناير .

مشاعله وثُريَّاته وشمعه ، على الصفة المذكورة[١] ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم ، وأُوقِدت الصوامع من الأربع جهات من الحرم ، وأوقد سطح المسجد الذى فى أعلى جبل أبى قُبَيس . وأقام المؤذّن ليلتَه تلك[٢] فى أعلى سطح قبة زمزم ، مهلِّلا ، ومكبِّرا ، ومُسبِّحا ، وحامداً . وأحيى أكثر الأئمة تلك الليلة فى التهليل والتكبير والتسبيح[٣] ، وأكثر الناس على مثل تلك الحال ، بين طواف وصلاة ، وتهليل وتكبير ، تقبل اللهُ[٤] من جميعهم ، إنه سميع الدعاء ، كفيل بالرجاء ، سبحانه لا إلـٰه سواه .

[**العيد**] :

فلما كانت[٥] صبيحتها وقضى الناس صلاة الفجر ، لبسوا أثواب[٦] عِيدِهم ، وبادروا لأخذ مَصَافّهم لصلاة العيد فى المسجد[٧] الحرام ؛ لأن السنة جرت بالصلاة فيه دون مصلًى يخرج الناس إليه ، رغبةً فى شرف البقعة ، وفضل بركتها ، وفضل صلاة الإمام خلف المقام ومن يأتمُّ به . فأوّل من بَكّر الشيبيّون ، وفتحوا باب الكعبة المقدسة ، وأقام زعيمهم جالسا فى العتبة المباركة[٨] ، وسائر الشيبيين داخل الكعبة ، إلى أن أحسّوا بوصول الأمير مكثر فنزلوا إليه ، وتلقّوه بمقربة من باب النبى ، ﷺ . فانتهى إلى البيت المكرم ، وطاف حوله أسبوعا ، والناس قد احتفلوا لعيدهم ، والحرم قد غُصَّ بهم ، والمؤذّن الزمزمىّ فوق سطح القبة على العادة ، رافعا صوته

---

(١) ط : الرسم المذكور . (٢) خـ : ذلك . خطأ .

(٣) ط : وأكثر الأئمة تلك الليلة أحيى . (٤) ط : يقبل الله .

(٥) ط : كان . (٦) ط : لبس الناس أثواب .

(٧) ط : بالمسجد . (٨) ط : المقدسة .

بالثناء عليه والدعاء له ، متناوبا فى ذلك مع أخيه . فلما أكمل الأمير الأسبوع ، عمد إلى مصطبة قبة زمزم ، مما يقابل الركن الأسود ، فقعد فيها[1] ، وبنوه عن يمينه ويساره ، ووزيره وحاشيته وقوف على رأسه . وعاد الشيبيون لمكانهم من البيت المكرم ، يلحظهم الناس بأبصار خاشعة للبيت ، غابطة لمحلهم منه ، ومكانهم من حجابته وسدانته ، فسبحان من خصهم بالشرف فى خدمته . وحضر الأميرَ من خاصته شعراء أربعة ، فأنشدوه واحدا إثرَ واحد ، إلى أن فرغوا من إنشادهم .

وفى أثناء ذلك تمكّن وقت الصلاة ، وكان ضحى من النهار ، فأقبل القاضى الخطيب يتهادى بين رايتيه السوداوين ، والفرقعة المتقدم ذكرُها أمامه ، وقد سلك[2] الحرم صوتُها ، وهو لابس ثيابَ سواده . فجاء إلى المقام الكريم ، وقام الناس للصلاة ، فلما قضوها رقى المنبر ، وقد أُلصِق إلى موضعه المعين له كل جمعة ، من جدار الكعبة المكرمة ، حيث الباب الكريم شارعا . فخطب خطبة بليغة ، والمؤذّنون قعود دونه فى أدراج المنبر . فعند افتتاحه فصولَ الخطبة بالتكبير ، يكبّرون معه[2] بتكبيره ، إلى أن فرغ من خطبته .

وأقبل الناس بعضهم على بعض بالمصافحة والتسليم ، والمغافرة[3] والدعاء ، مسرورين جَذِلين فَرِحين بما آتاهم الله من فضله . ثم تبادروا إلى البيت المكرم[4] ، فدخلوا بسلام آمنين ، مزدحمين عليه فوجا فوجا . فكان مشهدا عظيما ، وجمعا بفضل الله تعالى مرحوما ، جعله الله ذخيرة للمعاد ،

---

(١) ط : صلك . خ : صد . (٢) معه : ساقطة من ط .

(٣) ط : والتغافر . والكلمتان بمعنى واحد . (٤) ط : وبادروا ... الكريم .

كما جعل ذلك العيدَ السعيد فى العمر أشرف الأعياد[١] ، بمنّه وكرمه ، إنه ولىّ ذلك [والقادر عليه][٢] . وأخذ أكثر[٣] الناس عند انتشارهم من مصلّاهم ، وقضاء سنّة السلام بعضهم على بعض ، فى زيارة الجبّانة بالمَعْلَى ، تبرّكا باحتساب الخُطَا إليها ، والدعاء بالرحمة لمن فيها من عباد الله الصالحين ، من الصدر الأول وسواه ، رضى الله عن جميعهم ، وحَشَرنا فى زُمْرتهم ، ونفعنا بمحبّتهم . فالمرء — قال رسول الله[٤] ﷺ — مع من أحب[٥] .

[مِنىً] :

وفى يوم السبت التاسع عشر منه ، والثالث لفبرير ، صعدنا إلى مِنى لمشاهدة المَنَاسك المعظّمة بها ، ولمعاينة منزل اكتُرِى لنا فيها ، إعدادا للمُقام بها أيامَ التشريق ، إن شاء الله . فألفيناها تملأ النفوس بهجة وانشراحا ، مدينة عظيمة الآثار ، واسعة الاختطاط ، عتيقة الوضع ، قد دَرَست إلا منازل يسيرة ، محدثة[٦] للنزول ، تحفّ بجانبى طريق[٧] كأنه الميدان[٨] انبساطا وانفساحا ، ممتد الطول .

فأول ما يلقى المتوجّه إليها عن يساره ، وبمقربة منها ، « مسجد البَيْعَة المباركة » ، التى كانت أول بيعة فى الإسلام ؛ عقدها العباسُ رضى الله عنه للنبى ، عليه السلام[٩] ، على الأنصار ، حسب المشهور من ذلك .

---

(١) ط : الشريف فى العمر أفضل الأعياد . (٢) زيادة من ط .

(٣) أكثر : ساقطة من ط . (٤) ط : كما قال صلى الله .

(٥) ذكره البخارى : كتاب الأدب ٩٦ ، ومسلم : البر ١٦٥ ، والترمذى : الزهد ٥٠ ، الدعوات ٩٨ ، والدارمى : الرقاق ٧١ ، وابن حنبل ١ : ٣٩٢ و٢٧ مرة فى الثالث ، و٨ مرات فى الرابع . (٦) ط : متخذة .

(٧) خـ : الطريق . (٨) ط : ميدان .

(٩) ط : صلى الله عليه وسلم .

ثم يُفْضَى منه إلى « جَمْرة العَقَبة » ، وهى أول مِنى للمتوجّه من مكة ، وعن يسار المارّ إليها ، وهى على قارعة الطريق مرتفعة ، للمتراكم فيها من حصى الجمرات . ولولا آيات الله البيّنات فيها ، لكانت كالجبال الرَّوَاسِى ، لما يجتمع فيها على تعاقُب الدهور ، وتَوَالِى الأزمنة ، لكن لله عز وجل فيها سر كريم من أسراره الخفيات ، لا إلٰه سواه . وعليها مسجد مبارك ، وبها عَلَم منصوب شبه أعلام الحرم التى ذكرناها ، فيجعلها[1] الرامى عن يمينه ، مستقبِلا مكة ، شرفها الله ، ويرمى بها سبع حَصَيات ، وذلك يوم النحر ، إثْرَ طلوع الشمس . ثم ينحر أو يذبح ويحلق[2] . والمَحْلَق حولها ، والمَنْحَر فى كل موضع من مِنى ، لأن مِنى كلها منحر ، كما قال عليه السلام[3] . وقد حلّ له كل شىء إلا النساء والطيب ، حتى يطـوف طواف الإفاضة . وبعد هذه الجمرة العقبيّة موضع « الجمرة الوسطى » ، وبها[4] أيضا علم منصوب ، وبينهما قدر الغَلْوة . ثم بعدها يَلْقَى « الجمرة الأُولى » ، ومسافتها منها كمسافة الأخرى .

وفى وقت الزوال من ثانى يوم النحر ، تُرْمَى فى الأولى سبع حصيات ، وفى الوسطى كذلك ، وفى العقبية كذلك أيضا[5] ، فتلك إحدى وعشرون حصاة . وفى الثالث[6] من يوم النحر ، فى الوقت بعينه ، كذلك على الترتيب المذكور ؛ فتلك اثنتان وأربعون حصاة فى اليومين ؛ وسبع رمين فى العقبة[7]

---

(١) ش : يجعله .

(٢) زاد ش : أو يقصر .

(٣) ط : ﷺ . وأخرجه البخارى ومسلم . وانظر القرى لقاصد أم القرى للمحب الطبرى ٤٠٨ .

(٤) ط : ولها .

(٥) ط : وفى العقبة كذلك .

(٦) ط : وفى اليوم الثالث .

(٧) ط : رميت فى العقبة .

يوم النحر ، وقت طلوع الشمس كما ذكرناه ، وهى المحلِّلات للحاج ما حرم عليه سوى النساء والطيب ؛ فتلك تكملة تسع وأربعين جمرة . وفى إثر ذلك ينفض[١] الحاج إلى مكة ، من ذلك اليومَ . واختُصِر فى هذا الزمان إحدى وعشرون ، كانت تُرْمَى فى اليوم الرابع على الترتيب المذكور ، وذلك لاستعجال الحاج خوفا من إغارة العرب الشَّعْبيِّين[٢] ، إلى غير ذلك من مَحْذُورات الفِتَن ، المغيِّرات لآثار السُّنَن . فمضى العملُ اليوم على رمى[٣] تسع وأربعين حصاة ، وكانت فى القديم سبعين ، والله يَهَبُ القبول لعباده .

والصادر من عرفات إلى منى أول ما يلقى الجمرة الأُولى ، ثم الوسطى ، ثم جمرة العقبة . وفى يوم النحر ، تكون جمرة العقبة أولى منفردة بسبع حصيات ، حسبما ذكرناه[٤] ، ولا يشترك معها سواها فى ذلك اليوم ، ثم فى اليومين بعده ترجع أخرى فى الترتيب على ما وصفناه[٥] ، بحول الله عز وجل .

ثم بعد[٦] الجمرة الأُولى تعرّج عن الطريق يسيرا ، وتلقى منحر الذَّبِيح ﷺ[٧] ، حيث فُدِى بالذِّبْحِ العظيم . وعلى الموضع المبارك مسجد مبنى ، وهو بمقربة من سفح جبل[٨] ثِبِير . وفى موضع المنحر المذكور حجر ، قد أُلصق بالجدار المبنى ، فيه إنه أثر قدم صغير ، يقال : إنه[٩] قدم الذَّبِيح ﷺ عند

---

(١) ط : ينفصل .

(٢) إغارة : ساقطة من ط . وفى هـ : الشيعيين . الشيعيين . خطأ . وهم بنو شعبة المذكورون فى ص ١٠٤ .

(٣) رمى : ساقطة من ط .

(٤) ط : تقدم ذكره .

(٥) ط : ترجع الآخرة على الترتيب حسبما وصفناه .

(٦) ط : وبعد .

(٧) ط : عليه وسلم .

(٨) جبل : ليست فى ط .

(٩) ط : صغيرة . ص : ويقال إنها

تحرّكه ، فلانَ له الحجر[١] ، بقدرة الله تعالى[٢] إشفاقا وحنانا . فيتبرّك الناس بلمسه وتقبيله .

ثم يُفْضَى[٣] من ذلك إلى مسجد الخَيْف المبارك ، وهو آخر منى فى توجُّهك ، أعنى من المعمورة[٤] منها بالبنيان . وأما الآثار القديمة فآخذة إلى أبعد غاية أمام المسجد . وهذا المسجد المبارك متّسع الساحة كأكبر ما يكون من الجوامع . والصومعة وسط رحبة المسجد . وله فى القبلة أربعة[٥] بلاطات ، يشملها سقف واحد . وهو من المساجد المشتهرة[٦] بركة ، وشرفَ بقعة . وكفى بما ورد فى الأثر[٧] الكريم ، من أن بقعته الطاهرة مدفن لكثير[٨] من الأنبياء ، صلوات الله عليهم . وبمقربة منه ، عن يمين المارّ فى الطريق ، حجر كبير مُسْنَد إلى سطح الجبل[٩] ، مرتفع عن الأرض ، يُظِل ما تحته ، ذُكِر أن النبى ، ﷺ ، قعد تحته مستظِلًا ، ومس رأسه المكرّم فيه[١٠] ، فلانَ له حتى أثر فيه تأثيرا بقدر دور الرأس . فيبادر الناس لوضع رءوسهم فى ذلك الموضع تبرُّكا ، واستجارة لها بموضع مسّه الرأس المكرم أن لا تمسّها النار ، برحمة[١١] الله عز وجل .

فلما قضينا معاينة هذه المشاهد الكريمة ، أخذنا فى الانصراف ،

---

(١) ط : الحجر له .

(٢) ط : عز وجل .

(٣) ط : ويفضى .

(٤) الأصل : العمرة .

(٥) خـ : أربع .

(٦) ط : الشهيرة .

(٧) ص : من الأثر .

(٨) ط : كثير .

(٩) ط : صفح الجبل .

(١٠) تذهب ر : إلى أن كلمة (فيه) محرفة . وهى ما بقى من كلمة ضاعت مثل « حافتيه » .

(١١) ط : بقدرة الله .

مستبشرين بما وهبنا الله [من فضله فى][١] مباشرتها . ووصلنا إلى مكة قريبَ الظهر ، والحمد لله على ما مَنّ به .

وفى يوم الأحد[٢] بعده ، وهو الموفى عشرين لشوال ، صعدنا إلى الجبل المقدس حِرَاء ، وتبركنا بمشاهدة الغار فى أعلاه ، الذى كان النبى ﷺ ، يتعبد فيه ، وهو أول موضع نزل فيه الوحى عليه ، ﷺ ، ورزقَنا شفاعتَه ، وحشرنا فى زُمْرَته ، وأماتنا على سنته ومحبته ، بكرمه وعزته[٣] ، لا رب سواه .

[**صلاة الاستسقاء**] :

وفى ضحوة يوم الثلاثاء الثانى والعشرين منه ، وهو السادس من فبرير ، اجتمع الناس كافة للاستسقاء تجاه الكعبة المعظمة ، بعد أن أوعز القاضى إليهم فى ذلك ، وندبهم لصيام[٤] ثلاثة أيام قبله . فاجتمعوا فى هذا اليوم الرابع المذكور ، وقد أخلصوا النيات لله عز وجل ، وبكر الشيبيون ففتحوا الباب المكرم [من البيت العتيق][٥] ، ثم أقبل القاضى بين رايتيه السوداوين لابسا ثياب البياض ، وأُخْرِج مقام الخليل إبراهيم صلى الله على نبينـا الكـريم وعليه[٦] ، ووضع فى عتبة[٧] باب البيت المكرم . وأُخْرج مصحف عثمان ابن عفان[٨] ، رِضى الله عنه ، من خزانته ، ونُشِر بإزاء المقام المطهّر ، فكانت دفّته الواحدة عليه ، والثانية على الباب الكريم . ثم نُودِىَ فى الناس بالصلاة جامعة ، فصلى القاضى بهم خلف موضع المقام المتّخذ مصلى ركعتين ، قرأ فى

---

(١) ص : الله م مباشرتها وصلنا .

(٢) ص : السبت ، وهو خطأ .

(٣) ط : بمنه وعزته .

(٤) ط : ندبهم القاضى إلى ذلك وحرضهم على صيام .

(٥) ليست فى ط .

(٦) ط : الله عليه وسلم وعلى نبينا .

(٧) ط : على عتبة .

(٨) بن عفان : ليست فى ط .

إحداهما ﴿ بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾(١) ، وفى الثانية بالغاشية . ثم صعد المنبر ، وقد أُلْصِق إلى موضعه المعهود من جدار الكعبة المقدسة . فخطب خطبة [بليغة] ، وَالَى فيها الاستغفار ووعظ الناس ، وذَكّرهم ، وخَشّعهم ، وحَضَّهم على التوبة والإنابة لله عز وجل ، حتى نزفت دمعَها العيون ، واستنفدت ماءها الشؤون ، وعلا الضجيج ، وارتفع الشهيق والنشيج ، وحَوَّل رداءه ، وحوّل الناس أرديتهم اتّباعا للسنة . ثم انفض الجميع ، راجين رحمة الله عز وجل ، غير قانطين منها ، والله يتلافى عباده بلطفه وكرمه .

وتمادى استسقاؤه بالناس ثلاثة أيام متوالية ، على الصفة المذكورة ، وقد نال الجهدُ من أهل الحجاز ، وأضرّ بهم القحطُ ، وأهلك مواشيهم الجدبُ ، لم يُمْطَروا فى الربيع ، ولا الخريف ، ولا الشتاء ، إلا مطرا طَلاً غير شاف كاف(٢) ، والله عز وجل لطيف بعباده ، غير مؤاخذهم بجرائمهم ، إنه الحنّان المنّان ، لا رب سواه .

[جبل ثور] :

وفى يوم الخميس الرابع والعشرين من شوال ، صعدنا إلى جبل ثور(٣) ، لمعاينة الغار المبارك الذى أوى إليه النبى ﷺ ، مع صاحبه الصدّيق ، رضى الله عنه ، حسبما جاء فى مُحْكَم التنزيل العزيز . وقد تقدم ذكر هذا الغار وصِفَتُه أولا فى هذا التقييد(٤) ، وولجناه من الموضع الذى يعسُر الولوج منه على البعض من الناس ، تبرّكا بمس بشرة البدن فى موضع(٥) مسّه الجسمُ

---

(١) سورة الأعلى .

(٢) ط : غير كاف ولا شاف .

(٣) ص : أبى ثور .

(٤) انظر ص ٩٤ .

(٥) ط : بموضع .

المبارك ، قدّسه الله ؛ لأن مدخل النبى ﷺ كان منه . وكان لأحد الصاعدين إليه ذلك اليوم من المصريين موقفُ خَجْلة وفضيحة ، وذلك أنه رام الولوج فيه على ذلك الموضع [الضيّق] ، فلم يقدر بحيلة ، وعاود ذلك مرارا ، فلم يستطع حتى استوقف الناسَ ما عاينوه من حاله[١] ، وبكوا إشفاقا له[٢] ، ولجئوا إلى الله تعالى[٣] فى الدعاء ، فلم يُغْنِ ذلك شيئا ، وكان فيهم من هو أضخم منه ، فيسّر الله عليه . وطال تعجُّب الناس منه واعتبارهم . وأُعْلِمنا بعد انفصالنا فى ذلك اليوم ، بأن هذا الموقف المخجل كان لثلاثة أناس ، فى ذلك اليوم بعينه ، عصمنا الله من مواقف الفضيحة فى الدنيا والآخرة . وهذا الجبل صعبُ المرتقَى جدا ، يقطع الأنفاس تقطيعا لا يكاد يُبْلَغ إلى أعلاه[٤] إلا وقد ألقى بالأيدى إعياء وكَلَالا . وهو من مكة على مقدار ثلاثة أميال ، وعلى ذلك القدر هو جبل حراء منها ، والله تعالى لا يخلينا من بركة هذه المشاهد ، بمنه وكرمه . وطول الغار ثمانية عشر شبرا ، وسعتُه أحد عشر شبرا (٥وطول فمه الضيق خمسة أشبار ، وسعته وارتفاعه عن الأرض مقدار شبر٥) فى الوسط منه ، وفى حافتيه ثلثا شبر ، وعلى الوسط منه يكون الدخول ، وسعة الباب الثانى المتسع مدخله خمسة أشبار أيضا ؛ لأن له بابين حسبما ذكرناه أولا .

وفى يوم الجمعة بعده وصل السَّرْو اليمنيون فى عدد كثير ، مُؤَمِّلين زيارة قبر رسول الله[٦] ، ﷺ ، وجلبوا مِيرَة إلى مكة على عادتهم . فاستبشر الناس

---

(١) ط : من ذلك .
(٢) ط : وبكوا له إشفاقا .
(٣) ط : عز وجل .
(٤) ط : يبلغ منتهاه .
(٥ ــ ٥) ساقط من ط .
(٦) ط : الرسول .

بقدومهم استبشارا كثيرا ، حتى إنهم أقاموه عِوَضَ نزول المطر ، ولطائف الله لسُكّان حرمه الشريف واسعة ، إنه سبحانه لطيف بعباده ، لا إلٰه سواه .

شهر ذى القعدة ، عرّفنا الله بركته ويمنه(١)

استهل هلاله ليلة الأربعاء ، بموافقة الرابع عشر من شهر فبرير ، بشهادة ثبتت عند القاضى فى رؤيته . وأما الأكثر الأغلب من أهل المسجد الحرام قدسه الله(٢) فلم يبصروا شيئا ، وطال ارتقابهم له(٣) إلى إثر صلاة المغرب ، وكان منهم من يتخيل له(٤) فيشير إليه ، فإذا حقّق تلاشى نظرُه(٥) ، وكُذِّب خبرُه ، والله أعلم بصحة ذلك . وهذا الشهر المبارك ثانى الأشهر الحرم ، ثانى أشهر الحج ، أطلع الله هلاله على المسلمين بالأمن والإيمان ، والمغفرة والرضوان ، بعزّته ورحمته .

[مولد النبى] :

وفى يوم الاثنين الثالث عشر منه ، دخلنا مولد النبى ، ﷺ . وهو مسجد حفيل البناء(٦) ، وكان دارا لعبد الله بن عبد المطلب ، أبى النبى ﷺ ، وقد تقدّم ذكره . ومولده صلى الله عليه [وسلم] صِفَةَ صهريج صغير ، سعتُه ثلاثة أشبار ، وفى وسطه رخامة خضراء ، سعتُها ثلثا شبر ، مطوّقة بالفضّة ، فتكون سعتها مع الفضة المتصلة بها شبرا(٧) . ومسحنا الخدود فى ذلك

---

(١) ط : يمنه وبركته .
(٢) قدسه الله : ليست فى ط .
(٣) ط : وطال ارتفاعهم إلى .
(٤) ط : يتخيله .
(٥) ط : حققه تلاشى عنده نظره .
(٦) ط : البنيان .
(٧) ص : فيكون فى سعتها ... شبر .

الموضع المقدس ، الذى هو مسقط أكرم[١] مولود على الأرض ، ومَمَسّ أطهر[٢] سلالة وأشرفها ، صلى الله عليه [وسلم] ، ونفعنا ببركة مشاهدة مولده الكريم . وبإزائه محراب حفيل القرنصة ، مرسومة طرّته بالذهب . وقد تقدم الوصف لهذا كله . وهذا الموضع المبارك هو شرقى الكعبة ، متصل بسفح[٣] الجبل . ويُشرف عليه بمقربة منه جبل أبى قبيس . وعلى مقربة منه أيضا مسجد ، عليه مكتوب : « هذا المسجد هو مولد على بن أبى طالب ، رضى[٤] الله عليه ، وفيه تربَّى رسول الله ، ﷺ ، وكان دارا لأبى طالب عم النبى ، ﷺ ، وكافله » .

[دار خديجة] :

ودخلنا[٥] أيضا فى اليوم المذكور دار خديجة الكبرى ، رضوان الله عليها . وفيها قبة الوحى ، وفيها أيضا مولد فاطمة رضى الله عنها ، وهو بيت صغير مائل للطول . والمولد شبه صهريج صغير ، وفى وسطه حجر أسود . وفى البيت المذكور [مولد] الحسن والحسين ابنيها ، رضوان الله عليهما[٦] ، [وهو لاصق بالجدار] ومسقط شِلْو[٧] الحسن لاصق بمسقط شلو الحسين ، وعليهما حجران مائلان للسواد[٨] كأنهما علامتان للمولدين المكرمين[٩] . ومسحنا الخدود فى هذه المساقط المكرمة المخصوصة بمسّ بشرات المواليد

---

(١) ط : لأكرم .
(٢) ط : لأطهر .
(٣) ط : بصفح .
(٤) ط : رضوان .
(٥) ط : ودخلت .
(٦) ط : رضى الله عنهما .
(٧) الشلو : الطرف كاليد والرجل ، وأراد هنا الجسد كله .
(٨) ط : إلى السداد .
(٩) ط : المباركين الكريمين .

الكرام ، رضوان الله عليهم . وفى الدار المكرّمة أيضا مختبأ للنبى(١) ، ﷺ ، شبيه القبة . وفيه مقعد فى الأرض عميق شبيه الحفرة ، داخل(٢) فى الجدار قليلا . وقد خرج عليه(٣) من الجدار حجر مبسوط ، كأنه يُظِلّ المقعد المذكور ، قيل : إنه كان الحجر الذى كان غطّى النبى ، ﷺ ، عند اختبائه فى الموضع المذكور ، صلوات الله عليه وعلى أهل بيته الطاهرين . وعلى كلّ مولد من هذه المواليد(٤) المذكورة قبةُ خشب صغيرة ، تصون الموضع ، غير ثابتة [فيه] . فإذا جاء المُبْصِر لها(٥) نَحّاها ، ولمس الموضع الكريم وتبرّك به ، ثم أعادها عليه .

وفى يوم الجمعة الرابع والعشرين من الشهر المذكور ، نَفَذَ أمر الأمير مكثر بالقبض على زعيم الشيبيين محمد بن إسماعيل ، وانتهاب منزله ، وصرفه عن حِجَابة البيت الحرام ، طهّره الله ، وذلك لهَنَات نُسِبت إليه لا تليق بمن إليه(٦) سِدَانةُ البيت العتيق ، ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(٧) ، أعاذنا الله من سوء القضاء ، ونفوذ سهام الدعاء ، بمنّه .

[السَّرو] :

وفى هذه الأيام السالفة من الشهر المذكور ، توالى مجىء السرويين اليمنيين ، فى رفاق كثيرة بالميرة من الطعام وسواه وضروب الإدام والفواكه اليابسة ، فأرغدوا البلد الحرام(٨) ... ولولاهم لكان من اتّصال الجدب

---

(١) ط : مختبأ النبى .

(٢) ص : مقعده .. داخله .

(٣) ص : عليها .

(٤) ط : كل مولد من هذه الموالد .

(٥) ص : له .

(٦) ط : بمن نيطت به .

(٧) سورة الحج ، الآية ٢٥ .

(٨) الحرام : ليست فى ط .

وغلاء السعر ، فى جهد ومسغبة[١] ، فهم رحمة لهذا البلد الأمين . ثم توجّهوا إلى الزيارة المباركة ، إلى التربة الطاهرة[٢] ، طيْبة مدفن رسول الله ، ﷺ .
ووصلوا فى أسرع مدة ، قطعوا الطريق من مكة إلى المدينة[٣] فى ستة أيام[٤] ، ومَنْ صحبهم من الحاجّ حمد صحبتَهم . وفى أثناء مغيبهم وصلت طوائف أُخر منهم للحج خاصة ، لضيق الوقت عن الزيارة ، فأقاموا بمكة ، ووصل الزوّار منهم ، فضاق بهم المتّسع .

فلما كان يوم الاثنين السابع والعشرين من الشهر المذكور ، فُتِح البيت العتيق[٥] ، وتولى فتحه من الشيبيين ابن عم الشّيْبى المعزول ، [وهو][٦] أمثلُ طريقة على[٧] ما يُذْكَر . فازدحم السرو للدخول على العادة ، فجاءوا بأمر لم يُعْهَد فيما سلف ؛ يصعدون أفواجا حتى يغص البابُ الكريم بهم ، فلا يستطيعون تقدّما ولا تأخّرا ، إلى أن يَلجوا على أعظم مشقة ، ثم يسرعون[٨] الخروج ، (٩منهم من يضيق وينقطع لهول الزحام ، فينحدر٩) الفُوَج منهم على المصعد ، وفوَج أخر صاعدة يلتقيه[١٠] ، وقد ارتبط بعضهم إلى بعض ، فربما حمل المنحدرون منهم الصاعدين[١١] ، وربما وقف الصاعدون المنحدرين[١٢] ، وتضاغطوا إلى أن يميلوا ، فيقع البعض على البعض . فيعاين النّظارة منهم مرأى هائلا : فمنهم سليم ، وغير سليم . وأكثرهم إنما ينحدرون

---

(١) ط : ومشقة . والمسغبة : الجوع . (٢) ط : المباركة .
(٣) ص : من المدينة إلى مكة . خطأ . (٤) ط : فى يسير أيام .
(٥) خ : البيت المذكور . (٦) زادت ر : وهو .
(٧) ط : طريقة منه على . (٨) ص : يسرع .
(٩ — ٩) ط فيضيق الباب الكريم بهم فتنحدر . (١٠) ط : وفوج أخرى صاعدة فيلتقيان
(١١) ط : المنحدرون فى صدور الصاعدين . (١٢) للمنحدرين .

وثبا على الرءوس والأعناق .

ومن أعجب ما شاهدته[١] فى يوم الاثنين المذكور ، أن صعد بعض من لشيبيين أثناء ذلك الزحام ، يرومون الدخول إلى البيت الكريم ، فلم يقدروا على التخلّص ، فتعلقوا بأستار حفافى[٢] عِضادتى الباب ، ثم إن أحدهم تمسك بإحدى الشرائط القِنَّبية الممسكة للأستار إلى أن علا الرءوسَ والأعناقَ فوطئها ، ودخل البيت ولم[٣] يجد موطئا لقدمه سواها ، لشدّة تزاحمهم[٤] ، وتراكمهم ، وانضمام بعضهم إلى بعض . وهذا الجمع الذى وصل منهم فى هذا العام لم يُعْهَدْ قط مثله فيما سلف من الأعوام ، ولله القدرة المعجزة[٥] ، لا إلٰه سواه .

[إحرام الكعبة] :

وفى هذا اليوم المذكور الذى هو السابع والعشرون من ذى القعدة ، شُمِّرت أستار الكعبة المقدسة إلى نحو قامة ونصف من الجُدر ، من الجوانب الأربعة ، ويسمّون ذلك إحراما لها ، فيقولون : أحرمت الكعبةُ .. وبهذا جرت العادة دائما ، فى الوقت المذكور من الشهر . ولا تُفْتَح من حين إحرامها إلا بعد الوقفة . فكأنّ ذلك التشمير إيذان بالتشمير للسفر ، وإشعار[٦] بقرب وقت وداعها المنتظر ، لا جعله الله آخر وداع ، وقضى لنا إليها بالعودة ، وتيسير سبيل الاستطاعة[٧] ، بعزته وقدرته .

---

(١) ط : شاهدناه .

(٢) ط : حافتى .

(٣) ط : فلم .

(٤) ط : تراصهم .

(٥) خـ : والمعجزة .

(٦) ط : وإيذان .

(٧) خـ : الاستطاع .

وفى [يوم] الجمعة الرابع والعشرين قبل هذا اليوم المذكور ، كان دخولنا إلى البيت الكريم على حال اختلاس وانتهاز فرصة ، أوجدت بعضَ فرجة من الزحام ، فدخلنا[١] دخول وداع ، إذ لا يمكن[٢] دخوله بعد ذلك ، لترادُف الناس وازدحامهم[٣] ولا سيما الأعاجم الواصلون مع الأمير العراقىّ ، فإنهم يُظْهِرون من التهافُت عليه ، والبدار إليه ، والازدحام [فيه] ، ما يُنْسِى أحوال السَّرْويين[٤] لفظاظتهم وغلظتهم ، فلا يتمكن لأحد معهم[٥] النظر فضلا عن غير ذلك ، والله عز وجل لا يجعله آخر العهد ببيته الكريم ، ويرزقنا العَوْد إليه على خير وعافية[٦] ، بمنه ولطيف صنعه .

وفى يوم إحرام الكعبة المذكور ، أُقْلِعت عن موضع المقام المقدّس القبّة الخشبية ، التى كانت عليه ، ووُضِعت عوضَها قبّة الحديد ، إعدادا للأعاجم المذكورين ، لأنها لو لم تكن حديدا لأكلوها أكلا ، فضلا عن غير ذلك ، لما هم عليه من صحّة النفوس ، وشوقها[٧] إلى هذه المشاهد المقدسة ، وتطارُحهم بأجرامهم عليها ، والله ينفعهم بنيَّاتهم ، بمنه وكرمه .

وفى يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من الشهر المذكور ، جاء زعيم الشيبيين المذكور[٨] المعزول ، يتهادى بين بنيه زهوا وإعجابا ، ومفتاح الكعبة المقدسة بيده قد أُعيد إليه ، ففتح الباب الكريم ، وصعد مع بنيه السطح المبارك الأعلى ، بأَمْراس غليظة من القِنَّب[٩] ، يوثقونها فى أوتاد الحديد المضروبة فى

---

(١) ط : فدخلناه .
(٢) ط : يتمكن .
(٣) ط : الناس عليه ولا سيما .
(٤) ط : السرو اليمنيين .
(٥) ط : منهم .
(٦) ص : خير وخيرة .
(٧) ط : شوقا .
(٨) المذكور : ليست فى ط .
(٩) ط : من القنب غليظة .

السطح ، ويرسلونها إلى الحجر[١] فيُرْبَط فيها شبيه محمل من العود ، ويجلس فيه أحد سَدَنة البيت من الشيبيين ، فيُصْعَد به على بكرة مُعَدّة لذلك فى أعلى السطح المذكور ، فيتولّى خياطةَ ما مزقتْه الريح من الأستار . فسألنا عن كيفية صَرْفِ هذا الشيبىّ المعزول إلى خطّته ، على صحّة الهَنَات المنسوبة إليه . فأُعْلِمنا أنه صُودِرَ عليها بخمس مئة دينار مكية استقرضها ودفعها . فطال التعجّب من ذلك والاعتبار ، وتحقّقنا أن إظهار القبض عليه لم يكن غَيْرة ولا أَنَفة على حُرُمات الله المنتهَكة على يديه ، مع كونه[٢] فى خطّة دونها الخلافةُ رفعةً ، والحال يشبه بعضها بعضا ، « وَإِنَّ الظَّالِمينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ »[٣] ، وإلى الله المشتكَى من فساد ظهر ، حتى فى أشرف بقاع الأرض ، وهو حسبُنا ، ونِعْم الوكيل .

[دار الخيزران] :

وفى يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ذى القعدة المذكور ، دخلنا دار الخَيْزُران ، التى كان منها منشأ الإسلام ، وهى بإزاء الصفا ، ويلاصقها بيت صغير عن يمين الداخل إليها ، كان مسكنَ بلال رضى الله عنه ، ويُدْخَل إليها على حَلَق كبير[٤] شبيه الفندق ، قد أحدقت به بيوت للكراء من الحاجّ . والدار المكرّمة دار صغيرة ، يجدها الداخل إلى الحلق المذكور عن يساره ، وهى مجدَّدة البناء ، أنفق فى بنائها جمال الدين ، الموصوف[٥] أثرُه الكريم فى

---

(١) ط : إلى الأرض .

(٢) ط : كونها .

(٣) سورة الجاثية ، الآية ١٩ .

(٤) الحلق : الحظيرة أو الحائط الدائر .

(٥) ط : المذكور .

هذا المكتوب ، نحوَ الألف الدينار ، نفعه الله بما أسلفه من العمل الصالح[١] .
وعن يمين الداخلِ إلى الدار[٢] المباركة باب ، يُدخل منه إلى قبة كبيرة ، بديعة البناء ، فيها مقعد النبى ، ﷺ ، والصخرة التى كان إليها مستَنَدُه ، [وعن يمينه موضع أبى بكر الصديق ، وعن يمين أبى بكر موضع علىّ بن أبى طالب ، والصخرة التى كان إليها مستنده] ، هى[٣] داخلة فى الجدار كشبه المحراب .
وفى هذا الدار كان إسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه[٤] ، ومنها ظهر الإسلام على يديه ، وأعزه الله به ، نفعنا الله ببركة هذه المشاهد المكرمة ، والآثار المعظمة ، وأماتنا على محبة الذين شُرِّفت بهم ، ونُسِبت إليهم ، صلوات الله عليهم أجمعين ، آمين ، آمين[٥] .

شهر ذى الحجة ، عرفنا الله بركته ويمنه[٦]

استهل هلاله ليلة الخميس ، بموافقة الخامس عشر من مارس . وكان للناس فى ارتقابه أمر عجيب ، وشأن من البُهتان غريب ، ونُطْق من الزُّور كاد يعارضه من الجماد فضلا عن غيره ردٌّ وتكذيب ؛ وذلك أنهم ارتقبوه ليلة الخميس الموفى ثلاثين ، والأُفق قد تكاثف نوءُه ، وتراكم غيمه ، إلى أن

(١) ط : دينار . وقد وعد المؤلف بذكر تاريخ وفاته ولم يفعل . وقد توفى سنة ٥٥٩ ، بعد أن وزر لأتابك زنكى ، وابنه غازى ، وقطب الدين مودود ، أمراء الموصل . وانظر وفيات الأعيان لابن خلكان ، حرف الميم .
(٢) ط : الداخل الدار .
(٣) خـ : وهى .
(٤) رضى الله عنه : ليست فى ط .
(٥) آمين آمين : ليست فى ط .
(٦) ويمنه : ليست فى ط .

غلب[١] مع المغيب بعض حُمْرَة من الشَّفَق ، فطمع الناس فى فُرْجة من الغيم ، لعل الأبصار تلتقطه فيها . فبينما هم كذلك إذ كبّر أحدهم ، فكبّر الجم الغفير منهم[٢] لتكبيره ، ومَثَلوا قياما ينظرون[٣] ما لا يُبْصِرون ، ويشيرون إلى ما[٤] يتخيلون ، حرصا منهم على أن تَكون الوقفة بعرفات يوم الجمعة ، كأنّ الحج لا يرتبط إلا بهذا اليوم بعينه ، فاختلقوا شهادات الزور[٥] . ومشت منهم طائفة من المغاربة ، أصلح الله أحوالهم ، ومن أهل مصر وأربابها ، فشهدوا عند القاضى برؤيته . فردّهم أقبحَ رد ، وجرّح شهاداتهم أَسْوَأ تجريح ، وفضحهم فى تزييف أقوالهم أخزى فضيحة ، وقال : « يا للعجب ، لو أن أحدهم يشهد برؤيته الشمس تحت ذلك الغيم الكثيف النسج ، لما قبلته ، فكيف برؤية هلال هو ابن تسع وعشرين [ليلة] ! » وكان أيضا مما حُكِى من قوله : « تشوّشت المغارب ، واعترضت[٦] شعرة من الحاجب ، فأبصروا خيالا وظنوه[٧] هلالا » . وكان لهذا القاضى جمال الدين ، فى أمر هذه الشهادات[٨] الزُّوريّة ، مقام من التوقّف والتحرى ، حمده له أهلُ التحصيل ، وشكره عليه ذوو العقول . وحُقّ [لهم] ذلك : لأنها[٩] مناسك [الحجّ] للمسلمين عظيمة ، أَتَوا لها من كلّ فج عميق . فلو تُسُومِحَ فيها بطل السعىُ ، وفال[١٠] الرأى ، والله يرفع الالتباس والبأس ، بمنّه .

---

(١) ط : علته .

(٢) منهم : ليست فى ط .

(٣) ط : ينتظرون .

(٤) خـ : على مالا .

(٥) ط : شهادات زورية .

(٦) خـ : تشوست المعارب .. وتعرصت .
ط : وتعرضت .

(٧) ط : ظنوه .

(٨) ط : الشهادة .

(٩) ط : فإنها .

(١٠) فال : ضعف ولم يصب .

فلما كانت ليلة الجمعة المذكورة ، ظهر الهلال أثناء فُرَج السحاب ، وهو[1] قد اكتسى نور ابن الثلاثين[2] ليلة فزَعَقت العامّة زعقات هائلة ، وتنادت[3] بوقفة الجمعة ، وقالت : الحمد لله ، الذى لم يخيّب سعيَنا ، ولا ضيّع قصدنا . كأنه[4] قد صحّ عندهم أن الوقفة ، إذا لم توافق الجمعة[5] ، ليست مقبولة ، ولا الرحمة من الله فيها[6] مرجوة مأمولة ؛ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . ثم إنهم يوم الجمعة المذكور اجتمعوا إلى القاضى ، فأدّوا شهادات بصحة الرؤية المذكورة[7] تُبْكِى الحق ، وتُضْحِك الباطل ، فردّها ، وقال : « يا قومُ حَتّامَ هذا التمادى فى الشهوة ، وإلامَ تستنّون فى طلق الهَفْوة »[8] ، وأعلمهم أنه قد استأذن الأمير مكثرا فى أن يكون الصعود إلى عرفات فى يوم[9] الجمعة ، فيقفوا عشية بها ، ثم يقفوا [صبيحةَ يوم] السبت بعده ، ويبيتوا ليلة الأحد بمُزْدَلِفة . فإن كانت الوقفة يوم الجمعة فما عليهم فى تأخير المبيت بمزدلفة بأسٌ ، إذ هو جائز عند أئمة جميع[10] المسلمين ، وإن كانت السبت فبها ونِعْمَتْ . وإما أن يقع القطع بها يوم الجمعة . فتغرير بالمسلمين ، وإفساد لمناسكهم ، لأن الوقفة يوم التروية عند الأئمة غير جائزة[11] ، كما أنها عندهم جائزة يوم النحر . فشكر جميعُ مَنْ حضر للقاضى هذا المنزع من التحقيق ، ودعوا له . وأظهر مَنْ حضر من العامة الرِّضَى بذلك ، وانصرفوا

---

(١) هو : ليست فى ط .
(٢) ط : من الثلاثين .
(٣) خـ : وتناد .
(٤) ط : كأنهم .
(٥) ط : لم تكن توافق يوم الجمعة .
(٦) ط : فيها من الله .
(٧) المذكورة : ليست فى ط .
(٨) ط : طرق الهفوة .
(٩) ط : صبيحة يوم .
(١٠) جميع : ليست فى ط .
(١١) ص ، خـ : غير جائز .

عن سلام ، والحمد لله على ذلك . وهذا الشهر المبارك هو ثالث الأشهرالحرم ، وعَشْرُه الأولى مجتمع الأُمم ، وموسم الحج الأعظم ، شهر العجّ والثجّ[١] ، وملتقَى وفود الله من كل أوب وفجّ ، مُصَاب الرحمة والبركات ، ومحل الموقف الأعظم بعرفات ، جعلنا الله ممن فاز فيه بالحسنات ، وتعرّى به من ملابس الأوزار والسيئات ، بمنه وكرمه ، إنه أهل التقوى ، وأهل المغفرة . والأمير العراقيّ منتظَر لكشف هذا الالتباس[٢] عن الناس فى أمر الهلال ، لعلّه قد اتّضح اليقين له فيه[٣] ، إن شاء الله .

وفى سائر هذه الأيام كلها إلى هلمّ جرّا ، تصل رفاق من السَّرْو اليمنيين ، وسائر حجاج الآفاق ، لا يحصى عددَها إلا مُحْصِى آجالِها وأرزاقها ، لا إلٰـه سواه . فمن الآيات البيّنات أن يسع هذا الجمعَ العظيم هذا البلدُ الأمين ، الذى هو بطن وادٍ سَعتُه غَلْوة أو دونها . ولو أن المدن العظيمة حُمِل عليها هذا الجمع ، لضاقت عنه . وما هذه البلدة المحرمة[٤] ، فيما تختص به من الآيات [البينات] فى اتّساعها لهذا البشر المُعْجِزِ إحصاؤه ، إلا كما شبّهتْها العلماءُ حقيقةً فى أنها[٥] تتسع لوفودها اتساعَ الرحم لمولودها . وكذلك عرفات وسائر المشاهد المعظمة ، بهذا البلد الحرام ، عظم الله حرمته ، ورزقنا الرحمة فيه ، بكرمه وفضله .

ومن أول هذا الشهر المبارك ، ضُربت دَبَادِب الأمير بكرة وعشية ، وفى

---

(١) العج : الصياح ، والمراد رفع الحجاج أصواتهم بالتلبية والتهليل . والثج : سيلان دم الهدى .

(٢) ط : الالباس .

(٣) ط : له اليقين فيه .

(٤) ط : المكرمة .

(٥) خ : لأنها . ط : بأنها .

أوقات الصلوات ، كأنها إشعار بالموسم . ولا يزال كذلك إلى يوم الصعود إلى عرفات ، عرّفنا الله بها القبول والرحمة .

[والى عَدَن] :

وفى يوم الاثنين الخامس أو الرابع من هذا الشهر ، وصل الأمير عثمان ابن على صاحب عَدَن ، خرج منها فارّا أمام سيف الإسلام المتوجّه إلى اليمن ، وركب البحر فى جلب[١] كثيرة مشحونة بأحوال عظيمة ، وأموال لا تُحْصَى كثرة ؛ لأنه طال مقامه فى تلك الولاية ، واتّسع كسبه . وعند خروجه من البحر بموضع بالصرين . لحقت . لحقت جُلْبَه حَرَارِيقُ للأمير[٢] سيف الإسلام المذكور[٣] ، فأخذت جميع ما فيها من الأثقال ، وكان قد استصحب الخِفَّ[٤] النفيس الخطير مع نفسه إلى البر ، وهو فى جملة من رجاله وعبيده ، فسلم به ، ووصل مكة بعِيرٍ مُوقَرة متاعا ومالا[٥] ، دخلت على أعين الناس إلى داره التى ابتناها بها ، بعد أن قدّم نفيس ذخائره ، وناضّ ماله ، وجملة رقيقه وخدمه ليلا . وبالجملة فحاله لا توصف كثرة واتساعا ، والذى انتُهب له كثير ؛ لأنه كان فى ولايته موصوفا[٦] بسوء السيرة مع التجار ، وكانت المنافع التجارية كلها راجعة إليه ، والذخائر الهندية المجلوبة كلها واصلة إلى يديه ، فاكتسب سُحْتا[٧] عظيما ، وحصل على كنوز قارونيّة . لكن حوادث الأيام قد ابتدأت بالخسف به ، ولا يدرى حال أمره مع صلاح الدين لما[٨] يكون ، والدنيا مُفْنِية مُحِبّيها ، وآكِلة بنيها ،

---

(١) ط : جلاب .

(٢) ط : الأمير .

(٣) المذكور : ليست فى ط .

(٤) الخف : الخفيف .

(٥) ص : وحالا .

(٦) ط : يوصف .

(٧) السحت : الحرام .

(٨) ط : لم .

وثواب الله خير ذخيرة ، وطاعته أشرف غنيمة ، لا إلٰه سواه .

وبقيت الشهادات[1] مضطربة فى أمر هذا الهلال المبارك الميمون ، إلى أن تواترت[2] الأخبار برؤيته ليلة الخميس الذى يوافق الخامس عشر من مارس ، شهد بذلك ثقات من أهل الزهد والورع يمنيّون ، وسواهم من الواصلين من المدينة المكرّمة . لكن بقى القاضى على ثباته وتوقّفه فى القبول ، وإرجاء الأمر إلى وصول المبشِّر المُعْلِم بوصول الأمير العراقىّ ، ليتعرّف من قِبَله [ما] عند أمير الحاجّ فى ذلك . فلما كان يوم الأربعاء السابع من الشهر المذكور ، وصل المبشّر ، وكانت نفوس أهل مكة قد أوجست خيفة لبُطْئِه ، حذرا من حقد الخليفة على أميرهم مكثر ، لمذموم أمر[3] صدر عنه . فكان وصول هذا البشير أمانا ، وتسكينا للنفوس الشاردة . فوصل مُبشِّرا ومُؤْنِسا . وأَعلَم برؤية الهلال يوم[4] الخميس المذكور . وتواترت الأنباء بذلك ، فصحّ الأمر عند القاضى بذلك صحة أوجبت خطبتَه فى ذلك اليوم ، على ما جرت به العادة فى اليوم السابع من ذى الحجة ، إثر صلاة الظهر ، علّم الناس فيها مناسكهم ، ثم أعلمهم بأن[5] غدهم هو يوم الصعود إلى منى ، وهو يوم التروية ، وأن وقفتهم يوم الجمعة ، وأن الأثر الكريم فيها عن رسول الله ، ﷺ ، بأنها تَعْدِل سبعين وقفة[6] ، ففضل هذه الوقفة فى الأعوام ، كفضل يوم الجمعة على سائر الأيام .

---

(١) ط : الشهادة .
(٢) ط : تواصلت .
(٣) ط : فعل .
(٤) ط : ليلة .
(٥) ط : أن .
(٦) نص الحديث : « أفضل الأيام يوم عرفة وافق يوم جمعة ، وهو أفضل من سبعين حجة فى غير جمعة » أخرجه رزين فى تجريد الصحاح . (انظر القرى لقاصد أم القرى للمحب الطبرى ٣٧٢) .

[مناسك الحج] :

فلما كان يوم الخميس بكر الناس بالصعود إلى منى ، وتمادوا منها إلى عرفات . وكانت السنّة المَبِيت بها ، لكن ترك الناسُ ذلك اضطرارا ، بسبب خوف بنى شعبة المغيرين على الحجاج ، فى طريقهم إلى عرفات . وصَدَر عن هذا الأمير عثمان المتقدم ذكرُه فى ذلك اجتهادٌ بل جهاد يُرْجَى له به المغفرةُ لجميع خطاياه ، إن شاء الله : وذلك أنه تقدم بجميع أصحابه شاكّين فى الأسلحة إلى المضيق الذى بين مزدلفة وعرفات ، وهو موضع ينحصر الطريق فيه بين جبلين ، فينحدر الشعبيّون من أحدهما ، وهو الذى على اليسار للمار[1] إلى عرفات ، فينتهبون الحاج انتهابا ، فضرب هذا الأمير قبة فى ذلك المضيق بين الجبلين ، بعد أن قدّم أحد أصحابه ، فصعد إلى رأس الجبل بفرسه ، وهو جبل كئود المصعد[2] . فعجبنا من شأنه ، وأَكْثرُ العجب من شأن[3] الفرس ، وكيف تمكّن له الصعود إلى ذلك المرتقَى الصعب الذى لا يرتقيه العُصم فأمِن جميع الحاج بمشاركة هذا الأمير لهم ، فحصل على أجرَين : أجرجهاد وأجر[4] حجّ ، لأن تأمين وفد الله عز وجل فى مثل ذلك اليوم من أعظم الجهاد .

واتصل صعود الناس ذلك اليوم كله والليلة كلها إلى يوم الجمعة كله . فاجتمع بعرفات من البشر جمع لا يحصى عددَه إلا الله عز [وجل] . ومُزْدَلِفة بين مِنى وعَرَفات ، من منى إليها ما من مكة إلى منى ، وذلك نحو خمسة أميال ؛ ومنها إلى عرفات مثل ذلك أو أشفّ[5] قليلا ، وتسمّى المشعر

(١) ط : عن يسار المار .

(٢) المصعد : ليست فى ط .

(٣) ط : التعجب من أمر .

(٤) أجر : ليست فى ط .

(٥) ص : وأشف . ش : أزيد . وهى مرادفة لكلمة أشف .

الحرام ؛ وتسمى أيضا[١] جَمْعا ، فلها ثلاثة أسماء . وقبلها بنحو الميل وادى مُحَسِّر ، وجرت السنة[٢] بالهَرْوَلة فيه ، وهو حَدّ بين مزدلفة ومنى ، لأنه معترِض بينهما . ومزدلفة بسيط من الأرض ، فسيح بين جبلين ، وحوله مصانع وصهاريج كانت للماء فى زمان زُبَيْدة ، رحمها الله . وفى وسط ذلك البسيط من الأرض ، حَلَقٌ[٣] فى وسطه قبّة فى أعلاها مسجد ، يُصْعَد إليه على أدراج من جهتين ، يزدحم الناس فى الصعود إليه والصلاة فيه ، عند مبيتهم بها . وعرفات أيضا بسيط من الأرض مدَّ البصر ، لو كان مَحْشَرا للخلائق لَوَسِعهم ، يحدق بذلك البسيط الأفيح جبال كثيرة .

وفى آخر ذلك البسيط جبل الرحمة ، وفيه وحوله موقف الناس ، والعَلَمان قبله بنحو الميلين ، فما أمام العلمين إلى عرفات حِلّ ، وما دونهما حَرَم . وبمقربة منهما ، مما يلى عرفات ، بطن عُرَنة ، الذى أمر النبى ﷺ بالارتفاع عنه ، فى قوله ﷺ : « عرفات كلها موقف ، وارتفِعوا عن بطن عُرَنة »[٤] ، قالوا : من وقف[٥] فيه لا يصح حَجُّه ، فيجب التحفّظ من ذلك ، لأن الجَمّالين عشيةَ الوقفة ربما استحثّوا كثيرا من الحاج ، وحذّروهم الزحمة فى النفر ، واستدرجوهم بالعلمين اللذين أمامهم ، إلى أن يصلوا بهم بطن عُرَنة أو يجيزوه ، فيُبْطِلوا على أكثر[٦] الناس حجهم . فالمتحفّظ[٧] لا يَنْفُرُ من الموقف حتى يتمكّن سقوط القرصة من الشمس . وجبل الرحمة المذكور منقطع عن الجبال ، قائم فى [وسط] البسيط ، وهو

(١) أيضا : ليست فى ط .

(٢) ط : العادة .

(٣) الأزرقى ٤١٢ : جدار . والحلق : جدار دائرى .

(٤) انظر القرى لقاصد أم القرى ٣٤٤ .

(٥) ط : فالواقف .

(٦) أكثر : ليست فى ط .

(٧) ط : والمتحفظ .

كله حجارة منقطعة بعضها عن بعض[١] . وكان صعب المرتقَى ، فأحدث فيه جمال الدين المذكورة[٢] مآثره فى هذا التقييد أدراجا وَطِيئة[٣] من أربع جهاته ، يُصْعَد فيها بالدوابّ الموقوة ، أنفق فيها مالا عظيما[٤] .

وفى أعلى الجبل قبّة تُنْسَب إلى أم سلمة رضى الله عنها ، ولا يعرف صحة ذلك . وفى وسطها[٥] مسجد ، يتزاحم الناس للصلاة فيه . وحول ذلك المسجد المكرم سطح محدق به ، فسيح الساحة ، جميل المنظر ، يُشْرَف منه على بسيط عرفات . وفى جهة القبلة منه جدار، قد[٦] نُصِبت فيه محاريب يصلّى الناس فيها .

وفى أسفل هذا الجبل المقدّس ، عن يسار المستقبل القبلة[٧] فيه ، دار عتيقة البنيان ، فى أعلاها غُرَف[٨] لها طِيقان تُنْسَب إلى دار آدم[٩] ﷺ . وعن يسار هذا الدار فى استقبال القبلة ، الصخرةُ التى كان عندها موقف النبى ﷺ ، وهى فى جبل[١٠] مُتطَامِن . وحول جبل الرحمة والدار المكرّمة المذكورة[١١] ، صهاريج للماء وجباب . وعن يسار الدار أيضا ، على مقربة منها ، مسجد صغير .

وبمقربة من العلمين ، عن يسار المستقبل[١٢] القبلة ، مسجد قديم ، فسيح البناء ، بقى منه الجدار القبلى ، يُنْسَب إلى إبراهيم ﷺ ، فيه يخطب الخطيب

---

(١) ص : على بعض .
(٢) خـ : المذكور .
(٣) ص : وطأته .
(٤) ط : الموقورة وأنفق .
(٥) ط : وسط القبة .
(٦) ط : وقد .
(٧) ط : للقبلة .
(٨) ب : غرفة .
(٩) ط : إلى آدم .
(١٠) ب : جبيل .
(١١) المذكورة : ليست فى ط .
(١٢) ط : مستقبل .

يوم الوقفة ، ثم يجمع بين الظهر والعصر . وعن يسار العلمين أيضا ، فى استقبال القبلة ، وادى الأَرَاك ، وهو أراك أخضر يمتدّ فى ذلك البسيط مع البصر امتدادا طويلا .

فتكامل جمع الناس بعرفات يوم الخميس ، وليلة الجمعة كلها . وفى نحو الثلث الباقى من ليلة الجمعة المذكورة ، وصل أمير الحاج العراقى ، فضرب أبنيته فى البسيط الأفيح ، مما يلى الجانب الأيمن من جبل الرحمة ، فى استقبال القبلة . والقبلة فى عرفات هى إلى مغرب الشمس ، لأن الكعبة المقدسة فى تلك الجهة منها . فأصبح يومَ الجمعة المذكورة فى عرفات جمعٌ لا شبيه له إلا الحشر ، لكنه إن شاء الله تعالى حشر للثواب ، مبشَّر بالرحمة والمغفرة يوم الحشر للحساب ؛ زعم المحققون من الأشياخ المجاورين : أنهم لم يعاينوا قط فى عرفات جمعا أحفل منه . وما[١] أرى كان من عهد الرشيد ، الذى هو آخر مَنْ حج من الخلفاء ، جمع فى حجة[٢] الإسلام مثله ، جعله الله جمعا مرحوما معصوما ، بعزته .

فلما جُمِع بين الظهر والعصر يوم الجمعة المذكور ، وقف جميع[٣] الناس خاشعين باكين ، وإلى الله عز وجل فى الرحمة والمغفرة[٤] متضرعين ، والتكبير قد علا ، والضجيج من الناس قد ارتفع بالدعاء[٥] . فما رُئِىَ يوم كان[٦] أكثر مدامع ، ولا قلوبا خواشع ، ولا أعناقا لهَيْبة الله تعالى خوانع خواضع[٧] ، من ذلك اليوم . فما زال الناس على تلك الحالة ، والشمس تلفح

(١) ط : ولا .
(٢) حجة : ليست فى ط .
(٣) جميع : ليست فى ط .
(٤) والمغفرة : ليست فى ط .
(٥) ط : وضجيج الناس بالدعاء قد ارتفع .
(٦) كان : ليست فى ط .
(٧) تعالى : ليست فى ط . وخوانع : ذليلة .

وجوههم ، إلى أن سقط قرصُها ، وتمكّن وقت المغرب . وقد وصل أمير الحاج ، مع جملة من جنده الدّارِعِين[1] ، ووقفوا بمقربة من الصخرات ، عند المسجد الصغير المذكور . وأخذ السّرو اليمنيون مواقفهم ، بمنازلهم المعلومة لهم فى جبال عرفات ، المتوارثة عن جَدّ فجدّ من عهد النبى ﷺ ، لا تتعدى قبيلة على منزل أخرى .

وكان المجتمع منهم فى هذا العام عددا لم يجتمع قط مثله . وكذلك وصل الأمير العراق فى جمع لم يصل قط مثله[2] ، ووصل معه من أمراء الأعاجم الخراسانيين ومن النساء العَقائل المعروفات بالخَوَاتين ـــ وهن السيدات بنات الأمراء ، وإحداهن خاتون ـــ كثير[3] ومن سائر الأعاجم[4] عدد لا يُحْصَى ؛ فوقف الجميع ، وقد جعلوا قُدْوَتَهم فى النَّفْر الإمامَ المالكىّ ، لأن مذهب مالك رضى الله عنه يقتضى أن لا يُنْفَر حتى يتمكن سقوط القرصة ، ويحين وقت المغرب . ومن السرو اليمنيين مَنْ نفر قبل ذلك . فلما أن حان الوقت أشار الإمام المالكىّ بيديه ، ونزل عن موقفه ، فدَفَع الناس بالنفر دفعا ، ارتجّت له الأرض ، ورَجَفت له الجبال[5] ، فيا له موقفا ما أَهْول مرآه ، وأَرْجَى فى النفوس عُقْباه ! جعلنا الله ممن خصّه فيه برِضَاه ، وتغمده برحماه[6] ، إنه منعم كريم ، حَنّان منّان .

[محلة الأمير العراق] :

وكانت محلّة هذا الأمير العراق جميلة المنظر ، بهيّة العُدّة ، رائقة المضارب

---

(١) الدارعون : الذين يلبسون الدروع .   (٢) ص : بمثله .

(٣) ط : بالخواتين ، وإحدتهن خاتون ، ومن السيدات بنات الأمراء كثير . والخاتون : لفظة تركية معناها السيدة .   (٤) ط : العجم .

(٥) ط : ووجفت الجبال .   (٦) ط : بنعماه .

والأبنية ، عجيبة القِباب والأزْوقة ، على هيئات لم يُرَ أبدع منها منظرا . فأعظمها مرأى مضرب الأمير ، وذلك أنه أحدق به سُرادق كالسور ، نسيج كتّان كأنه[١] حديقة بستان أو زَخْرَفة بنيان . وفى داخله القباب المضروبة ، وهى كلها سواد فى بياض ، مرقّشة ملونة كأنها أزاهير الريـاض . قد[٢] جُلِّلت صفحات ذلك السرادق من جوانبه الأربعة كلها أشكال دَرَقيّة[٣] ، من ذلك السواد المنزّل فى البياض ، يستشعر الناظر إليها مهابة ، يتخيّلها دَرَقا لَمْطيّة[٤]، قد جللتها مزخرَفات الأغشية . ولهذا السرادق الذى هو كالسور المضروب أبواب مرتفعة ، كأنها [أبواب][٥] القصور المشيدة ، يُدْخَل منها إلى دهاليز وتعاريج ، ثم يُفْضَى منها إلى الفضاء الذى فيه القباب . فكأن[٦] هذا الأمير ساكن فى مدينة ، قد أحدق بها سورُها ، تنتقل بانتقاله ، وتنزل بنزوله[٧] . وهى من الأُبّهات الملوكية المهولة[٨] ، لم تعهد عند[٩] ملوك المغرب . وداخل تلك الأبواب حُجّاب الأمير ، وخدمه ، وغاشيته[١٠]، وهى أبواب مرتفعة ، يجىء الفارس برايته فيدخـل عليها دون تنكـيس ولا تطأطؤ ، قد أحكمت إقامةَ ذلك كله أمراسٌ وثيقة من القنب[١١] ، تتصل بأوتاد مضروبة ، مدبَّر ذلك كله بتدبير هندسى غريب ، ولسائر

---

(١) ط : من كتان . كأنه : ساقطة من خـ .   (٢) ط : وقد .
(٣) الدرق : التروس من جلد ليس فيه خشب .   (٤) لمطة : أرض لقبيلة بالبربر ينسب إليها الدرق لأنهم ينقعون الجلود فى الحليب سنة ثم يعملونها ، فينبو عنها السيف القاطع ، أو لمط : اسم أمة من الأمم .
(٥) مزيدة من ب .
(٦) ط : وكأن .
(٧) ص : ينتقل بانتقالها وينزل بنزولها .
(٨) ط : المعهودة .
(٩) ط : التى لم يعهد مثلها عند .
(١٠) غاشيته : الذين يغشونه ، أى يدخلون عليه .   (١١) ط : من كتان . كأنه : ساقطة من خـ .

الأمراء الواصلين صحبةَ هذا الأمير مضارب دون ذلك ، لكنّها على تلك الصفة ، وقباب بديعة المنظر ، عجيبة الشكل ، قد قامت كأنها التيجان المنصوبة ، إلى ما يطول وصفه ، ويتسع القول فيه ، من عظيم احتفال هذه المحلّة فى الآلة والعُدّة ، إلى[١] غير ذلك مما يدل على سعة الأحوال ، وعظم الانخراق[٢] فى المكاسب والأموال .

ولهم أيضا فى مراكبهم على الإبل قباب تُظِلّهم ، بديعة المنظر ، عجيبة الشكل ، قد نُصِبت على محامل من الأعواد يسمّونها القشاوات ، وهى كالتوابيت المجوّفة ، هى لراكبها[٣] من الرجال والنساء كالأَمْهِدة للأطفال ، تملأ بالفُرُش الوثيرة ، ويقعد الراكب فيها مستريحا كأنه فى مِهَادٍ ليّن فسيح ، وبإزائه مُعَادِلُه أو معادلته فى مثل ذلك من الشقة الأخرى ، والقبة مضروبة عليهما ، فيُسارِبهما ، وهما نائمان لا يشعران ، أو كيفما أحبّا . فعندما يصلان إلى المرحلة التى يحطّان بها ، ضُرِب سرادقهما للحين ، إن كانا من أهل الترف والنّعم[٤] فيُدْخَل بهما إلى السرادق وهما راكبان[٥] ، وينصب لهما كرسىّ ينزلان عليه ، فينتقلان من ظل قبة المحمل إلى ظل[٦] قبة المنزل ، دون واسطة هواء يلحقهما ، ولا خطفة شمس تصيبهما . وناهيك من هذا الترفيه ! فهؤلاء لا يلقون لسفرهم ، وإن بعُدت شُقّتُه[٧] نَصَبا ، ولا يجدون على طول الحلّ[٨] والترحال تعبا . ودون هؤلاء فى الراحة راكبو المَحَارات ،

---

(١) ط : وغير .

(٢) ط : وعظيم الانخراق ، وهو التوسعه .

(٣) ط : لركابها .

(٤) ط : الترفه . ب : والتنعم .

(٥) ط : فيدخل بهما راكبين .

(٦) ظل : ليست فى ط .

(٧) خـ : مشقته .

(٨) ص : الحال .

وهى شبيهة الشُّقَادِف التى تقدم وصفها فى ذكر صحراء عيذاب ، لكن الشقادف أبسط وأوسع ، وهذه أضمّ وأضيق ، وعليها أيضا ظلائل تَقِى حر الشمس . ومن قصرت حاله عنها فى هذه الأسفار ، فقد حصل على نَصَب السفر ، الذى هو قطعة من العذاب .

[الرجوع إلى ذكر مناسك الحج] :

ثم يرجع القول إلى استيفاء حال النَّفْر عشيّةَ الوقفة المذكورة بعرفات ، وذلك أن الناس نفروا منها بعد غروب الشمس ، كما تقدّم الذكر ، فوصلوا مُزْدَلِفة مع العشاء الآخرة ، فجمعوا بها بين العشاءين ، حسبما جرت به سنّةُ النبى ﷺ . واتقد المشعرُ الحرام تلك الليلة كلها مشاعيل[١] من الشمع المُسْرَج . وأما مسجده المذكور فعاد كله نورا ، فيخيّل للناظر إليه أن كواكب السماء كلها نزلت به . وعلى هذه الصفة كان جبل الرحمة ومسجده ليلة الجمعة ؛ لأن هؤلاء الأعاجم الخراسانيين وسواهم من العراقيين أعظم الناس همّة فى استجلاب هذا الشمع ، والاستكثار منه ، إضاءةً لهذه المشاهد المكرمة[٢] . وعلى هذه الصفة عاد الحرم بهم ، مدةَ مقامهم فيه ، يدخل[٣] منهم كل إنسان بشمعة فى يده ، وأكثر ما يقصدون بذلك حطيم الإمام الحنفى ، لأنهم على مذهبه . وشاهدنا منه شمعا عظيما أُحضر [منه] ، تنوء الشمعةُ منه بالعُصْبة كأنه السَّرْو[٤] ، ووُضع أمام الحنفى .

---

(١) ص : كله . ط : مشاعيل .   (٢) ط : الكريمة .

(٣) ط : فيدخل .   (٤) ص : العصبة . والسرو : شجر مستقيم الساق حسن الهيئة .

فبات الناس بالمشعر الحرام هذه الليلة . وهى ليلة السبت ، فلما صلوا الصبح غَدَوْا منه إلى مِنى بعد الوقوف والدعاء ، لأن مزدلفة كلها موقف إلا وادى محسِّر ، ففيه[1] تقع الهَرْوَلة فى التوجُّه إلى منى حتى يُخْرَج عنه . ومن مزدلفة يَستصحِب أكثر الناس حصيات الجِمار ، وهو المستحَب ، ومنهم من يلتقطها حول مسجد الخَيْف بمنى ، وكل ذلك واسع . فلما انتهى الناس إلى منى ، بادروا لرمى جمرة العقبة بسبع حصيات ، ثم نحروا أو ذبحوا ثم حلقوا[2] ، وحلوا من كل شىء إلا النساء والطيب ، حتى يطوفوا طواف الإفاضة . ورَمْىُ هذه الجمرة عند طلوع الشمس من يوم النحر . ثم توجّه أكثر الناس لطواف الإفاضة . ومنهم من أقام إلى اليوم الثانى ، ومنهم من أقام إلى اليوم الثالث ، وهو يوم الانحدار إلى مكة . فلما كان اليوم الثانى من يوم النحر ، عند زوال الشمس ، رمى الناس بالجمرة الأولى سبع حصيات ، وبالجمرة الوسطى كذلك ، وبهاتين الجمرتين يقفون للدعاء ، وبجمرة العقبة كذلك ولا يقفون بها ، اقتداء فى ذلك كله بفعل النبى ﷺ . فتعود جمرة العقبة فى هذين اليومين أخيرة ، وهى يوم النحر أُولى[3] منفردة لا يخلط معها سواها .

وفى اليوم الثانى من يوم النحر ، بعد رمى الجمرات ، خطب الخطيب بمسجد الخيف ، ثم جمع بين الظهر والعصر . وهذا الخطيب جديد[4] وصل مع الأمير العراقى ، مقدَّما من عند الخليفة للخطبة والقضاء بمكة على ما

---

(١) ص : فيه .

(٢) ثم حلقوا : ليست فى ط .

(٣) هـ : أولة .

(٤) جديد : ليست فى ط .

يُذْكَر ، ويعرف بتاج الدين . وظاهر حاله[1] البلادة والبَلَه ، لأن خطبته أعْربت عن ذلك ، ولسانه لا يقيم الإعراب .

فلما كان اليوم الثالث ، تعجل الناس فى الانحدار إلى مكة ، بعد أن كمل لهم رَمْىُ تسع وأربعين جمرة : سبعٌ منها يوم النحر بالعقبة ، وهى المحلِّلة ؛ ثم إحدى وعشرون فى اليوم الثانى ، بعد زوال الشمس ، سبعا سبعا فى الجمرات الثلاث ؛ وفى اليوم الثالث كذلك . ونفر الناس[2] إلى مكا : فمنهم من صلى العصر بالأبْطَح ، ومنهم من صلاها بالمسجد الحرام ، ومنهم من تعجّل فصلى الظهر بالأبطح . ومضت السنةُ قديما بإقامة ثلاثة أيام ، بعد يوم النحر بمنى ، لإكمال رمى سبعين حصاة ، فوقع التعجيل فى هذا الزمان فى اليومين ، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾[3] ، وذلك مخافةَ بنى شعبة ، وما يطرأ من حَرَّابة المكيين . وقد كانت فى يوم الانحدار المذكور بين بعض سُودان مكة وبعض الأتراك[4] العراقيين جولةٌ وهَوْشةٌ ، وقعت فيها جراحاتٌ ، وسُلّت السيوف ، وفُوِّقت القِسِىّ ، ورُميت الأسم[5] ، وانتُهب بعض أمتعة التجار ، لأن منى فى تلك الأيام الثلاثة سوق من أعظم أسواق الدنيا[6] ، يُباع فيها من الجوهر النفيس إلى أدنى الخَرَز ، إلى غير ذلك من الأمتعة ، وسائر سِلَع الدنيا ، لأنها مجتمَع أهل الآفاق . فوقى الله شر تلك الهوشة بتسكينها[7] سريعا . وكانت عين الكمال فى تلك الوقفة الهنيئة ، وكمل للناس حجّهم ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) ط : أمره .
(٢) ط : ونفروا .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٠٣ .
(٤) ط : بين سودان أهل مكة وبين الأتراك .
(٥) ط : السهام .
(٦) ط : من أعظم الأسواق .
(٧) ط : الهوشة . خـ : تسكينها . ص : تسكينا لها .

[كسوة الكعبة] :

وفى يوم السبت يوم النحر المذكور ، سِيقت كسوة الكعبة المقدسة من محلّة الأمير [العراق] إلى مكة ، على أربعة جمال[١] ، تقدّمها القاضى الجديد بكسوة الخليفة السَّوادية ، والرايات على رأسه ، والطبول تهِرّ[٢] وراءه ، وابن عم الشيبى محمد بن إسماعيل معها ، لأنه ذُكر أن أمر الخليفة نفذ بعزله عن حجابة البيت ، لاشتهار هناته[٣] ، والله يطهّر بيته المكرم بمرتضىً[٤] من خدّامه بمنه . وهذا ابن العمّ المذكور هو أَشْبَهُ طريقة منه ، وأَمْثَلُ حالا ، وقد تقدّم ذكر ذلك فى العَزْلة الأولى . فوُضِعت الكسوة فى السطح المكرم أعلى الكعبة . فلما كان يوم الثلاثاء الثالث عشر من الشهر المبارك المذكور ، اشتغل الشيبيون بإسْبالها خضراء يانعة ، تقيد الأبصار حسنا ، فى أعلاها رسم أحمر واسع ، مكتوب فيه[٥] فى الصفح الموجّه إلى المقام الكريم ، حيث البابُ المكرم ، وهو وجهها المبارك ، بعد البسملة : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ للذى ببكة ﴾ الآية[٦] ، وفى سائر الصفحات اسم الخليفة والدعاء له . وتحفّ بالرسم المذكور ، طُرّتان حمراوان بدوائر صغار بيض ، فيها رسم[٧] بخط رقيق يتضمن آيات من القرآن ، وذكر الخليفة أيضا . فكملت كسوتها ، وشُمّرت أذيالها الكريمة ، صونا لها من أيدى الأعاجم ، وشدة اجتذابها ، وقوة تهافُتها عليها وانكبابها . فلاح للناظرين منها أجملُ منظر ، كأنها عروس جُليت فى السندس الأخضر ، أمتع الله بالنظر إليها كلَّ مشتاق

---

(١) ص : أربع جمال .
(٢) خـ : تهز .
(٣) ط : لهنات اشتهرت عنه .
(٤) ط : بمن يرضى .
(٥) فيه : ليست فى ط .
(٦) سورة آل عمران ، الآية ٩٦ .
(٧) ص : برسمه .

إلى لقائها ، حريص على المثول بكريم[1] فنائها ، بمنه .

[الأعاجم] :

وفى هذه الأيام فتح[2] البيت الكريم كل يوم للأعاجم العراقيين ، والخراسانيين ، وسواهم من الواصلين مع الأمير العراقى . فظهر من تزاحمهم وتطارحهم على الباب الكريم ، ووثوب[3] بعضهم على بعض ، وسباحة بعضهم على [رءوس] بعض ، كأنهم فى غدير من الماء ، أمرٌ لم يُرَ أهول منه ، يؤدّى إلى تلف المُهَج ، وكسر الأعضاء . وهم فى خلال ذلك لا يُبالون ولا يتوقّفون ، بل يُلْقُون بأنفسهم على ذلك البيت الكريم ، من فرط الطرب والارتياح ، إلقاءَ الفراش بنفسه على المصباح . فعادت أحوالُ السرو اليمنيين ، فى دخولهم البيت المبارك على الصفة المتقدمة الذكر ، حالَ تُؤَدة ووقار ، بالإضافة إلى هؤلاء الأعاجم الأَغْتام[4] ، نفعهم الله بنياتهم . وقد فُقِد منهم فى ذلك المُزدحَم الشديد مَنْ انتهى أجله[5] ، والله يغفر للجميع . وربّما زاحمهم فى تلك الحال بعض نسائهم فيخرجن ، وقد نضجت جلودهن طبخا فى مضيق ذلك المعترَك ، الذى حَمِى بأنفاس الشوق وطيشه ، والله ينفع الجميع بمعتقده ، وحسن مقصده ، بعزته .

وفى ليلة الخميس الخامس عشر من الشهر المبارك ، إثر صلاة العَتَمة ، نُصِب منبر الوعظ أمام المقام ، فصعده واعظ خراسانى حسن الشارة[6] ،

---

(١) ط : المثول بفنائها .

(٢) ط : يفتح .

(٣) ط : ووصول .

(٤) ص : الأعجام . والأغتام : جمع أغتم ، وهو من لا يفصح فى كلامه .

(٥) ط : دنا أجله .

(٦) الشارة : الهيئة . وفى ص : البشارة .

مليح الإشارة ، يجمع بين اللسانين عربىٍّ وعجمىّ ، فأتى فى الحالين بالسحر الحلال من البيان ، فصيح المنطق ، بارع الألفاظ ، ثم يقلب لسانه للأعاجم بلغتهم فيهزهم إطرابا ، ويذيبهم زَفَرات وانتحابا .

فلما كانت الليلة الأخرى بعدها ، وُضِع منبر آخر ، خلف حطيم الحنفىّ ، فصعد إثر صلاة العتمة أيضا شيخ أبيض السبال ، رائع الجلال ، بارع التمام فى الفضل والكمال ، فصدع بخطبة انتظمت آيةَ الكرسىّ كلمة كلمة ، ثم تصرّف فى أساليب من[1] الوعظ ، وأفانين من العلم ، باللسانين أيضا ، حرك بها القلوب حتى أطارها ، وأورثها احتداما بالخشية بعد استعارِها[2] . وفى أثناء ذلك تَرشُقه سهام من المسائل يتلقاها[3] بمِجَنّ من الجواب السريع البليغ ، فتحار له الألباب ، ويملك كل نفس منه الإغراب والإعجاب ، فكأنما هو وحى يُوحَى .

وهذا الذى مشى[4] به وُعّاظ هذه الجهات المشرقية من إلقاء المسائل إليهم ، وإضافة شآبيب الامتحان عليهم ، من أعجب الأمور المُغْرِبة عن غريب شأنهم ، والناطقة بسحر بيانهم . وليست فى فن واحد ، إنما هى فى فنون شتى . ربما[5] قُصِد بها التعنيت والتنكيب ، فيأتون بالجواب كخطفة البرق ، وارتداد الطَّرْف ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء . وبين أيدى هؤلاء الوعّاظ قرّاء يُنغِّمون بالقراءة ، فيأتون بألحان تكسب الجمادَ طربا وأَرْيَحيّة ، كأنها المزامير الداوُودِيّة . فلا تَدْرى من أى أحوال هذا المجتمع تَعْجَبُ[6] ،

---

(١) من : ليست فى ط .

(٢) ص : احتدامها بالخشية وإسعارها .

(٣) ط : فيتلقاها .

(٤) ص : منى .

(٥) ط : وربما .

(٦) ص : فلا يدرى .. يعجب .

والله يؤتى الحكمةَ من يشاء ، لا إلٰه سواه . وسمعتُ هذا الشيخ الواعظ ، يُسْنِد الحديث إلى خمسة من أجداده : جَدّ عن جَد ، نسقا مسلسلا من أبيه إليهم على اتصال ، كلهم له لقبٌ يدل على منزلته من العلم ، ومكانه[١] من التذكير والوعظ ، فهو مُعْرِق فى الصنعة الشريفة ، تَلِيدُ المجد فيها .

[البيع والشراء فى المسجد الحرام] :

وفى أيام الموسم كلها ، عاد المسجد الحرام ، نزّهه الله وشرّفه ، سوقا قائمة[٢] يُباع فيه من الرقيق[٣] إلى العتيق ، ومن البُرّ إلى الدُّرّ ، إلى غير ذلك من السلع . فكان مبيع الرقيق بدار الندوة إلى جهة باب بنى شيبة ، ومعظم السوق فى البلاط الآخذ من الغرب إلى الشمال ، وفى البلاط الآخذ من الشمال إلى الشرق ، وفى ذلك من النهى الشرعى عنه[٤] ما هو معلوم ، والله غالب على أمره ، لا إلٰه سواه .

[مغادرة مكة] :

وفى عشىّ يوم الأحد الموفى عشرين من الشهر المذكور ، وهو أول أبريل[٥] ، كان تبريزنا إلى محله [الأمير] العراقى بالزاهر ، وهو على نحو الميلين من البلد ، وقد كمل اكتراؤُنا إلى المَوْصِل ، وهى[٦] أمام بغداد بعشرة أيام ، عرّفنا الله الخير والخِيرة [بمنه] . فأقمنا بالزاهر ثلاثة أيام ، نجدّد العهد كل يوم بالبيت العتيق ، ونُعِيد وداعه . فلما كان ضحـوة يوم الخميس الثـانى

---

(١) ط : ومكانته .
(٢) ط : سوقا عظيمة .
(٣) ط : الدقيق .
(٤) عنه : ليست فى ط .
(٥) هذا التاريخ خطأ ، إذ يتضح مما مضى ويأتى من تواريخ أن ابن جبير غادر مكة يوم الثلاثاء ٢٠ ذى الحجة الموافق ٣ أبريل (رايت) .
(٦) ط : وهو .

والعشرين ، من ذى الحجة المذكور ، أقلعت المحّلة على تُؤَدة ورفق بسبب البطيء المتأخّر[١] . ونزلت على نحو ثمانية أميال من الموضع ، الذى أقلعت منه بمقربة من بطن مَرّ ، والله كفيل بالسلامة والعصمة ، بمنه .

فكانت مدة مقامنا بمكة ، قدّسها الله ، من يوم وصولنا إليها ، وهو يوم الخميس الثالث عشر لربيع الآخر من سنة تسع وسبعين ، إلى يوم إقلاعنا من الزاهر ، وهو يوم الخميس أيضا[٢] الثانى والعشرون لذى الحجة من السنة المذكورة ، ثمانية أشهر وثُلُث شهر ، التى هى[٣] بحسب الزائد والناقص من الأشهر ، مئتا يوم اثنتان وخمسة وأربعون يوما سعيدات مباركات ، جعلها الله لذاته ، وجعل القبول لها موافقا لمرضاته ، بمنه ؛ غِبْنا عن [رؤية] البيت المكرم[٤] فيها ثلاثة أيام : يوم عرفة ، وثانى يوم النحر ، ويوم الأربعاء الذى هو الحادى والعشرون لذى الحجّة ، قبل يوم الخميس يوم إقلاعنا من الزاهر ، والله لا يجعله آخر العهد بحرمه الكريم ، بمنه .

[الخواتين الثلاثة] :

ثم أقلعنا من ذلك الموضع ، إثر صلاة الظهر من يوم الخميس ، إلى « بطن مَرّ » ، وهو واد خصيب كثير النخل ، ذو عين فوّارة سيالة الماء ، تُسْقَى منها أرض تلك الناحية . وعلى هذا الوادى قُطْر متسع ، وقرى كثيرة ، وعيون ، ومنه تُجْلَب الفواكه إلى مكة ، حرسها الله . فأقمنا به يوم الجمعة لسبب عجيب ، وذلك أن الملكة خاتون بنت الأمير مسعود ملك الدُّرُوب

---

(١) ط : البطء والتأخر .
(٢) أيضا : ليست فى ط .
(٣) ص : الذى هى .
(٤) ط : الكريم .

والأرمن ، وما يلي بلاد الروم[١] ، وهي إحدى الخواتين[٢] الثلاث اللاتي وصلن للحج ، مع أمير الحاج أبي المكارم طاشْتِكِين مولى أمير المؤمنين[٣] ، الموجَّه كل عام من قِبَل الخليفة ، وله بتَوَلّي هذه الخطة نحو الثمانية الأعوام[٤] أو أزيد ، وخاتون هذه المذكورة[٥] أعظم الخَوَاتين[٢] قدرا ، بسبب عظم[٦] مملكة أبيها . والمقصود من ذكر أمرها ، أنها أُسْرِت من بطن مرّ ليلة الجمعة إلى مكة ، في خاصّة من خَدَمها وحشمها ، فتُفُقِّد موضعها يوم الجمعة المذكور ، فوجّه الأمير ثقات من خاصة أصحابه يستطلعونها في الانصراف ، وأقام بالناس منتظرا لها . فوصلت عتمةَ[٧] يوم السبت ، وأُجيلت في سبب انصراف هذه الملكة المُتْرَفة قِدَاحُ الظنون ، وسلِّطت[٨] الخواطر على استخراج سرها المكنون ؛ فمنهم من قال[٩] : إنها انصرفت أَنَفة لبعض ما انتقدتْه على الأمير ، ومنهم من قال : إن نوازع الشوق للمجاورة عطفت بها إلى المَثابة المكرمة ، ولا يعلم الغيب إلا الله . وكيفما كان الأمر[١٠] ، فقد كفى الله العطلَة بسببها ، وأطلق سبيل الحاج ، ولله الحمد على ذلك . وأبو هذه المرأة المذكورة الأمير مسعود ، كما ذكرناه . وهو في بَسْطة من ملكه ،

---

(١) هو عز الدين قليج أرسلان الثاني بن مسعود بن قليج أرسلان السلجوقي ، حكم بين سنتي ٥٥١ ــ ٥٨٨ ، وابنته تسمى سلجوقة . (٢) ط : الخواتين . وهما بمعنى واحد .

(٣) حج بالناس ٢٦ سنة ، وكان خيرا صالحا شجاعا سمحا قليل الكلام يتشيع ، ولاه الخليفة على جميع خوزستان ، توفي سنة ٦٠٢ هـ ، وقد جاوز التسعين .

(٤) ط : أعوام .

(٥) المذكورة : ليست في ط .

(٦) ط : سعة .

(٧) ص : ليلة عتمة السبت .

(٨) ط : وسلت .

(٩) ط : يقول .

(١٠) ص : الأمير . تحريف .

واتساع من إمرته ، يركب له — على ما حُقّق عندنا — أكثر من مئة ألف فارس . وصهره عليها نور الدين صاحب آمِد وما يليها[١] ويركب له أيضا نحو اثنى عشر ألف فارس . ولخاتون هذه أفعال من البرّ كثيرة فى طريق الحاجّ : منها سَقْىُ الماء للسبيل ، عيّنت لذلك نحو الثلاثين[٢] ناضِحَـة ، ومثلها للزاد ، واستجلبت لما تختصّ به[٣] من الكسوة والأزْوِدة وغير ذلك نحو مئة[٤] بعير . وأمرها يطول وصفه[٥] وسِنّها نحو خمس وعشرين سنة[٦] .

والخاتون الثانية ، أم عز الدين صاحب الموصل[٧] ، زوج [قطب الدين ابن] أتابك[٨] أخي نور الدين الذى كان صاحب الشام رحمه الله ، ولهذه أيضا[٩] أفعال كثيرة من البر .

---

(١) ط : وما سواها . وهو نور الدين محمد بن قرا آرسلان بن داود ، حكم حصن كيفا وغيره من ديار بكر بين عامى ٥٦٢ — ٥٨١ هـ . واشتهر بصداقته لصلاح الدين ، الذى أخذ آمد من ابن ينسان ووهبها له ٥٧٩ هـ . وكادت الحرب تنشب بينهما وبين مسعود لخلاف حدث بين ابنته وزوجها . وقد تزوجت بعد وفاته ٥٨١ هـ الخليفة الناصر ، وتوفيت ٥٨٤ هـ .

(٢) ط : الثلاثين .

(٣) ص : بها .

(٤) ط : المئة .

(٥) ط : وأمورها يطول وصفها .

(٦) ط : خمسة وعشرين عاما .

(٧) ص : معز الدين ، خطأ . فصاحب الموصل حينئذ هو عز الدين مسعود الأول بن قطب الدين مودود من الأتابكة ، حكمها بين عامى ٥٧٢ — ٥٨٩ . وأمه هذه ابنة تمرتاش حسام الدين بن إيلغازى بن أرتق صاحب ماردين .

(٨) ص : ثابك ، خطأ . فزوجها هو قطب الدين مودود بن زنكى ، من الأتابكة ، حكم الموصل بين عامى ٥٤٤ — ٥٦٤ ، وهو أخو نور الدين محمود الملك العادل ، الذى حكم الشام بين عامى ٥٤١ — ٥٦٩ .

(٩) أيضا: ليست فى ط .

وخاتون الثالثة ابنة الدقوس[1] صاحب أصبهان من بلاد خراسان ، وهى أيضا كبيرة ، عظيمة الشأن ، منافِسة فى أفعال البر . وشأنهن جُمَع عجيب جدا فيما هُنّ بسبيله من الخير ، والاحتفال فى الأُبّهة الملوكية .

[الرحلة إلى المدينة] :

ثم أقلعنا ظهر يوم السبت الرابع والعشرين لذى الحجة المذكور ، ونزلنا بمَقربة من « عُسْفان » ، ثم أسرينا إليها نصف الليل ، وصبحناها بكرةَ يوم الأحد . وهى فى بسيط من الأرض بين جبال ، وبها آبار مَعينة إحداها[2] تُنسب لعثمان رضى الله عنه ، وشجر المُقْل فيها كثير ، وبها حصن عتيق البنيان ، ذو أبراج مشيدة غير معمور ، قد أثر فيه القدم ، وأوهته قلة العمارة ولزوم الخراب فاجتزناها بأميال ، ونزلنا مُرِيحين قائلين .

فلما كان إثر صلاة الظهر ، أقلعنا إلى « خُلَيص » فوصلناها عشىّ النهار . وهى أيضا [فى] بسيط من الأرض ، كثيرة حدائق النخل ، لها حصن مشيد فى قُنة جبل[3] . وفى البسيط حصن آخر قد أثر فيه الخراب . وبها عين فوّارة ، قد أُحْدثت لها أخاديد فى الأرض ، مُسَرَّبة يُستسقى الماء[4] على أفواه كالآبار ، يجدّد الناس بها الماء لقلّته فى الطريق ، بسبب القحط المتصل ، والله يُغيث بلاده وعباده . وأصبح الناس يوم الاثنين بها مقيمين[5] ، لإرْوَاء الإبل ، واستصحاب الماء .

---

(١) كذا فى ص ، ويريد إيلدكَز شمس الدين أتابك ، الذى حكم أذربيجان وبلاد الجبل وهمذان وأصبهان وغيرها بين عامى ٥٣١ — ٥٦٨ .

(٢) إحداها : ليست فى ط .

(٣) ط : لها جبل فيه حصن مشيد فى قنته .

(٤) ط : يستقى منها .

(٥) ط : بها مقيمين يوم الاثنين .

وبهذه المحلة[١] العراقية ومَن انضاف إليها من الخراسانية والمَواصِلة ، وسائر جهات الآفاق [من] الواصلين صحبة أمير الحاجّ المذكور ، جمعٌ لا يحصى عددَه إلا الله عز وجلَ[٢] ، يغصّ بهم البسيطُ الأفيح ، ويضيق عنهم[٣] المَهْمَه الصَّحْصَح ، فترى الأرض تميد بهم مَيْدا ، وتموج بهم[٤] موجا ، فتُبْصِر منهم[٥] بحرا طامىَ العباب ، ماؤه السراب ، وسُفُنه[٦] الركاب ، وشُرُعها الظلائل[٧] المرفوعة والقباب ، تسير سير السحب المتراكمة ، يتداخل[٨] بعضها على بعض ، ويضرب بعضها جوانبَ بعض ، فتُعاين لها تزاحُما فى البَرَاح المنفسح يهول ويروع ، واصطكاكا كا نَبْعُ المحارات[٩] فيه بعضه ببعض مقروع ، فمن لم يشاهد هذا السفر العراقى ، لم يشاهد من أعاجيب الزمان ما يحدّث[١٠] به ، ويُتْحِف المسامع بغرابته[١١] ، والقدرة والقوة لله وَحْدَه ، وحسبُك أن النازل فى منزل[١٢] من منازل هذه المحلة ، متى خرج عنها لبعض حاجته[١٣] ، ولم تكن له دلالة يستدل بها على موضعه ، ضلّ وتَلِف ، وعادِ مَنْشُودا فى جملة الضَّوَالّ ، وربما اضطرته الحال إلى الوصول إلى مضرب الأمير ، ورفع مسألته إليه ، فيأمر أحدَ المنشدين

(١) كذا ش ١ : ٩٣ . وفى ص : وهذه الجملة.
(٢) ش : عددهم . ط : تعالى .
(٣) ش : بهم . والمهمه : الصحراء البعيدة . والصحصح : ما استوى من الأرض .
(٤) ط : بجميعهم . ش : بجمعهم .
(٥) ش : فتصير بهم .
(٦) ش : وسفينه .
(٧) ط : وشرعه . ش : وشراعه الظلال .
(٨) ش : سير السحب متداخلا .
(٩) النبع : شجر صلب تتخذ منه السهام والقسي
(١٠) ش : يتحدث .
(١١) ط : السابع . ش : السامع بغرائبه .
(١٢) خ : منازل .
(١٣) ط : حاجة . ش : حاجاته .

بَريحه[١] ، والهاتفين بأوامره ، ممن قد أعد لذلك ، أن يُرْدِفه خلفه على جمل ، ويطوف به المحلّة العَجّاجة ، وهو قد ذكر له [اسمَه ، و] اسم جَمّاله ، واسم البلد الذى هو منه . فيَرفع عقيرته بذلك ، مُعرِّفا بهذه الضالة[٢] ، ومناديا باسم الجمّال[٣] وبلده ، إلى أن يقع عليه ، فيؤدّيه إليه[٤] . ولو لم يفعل ذلك لكان آخرَ عهده بصاحبه ، إلا أن[٥] يلتقطه التقاطا ، أو يقع عليه اتفاقا . فهذا من بعض عجائب شئون هذه المحلة ، وعجائبها أكثر من أن يحيط بها الوصف . ولأهلها من قوة الجِدَة واليسار ، ما يعينهم على ما هم بسبيله ، والمُلك بيد الله يؤتيه من يشاء .

وهؤلاء النسوة الخواتين فى كل عام ، إذا لم يحججن بأنفسهن ، نَوَاضِحُ مُسَبّلة مع الحاجّ يُرْسِلنها مع ثقات يسقون أبناء السبيل ، فى المواضع المعدوم[٦] فيها الماء ، وفى الطريق كله ، وبعرفات ، وبالمسجد الحرام ، فى كل يوم وليلة ، فلهنَّ فى ذلك أجر عظيم ، وما التوفيق إلا بالله جل جلاله . فتسمع المنادى على النواضح يرفع صوته بالماء للسبيل ، فيُهْطِع إليه المُرْمِلون[٧] من الزاد والماء بقِرَبهم وأباريقهم فيملئونها ، ويقول المنادى فى إشادته بصوته : « أبقى الله الملكة خاتون ، ابنة الملك الذى من أمره كذا ، ومن شأنه كذا » . ويُحَلِّيه بِحَلاه[٨] ، إعلانا باسمها ، وإظهارا لِفعلها ، واستجلابا للدعاء لها من الناس ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا . وقد تقدم تفسير هذه اللفظة

---

(١) البريح : الإعلان والدعاء ، وهى عامية . (٢) ط : بهذا الضال .

(٣) ش : جماله . (٤) ش : إلى رفقته .

(٥) ص : إلى أن . (٦) ط : المعروف .

(٧) يهطع : يسرع . المرملون : الذين نفد زادهم . (٨) يحليه : يصفه . وحلاه : صفاته .

الخاتونية[١] ، وأنها عندهم بمنزلة السيدة ، وما[٢] يليق بهذا اللفظ الملوكى النسائى .

ومن عجائب[٣] هذه المحلة أيضا ، على عظمها وكِبرها ، وكونها وجودَ دُنْيا بأسرها ، أنها إذا حطت رحالها ، ونزلت منزلها ، ثم ضرب الأمير طبل الإنذار[٤] بالرحيل ويسمونه الكُوس ، لم يكن بين استقلال الرواحل بأَوْقَارها [ورِحَالها] ورُكَّابها إلا كَلا ولا ، فلا يكاد يفرُغ النّاقِر من الضربة الثالثة إلا والركائب قد أخذت سبيلها . كلٌّ ذلك من قوّة الاستعداد ، وشدة الاستظهار على الأسفار ، والحول والقوة لله وحده ، لا إلـٰه سواه . وإسراؤُها بالليل بمشاعل[٥] موقَدة ، يمسكها الرَّجّالة بأيديهم ، فلا تبصر قشاوة من القشاوات إلا وأمامها مشعل ، فالناس يسيرون منها بين كواكب سيارة ، توضح غَسَق الظلماء ، وتباهى بها الأرضُ أنجمَ السماء . والمرافق الصناعية وسواها من المصالح المدنية[٦] والمنافع الحيوانية ، كلها موجودة بهذه المحلة غير معدومة ، ووصفها يطول ، والأخبار عنها لا تنحصر .

فلما كان إثر صلاة الظهر من يوم الاثنين المذكور[٧] ، أقلعنا من « خُلَيْص » [مرتحلين] ، وتمادى السير بنا[٨] إلى العشاء الآخرة ، ثم نزلنا ونمنا نومة خفيفة . ثم ضُرِب الكوس فأقلعنا ، وأسرينا إلى ضحى من النهار ، ثم نزلنا مُرِيحين إلى أول الظهر من يوم الثلاثاء . ثم أقلعنا من منزلنا ذاك[٩] إلى واد

---

(١) ط : خاتون . (٢) ط : أو ما .

(٣) ط : عجيب . (٤) ط : طبله للإنذار .

(٥) ط : بمشاعيل . (٦) ط : وغيرها من المصالح الدينية .

(٧) ط : كان ظهر يوم الاثنين إثر الصلاة . (٨) ط : سيرنا .

(٩) ط : ذلك .

يعرف « بوادى السمك » ، اسم يكاد يكون واقعا على غير مسمى ، فنزلناه مع العشاء الآخرة . وأصبحنا به مقيمين يوم الأربعاء ، لتجديد حمل الماء ، وهو بهذا الوادى [فى] مستنقعات ، وربما حُفِر عليه فى الرمل . فأقلعنا منه أول الظهر[١] يوم الأربعاء المذكور ، ثم أجزنا مع الليل عقبة مُحجَّرة كئودا ، ذهب فيها من الجِمال كثيرٌ . ونزلنا فى بسيط من الأرض ، ونِمْنا إلى نصف الليل . ثم رحلنا فى مَهْمَه أفيح بسيط ، [ممتد] مَدَّ البصر ، ورملة مُنْثَالة[٢] . فمشت الجمال فيه دون مُقَطَّرة[٣] لانفساح طريقها .

ثم نزلنا مُريحين قائلين يوم الخميس التاسع والعشرين من ذى الحجة ، وبيننا وبين « بَدْر » مقدار مرحلتين . فلما كان أول الظهر ، رحلنا إلى مقربة من « بدر » ، فنزلنا بائتين . ثم قمنا قبل نصف الليل ، فوصلنا « بدرا » ، وقد ارتفع النهار . وهى قرية فيها حدائق نخل متصلة ، وبها حصن فى ربوة مرتفعة ، ويُدْخَل إليها على بطن واد بين جبال . وببدر عين فوّارة جارية[٤] ، وموضع القَلِيب الذى كانت بإزائه الوقعة الإسلامية[٥] ، التى أعزت الدين وأذلت المشركين ، هو اليوم نخيل . وموضع الشهداء خلفه ، وجبل الرحمة الذى نزلت به[٦] الملائكة عن يسار الداخل منها إلى الصفراء ، وبإزائه « جبل الطُّبول » ، وهو شبيه كثيب رمل ممتد . وهذه التسمية لإشاعةٍ لَهِج بها أكثر الناس[٧] ، وذلك أنهم يزعُمون أن أصوات الطبول تُسْمَع به[٨] كل [يوم]

---

(١) ط : ظهر .

(٢) ص : ذو رحلة ميتالينه .

(٣) ط : فيها . ومقطرة : فى قطار ، أى بعضها وراء بعض .

(٤) جارية : ليست فى ط .

(٥) ط : الذى كان . ص : الوقيعة .

(٦) ط : فيه .

(٧) ط : المسلمين .

(٨) ط : بها .

جمعة ، كأنها آثار إنذار باقية ، بما سلف من النصر النبوى فى ذلك الموضع ، والله أعلم بغيبه . وموضع عَرِيش النبى ﷺ ، يتصل بسفح جبل الطبول المذكور ، وموضع الوقيعة أمامه . وعند نخيل القليب مسجد ، يقال : إنه مَبْرك ناقة النبى ﷺ . وصح عندنا ، على زعمة أحد الأعراب الساكنين « ببدر » ، أنهم يسمعون أصوات الطبول بالجبل المذكور ، لكن عَيَّن لذلك كلَّ يوم اثنين ويوم[1] خميس . فعجبنا من زعمه كلّ العجب ، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا الله عز وجل[2] . وبين « بدر » و« الصفراء » بريد ، والطريق إليها فى وادٍ بين جبال تتصل بها حدائق النخيل ، والعيون فيه كثيرة ، وهو طريق حسن . و« بالصَّفراء » حصن مشيد ، ويتصل به حصون كثيرة : منها حصنان يعرفان بالتوءمين ، وحصن يعرف بالحَسنية ، وآخر يعرف بالجديد ، إلى حصون كثيرة ، وقرى متصلة .

شهر محرَّم سنة ثمانين وخمس مئة ، عرَّفنا الله بركته وبركة سَنَته وخصّنا فيها[3] برحمته ، وتكفلنا بعصمته

استهلَّ هلاله ليلة السبت بموافقة الرابع عشر لشهر أبريل ، ونحن مُقْلِعون من « بدر » إلى « الصفراء » ، فبِتْنَا باستهلاله بهذه البقعة الكريمة : « بدر » ، حيث نصر الله المسلمين ، وقهر المشركين ، والحمد لله على ذلك . وكان نزولنا « بالصفراء » إثرَ صلاة العشاء الآخرة . فأصبحنا يوم السبت ، مستهلّ

---

(١) ص : وكل يوم .
(٢) ط : تعالى .
(٣) ط : فيه ، أى شهر محرم .

الهلال المذكور ، مقيمين مريحين بها ، ليتزوّد الناس منها الماء ، ويأخذوا نَفَس استراحة إلى الظهر . ومنها إلى « المدينة المكرمة » إن شاء الله ثلاثة أيام . فأقلعنا منها ظهر يوم السبت المذكور ، وتمادى السير بنا إلى إثر صلاة العشاء الآخرة . والطريق فى واد متصل بين جبال ، فنزلنا ليلة الأحد ، ثم أقلعنا نصف الليل ، وتمادى سيرنا إلى ضحى من النهار . فنزلنا مريحين قائلين « ببئر ذات العَلَم »[١] ، ويقال : إن على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، قاتَل بها[٢] الجنّ ، وتعرف أيضا « بالرَّوْحاء » . والبئر المذكورة متناهية بُعْد الرِّشاء[٣] ، يكاد[٤] لا يُلْحَق قعرها ، وهى مَعِينة .

ثم رحلنا[٥] منها إثر صلاة الظهر من يوم الأحد ، وتمادى بنا السير إلى إثر صلاة العشاء الآخرة ، فنزلنا « شِعْبَ على » رضى الله عنه . وأقلعنا منه نصف الليل إلى « تُرْبان » ، إلى « البَيْداء » ، ومنها تُبْصَر[٦] « المدينة المكرمة » . فنزلنا ضحى يوم الاثنين الثالث لمحرّم المذكور « بوادى العَقِيق » ، وعلى شَفِيره[٧] مسجد ذى الحُلَيْفة ، من حيث أحرم رسول الله ﷺ ، والمدينة من هذا الموضع على خمسة أميال ، ومن ذى الحليفة حَرَمُ المدينة إلى مشهد حمزة ، إلى قُبَاء . وأوّل ما يظهر للعين منارةُ مسجدها بيضاء مرتفعة . ثم رحلنا منها إثر صلاة الظهر ، من يوم الاثنين المذكور ، وهو السادس عشر لأبريل ، فنزلنا بظاهر المدينة الزهراء ، والتربة البيضاء ، والبقعة المشرفة بمحمد سيد الأنبياء ، ﷺ صلاة تتصل مع الأحيان والآناء .

---

(١) انظر السمهودى ٢٦١ .

(٢) ط : الجن بها .

(٣) الرشاد : حبل البئر .

(٤) ط : لا يكاد .

(٥) ط : ورحلنا .

(٦) ص : ومنها إلى تبصر . تحريف .

(٧) الشفيرة : الحافة .

وفى عشىّ ذلك اليوم دخلنا الحرم المقدس ، لزيارة الروضة المكرّمة المطهّرة فوقفنا بإزائها مُسلِّمين ، ولتّرب جنباتها المقدَّسة مُستلِمين ، وصلينا بالروضة التى بين القبر المقدَّس والمنبر ، واستلمنا أعواد المنبر القديمة التى كانت موطئ الرسول ﷺ ، والقطعة الباقية من الجذع الذى حَنَّ(١) إليه ﷺ ، وهى مُلْصَقة فى عمود قائم أمام الروضة الصغيرة التى بين القبر والمنبر ، وعن يمينك إذا استقبلتَ القبلة فيها . ثم صلينا صلاة المغرب مع الجماعة . وكان من الاتّفاق السعيد لنا أن وجدنا بعضَ فُسْحة فى تلك الحال ، لاشتغال الناس بإقامة مضاربهم ، وترتيب رحالهم ، فتمكّنا من الغرض المقصود ، وفُزْنا بالمشهد المحمود ، وأدّينا حق السلام على الصاحبَيْن الضّجيعَيْن : صِدّيق الإسلام وفاروقه . وانصرفنا إلى رحالنا مسرورين ، ولنعمة الله علينا شاكرين . ولم يبقَ لنا أمل من آمال وجهتنا المباركة [ولا وطر] إلا وقد قضيناه ، ولا غرض من أغراضنا المأمولة إلا وبُلِّغْناه ، وتفرّغت الخواطر للإياب للوطن(٢) ، نَظَم الله الشمل ، وتمم علينا الفضل ، والحمد لله رب العالمين(٣) على ما أَوْلاه وأَسْداه ، وأعاده من صُنعه الجميل(٤) وأبداه ، فهو أهل الحمد [والشكر] ومُستحِقُّه لا إلٰه سواه .

---

(١) قال البخارى (كتاب المناقب ٢٥) : « كان النبى — ﷺ — يخطب إلى جذع . فلما اتخذ المنبر تحول إليه ، فحن الجذع . فأتاه فمسح يده عليه » . وحن : أصدر صوتا ضعيفا . وروى الحديث فى كتب الحديث المختلفة .

(٢) ص : للإياب والوطن .

(٣) رب العالمين : ليست فى ط .

(٤) ط : من جميل صنعه .

ذكر مسجد رسول الله ﷺ

وروضته[1] المقدّسة المطهرة

المسجد المبارك مستطيل ، وتحفّه من جهاته الأربع بلاطات مستديرة به ، ووسطه كلّه صحن مفروش بالحصى والرمل[2] ، فالجهة القبلية منها لها خمسة[3] بلاطات مستطيلة من غرب إلى شرق ، والجهة الجوفية لها أيضا خمسة بلاطات على الصفة المذكورة ، والجهة الشرقية لها ثلاثة بلاطات ، والجهة الغربية لها أربعة بلاطات .

والروضة المقدسة مع آخر الجهة القبلية مما يلى الشرق ، وانتظمت من بلاطاته مما يلى الصحن فى السعة اثنين ، ونيّفت إلى البلاط الثالث بمقدار أربعة أشبار ، ولها خمسة أركان بخمس صفحات ، وشكلها شكل عجيب ، لا يكاد يتأتّى تصويره ولا تمثيله ، والصفحات الأربع محرّفة عن[4] القبلة تحريفا بديعا ، لا يتأتّى معه لأحد[5] استقبالها فى صلاته ، لأنه ينحرف عن القبلة . وأخبرنا الشيخُ الإمام ، العالم الورع ، بقية العلماء ، وعمدة الفقهاء ، أبو إبراهيم إسحاق ابن إبراهيم التونسى رضى الله عنه ، أن عمر بن عبد العزيز ، رضى الله عنه ، اخترع ذلك فى تدبير بنائها ، مخافةَ أن يتخذها الناس

---

(1) ط : وذكر روضته . (2) ط : بالرمل والحصى .

(3) ش ٢ : ١٥٢ : خمس ، وكذلك فيما يلى . والمفرد عنده : بلاطمة .

(4) ط : من . (5) ط : لأحد معه .

قبلة[١] ومصلّى . وأخذَتْ أيضا من الجهة الشرقية سعةَ بلاطين . فانتظم داخلها من أعمدة الأبْلِطة ستةً . وسعةُ الصفحة القبليّة منها أربعة وأربعون[٢] شبرا ، وسعة الصفحة الشرقيّة ثلاثون[٣] شبرا ، وما بين الركن الشرق إلى الركن [الجوفى][٤] صفحة ، سعتُها خمسة وثلاثون شبرا . ومن الركن الجوفى إلى الغربى صفحة سعتُها تسعة[٥] وثلاثون شبرا . ومن الركن الغربى[٦] إلى القبليّ [صفحة سعتها][٧] أربعة وعشرون شبرا . وفى هذه الصفحة صندوق آبنوس ، مُختّم بالصندل ، مصفّح بالفضّة ، مُكَوْكَب بها[٨] ، هو قبالَة رأس النبى ﷺ ، وطوله خمسة أشبار ، وعرضه ثلاثة أشبار ، وارتفاعه فى الهواء[٩] أربعة أشبار . وفى الصفحة التى بين الركن الجوفى والركن الغربى ، موضع عليه ستر مُسْبَل ، يقال : إنه كان مهبط جبريل عليه السلام[١٠] . فجميع سعة الروضة المكرمة ، من جميع جهاتها ، مئة[١١] شبر واثنان وسبعون شبرا . وهى مؤزَّرة بالرخام البديع النحت ، الرائق[١٢] النعت . وينتهى الإزار منها إلى نحو الثلث ، أو أقل يسيرا ، وعليه من الجدار المكرم ثلث آخر ، قد علاه تضميخ المسك والطيب مقدار نصف شبر ، مسودّا ، مشققا ، متراكما[١٣] مع طول الأزمنة والأيام . والذى يعلوه

---

(١) قبلة : ليست فى ط .

(٢) ش : أربعة وأربعون .

(٣) ط : أربعة وعشرون .

(٤) الجوفى : ليست فى ص . وفى ش هنا وفيما يلى : الجنوبى .

(٥) هـ : خمسة .

(٦) خـ : العراق .

(٧) ما بين المعقوفين زيادة عن ش .

(٨) انظر السمهودى ١٥٢ .

(٩) فى الهواء : ليست فى ط .

(١٠) انظر السمهودى ١٥٣ .

(١١) مئة : كذا فى ص ، ش : وفى ط : مئتا . وهو خطأ .

(١٢) ط : الزائع .

(١٣) ش : متراكبا مشققا .

من الجدار شبابيك عود ، متصلة بالسَّمْك الأعلى ، لأنّ أعلى الروضة المقدسة[١] متّصل بسَمْك المسجد ، وإلى حيّز إزار الرخام تنتهى الأستارُ ، وهى لا زورديّة اللون ، مختّمة بخواتيم بيض مثمّنة ومربّعة . وفى داخل الخواتيم دوائر مستديرة ، ونُقَط بيض تحفّ بها ، فمنظرها منظر[٢] بديع الشكل . وفى أعلاها رسم مائل إلى البياض . وفى الصفحة القبلية ، أمام وجه النبى ﷺ ، مسمارُ فضّة ، هو قبالة الوجه المكرم[٣] فيقف الناس أمامه للسلام[٤] . وإلى قدميه ﷺ ، رأس أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ورأس عمر الفاروق رضى الله عنه[٥] مما يلى كتفى أبى بكر الصديق رضى الله عنه[٦] . فيقف المسلّم مُستدبِرَ القبلة ، ومُستقبِلَ الوجه الكريم ، فيسلّم ثم ينصرف [يمينا] إلى وجه أبى بكر ، ثم إلى وجه عمر رضى الله عنهما . وأمام هذه الصفحة المكرمة نحو العشرين قنديلا ، معلقة من الفضة ، وفيها اثنان من ذهب . وفى جوفىّ الروضة المقدسة حوض صغير مرخّم ، فى قبلته شكل محراب ، قيل : إنه كان بيت فاطمة رضى الله عنها ، ويقال : هو قبرها ، والله أعلم بحقيقة ذلك .

وعن يمين الروضة المكرمة المنبر الكريم ، ومنه إليها اثنتان وأربعون خطوة ، وهو فى الحوض المبارك وطوله أربع عشرة خطوة ، وعرضه ست خُطا ، وهو مُرخَّم كله ، وارتفاعه شبر ونصف ، وبينه وبين الروضة

---

(١) ط : المباركة . (٢) زادت ب هنا : رائق .

(٣) ط : أمام الوجه الكريم . وانظر بط ١ : ٢٦٤ .

(٤) ص : فى السلام . (٥) رضى الله عنه : ليست فى ط .

(٦) ط : عنهما .

الصغيرة — التى بين القبر الكريم والمنبر ، وفيها الأثر إنها روضة من رياض الجنة[١] — ثمان خطوات . وفى هذه الروضة يتزاحم الناس للصلاة ، وحُقّ لهم ذلك . وبإزائها بجهة[٢] القبلة عمود ، يقال : إنه مُطبِق[٣] على بقية الجذع الذى حنّ للنبى ﷺ ، وقطعة منه فى وسط العمود ظاهرة ، يقبّلها الناس ، ويبادرون للتبرّك بلمسها ومسح خدودهم فيها ، وعلى حافتها فى القبلة منها الصندوق . وارتفاع المنبر الكريم نحو القامة أو أزيد ، وسعته خمسة أشبار ، وطوله خمس خطوات ، وأدراجه ثمانية ، وله باب على هيئة الشبّاك مقفَل ، يُفتَح يوم الجمعة ، وطوله أربعة أشبار ونصف شبر . والمنبر مُغشى بعود الأبنوس ، ومقعد الرسول ﷺ من أعلاه ظاهر ، وقد طُبِّق عليه لوح[٤] من الأبنوس غير[٥] متّصل به ، يصونه من القعود عليه ، فيُدْخِل الناس أيديهم إليه ، ويمسحونه بها[٦] تبركا بلمس ذلك المقعد الكريم . وعلى رأس رِجل المنبر اليمنى[٧] ، حيث يضع الخطيب يدَه إذا خطب ، حلقةُ فضة مجوّفة مستطيلة[٨] ، تشبه حلقةَ الخياط التى يضعها فى إصبعه صفةً لا صغرا ، لأنها أكبر منها ، لاعبة تستدير فى موضعها ، يزعم الناس أنها كانت لعبة الحسن[٩] والحسين رضى الله عنهما ، فى حال خُطْبة جدّهما صلوات الله

---

(١) ط عن ش : جاء الأثر . ونص الأثر : « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة ، ومنبرى على حوضى » . أخرجه البخارى ومسلم وابن حنبل . وانظر القرى لقاصد أم القرى ٦٣١ .

(٢) ط : لجهة .

(٣) خـ : عمود مطبق .

(٤) ط : لوح .

(٥) غير : ليست فى خـ .

(٦) ط : ويتمسحون به .

(٧) كذا فى ط عن ش . وفى خـ ، ص : الأيمن .

(٨) مستطيلة : ليست فى ط .

(٩) كانت : ليست فى ط .

وسلامه عليه .

وطول المسجد الكريم مئة خطوة وست وتسعون خطوة ، وسعته مئة وست وعشرون خطوة ، وعدد سواريه مئتان وتسعون ، وهى أعمدة متّصلة بالسَّمْك دون قِسِيّ تنعطف عليها ، فكأنها دعائم قوائم ، وهي من حجر منحوت قِطَعا قِطَعا ململمة مثقّبة[١] ، توضع أنثى فى ذكر ، ويُفْرَغ بينهما الرصاص [المذاب][٢] إلى أن تتصل عمودا قائما ، وتُكْسَى بغلالة جَيّار[٣] ، ويبالَغ فى صقلها ودَلْكها ، فتظهر كأنها رخام أبيض ، والبلاط المتصل بالقبلة من الخمس البلاطات[٤] المذكورة ، تحف به مقصورة تكتنفه طولا من غرب إلى شرق ، والمحراب فيها . ومصلّى[٥] الإمام فى الروضة الصغيرة المذكورة التى على جانبها[٦] الصندوق ، وبينها وبين روضة القبر المقدس محمل كبير[٧] مدهون ، عليه مصحف كبير فى غشاء مُقفَل عليه ، هو أحد المصاحف الأربعة التى وجّه بها عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى البلاد . وبإزاء المقصورة لجهة[٨] الشرق خزانتان كبيرتان ، محتويتان[٩] على كتب ومصاحف ، موقفة[١٠] على المسجد المبارك .

ويليهما فى البلاط الثانى لجهة الشرق أيضا دفة مطبقة على وجه الأرض مقفلة ، هى على سرداب يُهبَط إليه على أدراج تحت الأرض ، فيفضى[١١] إلى

---

(١) ش : مثقوبة .

(٢) المذاب : زيدت من ش .

(٣) ش : جير .

(٤) ط : بلاطات .

(٥) ط : ويصلى .

(٦) خـ : جانبها . ط : المذكورة إلى جانب الصندوق .

(٧) ط : الروضة والقبر . ش : وبين الروضة الكبيرة .. محمل .

(٨) ط : إلى جهة .

(٩) خـ ، ب : تحتوى .

(١٠) ط : موقوفة .

(١١) ط : يفضى .

خارج المسجد إلى دار أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وهو كان طريق عائشة إليها . وبإزائها دار عمر بن الخطاب ، ودار ابنه عبد الله رضى الله عنهما . ولا شك أن ذلك الموضع هو موضع الخَوْخة المُفْضِيـة لدار أبى بكر ، التى أمر النبى ﷺ بإبقائها خاصّة .

وأمام الروضة المقدسة أيضا صندوق كبير ، هو للشمع والأنوار التى توقَد أمام الروضة كلّ ليلة . وفى الجهة الشرقية بيت مصنوع من عود ، هو موضع مبيت بعض السَّدَنة الحارسين للمسجد المبارك ، وسدنته فتيان أحابيش وصقالب[1] ، ظِراف الهيئات ، نظاف الملابس والشّارات ، والمؤذّن الرّاتِب فيه أحد أولاد بلال رضى الله عنه . وفى جهة جوف[2] الصحن قبة كبيرة مُحْدَثة جديدة ، تُعرَف بقبة الزيت ، هى مخزن لجميع آلات المسجد المبارك ، وما يحتاج إليه فيه . وبإزائها فى الصحن خمس عشرة نخلة . وعلى رأس المحراب ، الذى فى جدار القبلة داخل المقصورة ، حجر مربّع أصفر ، قدر شبر فى شبر ، ظاهر البريق والبصيص ، يقال : إنه كان مرآة كسرى ، والله الأعلم[3] بذلك . وفى أعلى ذلك[4] المحراب مسمار مُثْبَت فى جداره ، فيه شبه حُقٍّ صغير ، لا يعرف من أى شيء هو ، ويُزْعَم أيضا أنه كان كأس كسرى ، والله أعلم بحقيقة هذا[5] كله .

ونصف جدار القبلة الأسفل رخام ، موضوع إزارا على إزار ، مختلف الصنعة واللون ، مجزّع أبدعَ تجزيع . والنصف الأعلى من الجدار منزّل[6]

---

(١) ص : أحابيش صقالب .
(٢) ص : جوف .
(٣) ط : أعلم .
(٤) ط : وفى أعلاه داخل .
(٥) ط : ذلك .
(٦) ش : مزين .

كله بفصوص الذهب المعروفة[١] بالفسيفساء ، قد أنتج الصنّاع فيه نتائج غريبة[٢] من الصنعة ، تضمّنت تصاوير أشجار مختلفات[٣] الصفات ، مائلة[٤] الأغصان بثمرها . والمسجد كله على تلك الصفة[٥] ، لكن الصنعة فى جدار القبلة أحفل . والجدار الناظر إلى الصحن من جهة القبلة كذلك ، ومن جهة الجوف أيضا . والغربى والشرقى الناظران إلى الصحن أيضا مجرّدان أبيضان مُقَرْنَصان[٦] ، قد زُينا برسم يتضمّن أنواعا من الأصبغة ، إلى ما يطول وصفه وذكره من الاحتفال في هذا المسجد المبارك ، المحتوى على التربة الطاهرة المقدسة ، وموضوعها أشرف ، ومحلها أرفع من كل ما تزيَّن به .

وللمسجد المبارك تسعة عشر بابا ، لم يبق منها مفتّحا[٧] سوى أربعة فى الغرب : منها اثنان ، يعرف الواحد بباب الرحمة ، والثانى بباب الخَشْية[٨] ؛ وفى الشرق اثنان ، يعرف الواحد بباب جبريل عليه السلام ، والثانى بباب الرَّجاء[٩] . ويقابل بابَ جبريل عليه السلام دارُ عثمان رضى الله عنه ، وهى التى استُشهد بها . ويقابل الروضةَ المكرمة ، من هذه الجهة الشرقية ، روضةُ جمال الدين الموصلى [رحمه الله] ، المشهور خبرُه وأثره ، وقد تقدَّم ذكره وذكر[١٠] مآثره . وأمام الروضة المكرّمة شبّاك حديد ، مفتوح إلى روضته ،

---

(١) خـ : من الذهب المعروف .
(٢) ط : من الصنعة غريبة .
(٣) ش : مختلفة .
(٤) ب ، ص : مائلات .
(٥) خـ : الصنعة .
(٦) أيضا : ليست فى ط . خـ : أيضا مجددان . ط : ومقرنصان .
(٧) ش : مفتوحا .
(٨) انظر السمهودى ١٧٩ .
(٩) كذا فى ص ، خـ ، وفى ش : الرجاء ، وهى أليق بالمقام . وسماه السمهودى : باب النساء .
(١٠) ذكره : ليست فى ط .

تتنسَّم منها رَوْحا وريحانا . وفى القبلة باب صغير واحد صغير[١] مغلق ، وفى الجوف أربعة مغلقة ، وفى الغرب خمسة مغلقة أيضا ، وفى الشرق خمسة أيضا مغلقة ؛ فكملت بالأربعة المفتوحة تسعة عشر بابا . وللمسجد المبارك ثلاث صوامع : إحداها فى الركن الشرقى المتصل بالقبلة ، والاثنتان[٢] فى ركنَى الجهة الجوفية[٣] صغيرتان كأنهما على هيئة برجين ، والصومعة الأولى المذكورة على هيئة الصوامع .

ذكر المَشاهد المكرمة التى ببَقِيع الغَرْقد وصَفْح[٤] جبل أُحُد

فأول ما نذكر من ذلك مسجد حمزة رضى الله عنه ، وهو بقبْلِىّ الجبل المذكور ، والجبل جوفىّ المدينة ، وهو على مقدار ثلاثة أميال منها[٥] . وعلى قبره رضى الله عنه مسجد مبنى . والقبر برَحْبة جوفىّ المسجد ، والشهداء رضى الله عنهم بإزائه . والغار الذى أوى إليه النبى ﷺ بإزاء الشهداء ، أسفل الجبل . وحول الجبل[٦] تربة حمراء ، هى[٧] التربة التى تُنْسَب إلى حمزة ، ويتبرّك بها[٨] الناس .

وبَقِيع الغرقد شرقى المدينة ، تخرج إليه على باب يعرف بباب البقيع ،

---

(١) صغير : ليست فى ط .
(٢) ص : واثنتان .
(٣) ش ثانية : الجنوبية .
(٤) ص : بسفح .
(٥) منها : ليست فى ط .
(٦) ط : وحول الشهداء .
(٧) ص : وهى .
(٨) ط : الناس بها .

وأول ما تلقى على[1] يسارك عند خروجك ، من الباب المذكور ، مشهد صَفِيّة عمة النبى ﷺ ، أم الزبير بن العوام رضى الله عنه . وأمام هذه التربة قبر مالك بن أَنَس ، الإمام [المدنىّ] رضى الله عنه ، وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء . وأمامه قبر السلالة الطاهرة النبوية[2] ، إبراهيم بن النبى ﷺ ، وعليه قبة بيضاء . وعلى اليمين منها تربة ابن لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، اسمه عبد الرحْمن الأوسط ، وهو المعروف بأبى شَحْمة ، وهو الذى جَلَده أبوه الحَدّ ، فمرض ومات رضى الله عنهما . وبإزائه قبر[3] عَقِيل بن أبى طالب ، وعبد الله ابن جعفر الطيّار رضى الله عنهما[4] . وبإزائهم روضة فيها أزواج النبى ﷺ . وبإزائها روضة صغيرة ، فيها ثلاثة من أولاد النبى ﷺ . ويليها روضة العباس بن عبد المطلب ، والحسن بن على رضى الله عنهما[5] ، وهى قبة مرتفعة فى الهواء ، على مقربة من باب البقيع المذكور ، وعن يمين الخارج منه ، ورأس الحسن إلى رجلى العباس رضى الله عنهما ، وقبراهما مرتفعان عن الأرض ، متّسعان مُغشّيان بألْواح ملصقة أبدعَ إلصاق ، مرصّعة بصفائح الصُّفْر ، ومكوكَبة بمسامير[6] على أبدع صفة ، وأجمل منظر . وعلى هذا الشكل قبر إبراهيم ابن النبى ﷺ . [ويلى هذه القبة العباسية بيت يُنْسَب لفاطمة بنت الرسول ﷺ] ، ويعرف ببيت الحُزْن ، يقال : إنه الذى أوت إليه فاطمة رضى الله عنها[7] ، والتزمت الحزنَ فيه عند وفاة[8] أبيها المصطفى

---

(١) ط : عن .

(٢) النبوية : ليست فى ط .

(٣) قبر : مزيدة من ش ٢ : ٣٤ .

(٤) ص : عنهم . ط : بن أبى طالب رضى الله عنه ، وعبد الله .. عنه .

(٥) ص : عنهم .

(٦) ب : بمساميره . خـ : مساميره . ش : مسكوكة بمسامير .

(٧) فاطمة رضى الله عنها : ليست فى ط .

(٨) ط : فيه الحزن على موت .

ﷺ . وفى آخر البقيع قبر عثمان الشهيد المظلوم ، ذى النُّورين رضى الله عنه ، وعليه قبة صغيرة[1] مختصرة . وعلى مقربة منه مشهد فاطمة ابنة أسد ، أمّ على رضى الله عنها وعن بنيها .

ومشاهد هذا البقيع أكثر من أن تُحصَى ، لأنه مدفن الجمهور الأعظم من الصحابة المهاجرين والأنصار ، رضى الله عنهم أجمعين . وعلى قبر فاطمة المذكور[2] مكتوب : « ما ضمَّ قبر أحد[3] كفاطمة بنت أسد » رضى الله عنها وعن بنيها .

وقُبَاء قبلىّ المدينة ، ومنها إليها نحو الميلين . وكانت مدينة كبيرة ، متّصلة بالمدينة المكرمة . والطريق إليها بين حدائق النخل المتّصلة . والنخيل محدق بالمدينة من جهاتها ، وأعظمها جهة القبلة والشرق ، وأقلها جهة الغرب . والمسجد المؤسَّس على التقوى بقباء مجدَّد ، وهو مربَّع مستوى الطول والعرض ، وفيه مئذنة طويلة بيضاء تظهر على بُعْد ، وفى وسطه مَبْرك الناقة بالنبى ﷺ ، وعليه حَلَق قصير شبه روضة [صغيرة] ، يتبرّك الناس بالصلاة فيه . وفى صحنه ، مما يلى القبلة ، شبه محراب على مصطبة ، هو أول موضع ركع فيه النبى ﷺ . وفى قبلته محاريب ، وله باب واحد من جهة الغرب ، وهو سبع[4] بلاطات فى الطول ، ومثلها فى العرض . وفى قبلة المسجد دار بنى[5] النجّار ، وهى دار أبى أيوب الأنصارى . وفى الغرب من المسجد رحبة فيها بئر ، وبإزائه[6] على الشفير حجر متسع شبيه البِيلة ، يتوضأ الناس

---

(١) ص : كبيرة .
(٢) ط : المذكورة .
(٣) ص : قبر أم أحد . تحريف .
(٤) ط : سبعة .
(٥) ط : لبنى .
(٦) ط : وبإزائها .

فيه . ويلي دارَ بنى النجار دارُ عائشة رضى الله عنها ، وبإزائها دار عمر ، ودار فاطمة ، ودار أبى بكر رضى الله عنهم ، وبإزائها[1] بئر أَرِيس حيث تَفَل النبى ﷺ ، فعاد [ماؤها] عذبا بعد ما كان أُجاجا ، وفيه[2] وقع خاتمه من يد عثمان رضى الله عنه ، والحديث مشهور . وفى آخر القرية [تلّ] مُشْرِق يعرف بعَرَفات[3] ، يُدْخَل إليه على دار الصُّفّة ، حيث كان عَمّار وسَلْمان وأصحابهما المعروفون بأهل الصُّفّة . وسمى ذلك التل عرفات ، لأنه كان موقف النبى ﷺ يوم عرفة ، ومنه زُوِيت له الأرض ، فأبصر النـاسَ بعرفات . وآثار هذه القرية المكرمة ومشاهدها كثيرة لا تُحْصَى .

وللمدينة المكرمة أربعة أبواب ، وهى تحت سورين ، فى كل سور باب يقابله آخر ، الواحدُ منها حديد كلّه[4] ، ويعرف باسمه « باب الحديد » ؛ ويليه باب الشَّرِيعة ؛ ثم باب القِبْلَة ، وهو مغلق ؛ ثم باب البَقِيع ، وقد تقدم ذكره . وقبل وصولك سور المدينة[5] من جهة الغرب بمقدار غلوة ، تلقى الخندق الشهير ذكرُه ، الذى صنعه[6] النبى ﷺ عند تحزُّب الأحزاب .

وبينه وبين المدينة ، عن يمين الطريق ، العين المنسوبة للنبى ﷺ ، وعليها حَلَق عظيم مستدير[7] ، ومنبع العين وسط ذلك الحلـق ، كأنـه الحوض المستطيل . وتحته[8] سقايتان باستطالة الحلق . وقد ضُرِب بين كلّ سقاية وبين الحوض المذكور بجدار ، فحصل الحوض مُحدقًا بجدارين . وهو يَمُدّ

---

(١) ط : وفيها .

(٢) انظر السمهودى ٢٨٨ .

(٣) ط : كله حديد .

(٤) ص : باب المدينة .

(٥) ب : وضعه . ط : صنع .

(٦) ط : مستطيل .

(٧) ش : وتحت العين .

(٨) ط : فهى .

السقايتين المذكورتين ، ويُهْبَط إليهما على أدراج عددها نحو الخمسة والعشرين درجا . وماء هذه العين المباركة يعمّ أهل الأرض ، فضلا عن أهل المدينة ، فهما[١] لتَطَهُّر الناس ، واستقائهم ، وغسلِ أثوابهم . والحوض المذكور لا يتُناوَل فيه غير الاستقاء خاصّةً ، صونا له ومحافظة عليه . وبمقربة منه ، مما يلي المدينة ، قبّةُ حَجَر الزيت ، يقال : إن الزيت رشح للنبى ﷺ من ذلك الحجر . ولجهة الجوف منه « بئر بُضَاعة » ، وبإزائها لجهة اليسار جبل الشيطان ، حيث صرخ لعنه الله يومَ أُحُد ، حين قال : قُتِل نبيُّكم .

وعلى شفير الخندق المذكور ، حصن ضرب[٢] يعرف بحصن العُزّاب[٣] ، قيل : إن عمر رضى الله عنه بناه لعُزّاب المدينة . وأمامه ، لجهة الغرب على البعد[٤] ، بئر رُومَة التى اشترى نصفها عثمان رضى الله عنه بعشرين ألفا . وفى طريق أُحُد مسجد علىّ رضى الله عنه ، ومسجد سلمان رضى الله عنه ، ومسجد الفتح الذى أُنْزلت فيه على النبى ﷺ سورة الفتح . وللمدينة المكرّمة سقاية ثالثة ، داخل باب الحديد[٥] ، يُهْبَط إليها أيضا[٦] على أدراج ، وماؤها مَعِين . وهى بمقربة من الحرم الكريم . وبقبلىّ هذا الحرم المكرم ، دار إمام دار الهجرة مالك بن أبى رضى الله عنه . ويطيف بالحَرم كله شارع مبلَّط بالحجر المنحوت المفروش .

فهذا ذكر ما تمكّن على الاستعجال من آثار المدينة المكرمة ، ومشاهدها على جهة الاقتضاب والاختصار ، والله ولىّ التوفيق .

---

(١) خرب : ليست فى ط .　(٢) ص ، ش : الغراب .
(٣) ط : العزاب وهو خرب .　(٤) ش : بعد .
(٥) سماها بط (١ : ٢٦٥) : العين الزرقاء .　(٦) أيضا : ليست فى ط .

[مجلس وعظ فى المسجد النبوى] :

ومن أعجب[1] ما شاهدناه من الأمور البديعة ، الداخلة مداخل[2] السمعة والشهرة ، أن إحدى الخواتين المذكورات ، وهى ابنة[3] الأمير مسعود المتقدم ذكرُها وذكر أبيها ، وصلت عشى يوم الخميس السادس من المحرم[4] ، ورابع يوم وصولنا المدينة ، إلى مسجد رسول الله ﷺ راكبة فى قبتها ، وحولها قباب كرائمها وخدمها ، والقُرّاء أمامها ، والفتيان والصقالب بأيديهم مَقامع الحديد يطوفون حولها[5] ، ويدفعون الناس أمامها ، إلى أن وصلت إلى باب المسجد المكرم ، فنزلت تحت ملحفة مبسوطة عليها ، ومشت إلى أن سلمت على النبى ﷺ ، والخَوَلُ أمامها ، والخُدَّام يرفعون أصواتهم بالدعاء لها ، إشادةً بذكرها . ثم وصلت إلى الروضة الصغيرة ، التى بين القبر الكريم والمنبر ، فصلّت فيها تحت الملحفة ، والناس يتزاحمون عليها ، والمقامع تدفعهم عنها . ثم صلّت فى الحوض بإزاء المنبر ، ثم مشت إلى الصفحة الغربيّة من الروضة المكرمة ، فقعدت فى الموضع الذى يقال : إنه كان مهبط جبريل عليه السلام ، وأُرْخى الستر عليها ، وأقام فتيانها وصقالبها وحُجّابها على رأسها خلف الستر ، تأمرهم بأمرها ، واستجلبت معها إلى المسجد حِمْلَيْن من المتاع للصدقة . فما زالت فى موضعها إلى الليل ، وقد وقع الإيذان بوصول صدر الدين رئيس الشافعية الأصبهانى[6] ، الذى ورث

(١) ط : عجيب .
(٢) ط : مدخل .
(٣) ط : بنت .
(٤) ط : السادس لمحرم .
(٥) ص : يطوفون لها .
(٦) هو محمد بن عبد اللطيف الخجندى ، وكان أبوه وجده من رؤساء الشافعية فى أصبهان . واستوطن هو بغداد ، وأنعم عليه الخليفة بما لم ينعم به على أحد من أمثاله . وولى النظر فى أوقات النظامية . ومات فى ٥٧٢ هـ . ويبدو =

النباهة والوجاهة فى العلم كابرا عن كابر ، لعَقْد مجلس وعظ تلك الليلة ، وكانت ليلة الجمعة السابع[١] من المحرّم . فتأخّر وصوله إلى هَذْءٍ من الليل ، والحرم قد غصّ بالمنتظرين ، والخاتون جالسة موضعها . وكان سبب تأخره تأخر أمير الحاج ، لأنه كان على عِدَة من وصوله ، إلى أن وصل ، ووصل الأمير ، وقد أعدَّ لرئيس العلماء المذكور — وهو يُعْرَف بهذا الاسم ، تَوَارثه عن أب فأب — كرسى بإزاء الروضة المقدسة ، فصعده ، وحضر قراؤه أمامه ، فابتدروا[٢] القراءة بنغمات عجيبة ، وتَلَاحِين مُطْرِبة مُشْجية[٣] ، وهو يلحظ الروضة المقدسة فيُعْلِن بالبكاء . ثم أخذ فى خطبة من إنشائه سحريّة البيان ، ثم سلك فى أساليب من الوعظ باللسانين ، وأنشد أبياتا بديعة [من قوله] ، منها هذا البيت ، وكان يردِّده فى كل فصل من ذكره ﷺ ، ويشير إلى الروضة :

هاتيك روضتُه تفوح نَسِيما صَلّوا عليه وسَلِّموا تسليما

واعتذر من التقصير لهول ذلك المقام ، وقال : « لألْكَن العجم[٤] كيف ينطق عند أفصح العرب ! » . وتمادى فى وعظه إلى أن أطار النفوس خشية ورقة ، وتهافت[٥] عليه الأعاجم مُعلِنين بالتوبة[٦] ، وقد طاشت ألبابهم ،

= أن المؤرخين يخلصون بينه وبين جده صدر الدين محمد بن عبد اللطيف لتشابه الاسمين . ويقال إن جده كان يلقبه سور الدين لا صدر الدين كما هو مذكور فى المتن . فلعل الاسم محرف ، أو لعله كان يكنى بكنية جده أيضا .

(١) ص : السابعة .
(٢) ش ٢ : ١٥١ : فابتدعوا .
(٣) ش : بهيجة .
(٤) ط : للألكن الأعجم .
(٥) ط : وتهافتت .
(٦) ط : التوبة .

وذَهِلت[١] عقولهم ، فيُلْقون نواصيَهم بين يديه ، فيستدعى الجَلَمَيْن[٢] ويجزّها ناصية ناصية ، ويكسو عمامته المجزوزَ الناصية ، فيوضَع عليه للحين عمامة أخرى ، من أحد قُرّائه أو جلسائه ممن قد عرف مَنْزَعه الكريم فى ذلك ، فبادر بعمامته لاستجلاب العوض الأنفس منها[٣] ، لمكارمه الشهيرة عندهم : فلا يزال[٤] يخلع واحدة بعد أخرى ، إلى أن خلع منها عدة ، وجزّ نواصى كثيرة ، ثم ختم مجلسه بأن قال : « معشرَ الحاضرين ، قد تكلمتُ لكم ليلةً بحرم الله عز وجل ، وهذه الليلةَ بحرم رسوله ﷺ ، ولا بد للواعظ من كُدْية ، وأنا أسألكم حاجة ، إن ضمنتموها لى ، أرقتُ لكم ماءَ وجهى فى ذكرها » . فأعلن الناس [كلهم] بالإسعاف ، وشهيقهم قد علا . فقال : « حاجتى أن تكشفوا رءوسكم ، وتبسطوا أيديكم ، ضارعين لهذا النبى الكريم ، فى أن يرضى عنى ، ويسترضى الله عز وجل لى » . ثم أخذ فى تعداد ذنوبه ، والاعتراف بها ، فأطار الناس عمائمهم ، وبسطوا أيديهم للنبى ﷺ ، داعين له ، باكين متضرعين . فما رأيت ليلة أكثر دموعا ، ولا أعظم خشوعا ، من تلك الليلة . ثم انفضّ المجلس ، وانفضّ الأمير ، وانفضّت الخاتون من موضعها . وعند وصول صدر الدين المذكور ، أُزيل الستر عنها ، وبقيت بين خدمها وكرائمها ، متلفّعة فى ردائها . فعاينّا من أمرها فى الشهرة الملوكية عجبا .

وأمر هذا الرجل صدر الدين عجب[٥] فى قُعْدُده ، وأبّهته ، وملوكيّته ،

---

(١) ش : ودهشت .

(٢) ط : جلمين . والجلمان : المقص .

(٣) ط : الغرض النفيس .

(٤) ط : فلا زال .

(٥) ط : عجيب .

وفخامة آلته ، وبهاء حالته ، وظاهر مُكْنَته ، ووفور عُدَّته ، وكثرة عبيده وخَدَمته ، واحتفال حاشيته وغاشيته ؛ فهو من ذلك على حال تقصر عنها الملوك . وله مضرب كالتاج العظيم فى الهواء ، مفتّح على أبواب على هيئة غريبة الوضع ، بديعة ، الصنعة والشكل ، تُطِلّ على المحلة من بُعْد ، فتبصره ساميا فى الهواء . وشأن هذا الرجل العظيم لا يستوعبه الوصف ؛ شاهدنا مجلسه فرأينا رجلا يذوب(١) طلاقةً وبشرا ، ويخف للزائر كرامة وبرا ، على عظم جرمه(٢) وفخامة بنيته ، وهو قد أُوتِى البَسْطَتَيْن(٣) علما وجسما ، استجزناه فأجازنا نظما ونثرا(٤) . وهو أعظم مَنْ شاهدنا بهذه الجهات .

وفى يوم الجمعة المذكور ، وهو السابع من محرم ، شاهدنا من أمور البدعة أمرا يُنادِى له الإسلام : يا لله يا لِلْمُسلمين . وذلك أن الخطيب وصل للخطبة ، فصعد منبر النبى ﷺ ، وهو — على ما يُذْكَر — على مذهب غير مرضى ، ضد الشيخ الإمام العجمى الملازم صلاة الفريضة فى المسجد الحرام(٥) المكرم . فذلك على طريقة من الخير والورع ، لائقة بإمام [مثل] ذلك الموضع الكريم . فلما أذَّن المؤذنون قام هذا الخطيب المذكور [للخطبة] ، وقد تقدمته الرايتان السوداوان ، ورُكِزتا(٦) بجانبى المنبر الكريم ، فقام بينهما . فلما فرغ من الخطبة الأولى ، جلس جلسةً خالف فيها جلسةَ الخطباء المضروب بها المثلُ فى السرعة ، وابتدر الجمعَ مَرَدَةٌ من الخدمة يخترقون الصفوف ، ويتخطّون الرقاب ، كُدْية على الأعاجم والحاضرين ،

(١) ص : يتذوب .
(٢) ط : عظيم حرمته .
(٣) ط : وهو أعطى البسطتين .
(٤) ط : نثرا ونظما .
(٥) الحرام : ليست فى ط .
(٦) ط : وقد ركزتا .

لهذا الخطيب القليل التوفيق . فمنهم من يطرح الثوب النفيس ؛ ومنهم من يُخْرِج الشقّة الغالية من الحرير فيعطيها ، وقد أعدها لذلك ، ومنهم من يخلع عمامته فينبذها ؛ ومنهم من يتجرّد عن بُرْدِه فيُلْقى به ؛ ومنهم من لا يتّسع حاله لذلك فيسمح بفَضْله من الخام ؛ ومنهم من يدفع القُراضة من الذهب ؛ ومنهم من يمدّ يده بالدينار والدينارين إلى غير ذلك . ومن النساء من تطرح خلخالها ، أو تخرج[١] خاتمها فتلقيه ، إلى ما يطول الوصف له من ذلك . والخطيب ، فى أثناء هذه الحال كلها ، جالس على المنبر ، يلحظ هؤلاء المستَجْدين له[٢] المُستسعِين على الناس بلَحظات يَكُرُّها الطمع والحرص[٣] ، ويعيدها[٤] الرغبة والاستزادة ، إلى أن كاد الوقت ينقضى ، والصلاة تفوت ، وقد ضج من له دين وصحة من الناس ، وأعلن بالصياح ، وهو قاعد ينتظر اشتفافَ صُبابة الكدية ، وقد أراق عن وجهه ماء الحياء . فاجتمع له من ذلك السُّحْت المؤلَّف كوم عظيم أمامه . فلما أرضاه قام ، وأكمل خطبته[٥] ، وصلى بالناس . وانصرف أهل التحصيل[٦] باكين على الدين ، يائسين من فَلاح الدنيا ، متحقِّقين أشراط القيامة[٧] . ولله الأمر من قبل ومن بعد !

وفى عشى ذلك اليوم المبارك ، كان وداعنا للروضة المكرمة[٨] ، والتربة المقدسة المعظمة[٩] ، فياله[١٠] وداعا عجبا ، ذهلت له النفوس ارتياعا ، حتى

---

(١) ط : وتخرج .

(٢) له : ليست فى ط .

(٣) والحرص : ليست فى ط .

(٤) ص : ويقيدها .

(٥) ط : الخطبة .

(٦) خـ : التحصين .

(٧) ط : الآخرة .

(٨) ط : المباركة .

(٩) المعظمة : ليست فى ط .

(١٠) ص : فيا لها . تحريف .

طارت شعاعا ، واستشْرت به القلوب[1] الْتِياعا ، حتى ذابت انصداعا ! وما ظنُّك بموقف يُناجَى[2] بالتوديع فيه سيد المرسلين[3] ، وخاتم النبيين ، ورسول رب العالمين ؟ إنه لموقف تنفطر له الأفئدة ، وتطيش به الألباب الثابتة المتّئدة ، فوا أسفاه وا أسفاه ! كلٌّ يبوح لديه بأشواقه ، ولا يَجِد بُدّا من فراقه ، فما يستطيع إلى الصبر[4] سبيلا ، ولا تسمع فى هول ذلك المقام إلا رَنّة وعويلا ، وكل بلسان الحال ينشد :

محبّتى تقتضى مُقامى وحالتى تقتضى الرّحيلا

بَوّأنا الله بزيارة هذا النبى الكريم منزلَ الكرامة ، وجعله شفيعا [لنا] يوم القيامة ، وأحلّنا من فضله[5] فى جواره الكريم[6] دارَ المقامة ، برحمته ، إنه الغفور الرحيم[7] . وكان مقامنا بالمدينة المكرّمة خمسة أيام ، أولها[8] يوم الاثنين ، وآخرها يوم الجمعة .

[الرحلة إلى العراق] :

وفى ضحوة يوم السبت الثامن لمحرّم المذكور ، والحادى والعشرين من شهر أبريل ، كان رحيلنا من المدينة المكرمة إلى العراق ، قَرّب الله لنا المرام ، وسَهّل علينا السبيل . واستصحبنا منها الماء لثلاثة أيام ، فنزلنا يوم الاثنين ، ثالث يوم رحيلنا المذكور ، « بوادى العَرُوس » ، فتزوّد الناس منه[9] الماء ،

---

(١) ط : النفوس .
(٢) ش : ينادى .
(٣) ط : سيد الأولين والآخرين .
(٤) ص : إلا الصبر .
(٥) ش : بفضله .
(٦) الكريم : ليست فى ط .
(٧) ط : غفور رحيم جواد كريم .
(٨) ص : وأولها .
(٩) ط : منها .

يحفرون عليه فى الأرض قليلا[1] ، فينبع منها ماء عذب مَعِين ، يُرْوِى الأمّة التى لا يُحْصَى لها عدد من هذه المحلة ، مع جِمَالها التى تُنيِّف على عددها ، ولله القدرة سبحانه . وصعدنا من وادى العروس إلى أرض نجد ، وخلّفنا[2] تهامة وراءنا ، ومشينا فى بسائط[3] من الأرض ، ينحسر الطرف دون أدناها ، ولا يبلغ مداها ، وتنسّمنا نسيم نجد وهواءها الطيب[4] المضروب به المثل ، فانتعشت النفوس والأجسام ببرد نسيمه ، وصحة هوائه . ونزلنا يومَ الثلاثاء ، رابع يوم رحيلنا ، على ماء يعرف بماء « العُسَيلة » . ثم نزلنا يوم الأربعاء ، خامس يوم رحيلنا على ماء[5] يعرف « بالنُّقِرة » ، وفيها آبار ومصانع كالصهاريج العظام ، وجدنا أحدها مملوءا بماء المطر ، فعمّ جميع المحلة ، ولم ينضب على كثرة الاستماحة[6] .

وصفةُ مراحل هذا الأمير بالحاج ، أن يسرى من نصف الليل إلى ضُحَيّة ، ثم ينزل إلى أول الظهر ، ثم يرحل وينزل مع العشاء الآخرة ، ثم يقوم نصف الليل ؛ هذا دأبه .

ونزلنا ليلة الخميس الثالث عشر لمحرّم ، وسادس يوم رحيلنا ، على ماء يُعرف « بالقارورة »[7] ، وهى مصانع مملوءة بماء المطر ، وهذا الموضع هو وسط أرض نجد . وما أرى أن فى المعمورة أرضا أفيح[8] بسيطا ، ولا أوسع أفقا[9] ، ولا أطيب نسيما ، ولا أصح هواء ، ولا أمدّ استواء ، ولا أصفى

---

(١) ط : بئرا .

(٢) هـ : وجعلنا .

(٣) ط : بسيط .

(٤) الطيب : ليست فى ط .

(٥) هـ : بموضع .

(٦) ط : كثرة المحلة واستماحتها .

(٧) الأشهر فى هذا الموضع : قرورى .

(٨) ط : المعمور أرضا أفسح .

(٩) ط : أنفا .

جوا ، ولا أنقى تربة ، ولا أنعش للنفوس والأبدان[1] ، ولا أحسن اعتدالا ، فى كل الأزمان ، من أرض نجد . ووصف محاسنها يطول ، والقول عنها يقصر[2] . وفى يوم الخميس المذكور ، مع ضحوة النهار ، نزلنا « بالحاجر »[3] ، والماء فيه فى مصانع ، وربما حفروا عليه حُفَرا قريبة العمق يسمونها أحفارا ، واحدها حَفَر . وكنا نتخوّف فى هذا الطريق قلّةَ الماء ، لا سيما مع عِظَم هذا الجمع الأَنَاميّ والأنعاميّ ، الذين لو وردوا البحر لانتزفوه[4] واستقوه ، فأرسل[5] الله من سُحُب رحمته ما أعاد الغِيطان غُدْرانا ، وأجرى المَسُول سيولا ، وصَيَّر الوِهاد مملوءة عِهادا[6] . فكنا نبصر مَذانب[7] الماء سائحة على وجه الصحراء[8] ، فضلا من الله ونعمة ، ولطفا بعباده[9] ورحمة ، والحمد لله على ذلك . وفى اليوم المذكور أجزنا بالحاجر واديين سيّالين ، وأما البِرَك والقرارات فلا تُحْصَى .

وفى يوم الجمعة بعده ، نزلنا ضَحْوَة النهار « بَسمِيرة »[10] ، وهى موضع معمور ، وفى بسيطها شبه حصن يطيف به حَلَق كبير[11] مسكون ، والماء فيه فى آبار كثيرة ، لكنها[12] زُعاق ومستنقعات وبِرَك ، وتَبَايع العرب فيها مع الحاج فيما أخرجوه من لحم وسمن ولبن ، ووقع الناس على قَرَم

---

(١) هـ : للنفس والبدن .

(٢) ط : والقول فيها يتسع .

(٣) خـ : بالحاجز ، تحريف .

(٤) ط : لأنزفوه .

(٥) ط : فأنزل .

(٦) العهاد : المطر بعد المطر بحيث يدرك الآخر بلل الأول .

(٧) المذانب : الجداول والمسايل .

(٨) ط : الأرض .

(٩) ط : ولطفا من الله بعباده .

(١٠) ط : سميرة . والأشهر فيها : سميراء .

(١١) ص : خلق كثير . تحريف .

(١٢) ط : إلا أنها .

قَرَم وعَيْمة[١] ، فبادروا لابتياع ذلك[٢] بشِقَق الخام التى يستصحبونها لمُشَاراة الأعراب ، لأنهم لا يبايعونهم إلا بها .

وفى ضحوة يوم السبت بعده ، نزلنا « بالجبل المخروق » ، وهو جبل فى بيداء من الأرض ، فى سفحه[٣] الأعلى ثقب نافذ تخترقه الريح من جهتيه[٤] . ثم رحنا من ذلك الموضع ، وبتنا « بوادى الكُروش » على غير ماء ، ثم أسرينا منه ، وصبحنا « فَيْد »[٥] يوم الأحد ، وهى حصن كبير مبرَّج مشرَّف[٦] ، فى بسيط من الأرض ، يمتد[٧] حوله رَبَض يُطِيف[٨] به سور عتيق البنيان ، وهو معمور بسكّان من الأعراب ، ينتعشون مع الحاج[٩] فى التجارات والمبايعات وغير ذلك من المرافق ، وهناك يترك الحاج بعض زادهم ، إعدادا للإرمال[١٠] من الزاد عند انصرافهم ، وهو[١١] نصف الطريق من بغداد إلى مكة على المدينة ، شرّفها الله ، أو أقل[١٢] يسيرا [١٣]وهم بها معارف يتركون أزودتهم عندهم[١٣] ، ومنها إلى الكوفة اثنا عشر يوما ، فى طريق سهلة طيّبة ، والمياه فيها بحمد الله موجودة فى مصانع كثيرة . ودخل أمير الحاجّ هذا

---

(١) القرم : الشهوة الشديدة إلى اللحم . والعيمة : الشهوة الشديدة إلى اللبن .

(٢) ط : الابتياع لذلك . (٣) ط : وفى صفحه .

(٤) ط : الرياح . (٥) ط : وأصبحنا على فيد .

(٦) ش ١ : ٩٣ : مصر كبير منفرج . (٧) ش : ممتد .

(٨) ش : لطيف . (٩) ش ، بط : يتعيشون مع الحاج .

(١٠) أرمل : نفد زاده . وفى ش : ينزل بعض الحجاج بعض أزوادهم اعتداد الإرمال .

(١١) ط : وهذا . (١٢) ص : وأقل .

(١٣ ـــ ١٣) وضعت ش هذه العبارة بعد انصرافهم السابقة .

الموضع المذكور على تعبئة وأُهْبة ، إرهابا للمجتمعين به[1] من الأعراب ، لئلا يداخلهم الطمع فى الحاجّ ، فهم يَلْحَظُونهم ولثاتهم تضب إلى مغانمهم[2] ، لكنهم لا يجدون إليهم سبيلا ، والحمد لله . والماء بهذا الموضع كثير فى آبار[3] ، تمدها عيون تحت الأرض ، ووجد الحاجّ فيه[4] مصنعا قد اجتمع فيه ماء المطر[5] ، فانْتُزِف للحين ، وامتلأت[6] أيدى الحاج القَرِمين من أغنام العرب بالمبايعة المذكورة ، فلم يبق مضرب ولا خيمة ولا ظِلالة إلا وإلى جانبها كبش أو كبشان ، بحسب القدرة والوجْد[7] فعمّ[8] جميع المحلّة غنم العرب . وكان ذلك اليوم عيدا من الأعياد ، وكذلك عمّتْهم أيضا جِمالُهم لمن شاء[9] الابتياع منهم من الجمالين وسواهم ، للاستظهار على الطريق . وأما السمن والعسل واللبن ، فلم يبق إلا من تحمّل واستعمل[10] منها بقدر حاجته .

وأقام الناس يومهم ذلك مريحين بها ، إلى ظهر يوم الاثنين بعده ، ثم [11] رحلوا ونزلوا مع العشاء الآخرة ثم [11] أسروا نصف الليل ترتيبَ سيرهم المتقدم الذكر[12] ، ونزلوا ضحوة يوم الثلاثاء الثامن عشر لمحرم ، وهو أول

---

(١) خ ، ص : بها . وزادت ش بعد ذلك : وإن قبائل طيئ متوفرة بحيث تطلع إلى الغارة على مثل هذه المحلة .

(٢) ط : يلحظونهم مستشرفين إلى مكانهم .

(٣) ش : والمياه كثيرة فى آبارها .

(٤) ط : فيها .

(٥) ط : الماء من المطر .

(٦) ط : وامتلأ . والصيغتان جائزتان .

(٧) الظلالة : ما أظلك . والوجد : الغنى .

(٨) ش : فعمت .

(٩) ط : أراد .

(١٠) ط : أو استعمل .

(١١ — ١١) العبارة ليست فى ط .

(١٢) ط : سيرهم المذكور قبل .

يوم من مايه ، بموضع يعرف « بالأَجْفُر » ، وهو مشتهر عندهم بموضع جَمِيل وبُثَيْنة العُذْرِيَّين . ثم أقلعنا ظهر ذلك اليوم[١] على العادة ، ونزلنا بالبيداء مع العشاء الآخرة ، ثم أسرينا منها ، ونزلنا ضحوة يوم الأربعاء « بَزَرُود » وهى وَهْدة فى بسيط من الأرض ، فيها رمال مُنهالة ، وبها حَلَق[٢] كبير ، داخله دُوَيْرات صغار ، هو شبيه الحصن ، يعرف بهذه الجهات بالقصر . والماء فى هذا[٣] الموضع فى آبار غير عذبة . ونزلنا[٤] ضحوة يوم الخميس الموفى عشرين لمحرم ، والثالث لمايه ، بموضع يعرف « بالثَّعْلَبِيّة » ، ولها مبنىً شبه الحصن خَرِب ، لم يبق منه إلا الحَلَق ، وبإزائه مصنع عظيم كبير الدَّوْر ، من أوسع ما يكون من الصهاريج وأعلاها ، والمهبط إليه على أدراج كثيرة من ثلاث جهاته[٥] ، وكان فيه من ماء المطر ما عم جميع المحلة . ووصل إلى هذا الموضع جمع كثير من العرب رجالا ونساء ، واتخذوا به[٦] سوقا عظيمة حفيلة ، للجِمال ، والكباش ، والسمن ، واللبن ، وعلف الإبل ، فكان يوم سوق نافقة[٧] .

وبقى من هذا الموضع إلى الكوفة ، من المناهل التى تعم جميع المحلة ، ثلاثة : أحدها زُبَالة ، والثانى واقِصَة ، والثالث منهل من ماءِ الفرات على مقربة من الكوفة ؛ والله ييسر[٨] . وما بين[٩] هذه المناهل مياه موجودة ،

---

(١) ط : ظهر يوم الثلاثاء المذكور على العادة .

(٢) ص : خلق .

(٣) ط : بهذا .

(٤) ط : فنزلنا .

(٥) ط : جهات .

(٦) ص : بها .

(٧) هـ : فكانت سوقا نافقة .

(٨) والله ييسر : ليست فى ط .

(٩) ط : وبين .

لكنها لا تعم ، وهذه الثلاثة المذكورة هي التي تعم الناس والإبل ، وهي التي تَرِدها رَبْعا[١] . وفي هذا المنهل الذي بالثعلبية المذكور[٢] ، شاهدنا من غَلَبة الناس على الماء أمرا هائلا ، لا يكاد يُشاهَد مثله في تغلُّب المدن والحصون بالقتال[٣] . وحسبُك أن مات في ذلك المقام[٤] ضَغْطا بشدة الزحام ، وغَطّا[٥] تحت الماء بالأقدام ، سبعةُ رجال ، بادروا لمورد الماء ، فحصلوا على مورد الفناء ، رحمهم الله ، وغفر لهم .

وفي ضحوة يوم الجمعة بعده ، نزلنا بموضع يعرف « ببِرْكة المَرْجُوم » وهي مصنع ، قد[٦] بُنِي له فيما يعلوه من الأرض مَصَبّ ، يؤدي الماء إليه على بُعْد ، وأُحْكِم ذلك إحكاما يدل على قدرة الاتساع ، وقوة الاستطاع[٧] . ولهذا المرجوم المذكور مَشْهد على قارعة الطريق ، قد[٨] علا كأنه هضْبة شماء ، فكلّ[٩] مجتاز عليه لا بد أن يلقي بحجر فيه[١٠] . ويقال : إن أحد الملوك رجمه ، لأمر استوجب به ذلك[١١] ، والله أعلم . وبهذا الموضع بيوت كثيرة للعرب . وبادروا للحِين بما لديهم من مرافق الأُدُم ، يبيعونها من الحاج . وكان هذا المصنع مملوءا من ماء المطر ، فغمر الناس وعمهم ، والحمد لله .

---

(١) ربعا : أي في الربيع . وفي ط : رفها .(٢) ط : للثعلبية .

(٣) ص : بالقتال أو الحصون . خـ : بالقتال والحصون .

(٤) ط : الموضع .

(٥) الغط : الغرق والاختناق .

(٦) ط : وقد .

(٧) كذا في خـ ، وهي الملائمة للسجع ، وسبق أن كانت في المخطوط كذلك ، ولم أجدها فيما بين يدي من مراجع لغوية . وفي ص : الاستطاعة .

(٨) ط : وقد .

(٩) ط : وكل .

(١٠) ط : عليه حجرا .

(١١) ص : استوجبه به ذلك . تحريف .

وهذه المصانع والبرك والآبار والمنازل ، التى من بغداد إلى مكة ، هى آثار زُبيدة ابنة جعفر ابن أبى جعفر المنصور ، زوج هارون الرشيد ، وابنة عمه ؛ انتدبت لذلك مدةَ حياتها ، فأبقت[1] فى هذا الطريق مرافق ومنافع ، تعمّ وفد الله تعالى كل سنة ، من لدن وقتها[2] إلى الآن . ولولا آثارها الكريمة فى ذلك لما سُلِكت هذه الطريق ، والله كفيل بمجازاتها ، والرضا عنها .

وفى ضحوة يوم السبت بعده ، نزلنا بموضع يعرف « بالمشقوق »[3] ، وفيه مصنعان ألفيناهما مملوءين ماء صافيا عذبا[4] . فأراق الناس مياههم ، وجددوا مياها طيبة عذبة[5] ، واستبشروا لكثرة الماء[6] ، وجدّدوا شكر الله تعالى[7] على ذلك . وأحد هذين المصنعين صهريج عظيم الدائرة كبيرها ، لا يكاد يقطعه السابح إلا عن جهد ومشقة . وكان الماء قد علا فيه أزيد من قامتين . فتنعَّم الناس فى مائه[8] سباحة ، واغتسالا ، وتنظيفَ أثواب ، وكان يومهم فيه من أيام راحة السفر . ومن لطائف صنع الله تعالى بوفده ، وزُوّار حرمه ، أن كانت هذه المصانع كلها عند صعود الحاج من بغداد إلى مكة دون ماء ، فأرسل الله من سُحُب رحمته ما أُتْرعها ماء مُعَدّا لصَدَر الحاجّ ، فضلا من الله تعالى[9] ولطفا بوفوده[10] المنقطعين إليه .

ورُحنا من هذا[11] الموضع المذكور ، وبتنا بموضع يعرف « بالتَّنانير » ،

---

(١) ص : فأنفقت .
(٢) ط : وفاتها .
(٣) ط : بالشقوق . وانظر بط ١ : ٤١٢
(٤) ط : عذبا صافيا .
(٥) عذبة : ليست فى ط .
(٦) ط : بكثرة الماء .
(٧) تعالى : ليست فى ط .
(٨) ط : من مائه .
(٩) تعالى : ليست فى ط .
(١٠) هـ : لوفوده . ط : بوفده .
(١١) ط : ذلك .

وكان فيه أيضا مصنع مملوء ماء . وأسرينا منه ليلة يوم الأحد الثالث والعشرين لمحرم ، واجتزنا سحرا « بزُبَالة » وهى قرية معمورة ، وفيها قصر مشيد من قصور الأعراب ، ومصنعان للماء ، وآبار ، وهى من مناهل الطريق الشهيرة . ونزلنا عندما ارتفع النهار ، من اليوم المذكور « بالْهَيْثَمَيْن » وفيها مصنعان للماء ، ولا يكاد يمرّ بحمد الله يوم[1] بموضع إلا والماء يوجد فيه ، والشكر لله على ذلك .

وبتنا ليلة الاثنين الرابع والعشرين لمحرم المذكور على مصنع مملوء ماء ، فسقى الناس بالليل واستقوا . وهذا الموضع هو دون العقبة المعروفة « بعقبة الشيطان » . ومع الصباح من يوم الاثنين المذكور ، صعدنا العقبة ، وليست بالطويلة الكئود ، ولكن ليس بالطريق وَعْر سواها[2] ، فهى شهيرة بهذا السبب . ونزلنا عند ارتفاع النهار على مصنع دون ماء ، وأجزنا مصانع كثيرة ، وما منها مصنع إلا وإلى جانبه قصر مبنى من قصور الأعراب ، والطريق كلها مصانع . ورضى الله عن التى اعتنتْ بسبيل وفد الله هذا الاعتناء .

ثم نزلنا ضحوة يوم الثلاثاء بعده « بوَاقِصَة » وهى وَهْدة[3] من الأرض منفسحة ، فيها مصانع للماء مملوءة ، وقصر كبير ، وبإزائه أثر بناء . وهى معمورة بالأعراب ، وهى آخر مناهل الطريق ، وليس بعدها إلى الكوفة منهل مشهور ، إلا مشارع ماء الفرات ، ومنها إلى الكوفة ثلاثة أيام ، وبها يتلقى الحاجَّ كثير من أهل الكوفة ، مستجلبين[4] إليهم الدقيق والخبز والتمر والأُدْم

---

(١) ط : ولا نكاد نمر بحول الله يوما . (٢) ط : غيرها .

(٣) الوهدة : الأرض المنخفضة أو الهوة فى الأرض .

(٤) ط : وهم مستجلبون .

والفواكه الحاضرة فى ذلك الوقت . ويهنّئ الناس بعضهم بعضا بالسلامة ، والحمد لله عز وجل ، على ما منّ به من التيسير والتسهيل ، حمدا يستجلب[١] المزيد ، ويستصحب من كريم صنعه المعهود .

وبتنا ليلة الأربعاء السادس والعشرين بموضع يعرف « بلَوْرَة »[٢] وفيها مصنع كبير ، وجده الناس مملوءا ، فجددوا الاستسقاء ، ورَفّهوا الإبل . ثم أسرينا منها ، واجتزنا[٣] سحر يوم الأربعاء المذكور بموضع فيه آثار بناء ، يعرف « بالقَرعة » وكان فيها[٤] أيضا مصنع ماء [٥]ونزلنا ضحوة ذلك اليوم بموضع يعرف بالمساجد ، وكان فيه أيضا ثلاثة مصانع ، ولها[٥] ، ستة مخازن ، وهى صهاريج صغار ، تؤدى الماء إلى المصانع ، استقى الناس فيها وسقوا . وكثرت المصانع حتى لا تكاد الكُتُب تحصرها[٦] ولا تضبطها ، والحمد لله على منّته ، وسابغ نعمته .

وبتنا ليلة الخميس بعده على مصنع عظيم مملوء ماء ، ثم نزلنا ضحوة اليوم المذكور بمنارة [تعرف « بمنارة] القرُون »[٧] ، وهى منارة فى بيداء من الأرض ، لا بناء حولها ، قد قامت فى الهواء كأنها[٨] عمود مخروط من الآجرّ ، قد تداخل فيها من الخواتيم الآجُريّة مثمّنة ومربّعة أشكال بديعة . ومن غريب أمرها أنها مجلّلة كلها قرون غزلان مثبتة فيها ، فتلوح كظهر

---

(١) ط : يستوجب .

(٢) شك ياقوت فى كونها بالراء أو الزاى ، وجعلها مؤلف مراصد الاطلاع بالراء ، وقال : إنه رآها ، وجعلها البكرى بالزاى .

(٣) ط : وأجزنا .

(٤) ط : بالقرعاء وفيه أيضا .

(٥ — ٥) ليست فى ط إلا : وله .

(٦) ص : حتى كاد الكتب تحصرها .

(٧) خـ : الفروق .

(٨) ط : فى الأرض . ص : كأنه .

الشَّيْهَم[1] . وللناس فى أمرها خبر منع[2] ضعفُ سنده من إثباته . وعلى مقربة من هذه المنارة قصر ذو بروج[3] مشيدة ، وبإزائه مصنع عظيم ، وُجِد مملوءا ماء ، والحمد لله على ما أنعم به[4] واجتزنا عَشِيّ يوم الخميس المذكور على « العُذَيْب » ، وهو واد خصيب ، وعليه بناء ، وحوله فلاة خصيبة ، فيها مسرح للعُيون وفُرْجَة . أُعْلِمنا أن بمقربة منه بارِقا[5] . ووصلنا منه إلى « الرُّحْبة » وهى بمقربة منه ، وفيها بناء وعمارة ، ويجرى الماء فيها من عين نابعة فى أعلى القرية المذكورة . وبتنا أمامها بمقدار فرسخ ، ثم أسرينا ليلة الجمعة الثامن والعشرين لمحرم المذكور نصف الليل . واجتزنا على « القادِسِية » وهى قرية كبيرة ، فيها حدائق من النخيل ، ومشارع من ماء الفرات . وأصبحنا « بالنَّجَف » ، وهو بظهر الكوفة ، كأنه حد بينها وبين الصحراء ، وهو صلب من الأرض منفسح متّسع ، للعين فيه مَرَاد[6] استحسان وانشراح . ووصلنا « الكوفة » طلوع[7] الشمس من يوم الجمعة المذكور ، والحمد لله على ما أنعم به من السلامة .

* * *

---

(١) ص : كشكل الشيهم .

(٢) ط : وللناس فيها .. يمنع .

(٣) خـ : برج .

(٤) ط : من به .

(٥) ط : وأعلمنا . ص : بمقربة منها .

(٦) مراد : أى ترتاده العين مستحسنة . وفى ص : مزاد .

(٧) ط : مع طلوع .

ذكر مدينة الكُوفَة ، حَرَسها الله تعالى

هى مدينة كبيرة عتيقة[١] ، قد استولى الخراب على أكثرها ، فالعامر منها أقل من الغامر[٢] . ومن أسباب خرابها قبيلة خَفَاجة المجاورة لها ، فهى لا تزال تَضُرّ بها ، وكفاك بتعاقُب الأيام والليالى مُحْيِيا[٣] ومُفْنيا . وبناء هذه المدينة بالآجرّ خاصة ، ولا سور لها . والجامع العتيق آخرها ، مما يلى شرق البلد ، ولا عمارة تتصل به من جهة الشرق . وهو جامع كبير ، فى الجانب القبلى منه خمسة أَبْلِطة ، وفى سائر الجوانب بلاطان ، متسعان[٤] . وهذه البلاطات على أعمدة من السوارى المصنوعة من صُمّ[٥] الحجارة ، المنحوتة قطعة على قطعة ، مفرغة بالرصاص ، ولا قسىّ عليها ، على الصفة التى ذكرناها فى مسجد رسول الله ﷺ . وهى فى نهاية من الطول[٦] ، متصلة بسقف المسجد ، فتحار العيون فى تفاوُت ارتفاعها . فما أرى فى الأرض مسجدا[٧] أطول أعمدة منه ، ولا أعلى سقفا . ولهذا[٨] الجامع المكرم آثار كريمة[٩] : فمنها بيت بإزاء المحراب عن يمين المستقبل القبلة ، يقالُ : إنه كان مصلًّى الخليل إبراهيم[١٠] ﷺ ، وعليه ستر أسود صونا له ، ومنه

(١) ط : عتيقة البناء .

(٢) خـ ، ط : فالغابر منها أكثر من العامر .

(٣) ش : ماحقا .

(٤) متسعان : ليست فى ط . ش : بلاطتان متسعتان .

(٥) ط : الموضوعة من . ش : صميم .

(٦) من : ليست فى ط .

(٧) ش : فما رئى .. مسجد .

(٨) بط (٢ : ٩٤) ، ط : وبهذا .

(٩) ص : كثيرة . ويرشح السياق ما أثبته .

(١٠) ط : إبراهيم الخليل .

خرج[1] الخطيب لابسا ثيابَ السواد للخطبة . فالناس يزدحمون على هذا الموضع المبارك للصلاة فيه . وعلى مقربة منه ، مما يلى الجانب الأيمن من القبلة ، محراب محلّق[2] عليه بأعواد الساج ، مرتفع عن صحن البلاط كأنه مسجد صغير ، وهو محراب أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه . وفى ذلك الموضع ضربه الشقى اللعين عبد الرحمن بن مُلْجَم بالسيف ، فالناس يصلون فيه باكين وداعين[3] . وفى الزاوية من آخر هذا البلاط القبلىّ ، المتصل بآخر البلاط الغربىّ ، شبيه[4] مسجد صغير ، محلَّق[2] عليه أيضا بأعواد الساج ، هو موضع مَفَار التنوّر الذى كان آية نوح عليه السلام[5] وفى ظهره ، خارج المسجد ، بيته الذى كان فيه ، [وفى ظهره بيت آخر يقال : إنه كان مُتعبَّد إدريس ﷺ . ويتصل بهما فضاء متصل بالجدار القبلى من المسجد] ، وبإزائه بيت آخر يقال : إنه كان مُنْشَأ[6] السفينة . ومع آخر هذا الفضاء دار علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، والبيت الذى غُسِل فيه ويتصل به بيت يقال : إنه كان بيت ابنة نوح صلى الله عليه [وسلم] .

وهذه الآثار الكريمة تلقّيناها من ألسنة أشياخ من أهل البلد ، فأثبتناها بحسبما[7] نقلوه إلينا ، والله أعلم بصحة ذلك كله .

وفى الجهة الشرقية من الجامع ، بيت صغير يُصْعَد إليه ، فيه قبر مُسْلم بن

---

(١) ش : يخرج . (٢) ش : أغلق .

(٣) ط : باكين داعين . (٤) ش : شبه .

(٥) ط : لنوح . وانظر الآية ٤٠ من سورة هود ، والآية ٢٧ من سورة المؤمنون .

(٦) وبإزائه بيت آخر .. كان : ليست فى ط . ومنشأ السفينة : موضع إنشائها .

(٧) ط : فأثبتناه حسبما .

عَقِيل بن أبى طالب رضى الله عنه . وفى جوفىّ الجامع ، على بعد منه يسير ، سِقاية كبيرة من ماء الفرات ، فيها ثلاثة أحواض كبار .

وفى غربى المدينة ، على مقدار فرسخ منها ، المشهد الشهير الشأن المنسوب لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وحيث بركت ناقته ، وهو محمول عليها [مسجّى] ميتا ، على ما يُذْكَر . ويقال : إن قبره فيه ، والله الأعلم[1] بصحة ذلك . وفى هذا المشهد بناء حفيل ، على ما ذُكر لنا ، لأنا لم نشاهدْه بسبب أن وقت المُقام بالكوفة ضاق عن ذلك ، لأنا لم نبت فيها سوى ليلة يوم السبت . وفى غداته رحلنا ، ونزلنا قريبَ الظهر على نهر منسرب من الفرات . والفرات من الكوفة على مقدار نصف فرسخ ، مما يلى الجانب الشرقىّ . والجانب الشرقىّ كله حدائق نخيل ملتفّة ، يتصل سوادها ، ويمتد امتداد البصر . ورحلنا من ذلك الموضع ، وبتنا ليلة الأحد منسلَخ محرم ، بمقربة من « الحِلّة » ثم جئناها يوم الأحد المذكور .

ذكر مدينة الحِلّة ، حَرَسها الله تعالى

هى مدينة كبيرة ، عتيقة الوضع ، مستطيلة ، لم يبقَ من سورها إلا حَلَقٌ من جدار تُرابىّ مستدير بها . وهى على شط الفرات ، يتصل بها من جانبها الشرقىّ ، ويمتد بطولها . ولهذه المدينة أسواق حفيلة ، جامعة للمرافق المدنية ، والصناعات الضرورية . وهى قوية العمارة ، كثيرة الخلق ، متصلة حدائق النخيل داخلا وخارجا ، فديارها بين حدائق النخيل . وألفينا بها جسرا

(١) ط : أعلم .

عظيما ، معقودا على مراكب كبار ، متصلة من الشطّ إلى الشطّ ، تحف بها من جانبيها[١] سلاسل من حديد ، كالأذرع المفتولة عِظما وضخامة ، ترتبط إلى خُشُب مُثْبَتة فى كلا الشطين ، تدل على عظم الاستطاعة[٢] والقدرة ؛ أَمَرَ الخليفة بعقده على الفرات ، اهتماما بالحاجّ ، واعتناء بسبيله ، وكانوا قبل ذلك يعبرون فى المراكب . فوجدوا هذا الجسر قد عقده الخليفة فى مغيبهم ، ولم يكن عند شخوصهم إلى مكة شرّفها الله . وعبرنا الجسر ظهر يوم الأحد المذكور ، ونزلنا بشط الفرات ، على مقدار فرسخ من البلد . وهذا النهر كاسمه فُرات ، هو من أعذب المياه وأخفّها ، وهو نهر كبير زَخّار ، تصعد فيه السفن وتنحدر . والطريق من الحِلة إلى بغداد أحسن طريق وأجملها ، فى بسائط [من الأرض] وعمائر ، تتصل بها القرى يمينا وشمالا . ويشق هذه البسائط أغصان من نهر[٣] الفرات ، تتسرّب بها وتسقيها ، فمَحْرَثُها لا حدّ لاتساعه وانفساحه ، فللعين فى هذه الطريق مسرح انشراح ، وللنفس مراد[٤] انبساط وانفساح ، والأمن فيها[٥] متصل ، بحمد الله [سبحانه وتعالى] .

* * *

(١) ط : جانبها .

(٢) ط : خـ : الاستطاع .

(٣) ط : ماء .

(٤) خ ، ط : مراح .

(٥) ص : والأمر فيه .

شهر صفر سنة ثمانين ، عَرّفنا الله بركته ويُمنه[١]

هلاله على الكمال من ليلة الاثنين ، بموافقة الرابع عشر من مايه ، استهل[٢] ونحن على شطّ الفرات ، بظاهر مدينة الحلة .

وفى ضحوة يوم الاثنين المذكور ، رحلنا وأجزنا جسرا على نهر يسمى « النيل » ، هو[٣] فرع متشعّب من الفرات . وكان عليه ازدحام غرّق[٤] كثيرا من الناس والدواب فى الماء . فتنحّينا مُريحين إلى أن انفرج ذلك المزدحَم ، وعبرنا على سلامة وعافية ، والحمد لله .

ومن مدينة الحِلة يتسلسل الحاجّ أرْسالا[٥] ، وأفواجا أفواجا : فمنهم المتقدّم ، والمتوسّط ، والمتأخّر ، لا يعرّج المستعجل على المتعذّر ، ولا المتقدّم على المتأخّر ، فحيثما شاءوا من طريقهم نزلوا وأراحوا واستراحوا ، وسكنت نفوسهم من رَوْعة نقر كوس الأمير[٦] ، الذى كانت الأفئدة ترجُف له بِدارا للرحيل ، واستعجالا للقيام ، فربما كان النائم منهم يهذى بنقر الكُوس ، فيقوم عجلا وَجِلا ، ثم يتحقّق أنها من أضغاث أحلامه ، فيعود إلى منامه . ومن جملة الدواعى لافتراقهم ، كثرة القناطير[٧] المعترِضة فى طريقهم إلى بغداد ، فلا تكاد تمشى ميلا إلا وتَجِد قنطرة على نهر متفرّع من الفرات ، فتلك

---

(١) ط : يمنه وبركته .
(٢) ط : استهل هلاله .
(٣) ط : وهو .
(٤) ط : فغرق كثير .
(٥) ص : يتسلل . والأرسال : جمع رسل ، وهو الجماعة .
(٦) ط : الكوس ، وهو نوع من الطبل .
(٧) ش : القناطر .

الطريق أكثر الطرق سواق وقناطير ، وعلى أكثرها خيام ، فيها رجال مُحترسون للطريق ، اعتناء من الخليفة بسبيل الحاج ، دون اعتراض منهم لاستنفاع بكُدْيَة[١] أو سواها . فلو زاحم ذلك البشرُ تلك القناطير دفعة ، لما فرغوا من عبورها ، ولتراكموا وقوعا بعضٌ[٢] على بعض ، والأمير طَاشْتكين المتقدم الذكر يقيم بالحلة مقدار[٣] ثلاثة أيام ، إلى أن يتقدّم جميع الحاجّ ، ثم يتوجّه إلى حضرة خليفته . [وهذه الحلة المذكورة طاعة بيده للخليفة] . وسيرة هذا الأمير فى الرفق بالحاج ، والاحتياط عليهم ، والاحتراس لمقدِّمَتهم وساقَتِهم ، وضَمّ نَشَر ميمنتهم وميسرتهم ، سيرة محمودة ، وطريقته فى الحزم وحسن النظر طريقة سديدة ، وهو من التواضع ، ولين الجانب ، وقرب المكان ، على وتيرة سعيدة ، نفعنا[٤] الله ، ونفع المسلمين به .

وفى عصر يوم الاثنين المذكور ، نزلنا بقرية تعرف « بالقَنْطَرة » كثيرة الخِصب ، كبيرة الساحة ، متدفقة جداول الماء ، وارفة الظلال بشجرات الفواكه ، من أحسن القرى وأجملها ، وبها قنطرة على فرع من فروع الفرات ، كبيرة محدَوْدِبة ، يُصْعَد إليها ، وينحدر عنها ، فتعرف القرية بها ، وتعرف أيضا « بحصن بَشِير » . وألفينا حصاد الشعير بهذه الجهات ، فى هذا الوقت الذى هو نصف مايه .

ورحلنا من القرية المذكورة ، سَحَر يوم الثلاثاء الثانى لصفر ، فنزلنا

---

(١) الكدية : الشحاذة . (٢) ص : بعضا .

(٣) مقدار : ليست فى ط . (٤) ط : نفعه .

قائلين ضحوته بقرية تعرف « بالفَرَاش »[١] ، كثيرة العمارة ، يشقها الماء ، وحولها بسيط أخضر جميل المنظر . وقرى هذه[٢] الطريق من الحلة إلى بغداد على هذه الصفة[٣] ، من الحسن والاتساع . وفى هذه القرية المذكورة خانٌ كبير ، محدق[٤] به جدار عال ، له شرفات صغار .

ثم رحلنا منها ، ونزلنا عشيَّ النهار بقرية تعرف « بزَرِيران »[٥] ، وهذه القرية من أحسن قرى الأرض ، وأجملها منظرا ، وأفسحها ساحة ، وأوسعها اختطاطا ، وأكثرها بساتين ورياحين وحدائق نخيل . وكان بها سوق تقصر عنه أسواق المدن . وحسبُك من شرف موضوعها أن دجلة تسقى شرقيها ، والفرات يسقى غربيها ، وهى كالعروس بينهما ، والبسائط والقرى والمزارع متصلة بين هذين النهرين الشريفين المباركين . ومن شرف هذه القرية أيضا أن بإزائها ، فى جهة[٦] الشرق منها ، إيوان كِسْرَى ، وأمامها مَدَائنه . وهذا الإيوان بناء عالٍ فى الهواء ، شديد البياض ، لم يبقَ فيه[٧] من قصوره إلا البعض ، فعاينّاه على مقدار الميل ساميَةً مُشْرِفة [مُشْرقة] . وأما المَدَائن فخراب ، اجتزنا عليها سَحَر يوم الأربعاء الثالث لصفر ، فعاينّا من طولها واتساعها مرأى عجيبا . ومن فضل[٨] هذه القرية المذكورة[٩] أيضا أن بالشرق منها ، بمقدار نصف فرسخ ، مَشْهد سَلْمان الفارسىّ رضى الله عنه .

---

(١) ص : بالفراس . وفى معجم ياقوت : فراشى ، بفتح الشين .

(٢) ط : هذا .

(٣) ش : على صفة الفراش .

(٤) ط : يحدق .

(٥) خ : بزويران . ش : بلدريدان .

(٦) ط : الجهة .

(٧) فيه : ليست فى ط .

(٨) ط : فضائل .

(٩) المذكورة : ليست فى ط .

فما اختصّت [تربتها] بهذا الدفين المبارك ، رضى الله عنه ، إلا لفضل خصها الله به[١] . والقرية على شط دجلة ، وهى تعترض بينها وبين المشهد الكريم المذكور . وكنا سمعنا أن هواء بغداد يُنْبت السّرور فى النفس ويبعثها دائما[٢] على الانبساط والأنس ، فلا تكاد تجد فيها إلا جذلان طَرِبا ، وإن كان[٣] نازح الدار مغترِبا ، حتى حللنا بهذا[٤] الموضع المذكور ، وهو على مرحلة منها . فلما نفحتنا نوافحُ هوائها ، ونقعنا الغُلّة ببرد مائها ، أحسسنا من نفوسنا ، على حال وَحْشة الاغتراب ، دواعى من الإطراب ، واستشعرنا بواعث فرح كأنّه فرحة الغُيّاب بالإياب ، وهبّت بنا محرّكات من الأنس ، ذكّرتنا[٥] معاهد الأحباب ، فى عصر[٦] الشباب . هذا للغريب النازح الوطن ، فكيف للوافِد فيها على أهل وسَكَن !

سَقَى الله بابَ الطاق صوبَ غمامةٍ وردَّ إلى الأوطـــان كلَّ غريب

وفى سحر يوم الأربعاء المذكور ، رحلنا من القرية المذكورة ، واجتزنا على « مدائن كسرى » حسبما ذكرناه ، وانتهينا إلى « صَرْصَر » وهى أخت زَريران[٧] المذكورة حسنا ، أو قريب[٨] منها . ويمر بجانبها القبلىّ نهر كبير ، متفرع من الفرات ، عليه جسر معقود على مراكب ، تحفّ بها من الشطّ إلى الشطّ سلاسل حديد عظام ، على الصفة التى ذكرناها فى جسر الحلة .

---

(١) ط : لفضل تربتها .

(٢) ط : فى القلب ويبعث النفس .

(٣) كان : ليست فى خـ .

(٤) ص : هذا .

(٥) ص : وهفت . ط : من الإطراب ... أذكرتنا .

(٦) ط : ريعان .

(٧) خـ : زويران . ش : دريدان .

(٨) ص : أو أقرب .

فعبرناه وأجزنا القرية ، ونزلنا قائلين ، وبيننا وبين بغداد نحو ثلاثة فراسخ . وبهذه القرية سوق حفيلة ، ومسجد جامع كبير جديد . وهي من القرى التي تملأ النفوس بهجة وحسنا . وهذان النهران الشريفان دجلة والفرات قد أغنت شهرتهُما عن صفتهما[١] ، وملتقاهما ما بين واسط والبصرة ، ومنها انصبابهما إلى البحر ، ومجراهما من الشمال إلى الجنوب . وحسبُهما ما خصهما الله به من الفضل ، هما وأخوهما[٢] النيل ، مما هو مذكور مشهور . ورحلنا من ذلك الموضع ، قُبَيل الظهر من يوم الأربعاء المذكور ، وجئنا « بغداد » قُبيل العصر ، والمدخل إليها على بساتين وبسائط يقصر الوصف عنها .

ذكر مدينة السَّلام بغداد ، حَرَسها الله [تعالى]

هذه المدينة العتيقة ، وإن لم تزل حضرة الخلافة العباسية ، ومَثابة الدعوة الإمامية القرشية الهاشمية ، قد ذهب أكثر رسمها ، ولم يبق منها إلا شهير اسمها . فهي بالإضافة لما[٣] كانت عليه ، قبل إنحاء[٤] الحوادث عليها ، والتفات أَعْيُن النّوائب إليها ، كالطَّلَل الدارس ، والأثر الطامس ، أو تمثال الخيال الشاخص ، فلا حسن فيها يستوقف البصر ، ويستدعي من المستوفز العقلةَ[٥] والنظر ، إلا دجلتها ، التي هي بين الشرقية والغربية[٦] منها ، كالمرآة المجلوة بين

---

(١) ط : وصفهما . (٢) ط : البركة هما وأخاهما .

(٣) ط : وهي بالإضافة إلى ما . (٤) أنحت عليه الحوادث : عاودته .

(٥) المستوفز : الماضي المسرع . العقلة : الوقوف .

(٦) ط : شرقيها وغربيها .

صفحتين ، أو العقد المنتظم [بين] لَبَّتين[١] ، فهى تَرِدها ولا تظمأ ، وتتطلع منها فى مرآة صقيلة لا تصدأ ، والحسنُ الحَرِيمِىّ بين هوائها ومائها ينشأ ، هو[٢] من ذلك على شهرة فى البلاد معروفة موصوفة ، ففِتَن الهوى إلا أن يعصم الله فيها[٣] مخوفة .

وأما أهلها فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع بالتواضُع رِيَاء ، ويذهب بنفسه عجبا وكبرياء ، يزدرون الغرباء ، ويُظْهِرون لمن دونهم الأنفة والإباء ، ويستصغرون عمن سواهم الأحاديث والأنباء ، قد تصور كل منهم فى معتقَده وخَلَده ، أن الوجود كله يصغر بالإضافة لبلده ، فهم لا يستكرمون فى معمور البسيطة مَثْوًى غير مثواهم ، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلادا وعبادا[٤] سواهم ، يسحبون أذيالهم أَشَرا وبَطَرا ، ولا يُغيّرون فى ذات الله منكرا ، يظنون أن أسنى الفخار فى سحب الإزار ، ولا يعلمون أن فَضْلَه بمقتضَى الحديث المأثور فى النار[٥] ، يتبايعون بينهم بالذهب قرضا ، وما منهم من يحسن لله قَرْضا[٦] ، فلا نفقة فيها إلا من دينار تَقْرِضه ، وعلى يدى مُخْسِر للميزان تَعْرِضه ، لا تكاد تظفر من خواصّ أهلها بالوَرِع العفيف ، ولا تقع من أهل موازينها ومكاييلها إلا على[٧] من ثبت له الوَيْل فى سورة التطفيف ،

---

(١) اللبة : موضع القلادة من الصدر . (٢) ر : هى .

(٣) ط : منها . (٤) ط : أو عبادا .

(٥) يشير إلى الحديث : « ما أسفل من الكعبين من الإزار ففى النار » . انظر البخارى : كتاب اللباس ، الباب ٤ ؛ وابن ماجه : اللباس ٧ ؛ ومسند ابن حنبل ٢ : ٩٦ ، ٢٨٧ ، ٤١٠ وغيرها .

(٦) جعلها ر : قرضا ، إشارة إلى الآية : « أقرضوا الله قرضا حسنا » .

(٧) على : ليست فى خـ .

لا يُبالون فى ذلك بعيب ، كأنهم من بقايا مَدْيَن قوم النبى شُعَيب . فالغريب فيهم معدوم الإرفاق ، متضاعف الإنفاق ، لا يجد من أهلها إلا من يعامل بنِفاق ، أو يَهَشّ له هَشاشة استنفاع واسترفاق[١] ، كأنهم من التزام هذه الخَلَّة القبيحة على شرط اصطلاح بينهم واتفاق ، فسوء معاشرة أبنائها ، يغلب على طبع هوائها ومائها ، ويُقلِّل[٢] حسن المسموع من أحاديثها وأنبائها . أستغفر الله إلا فقهاءهم المُحدِّثين ، ووعّاظهم المُذكِّرين ، لا جَرَم أن لهم فى طريقة الوعظ والتذكير ، ومداومة التنبيه والتبصير ، والمثابرة[٣] على الإنذار المخوّف والتحذير ، مقاماتٍ تستنزل لهم من رحمة الله تعالى ما يحيط كثيرا من أوزارهم ، ويسحب ذيلَ العفو على سوء آثارهم ، ويمنع القارِعة[٤] الصمّاء أن تحل بدارهم[٥] ، لكنّهم معهم يضربون فى حديد بارد ، ويرومون تفجير الجَلامِد . ولا[٦] يكاد يخلو يوم من أيام جُمُعاتهم من واعظ يتكلم فيه ، فالموفَّق منهم[٧] لا يزال فى مجلس ذكرٍ أيّامَه كلها ، لهم فى ذلك طريقة مباركة ملتزمة .

فأول من[٨] شاهدنا مجلسه منهم ، الشيخ الإمام رضىّ الدين القَزْوِينى[٩] رئيس الشافعية ، وفقيه المدرسة النظامية ، والمشار إليه بالتقديم فى العلوم

(١) ط : يعامله .. إليه .. انتفاع . (٢) ط : ويعلل ، أى يضعف .
(٣) خـ : والمثابة . (٤) القارعة : الداهية .
(٥) ط : بديارهم . (٦) ط : فلا .
(٧) ط : فيهم . (٨) ص : ما .
(٩) خـ : القرونى ، تحريف . وهو أبو الحسين أحمد بن إسماعيل الطالقانى ، كان إماما فى مذهب الشافعية والخلاف والأصول والتفسير والوعظ والزهد . ولد فى ٥١٢ أو ٥١١ ومات ٥٩٠ .

الأصولية . حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة ، إثر صلاة العصر من يوم الجمعة الخامس لصفر المذكور . فصعد المنبر ، وأخذ القراء أمامه فى القراءة ، على كراسىّ موضوعة ، لهم فنمّقوا[١] وشَوَّقوا ، وأتوا بتَلَاحين فى التلاوة[٢] معجبة ، ونغمات محركة[٣] مطربة . ثم اندفع الشيخ الإمام المذكور ، فخطب خطبة سكون ووقار ؛ وتصرّف فى أفانين من العلوم ، من تفسير كتاب الله عز وجل ، وإيراد حديث رسول الله[٤] ﷺ ، والتكلم على معانيه . ثم رَشَقَتْه شآبيبُ المسائل من كل جانب ، فأجاب وما قصَّر ، وتقدم وما تأخَّر : ورُفِعت إليه عدّة رقاع منها[٥] ، فجمعها جملة فى يده ، وجعل يجاوب عن[٦] كل واحدة منها ، وينبذ بها ، إلى أن فرغ منها . وحان المساء فنزل[٧] ، وافترق الجمع . فكان مجلسه مجلس علم ووعظ ، وَقُورا هيّنا ليّنا ، ظهرت فيه البركة والسَّكينة ، ولم تقصر عن إرسال عبرتها فيه النفسُ المستكينة ، ولا سيما آخر مجلسه ، فإنه سَرَتْ حُمَيّا وعظِه إلى النفوس ، حتى أطارتها خشوعا ، وفجرتْها دموعا ، وتبادر[٨] التائبون إليه سقوطا على يده ووقوعا ، فكم ناصيةٍ جزَّ ، وكم مَفْصِلٍ من مفاصل التائبين طَبّق بالموعظة وحزَّ ، فبمثلِ مقام هذا الشيخ المبارك يُرحَم العُصاة ، وتُتغمَّد الجناة ، وتستدام العصمة والنجاة ، والله عز وجل[٩] يجازى كل ذى مقام عن

---

(١) ط : موضوعة فتوقوا .

(٢) فى التلاوة : ليست فى ط .

(٣) ط : محرجة .

(٤) ط : رسوله .

(٥) ط : ودفعت . ر : فيها .

(٦) ط : على .

(٧) ص : ونزل .

(٨) ط : وبادر .

(٩) ط : تعالى .

مقامه، ويعيذ[١] ببركة العلماء الأولياء عبادَه العاصين من سخطه وانتقامه، برحمته وكرمه، إنه المنعم الكريم، لا رب سواه، ولا معبود إلا إياه.

وشهدنا مجلسا آخر[٢]، إثر صلاة العصر من يوم الجمعة الثانى عشر من الشهر المذكور. وحضر ذلك اليوم مجلسَه سيدُ العلماء الخراسانية، ورئيس الأئمة الشافعية، ودخل المدرسة النظامية بهَزٍّ عظيم وتَطْرِيف آماق[٣]، تشوقت له النفوس. فأخذ الإمام المتقدم الذكر فى وعظه مسرورا بحضوره، متجمّلا[٤] به، فأتى بأفانين من العلم[٥] على حسب مجلسه المتقدّم الذكر. ورئيس العلماء المذكور، هو صدر الدين الخُجَنْدى، المتقدم الذكر فى هذا التقييد، المشتهر المآثر والمكارم، المقدَّم بين الأكابر والأعاظم.

ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده، مجلس الشيخ الفقيه، الإمام الأوحد، جمال الدين أبى الفضائل بن على الجَوْزِىّ[٦]، بإزاء داره على الشَّط، بالجانب الشرقى وفى آخره، على اتصال من قصور الخليفة، وبمقربة من باب البَصَلِيّة آخر أبواب الجانب الشرقى، وهو يجلس به كل يوم سبت. فشاهدنا مجلس رجل ليس من عَمْرو ولا زيد، وفى جوف الفَرَا كلُّ

---

(١) ط : ويتغمد. (٢) ط : وشهدنا له فيها مجلسا ثانيا.

(٣) ص : وتطريق أمامه. وأصلح ر السياق كما أثبتناه. والمراد بالهز هنا الموكب ذو الصوت والجلبة، مما جعل أعينهم تطرف دهشا وإعجابا.

(٤) ط : ومتجملا. (٥) ط : العلوم.

(٦) هو أبو الفرج عبد الرحمن، كان علامة عصره، وإمام وقته فى الحديث والوعظ، وصنف كتبا عدة فى فنون كثيرة. ولد فى ٥٠٨ أو ٥١٠ ومات فى ٥٩٧.

الصيد(١) ، آية الزمان ، وقُرّة عين الإيمان ، رئيس الحنبلية(٢) ، والمخصوص فى العلوم بالرتب العلية ، إمام الجماعة ، وفارس حلبة هذه الصناعة ، والمشهود له بالسبق الكريم فى البلاغة والبراعة ، مالك أزمة الكلام فى النظم والنثر ، والغائص فى بحر فكره(٣) على نفائس الدُّر ، فأما نظمه فَرَضِيّ الطِّبَاع ، مِهْيارِيُّ(٤) الانْطِبَاع ؛ وأما نثره فيصدع بسحر البيان ، ويُعطِّل المثل بقُسّ وسَحْبان . ومن أبهر آياته ، وأكبر معجزاته ، أنه يصعد المنبر ، ويبتدئ القرّاء بالقراءة(٥) ، وعددهم نَيِّف على العشرين قارئا ، فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القراءة ، يتلونها على نسق بتَطْريب وتشويق فإذا فرغوا ، تلت طائفة أخرى على عددهم آيةً ثانية . ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات ، إلى أن يتكاملوا قراءة ، وقد أتوا بآيات مشتبهات(٦) ، لا يكاد المتَّقد الخاطر يحصّلها عدة(٧) ، أو يسمّيها نسقا . فإذا فرغوا أخذ هذا الإمام الغريب الشأن فى إيراد خطبته ،عَجِلا مبتدرا ،وأفرغ فى أصداف الأسماع من ألفاظه دُرَرا ، وانتظم أوائل الآيات المقروءات فى أثناء خطبته فِقَرا ، وأتى بها على نسق القراءة لها ، لا مقدّما ولا مؤخّرا . ثم أكمل الخطبة على قافية آخرِ آية منها . فلو أن أبرع(٨) مَنْ فى مجلسه تكلّف تسمية ما قرأ القُرّاء [آيةً آيةً] على الترتيب ، لعَجَزَ عن ذلك . فكيف بمن ينتظمها مرتجلا ، ويورد الخطبة

---

(١) الفرا : الحمار الوحشى . وهذان مثلان ، يريد بهما أن ابن الجوزى لا مثيل له .

(٢) ص : الجعلية . (٣) ص : من بحر فكرته .

(٤) رضى الطباع : شبيه فى طبعه بالشريف الرضى . ومهيارى : شبيه بمهيار الديلمى . وهما شاعران عباسيان مشهوران . (٥) ط : بالقرآن .

(٦) ص : متشابهات . (٧) ط : عددا .

(٨) ط : أبدع .

الغراء بها عَجِلا ! « أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ »[١] ، « إِنَّ هَذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ »[٢] فحَدِّثْ عن البحر[٣] ولا حَرَج ، وهيهات ، ليس الخَبَر عنه كالخُبْر ! ثم إنه أتى بعد أن فرغ من خطبته برَقائق من الوعظ ، وآيات بيّنات من الذكر ، طارت لها القلوب اشتياقا ، وذابت بها الأنفس احترافا ، إلى أن علا الضجيج ، وتردد بشهَقَاته النشيج ، وأعلن التائبون بالصياح ، وتسافطوا عليه تساقُطَ الفَراش على المصباح ، كلّ يُلْقِي ناصيته بيده فيجزّها ، ويمسح على رأسه داعيا له ، ومنهم من يُغْشَى عليه ، فيُرْفَع فى الأذرع إليه . فشاهدنا هولا يملأ الأنفس[٤] إنابة وندامة ، ويذكّر بأهوال[٥] يوم القيامة ، فلو لم نركب ثَبَج البحر ، ونعتسف مفازة[٦] القفر ، إلا لمشاهدة مجلس من مجالسه[٧] ، لكانت الصفقةَ الرابحة ، والوِجهة المُفْلِحة الناجحة ، والحمد لله على أنْ مَنّ بلقاء من تشهد الجماداتُ بفضله ، ويضيق الوجود عن مثله . وفى أثناء مجلسه ذلك تبتدره[٨] المسائل ، وتطير إليه الرقاع ، فيجاوب أسرعَ من طَرْفة العين[٩] . وربما كان أكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، لا إلٰه سواه .

ثم شاهدنا مجلسا ثانيا له ، بُكرةَ يوم الخميس الحادى عشر لصفر ، بباب بَدْر ، فى ساحة قصور الخليفة ، ومناظره مُشْرِفة عليه . وهذا الموضع المذكور ،

---

(١) سورة الطور ، الآية ١٥ .
(٢) سورة النمل الآية ١٦ .
(٣) ط : ولا حرج عن البحر .
(٤) ط : النفوس .
(٥) ط : ويذكرها هول .
(٦) ط : مفازات .
(٧) ط : مجالس هذا الرجل .
(٨) ط : يبتدرون .
(٩) ط : عين .

هو من حرم الخليفة ، وخُصّ بالوصول إليه والتكلّم فيه ، ليسمعه من تلك المناظر الخليفةُ ووالدتُه ، ومن يحضر[١] من الحُرَم . ويُفْتَح الباب للعامة ، فيدخلون إلى ذلك الموضع ، وقد بُسِط بالحُصُر . وجلوسه بهذا الموضع كل خميس . فبكرنا لمشاهدة هذا[٢] المجلس المذكور ، وقعدنا إلى أن وصل هذا الحَبْر المتكلم ، فصعد المنبر ، وألقى[٣] طيلسانه عن رأسه تواضُعا لحرمة المكان ، وقد تسطّر القرّاء أمامه على كراسيّ موضوعة ، فابتدروا[٤] القراءة على الترتيب ، وشوّقوا ما شاءوا وطربوا[٥] ما أرادوا . وبدأت[٦] العيون بإرسال طَلّ[٧] الدموع . فلما فرغوا من القراءة ، وقد أحصينا لهم تسع آيات من سور مختلفات ، صدع بخطبته الغراء الزهراء[٨] ، وأتى بأوائل الآيات فى أثنائها منتظمات ، ومشى الخطبةَ على فِقْرَة آخر آية منها فى الترتيب ، إلى أن أكملها ، وكانت الآية « اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ »[٩] ، فتمادى على هذه السِّين[١٠] ، وحسّن أيَّ تحسين . فكان يومه فى ذلك أعجب من أمسه . ثم أخذ فى الثناء على الخليفة ، والدعاء له ولوالدته ، وكنى عنها بالسِّتْر الأَشْرف ، والجناب الأَرْأَف . ثم سلك سبيله فى الوعظ . كلُّ ذلك بديه[١١] لا رَوِيّة ؛

---

(١) ط : حضر .

(٢) ط : لمشاهدته بهذا .

(٣) ط : وأرخى .

(٤) خـ : فابترزوا .

(٥) ط : وأطربوا .

(٦) خـ : بدرت . ر : بادرت .

(٧) طل : ليست فى ط .

(٨) ط : الزهراء الغراء .

(٩) سورة غافر ، الآية ٦١ . وفى ط : هذا .

(١٠) أى فى الكلام المسجوع بحرف السين .

(١١) ط : بديهة .

ويصل كلامه فى ذلك بالآيات المقروءات ، على النسق مرة أخرى .
فأرسلت وابلها العيون ، وأبدت النفوس سر شوقها المكنون ، وتَطارَح الناس عليه بذنوبهم معترفين . وبالتوبة مُعْلِنين ، وطاشت الألباب والعقول ، وكثر الوَلَه والذهول ، وصارت الأنفس[١] لا تملك تحصيلا ، ولا تميّز معقولا ، ولا تجد للصبر سبيلا . وفى[٢] أثناء مجلسه ينبز[٣] بأشعار من النسيب مبرحة التشويق ، بديعة الترقيق ، تشعل القلوب وَجْدا ، ويعود موضوعها[٤] النَّسِيبىّ زُهْدا . وكان آخر ما أنشده من ذلك ، وقد أخذ المجلس مأخذه من الاحتدام[٥] ، وأصابت المَقَاتلَ سهامُ ذلك المقام[٦] :

أين فؤادى أذابه الوجدُ ؟ وأين قلبى ؟ أما صحا بعدُ ؟[٧]
يا سعد زِدْنى جَوًى بذكرهمُ بالله قُلْ لى فُدِيتَ — يا سعد

ولم يزل يردّدها والانفعال قد أثّر فيه ، والمدامع تكاد تمنع خروج الكلام من فيه ، إلى أن خاف الإفحام ، فابتدر القيام ، ونزل عن المنبر دَهِشا عَجِلا ، وقد أطار القلوب وَجَلا ، وترك الناس على أحرّ من الجمر ، يشيّعونه بالمدامع الحُمْر ؛ فمن مُعْلِن بالانتحاب ، ومن مُتعفِّر فى التراب . فيا له[٨] من مشهد ما أَهْوَل مرآه ، وما أسعد من رآه ! نفعنا الله ببركته ، وجعلنا ممن فاز فيه[٩] بنصيب من رحمته ، بمنّه وفضله .

---

(١) ط : النفوس .
(٢) ط : ثم فى .
(٣) ط : ينشد .
(٤) ط : موضعها . تحريف .
(٥) ط : الاحترام . تحريف .
(٦) ط : ذلك الكلام .
(٧) ط : فما .
(٨) ص : فيا لك .
(٩) ط : فاز به .

وفى أول مجسله ، أنشد قصيدا نَيِّر القَبَس ، عِرَاقىّ النفَس ، فى الخليفة ، أوله :

فى شُغْلٍ من الغـرام شاغـلِ   مَن هاجه البرقُ بسفح عاقِـلِ

يقول فيه عند ذكر الخليفة :

يا كلمـاتِ الله كونى عُوذَةً   من العيـون للإمـام الكامـلِ

ففرغ من إنشاده ، وقد هزّ المجلس طربا ، ثم أخذ فى شأنه ، وتمادى فى إيراد سحر بيانه . وما كنا نحسب أن متكلما فى الدنيا يُعْطَى من ملكة النفوس والتلاعُب بها ، ما أُعْطِى هذا الرجل ، فسبحان من يخصّ بالكمال من يشاء من عباده ، لا إلٰه غيره .

وشاهدنا بعد ذلك مجالس لسواه من وُعّاظ بغداد ، ممن يستغرب[1] شأنه ، بالإضافة لما عهدناه من متكلمى الغرب[2] . وكنا قد شاهدنا بمكة والمدينة ، شرفهما الله ، مجالس مَنْ قد ذكرناه فى هذا التقييد من فقهاء الأعاجم[3] فصغرت ، بالإضافة لمجلس هذا الرجل الفذ ، فى نفوسنا قدرا ، ولم نستطب لها ذكرا . وأين تَقَعان مما أريد ، وشَتّانَ بين اليزيدَيْن[4] ، وهيهات ! الفتيانُ كثير ، والمثل بمالكٍ يسير[5] ! ومن لنا[6] بعده بمجلس

---

(١) ط : نستغرب .   (٢) ط : الغروب .

(٣) من فقهاء الأعاجم : ليست فى ط . (٤) مثل منتزع من البيت المشهور لربيعة الرق :

لشتان ما بين اليزيدين فى الندى   يزيد سليم والأغر ابن حاتم

وانظر الكامل للمبرد ١٦٣ .   (٥) لعله يريد المثل القائل : « لا يترك مثل مالك » وانظر أمثال العرب الفريتاج ٢ : ٥٣٢ .

(٦) ط : ونزلنا . تحريف .

يطيب سماعه ، ويروق استطلاعه !

وحضرنا له مجلسا ثالثا ، يوم السبت الثالث عشر لصفر ، بالموضع المذكور ، بإزاء داره على الشط الشرقى . فأخذت معجزاتُه البيانية مأخذَها ، فشاهدنا من أمره عجبا ، صعد بوعظه أنفاس الحاضرين سُحبا ، وأسال من أدمعهم وابلا سَكْبا[١] . ثم جعل يردد [فى] آخر مجلسه أبياتا من النسيب ، شوقا زُهْدِيا وطربا ، إلى أن غلبته الرقة ، فوثب من أعلى منبره والِها مكتئبا ، وغادر الكلَّ ملتدما[٢] على نفسه منتحبا ، لهفان ينادى : يا حسرتا ويا حَرَبا[٣] ، [والنادبون] يدورون بنحيبهم دَوْرَ الرحى ، وكلّ منهم بَعْدُ[٤] من سَكْرته ما صَحَا ، فسبحان من خلقه عبرةً لأولى الألباب ، وجعله لتوبة عباده أقوى الأسباب ، لا إلٰه سواه .

ثم نرجع إلى ذكر بغداد :

هى كما ذكرنا[٥] جانبان : شرق وغربى ، ودجلة بينهما . فأما الجانب الغربى ، فقد عمّه الخراب ، واستولى عليه ، وهو[٦] كان المعمورَ أولا . وعمارة الجانب الشرقى مُحْدَثة ، لكنه مع استيلاء الخراب عليه يحتوى على سبع عشرة محلة ، كل محلة منها مدينة مستقلة ، وفى كل واحدة منها الحَمّامان ، والثلاثة ، والثمانية[٧] منها ، بجوامع يُصَلّى فيها الجمعة . فأكبرها « القُرَيّة » ،

---

(١) ص : منسكبا . وآثرنا رواية ر لتستقيم السجعة .

(٢) ط : منتدما . والتدم : اضطرب ، ولطم .

(٣) ط : وا حربا . (٤) ص : بعده .

(٥) ط : ذكرناه . (٦) هو : ليست فى ط .

(٧) ش : وصلاة الجمعة فى ثمان منها ، وأكبرها القرية ، والضمائر تعود إلى المحلات .

وهى التى نزلنا فيها برَبَض منها يعرف بالمربَّعة ، على شط دجلة بمقربة من الجسر ، فحملته دجلة بمَدّها السيلى ، فعاد الناس يعبرون فى الزوارق[١] ، والزوارق فيها لا تُحْصَى كثرة ، والناس[٢] ليلا ونهارا من تمادِى العبور فيها فى نزه متصلة[٣] رجالا ونساء . والعادة أبدا[٤] أن يكون لها جسران : أحدهما مما يقرب من دُور الخليفة والآخرة فوقه ، لكثرة الناس . والعبور فى الزوارق لا ينقطع معهما[٥] .

ثم « الكَرْخ » ، وهى مدينة مُسَوَّرة[٦] .

ثم محلة « باب البصرة » ، وهى أيضا مدينة ، وبها جامع المنصور رحمه الله ، وهو جامع كبير ، عتيق البنيان حفيله .

ثم « الشارع » ، وهى أيضا مدينة . فهذه الأربع أكبر المحلات . وبين الشارع ومحلة باب البصرة سوق المارَسْتان ، وهى مدينة صغيرة ، فيها المارستان الشهير ببغداد ، وهو على دجلة ، وتتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس ، ويطالعون أحوال المرضى به ، ويرتّبون لهم أخذ ما يحتاجون لأخذه[٧] وبين أيديهم قَوَمة لذلك[٨] يتناولون طبخ الأدوية والأغذية . وهو قصر كبير ، فيه المقاصير ، والبيوت ، وجميع مرافق المساكن الملوكية ، والماء يدخل إليه من دجلة .

---

(١) ط : بالزوارق . (٢) ط : فالناس .

(٣) ط : نزهة . وزادت خـ هنا ثانية : لا تحصى .

(٤) أبدا : ليست فى ط . (٥) ط : ينقطع منها .

(٦) ش : مشهورة . (٧) ط : يحتاجون إليه .

(٨) لذلك : ليست فى ط .

وأسماء سائر المحلات يطول ذكرها « كالوَسِيطة »[1] وهى بين دجلة ونهر يتفرع من الفرات وينصبّ فى دجلة ، يجيء فيه جميع المرافق التى فى الجهات التى يسقيها الفرات . ويشق على باب البصرة الذى[2] ذكرنا محلته نهر آخر منه ، وينصب أيضا فى دجلة .

ومن أسماء المحلات « العَتّابية » ، وبها تُصْنَع الثياب العَتّابية ، وهى حرير وقطن مختلفات الألوان .

ومنها « الحَرْبِيّة » ، وهى أعلاها ، وليس وراءها إلا القرى الخارجة عن بغداد إلى أسماء يطول ذكرها .

وبإحدى هذه المحلّات قبر مَعْرُوف الكَرْخِىّ ، وهو رجل من الصالحين ، مشهور الذكر فى الأولياء . وفى الطريق إلى باب البصرة مشهد حفيل البنيان ، داخله قبر متّسع السنام ، عليه مكتوب : « هذا قبر عَوْن ومَعِين ، من[3] أولاد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه » . وفى الجانب الغربىّ أيضا قبر موسى بن جعفر رضى الله عنهما ، إلى مشاهد كثيرة لمن[4] لم تحضرنا تسميتُه من الأولياء ، والصالحين ، والسلف الكريم ، رضى الله عن جميعهم .

وبأعلى الشرقيّة خارج البلد ، محلة كبيرة بإزاء محلة الرُّصَافة ، وبالرصافة كان باب الطّاق المشهور على الشطّ . وفى تلك المحلّة مشهد حفيل البنيان ، له قبّة بيضاء سامية فى الهواء ، فيه قبر الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه ، وبه تعرف

---

(١) خـ : كالوسطه .　　(٢) ص : التى . تحريف .

(٣) من : ساقطة من خـ . وانظر بط ٢ : ١٠٨ .　　(٤) ط : ممن .

المحلة . وبالقرب من تلك الجهة[١] قبر الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه وفى تلك الجهة أيضا قبر أبى بكر الشِّبْلى رحمه الله ، وقبر الحسين بن منصور الحَلّاج رحمه الله[٢] . وببغداد من قبور الصالحين كثير ، رضى الله عنهم . وبالغربيّة هى البساتين والحدائق ، ومنها تُجْلَب الفواكه إلى الشرقية .

وأما الشرقية فهى اليوم دار الخلافة ، وكفاها بذلك شرفا واحتفالا ! ودُور الخليفة مع آخرها ، وهى تقع منها فى نحو الرُّبْع أو أزيد ، لأن جميع العباسيين فى تلك الديار معتقَلين اعتقالا جميلا ، لا يخرجون ولا يظهرون ، ولهم المرتَّبات القائمة بهم . وللخليفة من تلك الديار جزء كبير ، قد اتخذ فيها المناظر المُشْرِفة ، والقصور الرائقة ، والبساتين الأنيقة . وليس له اليوم وزير ، إنما له خَدِيم[٣] يعرف بنائب الوزارة ، يحضر الديوانَ المحتوى على أمور[٤] الخلافة ، وبين يديه الكُتُب ، فيتفقد[٥] الأمور ؛ وله قَيِّم على جميع الديار العباسية ، وأمين على كافّة الحُرَم الباقيات من عهد جده وأبيه ، وعلى جميع من تضمُّه الحُرْمة الخلافيّة ، يعرف بالصّاحب مجد الدين[٦] أُستاذ الدار ، هذا لقبه ، ويُدْعَى له إثْرَ الدعاء للخليفة ، وهو قلما يظهر للعامة ، اشتغالا بما هو بسبيله من أمور تلك الديار ، وحراستها ، والتكفّل بمَغَالقها ، وتفقّدها ليلا ونهارا . ورونق هذا المُلْك إنما هو على الفتيان الأحابِش[٧] المَجَابِيب ،

(١) ط : المحلة . (٢) خـ ، ص : منصور بن الحسين . خطأ . ورحمه الله : ليست فى ط .
(٣) الخديم : الخادم . (٤) ط : أموال . تحريف .
(٥) ط : فينفذ . (٦) هو أبو الفتح بن العميد ، تولى منصبه ٥٧٥ — ٥٨٣ .
(٧) ط : الفتيان والأحابش .

منهم فتىً اسمه « خالص » ، وهو قائد العسكريّة كلها ، أبصرناه خارجا أحدَ الأيام ، وبين يديه وخلفه أمراء الأجناد من الأتراك والدَّيْلم وسواهم ، وحوله نحو خمسين سيفا مسلولة ، فى أيدى رجال قد احتفّوا به . فشاهدنا من أمره عجبا فى الدهر ، وله القصور والمناظر على دجلة . وقد يظهر الخليفة فى بعض الأحيان بدجلة ، راكبا على زورق . وقد يتصيد[1] فى بعض الأوقات فى البرّيّة ، وظهوره على حالة اختصار ، تعميةً لأمره على العامّة ، فلا يزداد أمره مع تلك التعمية إلا اشتهارا . وهو مع ذلك يحب الظهور للعامة ، ويؤثر التحبّب لهم ، وهو ميمون النقيبة عندهم قد استسعدوا بأيامه رخاء ، وعدلا ، وطيبَ عيش ؛ فالصغير والكبير[2] منهم داع له . أبصرنا هذا الخليفة المذكور — وهو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضىء بنور الله[3] أبى محمد الحسن بن المستنجد بالله أبى المظفّر يوسف ، ويتصل نسبه إلى أبى الفضل جعفر المقتدر بالله ، إلى السلف فوقه من أجداده الخلفاء ، رضوان الله عليهم — بالجانب الغربىّ ، أمام منظرته بها[4] ، وقد انحدر عنها ، صاعدا فى الزورق إلى قصره بأعلى الجانب الشرقى على الشط ، وهو فى فَتَاء من سِنّه ، أشقر اللحية صغيرها ، كما اجتمع بها وجهُه ، حسن الشكل ، جميل المنظر ، أبيض اللون ، معتدل القامة ، رائق الرُّوَاء ، سِنُّه نحو الخمس والعشرين[5] سنة ، لابسا ثوبا أبيض شبه القَبَاء برسوم ذهب فيه ، وعلى رأسه قلنسوة

---

(١) ط : فى زورق وقد يصيد .   (٢) ط : فالكبير والصغير .

(٣) ص : المستضىء بالله . وعند زمباور : المستضىء بأمر الله .

(٤) ط : به .

(٥) ص : الخمسة . خطأ . ط : وعشرين .

مذهبة ، مطوَّقة بوَبَر أسود من الأوبار الغالية القيمة ، المتّخَذة لِلّباس[1] مما هو كالفَنَك[2] وأشْرف ، متعمِّدا بذلك زىّ الأتراك ، تعمية لشأنه ، لكن الشمس لا تخفى وإن ستِرت . وذلك عشيةَ يوم السبت السادس[3] لصفر سنة ثمانين . وأبصرناه أيضا عشىَّ يوم الأحد بعده ، مُتطلّعا من منظرته المذكورة بالشط الغربى ، وكُنّا نسكن بمقربة منها .

والشرقيّة حفيلة الأسواق[4] ، عظيمة الترتيب ، تشتمل من الخلق على بشر لا يحصيهم إلا الذى[5] أحصى كلّ شيء عددا . وبها من الجوامع ثلاثة ، كلٌّ يجمَّع فيها : جامع الخليفة وهو المتّصل بدياره[6] ، وهو جامع كبير ، وفيه سقايات عظيمة ومطاهر[7] كثيرة كاملة المرافق الوضوء والطهور ؛ وجامع السلطان ، وهو خارج البلد ، وتتّصل به قصور تُنْسَب للسلطان أيضا وهو « المعروف بشاهِ شاه[8] ، وكان مدبّر أمر أحد أجداد[9] هذا الخليفة ، وكان يسكن هنالك ، فابتنى الجامع إزاء مسكنه[10] ؛ وجامع

---

(١) زادت رايت هنا : الملوك . (٢) ص : بما . والفنك : حيوان فروته أطيب أنواع الفراء وأشرفها . (٣) خ : السادس عشر . خطأ .
(٤) ش : الأسوار . (٥) ط : إلا الله تعالى الذى .
(٦) خ : وجامع . ط : الخليفة متصل بداره . (٧) ط : ومرافق .
(٨) وهو : ليست فى ط . والمشهور فى هذه الكلمة أن تكتب : شاهنشاه ، ومعناها ملك الملوك .
(٩) ص : أمن . ط : أمر أجداد . (١٠) ط : أمام مسكنه .

الرُّصَافة ، وهو على(١) الجانب الشرقى المذكور ، وبينه وبين جامع هذا السلطان المذكور مسافةٌ نحو الميل ، وبالرصافة(٢) تربة الخلفاء العباسيين رحمهم الله . فجميع جوامع بغداد(٣) المجمَّع فيها أحد عشر . وأما حماماتها فلا تُحْصَى عدة ، ذكر لنا أحد أشياخ البلد أنها(٤) بين الشرقية والغربية نحو الألفى الحمام(٥) ، وأكثرها مطليّة بالقار مسطَّحة به ، فيخيَّل للناظر أنه(٦) رخام أسود صقيل . وحمّامات هذه الجهات أكثرها على هذه الصفة ، لكثرة القار عندهم ، لأن شأنه عجيب ، يُجْلَب من عين بين البصرة والكوفة ، وقد(٧) أنبَطَ الله ماء هذا العين ليتولّد منه القار ، فهو يصير فى جوانبها كالصّلصال ، فيُجْرَف ويُجْلَب وقد انعقد ، فسبحان خالق ما يشاء ، لا إلٰه سواه . وأما المساجد بالشرقيّة والغربيّة ، فلا يأخذها التقدير فضلا عن الإحصاء . والمدارس بها نحو الثلاثين ، وهى كلّها بالشرقية . وما منها مدرسة إلا [وهى] يقصر القصرُ البديع عنها . وأعظمها شأنا(٨) وأشهرها النِّظَاميّة ، وهى التى ابتناها نِظام المُلْك ، وجُدّدت سنة أربع وخمس مئة . ولهذه المدارس أوقاف عظيمة ، وعَقارات مُحْبَسة ، تتصيَّر إلى الفقهاء المدرّسين بها ، ويُجْرُون فيها(٩) على الطَّلَبة ما يقوم بهم . ولهذه البلاد فى أمر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم ، وفخر مخلّد ، فرحم الله واضعَها الأوّل ،

---

(١) ص : أعلى .

(٢) ط : والرصافة .

(٣) ط : جوامع البلد ببغداد .

(٤) ش : أن فيها اليوم .

(٥) ط : حمام .

(٦) ش : للناظر فيها أنها . وانظر بط ٢ : ١٠٥ .

(٧) ش : وشأنه عجيب لأنه منبع عين . ص : عين بالكوفة والبصرة قد .

(٨) شأنا : ليست فى ط .

(٩) ط : بها .

ورحم من تبع ذلك السَّنَن الصالح .

وللشرقيّة أربعة أبواب : فأوّلها ، وهو فى أعلى الشطّ ، باب السلطان ، ثم باب الظَّفَرِيّة[١] ثم يليه باب الحَلْبة ، ثم باب البَصَلِيّة . هذه الأبواب التى هى فى السور المحيط بها ، من أعلى الشطّ إلى أسفله ، وهو[٢] ينعطف عليها كنصف دائرة مستطيلة . وداخلَها فى الأسواق أبواب كثيرة . وبالجملة فشأن هذه البلدة أعظم من أن يوصف . وأين هى مما كانت عليه ؟ هى اليوم داخلة تحت قول حَبِيب[٣] :

* لا أنتَ أنتَ ولا الدِّيارُ ديارُ *

[مغادرة بغداد]

واتفق رحيلنا من بغداد إلى الموصل ، إثر صلاة العصر من يوم الاثنين الخامس عشر لصفر ، وهو الثامن والعشرون لمايه ـــ فكان مقامنا بها ثلاثة عشر يوما ـــ ونحن فى صحبة الخاتونين : خاتون بنت مسعود الأمير[٤] المتقدمة الذكر فى هذا التقييد ، وخاتون أم عز الدين[٥] صاحب الموصل ، وصحبتهما حاج الشام ، والموصل ، وأرض الأعاجم المتصلة بالدروب التى[٦] إلى طاعة الأمير مسعود والد إحدى الخاتونين المذكورتين . وتوجه حاج خراسان وما يليها صحبة الخاتون الثالثة ابنة الملك الدقوس ، وطريقهم

(١) خـ : الصفرية . ص : الطفرية . وأصلحها رايت وفقا لجى لى سترانج ٢٨٨ .

(٢) ط : هو .

(٣) حبيب بن أوس أبو تمام . وهذا هو الشطر الأول من مطلع إحدى قصائده ، فى مدح أبى سعيد الثغرى . وانظر ديوانه ص ١٢٩ .

(٤) الأمير : ليست فى ط .

(٥) ص : معز الدين . خطأ .

(٦) ص : الذين .

على الجانب الشرقى من بغداد ، وطريقنا نحن إلى الموصل على الجانب الغربى منها . وهاتان الخاتونان هما أميرتا هذا العسكر الذى توجهنا فيه وقائدتاه ، والله لا يجعلنا تحت قول القائل :

* ضاع الرَّعِيلُ ومن يَقُودُهْ *

ولهما أجناد برسمهما ، وزادهم الخليفة جندا يشيّعوهم[١] ، مخافة العرب الخَفَاجِيين المضِرِّين بجهات[٢] بغداد ، وفى تلك العشية التى رحلنا فيها ، فَجَأتنا خاتون المسعودية المُتْرَفة شبابا وملكا ، وهى قد استقلّت فى هودج موضوع على خشبتين معترضتين بين مَطيّتين ، الواحدة أمام الأخرى ، وعليهما الجِلال[٣] المذهّبة ، وهما تسيران بها سيرَ النسيم سُرْعة ولينا ، وقد فُتِح لها أمام الهودج وخلفه بابان ، وهى ظاهرة فى وسطه مُتنقِّبة ، وعصابة ذهب على رأسها ، وأمامها رَعِيلٌ من فتيانها وجندها ، وعن يمينها جَنائب المَطَايا والهَمَالِيج العِتَاق[٤] ، ووراءها رَكْبٌ من جواريها قد ركبن المطايا والهماليج على السروج المذهبة ، وعصبن رءوسهن بالعصائب الذهبيات ، والنسيم يتلاعب بعَذَبَاتها[٥] . وهن يَسِرْن خلف سيدتهن سيرَ السحاب . ولها الرايات والطبول والبوقات تُضْرَب عند ركوبها ، وعند نزولها . فأبصرنا[٦] من نَخْوَة الملك النِّسَائى واحتفاله رتبة تهز الأرض هزا ، وتسحب أذيال الدنيا عزا . ويَحِق أن يخدمها العِزّ ، ويكون لها هذا الهَزّ ؛ فإن مسافة

---

(١) ط : وزادهما .. يشيعونهما .

(٢) خـ : المضربين . ط : بمدينة بغداد .

(٣) الجلال : الكسوة .

(٤) الجنائب : جمع جنيبة ، وهى ما سار إلى جانبهم من مطايا . والهماليج : جمع هملاج ، وهو البرذون .

(٥) ط : بعذباتهن .

(٦) ط : وأبصرنا .

مملكة أبيها نحو الأربعة الأشهر[1] ، وصاحب القسطنطينية يؤدى إليه الجزية ، وهو من العدل فى رعيّته على سيرة عجيبة ، ومن موالاة الجهاد على سنة مرضية .

وأعلمنا أحدُ الحجاج من أهل بلده[2] ، أن فى هذا العام الذى هو عام تسعة وسبعين الخالى عنا ، استفتح من بلاد الروم نحو خمسة وخمسين[3] بلدا ، ولقبُه عزُّ الدين ، واسم أبيه مسعود ، وهذا الاسم غلب عليه[4] ، وهو عريق فى المملكة عن جَدّ فجدّ . ومن شرف خاتون ابنته[5] هذه واسمها سَلْجُوقة ، أن صلاح الدين استفتح آمِد بلد زوجها نور الدين[6] ، وهى [من] أعظم بلاد الدنيا ، فترك البلد لها كرامة لأبيها ، وأعطاها المفاتيح ، فبقى ملك زوجها بسببها . وناهيك من هذا الشأن ! والمُلْك مُلْك الحى القيوم ، يؤتى الملك من يشاء ، لا إلٰه سواه .

فكان مبيتنا تلك الليلة بإحدى قرى بغداد ، نزلناها وقد مضى هَدْءٌ من الليل ، وبمقربة منها « دُجَيل » ، وهو نهر يتفرع من دجلة يسقى تلك القرى كلها . ثم غدونا[7] من ذلك الموضع ، ضحى يوم الثلاثاء السادس عشر لصفر المذكور ، والقرى متصلة فى طريقنا ، فتمادى[8] سيرنا إلى إثر صلاة

---

(١) ط : أشهر .
(٢) ط : بلدنا .
(٣) ط : الخمسة وعشرين .
(٤) ص : على ابنه .
(٥) هذه : ليست فى ط .
(٦) لم تذكر المراجع التاريخية خبر آمد الذى ذكره المؤلف ، وإنما ذكرت أن صلاح الدين أخذها من ابن نيسان ووهبها لنور الدين فى ٥٧٩ ، وكان صديقاً له .
(٧) ط : وغدونا .
(٨) ط : فاتصل .

الظهر ، ونزلنا وأقمنا باقى يومنا ، ليلحق من تأخر من الحاج[١] ، ومن تجار الشام والموصل . ثم رحلنا قُبَيْل نصف الليل ، وتمادى سيرنا إلى أن ارتفع النهار ، فنزلنا قائِلِين ومُرِيحين على دجيل . [وأسرينا الليل كله ، فنزلنا مع الصباح] بمقربة من قرية[٢] تعرف « بالحَرْبَة »[٣] ، من أخصب القرى وأفسحها . ثم رحنا[٤] من ذلك الموضع مع العشى[٥] وأسرينا الليل كلّه ، فنزلنا[٦] مع الصباح من يوم الخميس الثامن عشر لصفر ، على شط دجلة ، بمقربة من حصن يسمى[٧] « المَعْشُوق » ويقال : إنه كان مُتفرَّجا لزُبَيدة ابنة عم الرشيد وزوجه رحمهما[٨] الله . وعلى قبالة هذا الموضع فى الشط الشرقى مدينة « سُرَّ مَنْ رَأَى » ، وهى اليوم عِبرةُ من رأى : أين مُعْتَصِمُها ، ووَاثِقها ، ومُتَوَكِّلُها ؟! مدينة كبيرة قد استولى الخراب عليها ، إلا بعض جهات منها هى اليوم معمورة . وقد أطنب المسعودى رحمه الله فى وصفها ، ووصف طيب هوائها ، ورائق حسنها . وهى كما وصف ، وإن لم يبق إلا الأثر من محاسنها ، والله وارِثُ الأرض ومَنْ عليها ، لا إلٰه غيره . فأقمنا بهذا الموضع طولَ يومنا مستريحين ، [وبيننا] وبين مدينة « تَكْرِيت » مرحلة ، ثم رحلنا منه وأسرينا الليل كله ، فصبحنا « تكريت » مع الفجر من يوم الجمعة التاسع عشر من الشهر ، وهو أول يوم من يونيه ، فنزلنا ظاهرها مستريحين ذلك اليوم .

---

(١) ط : الحجاج . (٢) ص : وبمقربته قرية .
(٣) المعروف فى اسم هذا الموضع : حربى . (٤) ط : ورحلنا .
(٥) مع العشى : ليست فى ط . (٦) ط : ونزلنا .
(٧) ط : يعرف بالمعشوق . (٨) ط : رحمه الله .

ذكر مدينة تَكْرِيت ، حَرَسها الله[١]

ومدينة تكريت[٢] هي مدينة كبيرة ، واسعة الأرجاء ، فسيحة الساحات[٣] ، حَفِيلة الأسواق ، كثيرة المساجد ، غاصّة بالخلق ، أهلها أحسن أخلاقا وقِسْطا فى الموازين من أهل بغداد ، ودجلة منها فى جوفيّها . ولها قلعة حصينة على الشط ، هى قصبَتها المنيعة . ويطيف بالبلد سور[٤] قد أثّر الوهى[٥] فيه . وهى من المدن العتيقة المذكورة .

ثم رحلنا[٦] مع عشي اليوم المذكور ، وأسرينا طول الليل ، وأصبحنا يوم السبت الموفى عشرين منه بشط دجلة ، فنزلنا مريحين . ومن[٧] ذلك الموضع يُستصحَب الماء ليوم وليلة ، فاستصحبناه . ورحلنا ذلك اليوم ضحوة ، فأسرينا[٨] إلى الليل ، ونزلنا لأخذ نَفَس راحة ، واختلاس سِنَة نوم ، فهوّمْنا هنيهة[٩] . ثم رحلنا وأَسْأَدنا[١٠] إلى الصباح . وتمادى سيرنا إلى أن ارتفع النهار ، من يوم الأحد بعده . فنزلنا قائلين بقرية على شط دجلة تعرف « بالجُدَيدة » وبمقربة منها قرية كبيرة اجتزنا عليها تعرف « بالعَقْر » ، وعلى رأسها[١١] ربوة مرتفعة كانت حصنا لها ، وأسفلها خان جديد بأبراج وشُرَف ، حفيل

---

(١) ط : الله تعالى .

(٢) ومدينة تكريت : ليست فى ط .

(٣) ط : الساحة .

(٤) ص : ويطوف . خـ : سوق .

(٥) ط : الوهن .

(٦) ط : ورحلنا .

(٧) ص : من .

(٨) ص : فأوينا .

(٩) هومنا : نمنا قليلا . — (١٠) ط : ورحلنا . وأسأدنا : أسرعنا السير ، أو سرنا الليل دون توقف .

(١١) بط ١٣٣ : وبأعلاها .. كان بها حصن .

البنيان وثيقه . والقرى والعمائر من هذا الموضع إلى المَوْصل متصلة . ومن هنا ينتثر انتظام الحاج فى المشى ، فينبسط كلّ فى طريقه ، متقدّما ومتأخرا ، وبطيئا ومستعجلا ، آمنا مطمئنا .

فرحلنا منها قريبَ العصر ، وتمادى سيرنا إلى المغرب ، ونزلنا آخذين غفوة سِنَة ، خلال ما تتعشّى الإبل . ثم رحلنا[١] قبل نصف الليل ، وأدلجنا إلى الصباح . وفى ضحوة هذا اليوم ، وهو يوم الاثنين الثانى والعشرين لصفر ، والرابع ليونيه ، مررنا على موضع[٢] يعرف « بالقَيّارة » ، بمقربة من دجلة ، وبالجانب الغربى[٣] منها ، وعن يمين الطريق إلى الموصل ، فيه وَهْدة من الأرض سوداء كأنها سبخة[٤] ، قد أنبط الله فيها عيونا صغارا وكبارا[٥] تنبع بالقار ، وربما يقذف بعضها بحَبَاب منه كأنها الغَلَيان . ويُصْنَع له أحواض يجتمع فيها ، فتراه شبه الصلصال منبسطا على الأرض ، أسود أملس ، صقيلا رطبا عَطِر الرائحة ، شديد التغلّك ، يلتصق بالإصبع[٦] لأول مباشرة من اللمس . وحول تلك العيون بِرْكة كبيرة سوداء ، يعلوها شبه الطحلب الرقيق أسود ، تقذفه إلى جوانبها ، فيرسب قارا . فشاهدنا عجبا كنا[٧] نسمع به ، فنستغرب سماعه . وبمقربة من هذه العيون على شط دجلة ، عين أخرى منه كبيرة ، أبصرنا على البُعْد فيها[٨] دخانا ، فقيل لنا : إن

---

(١) ط : ورحلنا .

(٢) ط : بموضع .

(٣) ط : الشرقى .

(٤) ط : سحابة . تحريف .

(٥) ط : كبارا وصغارا .

(٦) ط : فيلصق بالأصابع .

(٧) خـ : كما .

(٨) ط : منها . تحريف .

النار يشتعل فيه[١] إذا آرادوا نقله ، فتُنشِّف النار رطوبته المائية ، وتعقّده[٢] فيقطعونه قَطَرات[٣] ويحملونه ، وهو يعمّ جميع هذه[٤] البلاد إلى الشام ، إلى عكة ، إلى جميع البلاد البحرية ، والله يخلق ما يشاء ، سبحانه تعالى قدره[٥] ، وجلت قدرته ، لا رب غيره . ولا شك أن على هذه الصفة ، هى العين التى ذُكِر لنا أنها بين البصرة والكوفة[٦] ، وقد ذكرنا أمرها فى هذا التقييد . ومن هذا الموضع المذكور[٧] إلى الموصل مرحلتان .

فأجزنا[٨] تلك العيون القاريّة ، ونزلنا قائلين ، ثم رحنا وسرنا إلى العشىّ . ونزلنا بقرية[٩] تعرف « بالعُقيبة » ، ومنها تُصَبِّح[١٠] « الموصل » إن شاء الله . فأسرينا منها بعد نصف الليل ، ووصلنا « الموصل » عند ارتفاع النهار من يوم الثلاثاء الثالث والعشرين لصفر ، والخامس من يونيه ، ونزلنا برَبَضِها فى أحد الخانات بمقربة من الشطّ .

---

(١) بط ١٣٤ : أوقدوا عليها النار .
(٢) خـ : ويعقد به . ص : ويقعد .
(٣) بط : قطعا .
(٤) هذه : ليست فى ط .
(٥) ط : جده .
(٦) ط : الكوفة والبصرة . خـ : التى ذكرت لنا فى . وواضح أنه فى هذه الفقرة كلها يصف مواضع النفط أو ما نسميه اليوم البترول .
(٧) المذكور : ليست فى ط .
(٨) ط : وأجزنا .
(٩) خـ : بمقربة . تحريف .
(١٠) ط : تصبح .

ذكر مدينة المَوْصِل ، حَرَسَها الله[١]

هذه المدينة عَتِيقة حَصِينة ضَخْمة[٢] فَخْمة ، قد طالت صحبتها للزمن ، فأخذت أُهْبَة استعداد[٣] لحوادث الفِتَن ، [٤]فتحصنت بسورين وثيقين[٤] قد كادت أبراجُهما[٥] تلتقى انتظاما ، لقرب مسافة بعضها من بعض ، وباطنَ الداخل منها بيوت ، بعضها على بعض ، مستديرة بجداره المُطِيف بالبلد كله ، كأنه[٦] قد تمكن فتحها فيه لغلظ بنيته ، وسعة وضعه ، وللمُقاتِلَة[٧] فى هذه البيوت حِرْز وقاية ، وهى من المرافق[٨] الحربية . وفى أعلى البلد قلعة عظيمة . قد رُصّ بناؤها رصا ، ينتظمها سور وثيق البنية[٩] ، مشيّد البروج ، ويتصل بها دور السلطان . وقد فصل بينها[١٠] وبين البلد ، شارع متسع ، يمتد من أعلى البلد إلى أسفله . ودجلة شرق البلد ، وهى متصلة بالسور ، وأبراجه فى مائها .

وللبلدة رَبَض كبير ، فيه المساجد والحمامات والخانات والأسواق ، وأحدث فيه أحد[١١] أمراء البلدة — وكان يعرف بمجاهد الدين —

---

(١) ط : الله تعالى .

(٢) ط : ضخمة حصينة .

(٣) ط : استعدادها .

(٤ — ٤) ليست فى ط .

(٥) ط : أبراجها .

(٦) كذا فى خـ . ر : كأن . وهى ساقطة من ص .

(٧) خـ : وللمقابلة ، ص : فللمعاولة .

(٨) خـ : المدن .

(٩) ط : ينتظمهما سور عتيق .

(١٠) ط : بينهما .

(١١) ط : بعض .

جامعا على شط دجلة ، ما أرى وُضِع جامع[1] أحفل بناء منــــه ، يقصر[2] الوصف عنه ، وعن حسن ترتيبه وتزيينه[3] ، وكل ذلك نقش فى الآجرّ . وأما مقصورته فتذكّر حسنا[4] بمقاصير الجنة ، ويطيف به شبابيك حديد ، تتّصل بها مصاطب تُشرِف على دجلة لا مَقْعَدَ أشرف منها ولا أحسن ، ووصفه يطول ، وإنما وقع الإلماع بالبعض ، جريا إلى الاختصار . وأمامه مارَسْتان حفيل ، من بناء مجاهد الدين المذكور .

وبنى أيضا داخل البلد ، وفى سوقه ، قَيْسَارِيّة للتجار ، كأنها الخان العظيم ، تنغلق عليها أبواب حديد ، وتطيف بها دكاكين وبيوت ، بعضها على بعض ، قد جُلِيَ ذلك كله فى أبدع[5] صورة من البناء المزخرف ، الذى لا مثيل له . فما أرى فى البلاد قيسارية تعدلها . وللمدينة جامعان : أحدهما جديد والآخر من عهد بنى أمية . وفى وسط صحن هذا الجامع الجديد[6] قبة ، داخلها سارية رخام قائمة ، قد خُلْخِل جيدها بخمسة خلاخيل[7] مفتولة فتل السوار من جرم رخامها ، وفى أعلاها خُصَّة[8] رخام مثمّنة ، يخرج عليها أنبوب من الماء ، خروجَ انزعاج وشدة ، فيرتفع فى الهواء أزيد من القامة ، كأنه قضيب من البلور معتدل ، ثم ينعكس إلى أسفل القبة . ويُجمَّع فى هذين الجامعين القديم والحديث ، ويجمَّع أيضا فى جامع الربض . وفى المدينة مدارس للعلم نحو الست[9]

---

(١) خـ : جامعا .

(٢) ط : أحفل منه بناء يقصر .

(٣) ط : وعن تزيينه وترتيبه .

(٤) حسنا : ليست فى ط .

(٥) ط : أعظم .

(٦) وسط .. الجديد : ليست فى ط .

(٧) ط : خلاخل .

(٨) خـ ، ص : خاصة . وانظر بطـ ١٣٦ .

(٩) خـ ، ص : الستة .

أو أزيد قد بنيت[١] على دجلة ، فتلوح كأنها القصور المشرفة . ولها مارستانات[٢] حاشا الذى ذكرناه فى الربض .

وخص الله هذه البلدة بتربة مقدسة فيها « مشهد جِرْجيس ﷺ » ، وقد بُنى فيها[٣] مسجد ، وقبره فى زاوية من أحد بيوت المسجد ، عن يمين الداخل إليه . وهذا المسجد هو بين[٤] الجامع الجديد وباب الجسر ، يجده المارّ إلى الجامع من باب الجسر عن يساره . فتبرّكنا بزيارة هذا القبر المكرم[٥] ، والوقوف عنده ، نفعنا الله بذلك .

ومما خصها الله به أيضا[٦] ، أن فى الشرق منها ، إذا عبرتَ دجلة على نحو الميل ، « تلّ التَّوْبة » وهو التل الذى وقف فيه[٧] يونس ﷺ[٨] بقومه ، ودعا ودعوا حتى كشف الله عنهم العذاب . وبمقربة منه ، على قدر الميل أيضا العين المباركة المنسوبة إليه ﷺ[٩] ، ويقال : إنه أمر قومه بالتطهُّر فيها وإضْمار التوبة ، ثم صعدوا على التلّ داعين . وفى هذا التل بناء عظيم ، هو رباط[١٠] يشتمل على بيوت كثيرة ، ومقاصير[١١] ، ومطاهر ، وسقايات ، يضُمّ الجميع باب واحد ، وفى وسط ذلك البناء بيت يَنسدل عليه ستر ، وينغلق دونه باب كريم مرصَّع كله ، يقال : إنه [كان] الموضع الذى وقف فيه يونس عليه السلام[١٢] . ومحراب هذا البيت يقال : إنه كان بيته الذى كان يتعبّد فيه .

---

(١) قد بنيت : ليست فى ط .
(٢) ط : مارستان .
(٣) ط : فيه .
(٤) ص : من .
(٥) ط : المقدس .
(٦) ط : خص الله به هذه البلدة .
(٧) ط : به .
(٨) ط : عليه السلام .
(٩) الصلاة ليست فى ط .
(١٠) ص : رابط .
(١١) ط : ومقاصر .
(١٢) ط : ﷺ .

ويطيف بهذا البيت شمع كأنه جذوع النخيل[١] عِظَما . فيخرج الناس إلى هذا الرباط [كل ليلة جمعة ، ويتعبّدون فيه . وحول هذا الرباط] قرى[٢] كثيرة ، ويتصل بها على قرب[٣] خراب عظيم ، يقال : إنه كان مدينة «نِينَوَى» ، وهى مدينة يونس [عليه السلام] . وأثر السور المحيط بهذه المدينة ظاهر ، وفُرَجُ[٤] الأبواب فيه بَيِّنة ، وأكوام أبراجه مُشْرِفة . بتنا بهذا الرباط المبارك ليلة الجمعة السادس والعشرين لصفر ، ثم صبّحنا العين المباركة ، وشربنا من مائها ، وتطهّرنا فيها ، وصلينا فى المسجد المتصل بها ، والله ينفع بالنية فى ذلك ، بمنه وكرمه . وأهل هذه البلدة على طريقة حسنة ، مستعملون لهين البِرّ[٥] ، فلا تلقى منهم إلا ذا وجه طَلْق وكلمة لينة ، ولهم كرامة للغرباء[٦] وإقبال عليهم ، وعندهم اعتدال فى جميع معاملاتهم . فكان مقامنا بهذه[٧] البلدة أربعة أيام .

[الاحتفال بوصول الخاتونين]

ومن أحفل المشاهد الدنياوية المُرِيبة[٨] ، بُروزٌ شاهدناه يوم الأربعاء ثانى يوم وصولنا الموصِل للخاتونين : أم عز الدين[٩] صاحب الموصل ، وبنت الأمير مسعود المتقدم ذكرها ، فخرج الناس على بَكْرَة أبيهم ركابا[١٠]

---

(١) ط : النخل .
(٢) ص : قرية . تحريف .
(٣) على قرب : ليست فى ط .
(٤) ص : وبرج . تحريف .
(٥) ط : يستعملون أعمال البر .
(٦) ص : بالغرباء .
(٧) ط : فى هذه .
(٨) ص : أحفل المساجد . والمريبة بدون نقط
(٩) ر ، ص : أم معز الدين .
(١٠) ط : عن بكرة أبيهم ركبانا .

ومُشاةً ، وخرج النساء كذلك ، وأكثرهنّ راكبات ، وقد[١] اجتمع منهن عسكر جَرّار . وخرج أمير البلد للقاء والدته ، مع زُعماء دولته . فدخل الحاجّ المَوَاصِلة صحبةَ خاتونهم على احتفال وأبهة ، قد جَلَّلوا أعناق إبلهم بالحرير الملوّن ، وقلَّدوها بالقلائد المزينة[٢] . ودخلت خاتون المسعودية تقود عسكر جواريها ، وأمامها عسكر رجالها يطوفون بها[٣] ، وقد جَلَّلت قبّتها كلها سبائك ذهب مصوغة أَهِلّة ودنانيرَ سعةَ الأكفّ ، وسلاسل وتماثيل بديعة الصفات ، فلا يكاد يبين من القبة موضع[٤] ، ومطيتاها تزحفان بها زحفا ، وصَخَبُ ذلك الحلى يملأ المسامع[٥] ، ومطاياها مجللة الأعناق بالذهب ، ومراكب جواريها كذلك ؛ فمجموع ذلك الذهب لا يتحصل تقديره[٦] . فكان[٧] مشهدا أَبْهَتَ الأبصار ، وأحدث الاعتبار ، وكلُّ مُلْك يفنى إلا ملك الواحد القهّار ، لا شريك له .

وأخبرنا غير واحد من الثقات ، ممن يعرف حال خاتون هذه ، أنها موصوفة بالعبادة والخير ، مؤثرة لأعمال البر[٨] . فمنها أنها أنفقت فى طريقها هذا إلى الحجاز ، فى صدقات ونفقات فى السبيل ، مالا عظيما ، وهى تحب الصالحين والصالحات ، وتزورهم متنكّرة رغبة فى بركة دعائهم[٩] . وشأنها عجيب كله على شبابها ، وانغماسها فى نعيم الملك . والله يهدى من يشاء

---

(١) ص : وأكثرهم .. قد .

(٢) ط : القلائد المزوقة .

(٣) ص : يطرقون لها .

(٤) ط : تكاد تبين .. موضعا .

(٥) ط : يسد المسامع .

(٦) ط : مجموع .. لا يحصى . ص : تلك .

(٧) ط : وكان .

(٨) ط : لأفعال البر .

(٩) ط : فى دعائهم .

من[1] عباده .

وفى [عشى اليوم] الرابع من المقام بهذه البلدة ، وهو يوم الجمعة السادس والعشرين لصفر المذكور ، رحلنا منها على دوابّ اشتريناها بالموصل ، تفاديا من معاملة الجمّالين ، على أن القَدَر المحمود لم يسبّب لنا إلا صحبة الأَشْبَه منهم ، ومن شكرناه على طول الصحبة ، وتمادِيها من مكة شرفها الله إلى الموصل . فأسرينا ليلةَ السبت إلى بُعَيد نصف الليل ، ثم نزلنا بقرية من قرى الموصل . ورحلنا منها ضحوة يوم السبت المذكور ، وقِلْنا بقرية تعرف « بعَيْن الرَّصَد » وكان مَقِيلنا تحت جسر مبنى على واد ينحدر فيه الماء ، فكان[2] مقيلا مباركا . وفى تلك القرية خان كبير جديد . وفى محلّات الطريق كلها خانات . واتفق مبيتنا تلك الليلة بالقرية المذكورة . وأسرينا منها وقلنا[3] يوم الأحد بقرية تعرف « بالمُوَيْلِحة » ، ثم سرينا[4] منها ، وبتنا بقرية كبيرة تعرف « بجُدَال »[5] لها حصن عتيق . وفى يومنا هذا رأينا ، عن يمين طريقنا[6] ، « جبل الجُودِىّ » المذكور فى كتاب الله عز وجل[7] ، الذى استوت عليه سفينة نوح عليه السلام ، وهو جبل عال مستطيل . ثم رحلنا فى السَّحَر الأعلى ، من يوم الاثنين التاسع والعشرين لصفر . فكان مبيتنا بقرية من قرى « نَصِيبين » ، ومنها إليها مرحلة ، ويعرف الموضع [المذكور]

---

(١) من : ليست فى ط .

(٢) ط : جسر معقود .. يتحدر .. وكان

(٣) ط : وأصبحنا .

(٤) ط : وأسرينا .

(٥) لم يذكر بط ١ : ١٢٩ جدال ، وإنما ذكر بدلا منها جزيرة ابن عمر . وحقيقة الأمر أن « جدال » تبعد عن نصيبين بيومين ، وتبعد عنها الجزيرة بثلاثة أيام .

(٦) ط : الطريق .

(٧) ط : تعالى . ويشير إلى الآية ٤٤ من سورة هود .

« بالكلائى » .

شهر ربيع الأول من سنة ثمانين ، عَرّفنا الله بركته ويمنه(١)

استهل هلاله ليلة الثلاثاء ، بموافقة الثانى عشر من شهر(٢) يونيه ، ونحن بالقرية المذكورة ، فرحلنا منها سحر يوم الثلاثاء المذكور ، ووصلنا « نصيبين » قبيل(٣) الظهر من اليوم المذكور .

ذكر مدينة نَصِيبِين ، حَرَسها الله

شهيرة العتاقة والقِدَم ، ظاهرها شباب ، وباطنها هَرَم ، جميلة المنظر ، متوسطة بين الكبر والصغر ، يمتد أمامها وخلفها بسيط أخضر مَدَّ البصر ، قد أجرى الله فيه مذانب من الماء تسقيه ، وتطّرد فى نواحيه ، وتحف بها عن يمين وشمال بساتين ملتفّة الأشجار ، يانعة الثمار ، وينساب(٤) بين يديها نهر قد انعطف عليها انعطاف السِّوَار ، والحدائق تنتظم حافتيه(٥)، وتفىء ظلالها الوارفة عليه ، فرحم الله أبا نُوَاس الحسن بن هانئ حيث يقول :

طابتْ نَصِيبِينُ لى يوماً فطبتُ(٦) لها   يا ليت حَظّى من الدنيا نصيبينُ

---

(١) ويمنه : ليست فى ط .

(٢) شهر : ليست فى ط .

(٣) : قبل .

(٤) ط : ينساب .

(٥) ط : بحافتيه .

(٦) ش ١ : ٣٢٤ ، بط : وطبت . ولم أجد البيت فى ديوان أبى نواس .

فخارجها رِياضيّ الشمائل ، أنْدَلُسي الخَمَائل ، يَرِفّ غَضارة ونَضارة ، ويأتلق[١] عليه رونق الحضارة . وداخلها شَعَث البادية بادٍ عليه ، فلا مَطْمَح للبصر إليه ، لا تجد العين فيه فُسْحة مجال ، ولا مَسْحة جمال . وهذا النهر ينسرب[٢] إليها من عين مَعِينة ، منبعها بجبل قريب منها ، ينقسم منها مذانب تخترق بسائطها وعَمَائرها ، ويتخلل منها[٣] البلدَ جزء ، يتفرق على شوارعها[٤] ويَلِج فى بعض ديارها[٥] ، ويصل إلى جامعها المكرم منه سَرَبٌ[٦] يخترق صحنه ، وينصب فى صهريجين : أحدهما وسط الصحن ، والآخر عند الباب الشرقى منه ، ويفضى[٧] إلى سقايتين حول الجامع . وعلى النهر المذكور ، جسر معقود من صُمّ الحجارة ، يتصل[٨] بباب المدينة القبلى . وفيها مدرستان ، ومارستان واحد . وصاحبها معين الدين أخو معز الدين صاحب الموصل ، ابنا أتابك[٩] . ولمعين [الدين] أيضا مدينة « سِنْجَار » ، وهى عن يمين الطريق إلى « الموصل » .

ويسكن فى إحدى الزوايا الجَوْفية من جامعها المكرم ، الشيخ أبو اليَقْظان الأسود الجسد ، الأبيض الكبد ، أحد أولياء الله الذين نَوّر الله[١٠]

---

(١) ط : ويتألق .

(٢) ش : ينساب .

(٣) ط : البلد منها .

(٤) ش : يفترق . ر : فيتفرق . ص : شوارعه .

(٥) ص : دياره .

(٦) ش : ميزاب .

(٧) ش : يفضى .

(٨) ش : متصل .

(٩) ص : بابك . خطأ . وانظر ص١٦٨ . وصاحب سنجار هو عماد الدين أبو الفتح زنكى الثانى بن مودود ، الذى حكمها بين ٥٦٩ و ٥٩٤ ، ووهبه صلاح الدين مدينة حلب سنة ٥٧٨ . وليس لقبه معين الدين .

(١٠) ط : الأولياء . وسقط لفظ الجلالة من خ .

بصائرَهم بالإيمان ، وجعلهم من الباقيات الصالحات فى الزمان ، الشهير المقامات ، الموصوف بالكرامات ، نِضْو[1] التَّبتل والزهادة ، ومن أخلقتْ وجهه[2] العبادة ، قد اكتفى بنسج يده ، ولا يدخر من قوت يومه لغده ؛ أسعدنا الله بلقائه ، وأصبحنا من بركة دعائه ، عشيَّ يوم الثلاثاء مستهل ربيع الأول . فحمدنا الله عز وجل على أن مَنّ علينا برؤيته ، وشرفنا بمصافحته ، والله سبحانه ينفعنا ببركة[3] دعائه ، إنه سميع مجيب ، لا إلٰه سواه .

فكان نزولنا بها فى خان خارجها ، وبتنا بها ليلة الأربعاء الثانى من ربيع [الأول] . ورحلنا صبيحته[4] فى قافلة كبيرة من البغال والحمير : حَرّانيين ، وحَلَبيين ، وغيرهم[5] من أهل البلاد ، [ديار[6]] بكر وما يليها ، وتركنا حاج هذه الجهات وراءنا[7] على الجمال . فتمادى[8] سيرنا إلى أول الظهر ، ونحن على أهبة وحذر من إغارة الأكراد ، الذين هم آفة هذه الجهات من الموصل إلى نصيبين إلى مدينة دُنَيْصَر ؛ يقطعون السبيل ، ويسعون فسادا فى الأرض ، وسُكناهم فى جبال منيعة على قرب من هذه البلاد المذكورة ، ولم يُعِن الله سلاطينَها على قمعهم ، وكَفّ عاديتهم ، فهم ربما وصلوا فى بعض الأحيان إلى باب نصيبين ، ولا دافعَ لهم ولا مانع إلا الله عز وجل . فقِلْنا يوم الأربعاء المذكور ، (٩فى آخر القرى ثم رحنا منها إلى مدينة دنيصر فوصلناها عشية يوم الأربعاء المذكور٩) ، ورأينا ذلك اليوم ، عن يمين طريقنا ، بقرب

---

(١) نضو : هزيل ضامر .
(٢) ط : جدته .
(٣) ط : والله ينفعنا بدعائه .
(٤) ط : رحلنا صبيحته .
(٥) ط : وسواهم .
(٦) ط : بلاد بكر .
(٧) ط : وراء ظهورنا .
(٨) ص : يتمادى .
(٩ — ٩) ليست فى ط .

من سفح[1] الجبل ، مدينة « دَارَى » العتيقة ، وهى بيضاء كبيرة ، لها قلعة مشرفة . ويليها بمقدار نصف مرحلة ، مدينة « مارِدِين » ، وهى فى سفح[1] جبل فى قُنّته قلعة لها كبيرة ، هى من قلاع الدنيا الشهيرة ، وكلتا المدينتين معمورة .

ذكر مدينة دُنَيْصَر ، حماها[2] الله

هى فى بسيط من الأرض فسيح ، وحولها بساتين الرياحين والخُضَر ، تُسْقَى بالسوانى[3] ، وهى مائلة الطبع إلى البادية ، ولا سور لها ، وهى مشحونة بَشَرا ، ولها الأسواق الحفيلة ، والأرزاق الواسعة ، وهى مَخْطَر لأهل بلاد الشام ، وديار بكر ، وآمد ، وبلاد الروم التى لطاعة[4] الأمير مسعود ، وما يليها ، ولها المحرث الواسع ، والمرافق الكثيرة[5] . فكان نزولنا مع القافلة ببَرَاح ظاهرها ، وأصبحنا يوم الخميس الثالث لربيع [الأول] بها مُرِيحين . وخارجها مدرسة عظيمة[6] جديدة ، بقبّةُ البناء فيها ، ويتصل بها حمام ، والبساتين حولها ، فهى مدرسة ومَأنُسَة . وصاحب هذه البلدة قطب الدين ، وهو أيضا صاحب مدينة « دارَى » ومدينة « مارِدِين » و« رأس العين » وهو قريب لابنَىْ أتابك[7] .

---

(١) ط : صفح .   (٢) ط : حرسها .

(٣) خـ : بالسواء . ط : بالسواق . والسوانى بمعناها .

(٤) ط : تلى طاعة .   (٥) ط : ولها مرافق كثيرة .

(٦) عظيمة : ليست فى ط .   (٧) ص : تابك . ر : بابك . وهو قطب الدين إيلغازى الثانى بن ألى ، حكم ماردين بين ٥٧٥ﻫ و ٥٨٠ ، ورأس العين منذ ٥٦٩ .

وهذه البلاد كلها[1] لسلاطين شتى كملوك الطوائف[2] ، كلّهم قد تحلّى بحِلْية تُنْسَب للدين[3] ، فلا تسمع إلا ألقابا هائلة ، وصفات لدى التحصيل غير طائلة ، قد تَساوَى فيها السّوقةُ والملوك ، واشترك فيها الغنى والصعلوك ، ليس فيهم من ارتسم بسِمَة به تليق ، أو اتصف بصفة هو بها خَلِيق ، إلا صلاح الدين صاحب الشام وديار مصر والحجاز واليمن ، المشتهر العدل والفضل[4] ، فهذا اسم وافَقَ مسمّاه ، ولفظ طابقَ معناه ، وما سوى ذلك فى سواه فَزَعَازِعُ ريح ، وشَهادات يردّها التّجْرِيح ، ودعوى نسبةٍ للدين بَرّحتْ به أىّ تَبْرِيح !

ألقـابُ مملكـةٍ فى غيـرِ موضعهـا ... كالهِرِّ يحكى انتفاخا صورة الأسد[5]

ونرجع إلى حديث المراحل ، قَرّبها الله :

فكان مقامنا بدنيصر إلى أن صلينا الجمعة ، وهو اليوم الرابع لربيع [الأول] ، تلوَّم[6] أهلُ القافلة بها لشهود سوقها ، لأن بها يوم الخميس ويوم الجمعة والسبت والأحد بعدهما[7] سوق حَفِيلة ، يجتمع لها أهل هذه الجهات المجاورة لها والقرى المتصلة بها ، لأن الطريق كلها يمينا [وشمالا] قرى متصلة وخانات مشيدة ، ويسمون هذه السوق المُجتمَع إليها من الجهات البَازَار ، وأيام كل سوق معلومة .

---

(١) ط : وهذه البلدة لسلاطين . (٢) ط : طوائف الأندلس .

(٣) ط : إلى الدين . (٤) ط : الفضل والعدل .

(٥) ط : صولة الأسد . والبيت ، للحسن بن رشيق ، كما فى المعجب فى تلخيص أخبار المغرب للمراكشى ، طبعة القاهرة ١٩١٤ ، ص ٤٠ .

(٦) ص : تلزم . وتلوم : انتظر وتمهل . (٧) ط : ويوم السبت ويوم الأحد بعدها .

ورحلنا إثر صلاة الجمعة ، فاجتزنا على قرية كبيرة لها حصن ، تعرف « بتلّ العُقَاب » ، هى للنصارى المعاهدين الذميين ، ذكّرتنا هذه القرية بقرى الأندلس حسنا ونضارة ، تحفّها البساتين والكروم وأنواع الأشجار ، وينسرب بإزائها نهر ترِفّ الظلال عليه ، وخطّها متسع ، والبساتين قد انتظمته ، وشاهدنا بها من الخَنَانِيص[١] أمثال الغنم كثرة وأنسا بأهلها . ثم وصلنا عشى النهار إلى قرية أخرى تعرف « بالجِسْر » هى للأرمن المعاهدين[٢] ، وهم فرقة من فِرَق الروم . فكان مبيتنا بها ليلة السبت الخامس لربيع المذكور ، ثم أسحرنا منها ، ووصلنا مدينة « رأس العين » قُبَيل الظهر من يوم السبت المذكور .

ذكر مدينة رأس العيْن ، حماها[٣] الله

هذا الاسم لها من أصدق الصفات ، وموضوعها به أشرف الموضوعات ، وذلك أن الله تعالى فَجَّر أرضها عيونا ، وأجراها ماءً مَعِينا ، فتُقُسِّمت مذانب ، وانسابت جداول ، تنبسط فى مروج خُضْر ، فكأنها سَبَائك اللُّجَين ممدودة فى بساط[٤] الزبرجد ، تحف بها أشجار وبساتين ، قد انتظمت حافتَيْها إلى آخر انتهائها من عمارة بطحائها . وأعظم هذه العيون عينان : إحداهما فوق الأخرى ، فالعليا منهما نابعة فوق[٥] الأرض فى صُمّ الحجارة ، كأنها فى

---

(١) الخنانيص : جمع خنوص ، وهو ولد الخنزير .

(٢) ص : بالحسرى . ط : هى الآن لناس من المعاهدين .

(٣) ط : حرسها .   (٤) ص : بسائط .   (٥) ص : تحت .

جوف غار كبير متسع ، فينبسط[١] الماء فيه حتى يصير كالصهريج العظيم ، ثم يخرج ويسيل نهرا كبيرا كأكبر ما يكون من الأنهار ، وينتهى إلى العين الأخرى ويلتقى بمائها . وهذه العين الثانية عجب من عجائب مخلوقات الله عز وجل ، وذلك أنها نابعة تحت الأرض فى[٢] الحجر الصلد ، بنحو أربع قامات أو أزيد ، ويتسع منبعها حتى يصير صهريجا كبير[٣] فى ذلك العمق ، ويعلو بقوة نبعه حتى يسيل على وجه الأرض . فربما يروم السابح القوىّ السباحة ، الشديد الغوص فى أعماق المياه ، أن يصل بغوصه إلى قعره ، فيَمُجّه الماء بقوة انبعاثه[٤]من منبعه ، فلا يتناهَى فى غوصه إلا[٥]إلى مقدار نصف مسافة العمق أو أقل شيئا ؛ شاهدنا[٦] ذلك عيانا . وماؤها أصفى من الزُّلال ، وأعذب من السلسبيل ، يَشِفّ عما جواه ، فلو طُرِح الدينار فيه فى الليلة الظلماء لما أخفاه ، ويصطاد[٧]فيها سَمَك جليل من أطيب ما يكون من السمك . وينقسم ماء هذه العين نهرَيْن : أحدهما [آخِذٌ] يمينا ، والآخر يسارا . فالأيمن يشقّ خانِقَة مبنية للصوفيّة والغرباء بإزاء العين ، وهى تسمى الرباط أيضا : والأيسر ينسرب على جانب الخانقة ، وتُفْضِى منه جداول إلى مَطاهِرها ومَرافِقها المُعَدَّة للحاجة البشرية . ثم يلتقيان أسفلها مع نهر العين الأخرى العليا . وقد بُنيت على شط نهرهما المجتمع ، بيوت أَرْحَى تتصل على شط موضوع وسط[٨]النهر ، كأنه سُدّ . ومن مجتمع ماء هاتين العينين منشأ

---

(١) ط : يبسط .

(٢) ط : من .

(٣) كبيرا : ليست فى ط .

(٤) ط : انبعاثا .

(٥) إلا : ليست فى ط .

(٦) خـ : شاهدناه .

(٧) ط : ويصاد .

(٨) خـ ، ص : وشط : تحريف .

نهر الخابُور .

وبمقربة من هذه الخانقة بحيث تناظرها ، مدرسة ، بإزائها حمام ، وكلاهما قد وَهَى وأَخْلَق وتعطّل ، وما أرى كان فى موضوعات الدنيا مثل موضوع هذه المدرسة ، لأنها فى جزيرة خضراء ، والنهر يستدير بها من ثلاثة[1] جوانب ، والمدخل إليها من جانب واحد . وأمامها ووراءها بستان ، وبإزائها دُولاب يُلْقِى الماء إلى بساتين مرتفعة عن[2] مصبّ النهر . وشأن هذا الموضوع[3] كله عجيب جدا : فغاية حُسْن القُرَى[4] بشرق الأندلس ، أن يكون لها مثل هذا الموضوع جمالا ، أو تتحلى للعيون[5] بمثل هذه العيون ، ولله القدرة فى جميع مخلوقاته .

وأما المدينة فللبداوة بها اعتناء ، وللحضارة عنها استغناء ، لا سور يحصّنها ، ولا دور أنيقة البناء تحسّنها ، قد ضَحِيَت[6] فى صحرائها كأنها عُوذَة لبطحائها . وهى مع ذلك كاملة مرافق المدن . ولها جامعان قديم وحديث[7] ، فالقديم بموضع هذه العيون ، وتتفجّر أمامه عين معِينة هى دون[8] اللتين ذكرناهما . وهو من بنيان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، لكنه قد أثّر القِدَم فيه ، حتى آذن بتدَاعِيه . والجامع الآخر داخل البلد ، وفيه يُجمَّع أهله . فكان مقامنا بها ذلك اليوم نزهة ، لم نختلس فى سفرنا [كله] مثلها .

---

(١) خـ ، ص : ثلاث . خطأ .

(٢) ص : على .

(٣) ط : الموضع . وانظر السياق قبله .

(٤) ص : فغاية قرى الحسن .

(٥) ط : الموضع . جمالا : ليست فى ص . للعيون : ليست فى ط .

(٦) ضحيت : برزت .

(٧) ط : حديث وقديم .

(٨) ص ، ر : بدون .

فلما كان عند المغيب من يوم السبت الخامس لربيع المذكور ، وهو السادس عشر ليونيه ، رحلنا منها رغبةً فى الإسآد وبرد الليل ، وتفاديا من حَرّ هَجِيرة التأويب ، لأن بمنها إلى حران مسيرة يومين ، لا عمارة فيها . فتمادى سيرنا إلى الصباح ، ونزلنا[1] فى الصحراء على ماء جُبّ ، وأرحنا قليلا . ثم رفعنا ضحوة النهار من يوم الأحد ؛ وسرنا ونزلنا قريبَ العصر على ماء بئر ، بموضع فيه برج مشيد وآثار قديمة ، يعرف « ببرج حَوَّاء » . فبِتْنا به[2] ثم رفعنا منه بعد تَهْوِيهم ساعة . وأسرينا إلى الصباح ، فوصلنا مدينة « حَرّان » مع طلوع الشمس من يوم الاثنين السابع لربيع المذكور ، والثامن عشر ليونيه ، والحمد لله على ما يسَّره[3] .

ذكر مدينة حَرّان ، كَلَأَها الله

بلدٌ لا حسن لديه ، ولا ظل تتوسد أَبْرديه[4] ، وقد اشْتُقّ من اسمه هواؤه ، فلا يألف البردَ ماؤه ، ولا تزال تتّقد بلَفْح الهَجِير ساحاتُه وأرجاؤه ، لا تَجِد[5] فيه مَقِيلا ، ولا تتنفس منه إلا نَفَسا ثقيلا ، قد نُبِذ بالعَرَاء ، ووُضِع فى وسط الصحراء ، فعدم رونقَ الحضارة ، وتعرّت أعطافُه من ملابس النضارة .

أستغفر الله ! كفى بهذه البلدة شرفا وفضلا أنها المدينة[6] العتيقة ، المنسوبة لأبينا إبراهيم صلوات الله على نبينا وعليه[7] ، وله بقبليّها بنحو ثلاثة

---

(١) ط : ثم نزلنا .
(٢) ص : بها .
(٣) ط : على تيسيره .
(٤) ط : يتوسط برديه .
(٥) ط : ولا تجد .
(٦) ط : بهذا البلد .
(٧) ط : ﷺ .

فراسخ مشهد مبارك ، فيه عين جارية ، كان مأوى له ولسارَة صلوات الله عليهما ، ومتعبَّدا لهما . فببركة[١] هذه النسبة ، قد جعل الله هذه البلدةَ مقرّا للصالحين المتزهّدين ، ومَثابة للسائحين المتبتّلين . لقينا من أفرادهم الشيخ الزاهد[٢] [بالبركات حيّان بن عبد العزيز] حذاء[٣] مسجده المنسوب إليه ، وهو يسكن [منه] فى زاوية بناها فى قبلته ، ويتّصل بها فى آخِر الجانب زاوية لابنه عمر ، قد التزمها وسلك[٤] طريقةَ أبيه فأشْبه وما ظلم[٤] وتعرّفتُ منه شِنْشِنة [أَعْرِفُها] من أَخْزَم[٥] . فوصلنا إلى الشيخ ، وهو قد نيّف على الثمانين ، فصافحَنَا ودعا لنا ، وأمرنا بلقاء ابنه عمر المذكور . فمِلْنا إليه ولقيناه ، ودعا لنا ، ثم ودّعناهما وانصرفنا مسرورين ، بلقاء رجلين من رجال الآخرة .

ولقينا أيضا بمسجد عتيق الشيخ الزاهد سلمة[٦] ، فلقينا رجلا من الزّهاد الأفراد ، فدعا لنا وسألنا ، وودعناه وانصرفنا . وبالبلد سلمة آخر ، يعرف بالمكشوف الرأس ، لا يغطّى رأسه تواضُعا لله عز وجل حتى عُرف بذلك ، وصلنا إلى منزله ، فأُعْلِمنا أنه خرج للبريّة سائحا .

وبهذه البلدة كثير من أهل الخير ، وأهلها هيّنون[٧] معتدلون ، محبون للغرباء ، مُؤثرون للفقراء . وأهل هذه البلاد ، من الموصل لديار بكر ، وديار ربيعة إلى الشام ، على هذه السبيل من حب الغرباء ، وإكرام الفقراء ؛ وأهل قُرَاها كذلك . فما يحتاج الغرباء الصعاليك[٨] معهم زادا ، لهم فى ذلك

(١) ط : ببركة .
(٢) الزاهد : ليست فى ط .
(٣) ص : حيدا .
(٤ — ٤) ط : وأشبه طريقة أبيه فما ظلم .
(٥) مثل معناه أنه أشبه أباه فى طبيعته وأخلاقه .
(٦) ص : مسلمة . وانظر بعد .
(٧) هـ : سنيون .
(٨) ص : مما . تحريف . ط : الفقراء الصعاليك .

مقاصد من[١] الكرم مأثورة . وشأن أهل هذه الجهات فى هذا السبيل عجيب ، والله ينفعهم بما هم عليه . وأما عُبّادهم وزهادهم والسائحون فى الجبال منهم ، فأكثر من أن يُقيّدهم الإحصاءُ ، والله ينفع المسلمين ببركاتهم ، وصَوَالح دعواتهم ، بمنه وكرمه .

ولهذه البلدة المباركة[٢] المذكورة أسواق حفيلة الانتظام ، عجيبة الترتيب ، مُسقّفة كلها بالخشب . فلا يزال أهلها فى ظل بارد[٣] ، فتخترق كأنما[٤] تخترق دارا كثيرة[٥] الشوارع . وقد[٦] بُنى عند كل ملتقَى أربع [سِكك] أسواق منها ، قبّة عظيمة مرتفعة[٧] مصنوعة من الجص ، هى كالمفرق لتلك السّكك . ويتصل بهذه الأسواق جامعُها المكرم ، وهو عتيق مجدَّد[٨] ، قد جاء على غاية الحسن ، وله صحن كبير ، فيه ثلاث قباب مرتفعة على سوارٍ رخام ، وتحت كل قبة بئر عذبة . وفى الصحن أيضا قبة رابعة عظيمة ، قد قامت على عشر سوار ضخام[٩] من الرخام ، دَور كل سارية تسعة أشبار ، وفى وسط القبة عمود من الرخام عظيم الجرم ، دَوْره خمسة عشر شبرا . وهذه القبة من بنيان الروم . وأعلاها مجوّف كأنه البرج المشيد ، يقال : إنه كان مخزنا لعُدّتهم الحربية ، والله أعلم . والجامع المكرم سُقِّفَ بجَوَائز الخشب والحَنايا[١٠] ، وخُشُبه عظام طوال بسعة[١١] البلاط ،

---

(١) ط : فى .

(٢) المباركة : ليست فى ط .

(٣) ط : ظل ممدود .

(٤) ط : كأنك .

(٥) ط : كبيرة .

(٦) ط : قد .

(٧) ط : مرفوعة .

(٨) خـ : جديد .

(٩) ضخام : ليست فى ط .

(١٠) ط : سقف . خـ : والحبايا .

(١١) ط : لسعة .

وسعتُه خمس عشرة خطوة ، وهو خمسة أَبْلِطَة . وما رأينا جامعا أوسع بلاطات[1] منه . وجداره المتصل بالصحن ، الذى عليه المدخل إليه ، مفتح كله أبوابا ، عددها تسعة عشرة بابا : تسعة يمينا ، وتسعة شمالا ، والتاسع عشر منها باب عظيم وسط هذه الأبواب ، يمسك قوسه من أعلى الجدار إلى أسفله ، باهى[2] المنظر ، جميل الوضع ، كأنّه باب من أبواب المدن الكبار . ولهذه الأبواب كلها أغلاق من الخشب البديع الصنعة والنقش ، تنطبق عليها على هيئة[3] أبوابِ مجالسِ القصور . فشاهدنا من حسن بناء هذا الجامع ، وحسن ترتيب أسواقه المتصلة به ، مرأى بديعا[4] قلما يوجد فى المدن مثل انتظامه .

ولهذه البلدة مدرسة ومارستانان . وهى مدينة[5] كبيرة ، وسورها حصين[6] متين ، مبنى بالحجارة المنحوتة ، المرصوص بعضها على بعض ، فهو نهاية فى القوة[7] : وكذلك بنيان الجامع المكرم . ولها قلعة حصينة مما يلى الجهة الشرقية منها ، منقطعة عنها بفضاء واسع بينهما ، ومنقطعة أيضا عن سورها بخَفِيرٍ عظيم يستدير بها ، قد شيدت حافتاه[8] بالحجارة المركومة ، فجاء فى نهاية الوثاقة والقوة . وسور القلعة وثيق الحصانة . ولهذه البلدة نُهَير ، مجراه بالجهة الشرقية أيضا منها بين سورها وجَبّانتها ، ومصبّه من عين

---

(١) ط : أوسع حنايا .

(٢) هـ : بهى . هـ : باهر .

(٣) ط : على شبه .

(٤) ط : مرأى عجيبا .

(٥) ط : وهى بلدة .

(٦) ط : متين حصين .

(٧) ط : من القوة .

(٨) ط : حافاته .

هى على بُعْد من البلد .

والبلد كثير الخلق ، واسع الرزق ، ظاهر البركة ، كثير المساجد ، جمّ المرافق ، على أحفل ما يكون من المدن . وصاحبه مظفَّر الدين بن زين الدين[١] ، وهو إلى طاعة صلاح الدين[٢] . وهذه البلاد كلها من الموصل إلى نصيبين إلى الفرات ، المعروفة بديار ربيعة ، وحَدّها من نصيبين إلى الفرات مع ما يلى الجنوب من الطريق ، وديار[٣] بكر التى تليها فى الجانب الجوفى كآمِد ومَيّا فارِقِين وحيى[٤] وغيرها مما يطول ذكره ، ليس فى ملوكها من يُناهِض صلاحَ الدين ، فهم إلى طاعته وإن كانوا مستبدّين ، وفضله يُبْقِى عليهم ، ولو شاء نَزْع الملك منهم لَفَعله بمشيئة الله .

فكان نزولنا ظاهر البلد بشرقيّه على نُهَيره المذكور . وأقمنا مريحين يوم الاثنين ويوم الثلاثاء بعده ، وإثر صلاة[٥] الظهر منه كان اجتماعنا بسَلَمة المكشوف الرأس ، الذى فاتنا لقاؤه يوم الاثنين ، فلقيناه بمسجده فرأينا رجلا [عليه] سِيمَا الصالحين ، وسَمْت المخبتين[٦] ،

---

(١) هو مظفر الدين أبو سعيد كوكبور بن زين الدين على كوجك ، الملقب بالملك المعظم . تولى إربل صغيرا بعد وفاة أبيه ٥٦٣ ، ولكنه اضطر لتركها لأخيه زين الدين . واتصل بخدمة سيف الدين غازى صاحب الموصل ، فأقطعه حران . وزاده صلاح الدين الرها ٥٧٨ ثم سميساط ، وزوجه أخته . ولما توفى أخوه تنازل عن بلاده . وحكم إربل وشهرزور ٥٨٦ . وتوفى ٦٣٠ . وكان كريم الأخلاق متواضعا ، وشهد مع صلاح الدين مواقع كثيرة ، أبان فيها عن نجدة وقوة نفس . وثبت فى معارك لم يثبت فيها غيره .

(٢) ط : وطاعته إلى صلاح الدين .   (٣) ص : وبلاد .

(٤) غير منقوطة فى ص .   (٥) صلاة : ليست فى ط .

(٦) ص : وسيمة . ط : المحبين .

مع طلاقة وبِشْر ، وكرم لقاء وبرّ ، فآنسَنا ودعا لنا ، [وودّعناه] وانصرفنا حامدين الله[١] عز وجل ، على أن منّ علينا بلقاء طائفة من أوليائه[٢] الصالحين وعباده المقرَّبين .

وفى ليلة الأربعاء التاسع لربيع المذكور ، كان رحيلنا بعد تهويم[٣] ساعة ، فأسرينا إلى الصباح ، ونزلنا مريحين بموضع يعرف[٤] « بتلّ عَبْدَة » ، وهو موضع عمارة ، وهذا التل مشرف متّسع ، كأنه المائدة المنصوبة ، وفيه أثر بناء قديم . وبهذا الموضع ماء جارٍ . وكان رحيلنا منه عند المغرب ، وأسرينا الليل كله ، واجتزنا على قرية تعرف « بالبَيْضاء » فيها خان كبير جديد ، وهو نصف الطريق من حَرّان إلى الفرات . ويقابلها على اليمين من الطريق ، فى استقبالك الفرات إلى الشام ، مدينة « سَرُوج » التى شَهَر ذكرَها الحرِيرىُّ بنسبة أبى زيد[٥] إليها ، وفيها البساتين والمياه المطّردة ، حسبما وصفها به فى مَقَاماته .

[بلوغ الشام]

فكان وصولنا إلى الفرات ضحوة النهار[٦] ، وعبرنا فى الزواريق المُقِلّة المُعَدة للعبور ، إلى قلعة جديدة على الشط ، تعرف « بقلعة نَجْم » وحولها ديار بادية ، وفيها سُوَيقة يوجد فيها المهمّ من عَلَف وخبز . فأقمنا بها يوم الخميس العاشر لربيع الأول المذكور مريحين ، خلالَ ما تُكمِّلُ القافلة بالعبور . وإذا عبرتَ الفرات ، حصلت فى حد الشام ، وسرتَ فى طاعة صلاح الدين

---

(١) ط : لله .
(٢) ط : ما من به علينا من لقاء أوليائه .
(٣) ط : تحويم . تحريف .
(٤) بموضع يعرف : ليست فى ط .
(٥) بطل المقامات .
(٦) ص : ضحوة من النهار .

إلى دمشق . والفرات حدّ بين ديار الشام وديار ربيعة وبكر . وعن يسار الطريق ، فى استقبالك الفرات إلى الشام ، مدينة « الرَّقّة » وهى على الفرات . وتليها « رَحْبة مالك بن طَوْق » وتعرف[١] « برَحْبة الشام » ، وهى من المدن الشهيرة . ثم رحلنا منها عند مُضِىّ الثُلث الأول من الليل[٢] ، وأسرينا ووصلنا مدينة « مَنْبِج » مع الصباح من يوم الجمعة الحادى عشر لربيع المذكور ، والثانى والعشرين ليونيه .

ذكر مدينة مَنْبِج ، حرسها الله

بلدة فسيحة الأرجاء ، صحيحة الهواء ، يحفّ بها[٣] سور عتيق ممتد الغاية والانتهاء ، جوّها [صقيل] ، ومُجْتَلاها [جميل] ، ونسيمها أَرِج النَّشْر عليل ، نهارها يَنْدَى ظله ، وليلها كما قِيل فيه[٤] : سَحَر كلّه . تحف بغربيّها وشرقيها[٥] بساتين ملتفّة الأشجار ، مختلفة الثمار . والماء يَطّرد فيها ، ويتخلّل جميع نواحيها ، وخص[٦] الله داخلها بآبار مَعِينة ، شَهْدِية العذوبة ، سلسبيلية المذاق ، يكون فى كل دار منها البئر والثنتان[٧] . وأرضها أرض كريمة ، تُستنبَط مياها كلُّها . وأسواقها وسككها فسيحة متسعة ، ودكاكينها وحوانيتها كأنها الخانات أو المخازن[٨] اتّساعا وكبرا ، وأعالى

---

(١) ص : وهى تعرف .
(٢) ط : ثلث الليل الأول .
(٣) ص : يحتويها .
(٤) ص : فيها .
(٥) ط : وبشرقيها .
(٦) ط : وخصص .
(٧) ط : والبئران .
(٨) ط : والمخازن .

أسواقها مسقّفة. وعلى هذا الترتيب أسواقُ أكثر مدن هذه الجهات ، لكن هذه البلدة تعاقبت عليها الأحقاب ، حتى أخذ منها الخراب ؛ كانت من مدن الروم العتيقة ، ولهم بها[1] من البناء آثار تدلّ على عُظم اعتنائهم بها . ولها قلعة حصينة فى جوفيها ، تنقطع [عنها] وتنحاز منها . ومدن هذه الجهات كلُّها لا تخلو من القلاع السلطانيّة . وأهلها أهل خير وفضل[2] ، سُنّيّون شافعيون ، [وهى] مطهّرة بهم من أهل المذاهب المنحرفة ، والعقائد الفاسدة ، كما تجده فى الأكثر من هذه البلاد ، فمعاملاتهم صحيحة ، وأحوالهم مستقيمة ، وجادّتهم الواضحة فى دينهم من اعتراض بُنيّات الطريق سليمة .

فكان نزولنا خارجَها ، فى أحد بساتينها ، وأقمنا يوما مريحين ، ثم رحلنا نصف الليل ، ووصلنا « بُزاعة » [ضحوةَ] يوم السبت الثانى عشر لربيع المذكور .

ذكر بلدة بُزَاعة ، كَلَأَها[3] الله

بقعة طيّبة الثّرَى ، واسعة الذُّرَى[4] تصغُر عن المدن وتكبُر عن القرى ، بها سوق تجمع بين المرافق السفريّة ، والمتاجر الحَضَرِية . وفى أعلاها قلعة كبيرة حصينة ، رامها أحَدُ ملوك الزمن فغاظتْه باستصعابها ، فأمر بثلم بنائها حتى غادرها عَوْرَة منبوذة بعرائها . ولهذه البلدة عين مَعِينة ، يخترق ماؤها

---

(١) ط : فيها .

(٢) ط : فضل وخير .

(٣) ط : الله عز وجل .

(٤) الذرى : الجانب .

بسيط بطحاء ترفّ بساتينها خضرةً ونضارة ، وتُرِيك[١] برونقها الأنيق حسن الحضارة .

وتناظرها فى جانب البطحاء قرية كبيرة ، تعرف « بالباب » هى باب بين بُزَاعة وحَلَب ، وكان يعمرها منذ ثمانى سنين قوم من المَلَاحِدة الإسماعيلية لا يحصى عددَهم [إلا الله] ، فطار شَرارهم ، وقطع هذه السبيلَ فسادُهم وإضرارهم ، حتى داخلت أهلَ هذه البلاد العصبيّة ، وحركتْهم الأنفة والحمية . فتجمّعوا من كل أُوْب عليهم ، ووضعوا السيوف فيهم ، فاستأصلوهم عن آخرهم ، وعَجّلوا بقطع دابرهم ، وكُوِّمت بهذه البطحاء جماجمهم . وكفى الله المسلمين عاديتَهم وشرهم ، وأحاق بهم مكرهم ، والحمد لله رب العالمين . وسكّانها اليوم قوم سُنيون . فأقمنا بها يوم السبت ببطحاء هذه البلدة مريحين ، ثم رحلنا[٢] منها فى الليل ، وأسرينا إلى الصباح . ووصلنا مدينة « حَلَب » ضحوة يوم الأحد الثالث عشر لربيع الأول ، والرابع والعشرين ليونيه .

ذكر مدينة حلَب ، حرسها الله[٣]

بلدة قدرها خَطِير ، وذِكْرُها فى كل زمان يَطير ، خُطّابها من الملوك كثير ، ومحلها فى نفوسهم[٤] أَثِير ، فكم هاجَت[٥] من كفاح ، وسُلّت[٦] عليها من

---

(١) ص : وتريد . تحريف .　　(٢) ط : ورحلنا .

(٣) ط : الله تعالى .

(٤) بط ١ : ١٤٦ : النفوس ط : محلها من التقديس أثير .

(٥) خـ : أهاجت .　　(٦) بط : سل . والصفاح : السيوف .

بيض الصِّفَاح ، لها قلعة شهيرة الامتناع ، بائنة الارتفاع ، معدومة الشبه والنظير فى القلاع ، تنزهت حصانةً أن تُرام أو تستطاع ، قاعدة كبيرة ، ومائدة من الأرض مستديرة ، منحوتة الأرجاء ، موضوعة على نسبة[١] اعتدال واستواء ، فسبحان من أحكم تدبيرها وتقديرها[٢] ، وأبدع كيف شاء تصويرها وتدويرها ، عتيقة فى الأزل ، حديثة وإن لم تزل ، قد طاولت الأيام والأعوام ، وشيعت الخواص والعوام . هذه منازلها وديارها ، فأين سكانها قديما وعُمّارها ؟ وتلك سُدّة مملكتها وفِناؤها[٣] ، فأين أمراؤها الحَمْدانيّون وشعراؤها ؟ أَجَلْ ، فَنِي الجميع[٤] ولم يأتِ بعدُ فَناؤها[٥] ! فيا عجبا للبلاد تَبْقى وتَذْهب أملاكُها ، ويهلكون ولا يُقْضَى هلاكُها ، تُخْطَب بعدهم فلا يتعذّر مِلاكُها[٦] ، وتُرام فيتيسّر بأهون شيء إدراكُها . هذه حلب ، كم أدخلت من ملوكها فى خبر كان ، ونسخت طَرْف الزمان بالمكان ، أُنِّث اسمها فتحلت بشيمة[٧] الغَوَان ، ودانت بالغَدْر فيمن دان[٨] ، وتجلّت عروسا بعد سيف دولتها ابن حمدان ، هيهات ! هيهات ! سَيهرم شبابها ، ويُعْدَم خُطّابها ، ويسرع فيها بعد حين خرابها ، وتتطرّق بجنبات الحادثات[٩] إليها ، حتى يَرِث الله الأرض ومن عليها ، لا إلـٰه سواه ، سبحانه جلّت قدرته .

وقد خرج بنا الكلام عن مقصده ، فَلْنَعُد إلى ما نحن[١٠] بصدده ، فنقول :

(١) خـ ، بط ، ش ٢ : ٣٧٤ : بنيه . (٢) ط : تقديرها وتدبيرها .
(٣) خـ : وبناؤها . (٤) ط : جميعهم .
(٥) يأتى : يحين . بط : ولم يبق إلا فناؤها .(٦) ملاكها : الزاج منها . بط : إملاكها .
(٧) ط : بزينة . بط : بحلية . (٨) ط : خان .
(٩) ط : جنبات الحوادث . (١٠) ط : كنا .

إن من شرف هذه القلعة ، أنه يُذْكَر أنها كانت قديما فى الزمان الأول ربوةً ، يأوى إليها إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والتسليم ، بُغنَيمات له[١] ، فيحلبها هنالك ، ويتصدق بلبنها ، فلذلك سُمّيت « حَلَب » ، والله أعلم . وبها مشهد كريم له[٢] ، يقصده الناس ويتبركون بالصلاة فيه . ومن كمال خلالها المشترطَة فى حصانة القلاع[٣] ، أن الماء بها نابع ، وقد صُنِع عليه جُبّان[٤] ، فهما ينبعان ماء فلا تخاف الظمأ أبد الدهر ، والطعام يصبر[٥] فيها الدهرَ كله ، وليس فى شروط الحصانة أهمّ ولا آكَد من هاتين الخَلّتين . ويطيف بهذين الجُبَّين المذكورين ، سُوران[٦] حصينان من الجانب الذى ينظر للبلد ، ويعترض دونهما خندق لا يكاد البصر يبلغ مَدَى عمقه ، والماء ينبع فيه . وشأن هذه القلعة فى الحصانة والحسن أعظم من أن ينتهى إلى وصفه . وسورها الأعلى مجلَّل كله أبراجا[٧] منتظمة ، فيها العَلالىّ المنيفة[٨] ، والقِصَاب[٩] المشرفة ، قد تفتّحت كلها طيقانا . وكلّ برج منها مسكون ، وداخلها المساكن السلطانية ، والمنازل الرفيعة الملوكية .

وأما البلد فموضوعه ضخم جدا ، حفيل الترتيب[١٠] ، بديع الحسن ، واسع الأسواق كبيرها ، متّصلة الانتظام مستطيلة ، تخرج من سماط صنعة

---

(١) ش : بغنمه .　　(٢) ش : منسوب إليه .

(٣) ش : ومن كمال جمالها الزائد على المشترط لحصانة القلع .

(٤) ش : جفان .　　(٥) بط : لا يتغير .

(٦) ش : ويطيف بجبلها سوران .　　(٧) ط : الأعلى كله أبراج . بط : متدانى الأبراج .　　(٨) ص ، ش : المنيعة . بط : العجيبة .

(٩) القصاب : جمع قصبة ، وهى الدار والقصر ، ولعله يريد الغرف .

(١٠) ش : جميل . ط : حفيل التركيب .

إلى سماط صنعة أخرى ، إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية ، وكلّها مسقّف بالخشب ، فسُكّانها فى ظلال وارفة . وكل[1] سوق منها تقيّد البصر[2] حسنا ، وتستوقف المستوفِز عجبا[3] . وأما قَيْساريّتها فحديقة بستان نظافة وجمالا ، مُطِيفة بالجامع المكرّم ، لا يتشوق الجالس فيها مرأى سواها ، ولو كان من المرائى الرياضية . وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة ، قد اتّصل السماط[4] خزانةً واحدة ، وتخلّلتها شُرَف خشبية[5] بديعة النقش ، وتفتحت كلها حوانيت ، فجاء منظرها أجمل منظر . وكل[6] سماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع المكرم . وهذا الجامع [من] أحسن الجوامع وأجملها ، قد أطاف بصحنه الواسع بلاطٌ متسع ، مفتّح كله أبوابا قَصْرِيّة الحسن ، إلى الصّحن ، عددُها ينيف[7] على الخمسين بابا ، فيستوقف الأبصار حسنُ منظرها . وفى صحنه بئران مَعِينان . والبلاط القبلىّ لا مقصورة فيه ، فجاء ظاهر الاتساع ، رائق الانشراح . وقد استفرغت الصنعة القرنصيّة جهدَها فى منبره ، فما أرى فى بلد من البلاد منبرا على شكله ، وغرابة صنعته . واتّصلت الصنعة الخشبية منه إلى المحراب ، فتجلّلت صفحاته كلها خشبا[8] ، على تلك الصفة[9] الغريبة . وارتفع كالتاج العظيم على المحراب ، وعلا حتى اتّصل بسَمْك السقف ، وقد قُوِّس

---

(١) ط : فكل .
(٢) ط : الأبصار .
(٣) ط : تعجبا .
(٤) زادش : كله .
(٥) ص : وتجللتها . ش : حسنة .
(٦) ص : وكان .
(٧) ص : نيف .
(٨) ط : حسنا .
(٩) ص : الصنعة .

أعلاه ، وشُرِّف بالشُّرَف الخشبيـة القرنصيّة ، وهـو مرصع كلـه بالعاج والآبنوس . واتصل[١] الترصيع من المنبر إلى المحراب ، مع ما بينهما[٢] من جدار القبلة ، دون أن يُتبيَّن بينهما انفصال[٣] ، فتجتلى العيون منها أبهى[٤] منظر يكون فى الدنيا . وحسن هذا الجامع المكرم أكثر من أن يوصف .

ويتصل به من الجانب الغربى ، مدرسةٌ للحنفية[٥] تناسب الجامعَ حسنا وإتقان صنعة ، فهما فى الحسن روضة تجاور أخرى . وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناء وغرابة صنعة ، ومن أظرف ما يُلْحَظ فيها أن جدارها القبلى مفتَّح كله بيوتا وغُرَفا ، ولها طِيقان يتّصل بعضها ببعض ، وقد امتد بطول الجدار عَرِيش كَرْم مُثْمِر عنبا . فحصل لكل طاق[٦] من تلك الطيقان قسطُها[٧] من ذلك العنب متدليا أمامها ، فيمدّ الساكن فيها يده ويجتنيه متكئا دون كلفة ولا مشقة . وللبلدة سوى هذه المدرسة نحو أربع مدارس أو خمس[٨] . ولها مارستان .

وأمرها فى الاحتفال عظيم ، فهى بلدة تليق بالخلافة ، وحسنها كله داخل لا خارج لها إلا نُهَير يجرى من جوفيها إلى قلبيّها ، ويشق رَبضها المستدير بها ، لأن[٩] لها ربضا كبيرا ، فيه من الخانات ما لا يُحْصَى عددُه[١٠] . وبهذا النهر

---

(١) ط : واتصال . (٢) ط : يليهما .

(٣) ص : يتبين ما بينهما . تحريف . (٤) ط : عنه أبدع .

(٥) خـ : للخليفة . بط ١ : ١٥٢ : تنسب لأمراء بنى حمدان .

(٦) ص : طاقة . (٧) ص : قسطا . تحريف .

(٨) ص : خمسة . خطأ . (٩) ط : فإن .

(١٠) ص : علة . هـ : عده .

الأرحاء[١] ، وهى متصلة بالبلد ، وقائمة وسط ربضه . وبهذا الربض بعض بساتين تتصل بطوله . وكيفما كان الأمر فيه داخلا وخارجا ، فهو من بلاد الدنيا التى لا نظير لها ، والوصف فيه يطول .

فكان نزولنا بربضه فى خان يعرف بخان أبى الشكر . فأقمنا به أربعة أيام ، ورحلنا ضحوة يوم الخميس السابع عشر لربيع المذكور ، والثامن والعشرين ليونيه ، ووصلنا « قِنَّسْرِين » قبيل العصر ، فأرحنا بها قليلا ، ثم انتقلنا إلى قرية تعرف « بتلّ تاجر »[٢] . فكان مبيتنا بها ليلة الجمعة الثامن عشر منه . وقنسرين هذه هى البلدة الشهيرة فى الزمان ، لكنها خربت وعادت كأن لم تغن بالأمس ، فلم تبق إلا آثارها الدارسة ، ورسومها الطامسة ، لكن[٣] قراها عامرة منتظمة ، لأنها على محرث عظيم مدّ البصر عرضا وطولا . وتشبهها من البلاد الأندلسية جَيّان ، ولذلك[٤] يُذْكَر أن أهل قنسرين عند استفتاح الأندلس نزلوا جَيّان ، تأنّسا بشبه[٥] الوطن وتعلّلا به مثلما فُعِل فى أكثر بلادها ، حسبَ ما هو معروف .

ثم رحلنا من ذلك الموضع عند الثلث الماضى من الليل ، فأسرينا وسرنا إلى ضحوة من النهار ، ثم نزلنا مريحين بموضع يعرف « بباقدين » ، فى خان كبير فيه[٦] يعرف بخان التركمان ، وثيق الحصانة . وخانات هذا الطريق[٧] كأنها القلاع امتناعا وحصانة ، وأبوابها حديد ، وهى من الوثاقة فى غاية . ثم

---

(١) ص : الأرحى .
(٢) ص : بتل باجر .
(٣) ط : ولكن .
(٤) ص ، خ : وكذلك . تحريف .
(٥) خ : لشبه .
(٦) فيه : ليست فى ط .
(٧) ص : هذه الطرق .

رحنا[١] من هذا الموضع ، وبتنا بموضع يعرف « بتَمْنَى » فى خان وثيق ، على الصفة المذكورة .

ثم أسحرنا منه يوم السبت التاسع عشر لربيع الأول المذكور ، وهو آخر يوم من يونيه ، ورأينا عن يمين طريقنا بمقدار فرسخين ، يوم الجمعة المذكور ، بلاد « المَعَرّة » ، وهى سواد كلها : بشجر الزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكه ، ويتصل التفاف بساتينها ، وانتظام قُرَاها ، مسيرة يومين ، وهى من أخصب البلاد[٢] ، وأكثرها أرزاقا . ووراءها جبل « لُبْنان » وهو سامى الارتفاع ، ممتد الطول ، يتصل[٣] من البحر إلى البحر ، وفى سطحه[٤] حصون للمَلاحدة الإسماعيلية . فرقة مرقت من الإسلام ، وادعت الإلٰهية فى أحد الأنام ، قُيِّض لهم شيطان من الإنس يعرف بسِنان[٥] ، خدعهم بأباطيل وخيالات مَوَّه عليهم باستعمالها ، وسحرهم بمُحَالها ، فاتخذوه إلٰها يعبدونه ، ويبذلون الأنفس دونه ، وحصلوا من طاعته وامتثال أمره ، بحيث يأمر أحدهم بالتردِّى من شاهقة[٦] جبل فيتردَّى ، ويستعجل فى مَرْضاته الرّدى ، والله يُضِل من يشاء ، ويهدى من يشاء [بقدرته] ، نعوذ به سبحانه من الفتنة فى الدين ، ونسأله العصمة من ضلال الملحدين ، لا رب غيره ، ولا معبود سواه . وجبل لبنان المذكور [هو] حدّ بين بلاد المسلمين والإفرنج ،

---

(١) ط : ثم رحلنا . (٢) ط : بلاد الله .

(٣) ش ١ : ١٢٥ (١٢١) : متصل . (٤) ط : صفحة . ش : سفح الجبل .

(٥) هو أبو الحسن سنان بن سليمان البصرى الإسماعيلى الباطنى ، صاحب الدعوة ، وصاحب حصون الإسماعيلية . كان متفننا . عالما بالفلسفة ، إخباريا شاعرا ، توفى ٥٨٩ هـ .

(٦) ش : شاهق .

لأن وراءه أَنْطاكِيَة واللاذقية وطرابلس وسوَاها[1] من بلادهم ، أعادها الله للمسلمين . وفى سطح[2] الجبل المذكور حصن يعرف بحصن الأكراد ، وهو[3] للإفرنج ، ويغيرون منه على حَمَاة وحِمْص ، وهو بمرأى العين منهما . فكان وصولنا إلى مدينة « حَمَاة » فى الضّحى الأعلى ، من يوم السبت المذكور ، ونزلنا بربضها على أحد[4] خاناته .

ذكر مدينة حَمَاة ، حماها الله[5]

بلد[6] شهيرة فى البلدان ، قديمة الصحبة للزمان ، غير فسيحة الفناء ، ولا رائقة البناء ، أقطارها مضمومة ، وديارها مركومة ، لا يَهَش البصر إليها ، عند الإطلال عليها ، كأنها تُكِنّ بهجتها وتخفيها ، فَتجد حسنها كامنا فيها ، حتى إذا جُسْت خلالها وتقرَّبت جلالها[7] ، أبصرت بشرقيها نهرا كبيرا ، تتسع فى تدفّقه أساليبه ، وتتناظر بشطّيه دواليبُه ، قد انتظمت طُرّتيه ، بساتين تتهدل أغصانها عليه ، وتلوح خُضرتها عِذَارا بصفحتيه ، ينسرب فى ظلالها ، وينساب على سَمْت اعتدالها ، وبأحد شطّيه المتصل بربضها مطاهرُ منتظمة بيوتا عدّة ، يخترق الماء من أحد دواليبه[8] جميعَ نواحيها ، فلا يجد المغتسل أثر أذى فيها . وعلى شطه الثانى المتصل بالمدينة السفلى جامع صغير ، قد فُتِح

---

(١) ط : واللاذقية وسواهما .
(٢) ط : صفح .
(٣) ط : هو .
(٤) ط : فنزلنا بربضها فى أحد .
(٥) ط : الله تعالى .
(٦) ط : مدينة .
(٧) ط : ونقرت ظلالها .
(٨) خـ : دوليبه إليه .

جداره الشرقى عليه ، طيقانا تجتلى منها منظرا ترتاح النفس إليه ، وتتقيَّد الأبصار لديه . وبإزاء ممرّ النهر فى جوف[1] المدينة ، قلعة حلبية[2] الوضع ، وإن كانت دونها فى الحصانة والمنع ، سُرِّب لها من هذا النهر ماء ينبع فيها ، فهى لا تخاف الصَّدَى ، ولا تتهيّب مرام العِدَى . وموضوع هذه المدينة فى وَهْدة من الأرض عريضة مستطيلة ، كأنها خندق عميق ، يرتفع لها جانبان : أحدهما كالجبل المطلّ ، والمدينة العليا متصلة بسفح[3] ذلك الجانب الجبلى ، والقلعة فى الجانب الآخر فى ربوة منقطعة كبيرة مستديرة ، قد تولى نحتها الزمان ، وحصل لها بحصانتها من كل عدو الأمان ، والمدينة السفلى تحت القلعة متصلة بالجانب الذى ينصب[4] النهر عليه ، وكلتا المدينتين صغيرتان . وسور المدينة العليا يمتد على رأس جانبها العلىّ الجبلىّ ، ويطيف بها . وللمدينة السفلى سور محدق[5] بها من ثلاثة[6] جوانب ، لأن جانبها المتصل بالنهر لا يحتاج إلى سور . وعلى هذا[7] النهر جسر كبير معقود ، بُصمّ الحجارة ، يتصل من المدينة السفلى إلى ربضها . وربضها كبير فيه الخانات والديار ، وله حوانيت يستَعجل فيها المسافر حاجته ، إلى أن يفرغ لدخول المدينة . وأسواق المدينة العليا أحفل وأجمل من أسواق المدينة السفلى ، وهى الجامعة لجميع الصناعات والتجارات ، وموضوعها حسن التنظيم ، بديع الترتيب والتقسيم ، ولها جامع أكبر من الجامع الأسفل ، ولها ثلاث مدارس ،

---

(١) ط : بجوف .

(٢) خـ : جبلية .

(٣) ط : بصفح .

(٤) ط : يصب .

(٥) ط : يحدق .

(٦) خـ : ثلاث . خطأ .

(٧) هذا : ليست فى ط .

ومارستان على شط النهر ، بإزاء الجامع الصغير . وبخارج[1] هذه البلدة بسيط فسيح عريض ، قد انتظمت[2] أكثره شجرات الأعناب ، وفيه المزارع والمحارث ، وفى منظره انشراح للنفس وانفتاح . والبساتين متصلة على شطى النهر ، وهو يسمى « العاصى » لأن ظاهر[3] انحداره من سفل إلى علو ، ومجراه من الجنوب إلى الشمال ، وهو يجتاز على قبلىّ حمص وبمقربة منها .

فكان مقامنا بحماة إلى عشىّ يوم السبت المذكور ، ثم رحلنا منها ، وأسرينا الليل كلّه ، وأجزنا فى نصفه هذا النهر العاصى المذكور ، على جسر كبير [معقود] من الحجارة . وعليه مدينة رَسْتَن[4] التى خرّبها عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وآثارها عظيمة . ويذكر الروم القسطنطينيون أن بها أموالا جمة مكنوزة ، والله أعلم بذلك . فوصلنا إلى مدينة « حِمْص » مع شروق الشمس من يوم الأحد الموفى عشرين لربيع [الأول] ، وهو أول يوليه ، فنزلنا بظاهرها فى خان[5] السبيل .

ذكر مدينة حِمْص ، حرسها الله[6]

هى فسيحة الساحة ، مستطيلة المساحة ، نُزْهة لعين مُبْصرها من النظافة والملاحة ، موضوعة فى بسيط من الأرض عريض مَدَاه ، لا يخترقه[7] النسيم

---

(١) ص : ولخارج .

(٢) ط : انتظم .

(٣) ط : ظاهره .

(٤) ص ، خ : رستم .

(٥) ط : بخان .

(٦) ط : الله تعالى .

(٧) خ : يخترق . تحريف .

بمَسْراه ، يكاد[1] البصر يقف دون منتهاه[2] أفيح أغبر ، لا ماء ولا شجر ، ولا ظلّ ولا ثمر ، فهى تشتكى ظماءها ، وتستسقى[3] على البعد ماءها ، فيُجْلب لها من نُهَيرها[4] العاصى ، وهو منها بنحو مسافة الميل ، وعليه طُرّة بساتين تجتلى العين خُضْرتها ، وتستغرب نضرتها ، ومنبعه بمغارة فى سفح[5] جبل ، فوقها بمرحلة[6] بموضع يقابل « بَعْلَبَكّ » أعادها الله ، وهى عن يمين الطريق إلى دمشق . وأهل هذه البلدة موصوفون بالنجدة والتمرّس بالعدو ، لمجاورتهم إياه[7] ، وبعدهم فى ذلك أهل حلب . فأحمدُ خلال هذه المدينة[8] هواؤها الرطب ، ونسيمها[9] الميمون تخفيفُه وتجسيمُه ، فكأن الهواء النّجدى[10] فى الصحة شقيقُه وقَسِيمُه ، وبقبلى هذه المدينة قلعة حصينة منيعة ، عاصية غير مُطِيعة ، قد تميّزت منها[11] وانحازت بموضوعها عنها . وبشرقيها . جبّانة فيها قبر خالد بن الوليد سيف[12] الله المسلول ، ومعه قبر ابنه عبد الرحمن ، وقبر عبيد الله بن عمرْ رضى الله عنهم . وأسوار هذه [المدينة] غاية[13] فى العتاقة والوثاقة ، مرصوص بناؤها بالحجارة الصم السود ، وأبوابها أبواب حديد ، سامية الإشراف ، هائلة المنظر ، رائعة الإطلال والأناقة ، تكتنفها الأبراج المشيّدة الحصينة . وأما داخلها فما شئتَ من بادية

(١) ص : ويكاد .
(٢) خـ : مداه .
(٣) ط : وتستقى .
(٤) ص : نهرها .
(٥) ط : فى مغارة بصفح .
(٦) ش : بمرحلة منها .
(٧) ص : لمحاربتهم له .
(٨) ط : البلدة .
(٩) هـ : ونسيمه . ص : نسيمه المأمون تخفيفه ونسيمه .
(١٠) ص : النجيدى . تحريف .
(١١) منها : ليست فى ط .
(١٢) ط : الوليد رضى الله عنه هو .
(١٣) ش : فى غاية .

[شعثاء] ، خَلِقة الأرجاء ، ملفّقة البناء ، لا إشراق لآفاقها ، ولا رونق لأسواقها ، كاسدة[١] لا عهد لها بنَفَاقها . وما ظنُّك ببلد حصنُ الأكراد منه على أميال يسيرة ، وهو معقل العدوّ ، فهو منه بحيث[٢] تَترائى نارُه ، ويُحْرَق إذا يطير شراره ، ويُتعهَّد إذا شاء كل يوم مُغاره . وسألنا أحدَ أشياخ هذه البلدة[٣] : هل فيها مارستان على رسم مدن هذه الجهات ؟ فقال ، وقد أنكر ذلك : حمصُ كلها مارستان ! وكفاك تبيينا[٤] شهادةُ أهلها فيها ! وبها مدرسة واحدة . وتجد فى هذه البلدة عند إطلالك[٥] عليها من بُعْد ، فى بسيطها ومنظرها وهيئة موضوع سورها[٦] ، بعض شبه من مدينة[٧] « إشبيلية » من بلاد الأندلس ، يقع للحين فى نفسك خياله ، وبهذا الاسم سميت فى القديم[٨] ، وهى العلّة التى أوجبت نزول الأعراب أهل حمص بها[٩] ، حسبما يُذْكَر . وهذا الشبه[١٠] ، وإن لم يكن بذاته ، فله لمحةٌ من إحدى جهاته .

فأقمنا[١١] بها يوم الأحد المذكور ، ويوم الاثنين بعده ، وهو الثانى ليوليه[١٢] ، إلى أول الظهر ، ثم رحلنا منها وتمادى سيرنا[١٣] إلى العشى . ونزلنا بقرية خَرِبة تعرف « بالمَشْعَر » ، فعشينا بها الدواب . ثم رحلنا عند

---

(١) ص : فاسدة .

(٢) بحيث : ليست فى ط .

(٣) ط : أحد الأشياخ بهذه البلدة .

(٤) كذا هـ ، ط . وفى ص ، خـ : تنبيها .

(٥) ش : اطلاعك .

(٦) ط : موضوعها .

(٧) ط : بمدينة .

(٨) ش : حبا ولذلك سميت باسمها فى القديم .

(٩) ط : فيها .

(١٠) ط : التشبيه .

(١١) ط : وأقمنا .

(١٢) خـ : ليونيه . تحريف .

(١٣) ط : ورجلنا منها وتمادينا .

المغرب ، وأسرينا طول ليلتنا ، وتمادى سيرنا إلى الضحى الأعلى من يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من الشهر المذكور . ونزلنا بقرية كبيرة للنصارى المعاهدين ، تعرف « بالقارَة » ليس فيها من المسلمين أحد ، وبها خان كبير كأنه الحصن المشيد ، وفى[1] وسطه صهريج كبير ، مملوء ماء يتسرب له تحت الأرض من عين على البُعْد ، فهو لا يزال ملآن . فأرحنا بالخان المذكور إلى الظهر ، ثم رحنا[2] منه إلى قرية تعرف « بالنَّبْك » ، بها ماء جار ومحرث متسع ، فنزلنا بها للتعشية ، ورحلنا[3] منها بعد اختلاس تهويمة خفيفة .

وأسرينا الليل كله ، فوصلنا إلى خان السلطان مع الصباح ، وهو خان بناه صلاح الدين صاحب الشام ، وهو فى نهاية الوثاقة والحسن ، بباب حديد على سبيلهم فى بناء خانات هذه الطرق كلها ، واحتفالهم فى تشييدها . وحول[4] هذا الخان ماء جار ، ينسرب[5] إلى سقاية فى وسط الخان كأنها صهريج ، وله[6] مَنَافِس ينصبّ منها الماء فى سقاية صغيرة مستديرة حول الصهريج ، ثم يغوص فى سَرَب فى الأرض . والطريق من حمص إلى دمشق قليل العمارة إلا فى ثلاثة مواضع أو أربعة ، منها هذه الخانات المذكورة . فأقمنا [بها] يوم الأربعاء الثالث والعشرين لربيع المذكور[7] ، مريحين ومستدركين للنوم إلى أول الظهر ، ثم رحلنا وأجزنا « ثنية[8] العُقاب » ، ومنها يُشْرَف على بسيط دمشق وغوطتها . وعند هذه الثنية مفرقُ طريقين :

---

(١) ط : فى .
(٢) ط : رحلنا .
(٣) ط : ثم رحلنا .
(٤) خـ : وهو . ط : وفى .
(٥) ط : يتسرب .
(٦) ط : ولها .
(٧) ط : المذكور بالخان المذكور .
(٨) ط : وجزنا بثنية .

إحداهما[١] التى جئنا عليها من البلاد[٢] ، والثانية آخذة شرقا فى البريّة على السماوة إلى العراق ، وهى طريق قَصْد لكنها لا تُدْخَل إلا فى الشتاء . فانحدرنا منها بين جبال فى بطن واد إلى البسيط ، ونزلنا منه بموضع يعرف « بالقُصَيْر » ، فيه خان كبير ، والنهر جار أمامه . ثم رحلنا منه مع الصبح ، وسرنا فى بساتين متصلة لا يوصف حسنُها . ووصلنا دمشق فى الضحى الأعلى من يوم الخميس الرابع والعشرين لربيع الأول ، والخامس ليوليه ، والحمد لله رب العالمين .

شهر ربيع الآخر [٣]عرّفنا الله بركته[٣]

استهل هلاله ليلة[٤] الأربعاء ، بموافقة الحادى عشر لشهر يولية[٥] ، ونحن بدمشق ، نازلين فيها بدار الحديث ، غربىّ جامعها المكرم[٦] .

ذكر مدينة دِمَشْق ، حرسها الله[٧]

جنة المشرق ، ومَطْلع حُسْنِه المُونِق المُشْرِق[٨] ، وهى خاتمة بلاد الإسلام التى استَقْرَيناها ، وعروس المدن التى اجْتَلَيناها ، قد تحلّت[٩]

---

(١) ص : أحدهما . تحريف .
(٢) ط : منها والثانية .
(٣ — ٣) ليست فى ط .
(٤) ط : يوم .
(٥) ط : ليوليه .
(٦) زادت ص بعد ذلك : وذلك فى يوم الخميس الرابع والعشرين لربيع الأول . وواضح أنها تكرار التى سبقت قبل أربعة أسطر .
(٧) ط : الله تعالى . وقد اقتبس الفقرة المسجوعة التالية ش ١ : ٢٠٧ ، بط ١ : ١٨٨ ، والمقرى : نفح الطيب ١ : ٧١٧ .
(٨) بط : ومطلع نورها المشرق .
(٩) خـ : تجلت .

بأزاهير الرياحين ، وتجلّت فى حُلَل سندسيّة من البساتين ، وحلّت من موضوع الحسن بمكـــان مَكِين[1] ، وتزيـــنت مَنصّتها[2] أجمل تزيين ، وتشرّفت بأن آوى الله[3] المسيح وأمه[4] منها إلى ربوة ذات قَرَار ومَعِين ، ظِلٌّ ظليل ، وماء سلسبيل ، تنساب مَذَانِبه انسياب الأَرَاقِم[5] بكل سبيل ، ورياض يُحيي النفوسَ نسيمها[6] العليل ، تتبرّج[7] لناظريها بمُجْتَلًى صقيل ، وتناديهم : هَلمّوا[8] إلى مُعرَّس للحسن ومَقِيل ، قد سئمت أرضُها كثرةَ الماء حتى اشتاقت إلى الظماء ، فتكاد تناديك بها الصُّمّ الصلاب : « ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَاب »[9] ، قد أحدقت البساتين بها إحداقَ الهالة بالقمر ، واكتنفتها اكتنافَ الكِمامة[10] للزهر ، وامتدّت بشرقيّها غُوطتها الخضراء امتدادَ البصر ، فكل مربع [لحظتَه][11] بجهاتها الأربع نضرتُه اليانعة قَيْد النظر ، ولله صِدْق القائلين[12] عنها : « إنْ كانت الجنة فى الأرض فدمشق لا شَكّ فيها ، وإن كانت فى السماء فهى بحيث تُسَامِتها[13] وتُحَاذيها » .

---

(١) وكذا فى ش والمقرى . وفى ط : بالمكان المكين .

(٢) ط : فى منصتها .

(٣) ط : الله تعالى .

(٤) ط : وأمه صلى الله عليهما

(٥) الأراقم : جمع أرقم ، وهى الحيات التى فيها سواد وبياض .

(٦) ش : تحيى النفوس بنسيمها .

(٧) ش : تبرز .

(٨) ش : ألا هلموا .

(٩) سورة ص ، الآية ٤٢ .

(١٠) ش : الأكمام . بط : الأكمام بالثمر .

(١١) بط : لحظت . ش ، المقرى : موقع لحظت . ط : موضع .

(١٢) ش : ولقد صدق القائلون .

(١٣) تسامتها : تقابلهـــــا وتحاذيها . وكذا ش وبعض مخطوطات بط . وفى خـ ، بط ، المقرى : تساميها .

ذكر جامعِها المكرم ، عَمَّره الله[1]

هو من أشهر جوامع الإسلام حسنا ، وإتقان بناء ، وغرابة صنعة ، واحتفال تنميق وتزيين . وشهرته المتعارَفة فى ذلك تغنى عن استغراق[2] الوصف فيه . ومن عجيب شأنه أنه لا تنسج به العنكبوت ولا تدخله ، ولا تُلِمّ به الطير المعروفة[3] بالخُطّاف . انتدَب لبنائه الوليد بن عبد الملك رحمه الله ، ووجَّه إلى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره بإشخاص اثنى عشر ألف صانع من جميع بلاده[4] ، وتقدم إليه بالوعيد فى ذلك إنْ توقَّف عنه . فامتثل أمره مذْعِنا ، بعد مراسلة جرَتْ بينهما فى ذلك ، مما هو مذكور فى كتب التواريخ . فشرع فى بنائه ، وبُلغت الغايات فى التأنق فيه ، وأُنزِلت جُدُره كلها بفصوص [من] الذهب المعروفة[5] بالفُسَيفساء ، وخُلطت[6] بها أنواع من الأصْبِغة الغريبة ، قد مُثِّلت أشجارا ، وفُرِّعت أغصانا منظومة بالفصوص ، ببدائع من الصنعة الأنيقة المعجزة وَصْفَ كلِّ واصف ، فجاء يغشّى العيون وَميضا وبصيصا . وكان مبلغ النفقة فيه ــ حسبما ذكره ابن المُعَلّى[7] الأسَدِىّ فى جُزْءٍ وَضعه فى ذكر بنيانه[8] ــ أربع[9] مئة صندوق ،

---

(١) ط : الله تعالى .
(٢) هـ : استيفاء .
(٣) ص : المعروف .
(٤) ط : ألفا من الصناع من بلاده .
(٥) ط : المعروف .
(٦) خـ : وأخلطت .
(٧) خـ : ابن المغلى . وهو محمد بن المعلى بن عبد الله الأسدى أو الأزدى ، تلميذ ابن دريد وأبى إسحاق الصولى ، ومؤلف شرح ديوان تميم بن مقبل وغيره .
(٨) ط : بنائه .
(٩) أربع : ليست فى ط .

فى كلِّ صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار[١] ، فكان مبلغ الجميع أحد عشر ألف ألف دينار ومئتى ألف دينار .

والوليد هو[٢] الذى أخذ نصف الكنيسة الباقية منه فى أيدى النصارى ، وأدخلها فيه ، لأنه كان قسمين : قسما للمسلمين وهو الشرقى ، وقسما للنصارى وهو الغربى ؛ لأن أبا عبيدة بن الجراح ، رضى الله عنه ، دخل البلد من الجهة الغربية ، فانتهى إلى نصف الكنيسة ، وقد وقع الصلح بينه وبين النصارى ، ودخل خالد بن الوليد رضى الله عنه عَنْوَة من الجهة الشرقية[٣] وانتهى إلى النصف الثانى وهو الشرقى ، فاحتازه المسلمون وصيروه مسجدا ، وبقى النصف المصالَح عليه وهو الغربى كنيسة بأيدى النصارى ، إلى أن عوّضهم منه[٤] الوليد ، فأبوا ذلك ، فانتزعه من أيديهم قسرا[٥] ، وطلع لهدمه بنفسه ، وكانوا يزعمون أن الذى يهدم كنيستهم يُجَن ، فبادر الوليد لذلك[٦] وقال : أنا أول من يُجَنّ فى الله ، وبدأ الهدم بيده ، فبادر المسلمون وأكملوا هدمه . واستعدَوْا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أيامَ خلافته ، وأخرجوا العهود التى[٧] بأيديهم من الصحابة رضى الله عنهم ، فى إبقائه عليهم ، فهَمَّ بصرفه إليهم ، فأشفق المسلمون من ذلك . ثم عَوَّضهم منه بمال عظيم أرضاهم به ، فقبلوه . ويقال : إن أول من وضع جداره القبلى هود النبى ، عليه السلام . وكذلك ذكر ابن المعلى فى تاريخه ، والله أعلم بذلك ، لا إلٰه

---

(١) زادت ط بعد ذلك : ومئتا ألف دينار . وهو خطأ يكشفه مجموع النفقات .

(٢) ط : والوليد هذا هو . (٣) ط : الجانب الشرقى .

(٤) ش : رغب إليهم أن يعوضهم عنه . (٥) ط : فانتزعه منهم قهرا .

(٦) لذلك : ليست فى ط . (٧) ط : العهد الذى .

سواه . وقرأنا فى فضائل[١] دمشق ، عن سفيان الثورى رضى الله عنه ، أنه قال : إن الصلاة فيه بثلاثين ألف صلاة . وفى أثر[٢] عن النبى ، ﷺ ، أنه يُعْبَد الله عز وجل فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة .

ذكر تَذْرِيعه ومساحته وعدد أبوابه وشمْسِيّاته

ذَرْعه فى الطول من الشرق إلى الغرب مئتا خطوة ، وهما ثلاث مئة ذراع . وذرعه فى السعة من القبلة إلى الشمال[٣] مئة خطوة وخمس وثلاثون خطوة ، وهى مئتا ذراع . فيكون تكسيره من المراجع الغربية أربعة وعشرين مرجعا . وهو تكسير مسجد رسول الله ، ﷺ ، غير أن الطول فى مسجد رسول الله ﷺ ، من القبلة إلى الشمال . وبلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاثة ، مستطيلة من الشرق إلى الغرب ، سعة كل بلاط[٤] منها ثمان عشرة خطوة ، والخطوة ذراع ونصف ، وقد قامت[٥] على ثمانية وستين عمودا ، منها أربع[٦] وخمسون سارية ، وثمانية[٧] أرجُل جصيّة تتخللها ، واثنتان مرخّمة ملصقة[٨] معها فى الجدار الذى يلى الصحن ، وأربعة[٩] أرجل مرخمة أبدع ترخيم ، [مرصعة] بفصوص من الرخام ملونة ، قد نُظّمت خواتيم ،

(١) خـ : فضل .
(٢) ط : الحديث .
(٣) ط : الجوف .
(٤) ش دائما : بلاطة ، بالتأنيث .
(٥) زادش : البلاطات . وانظر بط ١ : ١٩٩ .
(٦) ص ، خـ : أربعة خطأ .
(٧) ط : وثمانى .
(٨) ش : ملصقة بالجدار ـ وحق العبارة التثنية .
(٩) ط : وأربع .

وصُوِّرت محاريب وأشكالا غريبة ، قائمة فى البلاط الأوسط ، ثُقِلَّ فيه[١] الرصاص مع القبة التى تلى المحراب ، سعة كل رِجْل منها ستة عشر شبرا ، وطولها عشرون شبرا ، وبين كل رجل ورجل فى الطول سبع عشرة خطوة ، وفى العرض ثلاث عشرة[٢] خطوة ، فيكون دور كل رجل منها اثنين وسبعين شبرا . ويستدير بالصحن بلاط[٣] من ثلاث جهاته : الشرقية ، والغربية ، والشمالية ؛ سعتُه عشر خُطا ، وعدد قوائمه سبع[٤] وأربعون : منها أربعة عشر رجلا[٥] من الجص ، وسائرها سوارٍ . فيكون سعة الصحن ــ حاشا المسقّف القبلى والشمالى ــ مئتى[٦] ذراع . وسقف الجامع كله من خارج ألواح رصاص .

وأعظم ما فى هذا الجامع المبارك ، قبّة الرصاص المتصلة بالمحراب وسطه ، وهى[٧] سامية فى الهواء ، عظيمة الاستدارة ، قد استقل بها هيكل عظيم ، هو غارِب[٨] لها ، يتصل من المحراب إلى الصحن ، وتحته ثلاث قِباب : قبة تتصل بالجدار الذى إلى الصحن ، وقبة تتصل بالمحراب ، وقبة تحت قبة الرصاص بينهما . والقبة الرصاصية قد أغصَّت الهواء وسطه ، فإذا استقبلتَها أبصرت مرأى هائلا ومنظرا رائعا[٩] ، يشبّهه الناس بنسر طائر ، كأنَّ القبة رأسه ، والغارب جؤجؤه ، ونصف جدار البلاط عن يمين ، ونصفه[١٠] الثانى عن

---

(١) ط : قبة . تحريف .
(٢) خـ : ثلاثة عشر ، خطأ .
(٣) خـ بلاطات . بط : بلاطات ثلاثة .
(٤) خـ ، ص : سبعة .
(٥) ط : أربع عشرة من الجص .
(٦) ص : مئتا . ط : مئة .
(٧) وهى : ليست فى ط .
(٨) الغارب : أعلى الظهر ، ويريد هنا أنه عماد لها ، وهذه رواية ش .
(٩) ط : منظرا رائعا ومرأى هائلا .
(١٠) ط : ونصف . تحريف .

شمال ، جناحاه . وسعة هذا الغارب من جهة الصحن ثلاثون خطوة ، فهم يعرّفون ذلك[1] الموضع من الجامع بالنسر لهذا التشبيه الواقع عليه . ومن أى جهة استقبلتَ البلد ، ترى القبة فى الهواء مُنِيفة على كل علو[2] ، كأنها معلقة من الجو .

والجامع المكرم مائل إلى الجهة الشمالية من البلد . وعدد شمسياته[3] الزجاجية المذهبة الملونة أربع وسبعون : منها فى القبة التى تحت قبة الرصاص عشر ، وفى القبة المتصلة بالمحراب ، مع ما يليها من الجدار ، أربع عشرة شمسية ، وبطول[4] الجدار عن يمين المحراب ويساره أربع وأربعون ، وفى القبة[5] المتصلة بجدار الصحن ست ، وفى ظهر الجدار إلى الصحن[6] سبع وأربعون شمسية .

وفى الجامع المكرم ثلاث مقصورات : مقصورة الصحابة رضى الله عنهم ، وهى أول مقصورة وضعت فى الإسلام ، وضعها معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه[7] ، وبإزاء محرابها عن يمين مستقبل القبلة باب حديد ، كان يدخل معاوية رضى الله عنه منه إلى المقصورة وبإزائه[8] لجهة اليمين مُصلَّى أبى الدَّرْداء رضى الله عنه ، وخلفها كانت دار معاوية . وهى اليوم

---

(١) ذلك : ليست فى ط .   (٢) خـ : منيعة . بط : على جميع مبانى البلد .

(٣) ش : شماساته . بط ١ : ١٧٩ : شمسات .

(٤) خـ : وطول . ط : وفى طول .   (٥) خـ : القبلة .

(٦) ص : ظاهر الجدار الذى يلى إلى الصحن .

(٧) ط : عنهما .

(٨) ط : عنه إلى المقصورة منه إلى المحراب وبإزاء محرابها .

سماط عظيم للصفّارين[١] ، يتصل بطول جدار الجامع القبلى ، ولا سماط أحسن منظرا منه ، ولا أكبر طولا وعرضا . وخلف هذا السماط على مقربة منه دار الخيل[٢] برسمه ، وهى اليوم مسكونة ، وفيها مواضع للكَمّادين[٣] . وطول المقصورة الصحابية المذكورة أربعة وأربعون شبرا ، وعرضها نصف الطول . ويليها لجهة الغرب ، فى وسط الجامع ، المقصورةُ التى أُحْدثت عند إضافة النصف المتخَذ كنيسةً إلى الجامع ، حسبما تقدّم ذكره . وفيها منبر الخطبة ، ومحراب الصلاة . وكانت مقصورة الصحابة أوّلا فى نصف الحظّ[٤] الإسلامى من الكنيسة ، وكان الجدار حيث أُعيد المحراب فى المقصورة المُحْدَثة . فلما أُعيدت[٥] الكنيسة كلها مسجدا ، صارت مقصورة الصحابة طرفا فى الجانب الشرقى ، وأُحدثت المقصورة الأخرى وسطا ، حيث كان جدار الجامع قبل الاتصال . وهذه المقصورة المحدثة أكبر من الصحابية . وفى الجانب[٦] الغربى بإزاء الجدار مقصورة أخرى ، هى باسم الحنفية[٧] ، يجتمعون فيها للتدريس ، وبها يصلّون . وبإزائها زاوية محدَقة بالأعواد المشرجبة ، كأنها مقصورة صغيرة . وبالجانب الشرقى زاوية أخرى على هذه الصفة ، هى كالمقصورة ، كان وضعَها للصلاة فيها أحدُ أمراء الدولة التركية ، وهى لاصقة بالجدار الشرقى . وبالجامع المكرم عدة زوايا على هذا الترتيب ، يتّخذها الطلبة للنسخ ، والدرس ، والانفراد عن

---

(١) الصفارون : النحاسون .
(٢) ط : الخليل .
(٣) الكمادون : صابغو الثياب .
(٤) ص : النصف الخط . تحريف .
(٥) ص : أعيد .
(٦) ط : وبالجانب .
(٧) ط : برسم الحنفية . خه : باسم الخليفة . ش : يجتمع الحنفية فيها .

ازدحام الناس ، وهى من جملة مرافق الطلبة .

وفى الجدار المتصل بالصحن ، المحيط بالبلاطات القبلية ، عشرون بابا متصلة بطول الجدار ، قد علتْها قِسىّ جصيّة مخرّمة كلها على هيئة الشمسيّات ، فتبصر العين من اتّصالها أجمل منظر وأحسنه . والبلاط المتصل بالصحن ، [المحيط بالبلاطات] من ثلاث جهاته[1] ، على أعمدة . وعلى تلك الأعمدة أبواب مقوّسة ، تقلّها أعمدة صغار ، تطيف بالصحن كله . ومنظر هذا الصحن من أجمل المناظر وأحسنها ، وفيه مجتمع أهل البلد ، وهو متفرَّجهم ومنتزَههم كل عشيّة ، تراهم فيه ذاهبين وراجعين ، من شرق إلى غرب ، من باب جَيْرون إلى [باب] البريد : فمنهم من يتحدّث مع صاحبه ، ومنهم من يقرأ ، لا يزالون على هذه الحال من ذهاب ورجوع ، إلى انقضاء صلاة العشاء الآخرة ، ثم ينصرفون . ولبعضهم بالغداة مثل ذلك . وأكثر الاحتفال إنما هو بالعشى . فيخيل لمبصر ذلك أنها ليلة سبع وعشرين من رمضان[2] ، لما يرى من احتفال الناس واجتماعهم ؛ لا يزالون على ذلك كل يوم . وأهل البطالة من الناس يسمّونهم الحَرّاثين .

وللجامع ثلاث صوامع : واحدة فى الجانب الغربى ، وهى كالبرج المشيّد ، تحتوى على مساكن متسعة ، وزوايا فسيحة ، راجعة كلها إلى أغلاق ، يسكنها أقوام من الغرباء أهل الخير ، والبيت الأعلى منها كان معتكَف أبى حامد الغزالىّ رحمه الله ، ويسكنه اليوم الفقيه الزاهد أبو عبد الله بن سعيد ، من أهل قلعة « يَحْصُب » المنسوبة لهم ، و[هو] قريب لبنى سعيد المشتهرين

---

(١) ط : جهات .

(٢) ط : رمضان المعظم .

بالدنيا وخدمتها ؛ وثانية بالجانب الشرقى[1] على هذه الصفة ، وثالثة فى الجانب[2] الشمالى على الباب المعروف بباب الناطفيّين .

وفى الصحن ثلاث قباب : إحداها فى الجانب الغربى منه وهى أكبرها ، وهى قائمة على ثمان أعمدة من الرخام ، مستطيلة كالبرج ، مزخرفة بالفصوص والأصبغة الملونة ، كأنها الروضة حسنا ، وعليها قبة رصاص كأنها التنور العظيم الاستدارة ، يقال : إنها كانت مخزناً لمال الجامع ، وله مال عظيم من خَرَاجات ومُستغَلَّات ، تنيف على ما ذُكر لنا على الثمانية آلاف دينار صُوريّة فى السنة ، وهى خمسة عشر ألف[3] دينار مؤمنيّة أو نحوها . وقبة أخرى صغيرة فى وسط الصحن ، مجوّفة مثمّنة ، من رخام قد أُلْصق أبدع إلصاق ، قائمة على أربعة[4] أعمدة صغار من الرخام ، وتحتها شباك حديد مستدير ، وفى وسطه أنبوب من الصُّفر يَمُجّ الماء إلى علو ، فيرتفع وينثنى كأنه قضيب لُجَين ، يَشْرَهُ الناس لوضع أفواههم فيه للشرب استطرافا واستحسانا ، ويسمونه قفص الماء . والقبة الثالثة فى الجانب الشرقى ، قائمة على ثمانية[5] أعمدة ، على هيئة القبة الكبيرة لكن أصغر منها .

وفى الجانب الشمالى من الصحن باب كبير يفضى إلى مسجد كبير ، فى وسطه صحن ، قد استدار فيه صهريج من الرخام كبير ، يجرى الماء فيه دائما فى صحفة[6] رخام أبيض مثمّنة ، قد قامت وسط الصهريج على رأس عمود مثقوب ، يصعد الماء فيه[7] إليها ، ويعرف هذا الموضع بالكَلَّاسَة ، ويصلى فيه

---

(١) ط : الغربى . تحريف .
(٢) ط : بالجانب .
(٣) بط ٢٠١ : خمسة وعشرون ألفا .
(٤) ص : أربع خطأ .
(٥) ص : ثمان . خطأ .
(٦) ص ، ط : من صحفة .
(٧) ط : منه .

اليوم صاحبنا الفقيه الزاهد المحدّث أبو جعفر[١] بن الفنكى القرطبى ، ويتزاحم الناس على الصلاة[٢] خلفه ، التماسا لبركته ، واستمتاعا بحسن[٣] صوته .

وفى الجانب الشرقى من الصحن باب ، يفضى إلى مسجد من أحسن المساجد ، وأبدعها وضعا ، وأجملها بناء ؛ يذكر الشيعة أنه مشهد لعلى ابن أبى طالب رضى الله عنه . وهذا من أغرب مختَلَقاتهم . ومن العجب[٤] أنه يقابله ، فى الجهة الغربية ، فى زاوية البلاط الشمالى من الصحن : موضع هو ملتقَى آخر البلاط الشمالى مع أول البلاط الغربىّ ، مجلل بسِتْر فى أعلاه ، وأمامه سِتْر مسدول[٥] ، يزعم أكثر الناس أنه موضع لعائشة[٦] رضى الله عنها ، وأنها كانت تُسْمِع الحديث فيه . وعائشة رضى الله عنها فى دخول دمشق كعلى رضى الله عنه ، لكن لهم فى على رضى الله عنه مندوحة من القول . وذلك أنهم يزعمون أنه رئى فى المنام ، مصلّيا فى ذلك[٧] الموضع ، فبَنَت الشيعة فيه مسجدا . وأما الموضع المنسوب لعائشة رضى الله عنها فلا مندوحة فيه ، وإنما ذكرناه لشهرته فى الجامع .

وكان هذا الجامع المبارك ، ظاهرا وباطنا ، مُنزَّلا كله بالفصوص المذهبة ، مزخرفا بأبدع زخارف[٨] البناء المعجز الصنعة . فأدركه الحريق مرتين ، فتهدّم وجُدِّد ، وذهب أكثر رخامه ، واستحال[٩] رونقه ، فأسْلَمُ ما فيه اليوم

---

(١) بن : ليست فى ط .
(٢) ط : الصلاة فيه خلفه .
(٣) ط : واستمتاعا لحسن .
(٤) ط : العجيب .
(٥) ط : ستر أيضا منسدل .
(٦) ص : عائشة .
(٧) ص : يصلى فيه فى ذلك .
(٨) ط : زخاريف .
(٩) ط : فاستحال .

قبلته مع الثلاث القباب[١] المتصلة بها . ومحرابه من أعجب المحاريب الإسلامية حسنا ، وغرابة صنعة ، يتّقد ذهبا كله . وقد قامت فى وسطه محاريب صغار متصلة بجداره ، تحفها سُوَيْرِيات مفتولات فتلَ الأَسْوِرة ، كأنها مخروطة ، لم يُرَ شيء أجمل منها ، وبعضها حُمْر كأنها من[٢] مرجان . وشأن[٣] قبلة هذا الجامع المبارك — مع ما يتصل بها[٤] من قبابه الثلاث ، وإشراق[٥] شمسياته المذهبة الملونة عليه ، واتصال شعاع الشمس بها ، وانعكاسه إلى كل لون منها ، حتى ترتمى للأبصار منه أشعة[٦] ملونة ، يتصل ذلك بجداره القبلى كله — عظيمٌ لا يُلْحَق وصفه ، ولا تبلغ العبارة بعضَ ما يتصوّر [٧] الخاطر منه ، والله يعمره بشهادة الإسلام وكلمته ، بمنه . وفى الركن الشرقى من المقصورة الحديثة فى صف[٨] المحراب ، خزانة كبيرة فيها مصحف [من مصاحف] عثمان بن عفان[٩] رضى الله عنه ، وهو المصحف الذى وجّه به إلى الشام ، وتُفْتَح الخزانة كل جمعة[١٠] إثر الصلاة ، فيتبرّك الناس بلمحه[١١] وتقبيله ، ويكثر الازدحام عليه .

وله أربعة أبواب : باب قبلى ، ويعرف « بباب الزيادة » وله دهليز كبير متسع ، له أعمدة عظام ، وفيه حوانيت للخَرَزِيّين[١٢] وسواهم ، وله مرأى

---

(١) خـ : من . طـ : قباب .

(٢) من : ليست فى ط .

(٣) ط : فشأن .

(٤) ص : به .

(٥) ط : وإشراق .

(٦) ط : الأبصار . خـ : أصبغة .

(٧) ط : يتضوره .

(٨) صف : ليست فى ط .

(٩) بن عفان : ليست فى ط .

(١٠) ط : كل يوم .

(١١) ط : بلمسه .

(١٢) بط ١ : ٢٠٦ : السقاطين .

رائع ، ومنه يُفْضى إلى دار الخيل ، وعن يسار الخارج منه سِماط الصَّفَّارين ، وهى كانت دار معاوية رضى الله عنه ، وتعرف « بالخضراء » ؛ وباب شرقى ، وهو أعظم الأبواب ، ويعرف « بباب جَيْرون » ؛ وباب غربى ، ويعرف « بباب البَرِيد » ؛ وباب شمالى ، ويعرف « بباب الناطفيّين » .

وللشرقى والغربى ، والشمالى أيضا ، من هذه الأبواب دهاليز متسعة ، يفضى كل دهليز منها إلى باب عظيم ، كانت كلها مداخل للكنيسة[1] ، فبقيت على حالها ، وأعظمها منظرا الدهليز المتّصل بباب جيرون ، يخرج من هذا الباب إلى بلاط طويل عريض ، قد قامت أمامه خمسة أبواب مقوّسة ، لها ستة أعمدة طوال . وفى جهة[2] اليسار منه مشهد كبير حفيل ، كان فيه رأس الحسين بن على رضى الله عنهما ، ثم نُقِل إلى القاهرة . وبإزائه مسجد صغير يُنْسَب لعمر بن عبد العزيز[3] . وبذلك المشهد ماء جارٍ . وقد انتظمت أمام البلاط أدراج ، يُنْحَدر عليها إلى الدهليز ، وهو كالخندق العظيم ، يتصل إلى باب عظيم الارتفاع ، ينحسر الطَّرْف دونه[4] سموا ، قد حفّته أعمدة كالجذوع طولا ، وكالأطواد ضخامة . وبجانبى هذا الدهليز أعمدة ، قد قامت عليها شوارع مستديرة ، فيها الحوانيت المنتظمة للعطارين وسواهم ، وعليها[5] شوارع [أخر] مستطيلة فيها الحُجَر ، والبيوت للكراء ، مُشْرِفة على الدهليز ، وفوقها[6] سطح يبيت به سكان الحُجَر والبيوت . وفى وسط الدهليز حوض كبير مستدير من الرخام ، عليه قبة ، تُقِلّها أعمدة من

---

(١) كذا ش ، خـ : الكنيسة .

(٢) ط : وجه .

(٣) زادت ط : رضى الله عنه .

(٤) خـ : عنه .

(٥) خـ : وحولها .

(٦) بط ١ : ٢٠٨ : لا سقفا لها .

الرخام ، ويستدير بأعلاها طُرّة من الرصاص واسعة مكشوفة للهواء ، لم ينعطف عليها تَعْتِيب[١] . وفى وسط الحوض الرخامى أنبوب صُفْر ، يزعج الماء بقوة ، فيرتفع إلى الهواء أزيد من قامة ثم يتقبب ويتروح[٢] .. وحوله أنابيب صغار ترمى الماء إلى علو ، فيخرج عنها كقُضْبان اللُّجَين ، فكأنها أغصان تلك الدوحة المائية ، ومنظرها أعجب وأبدع من أن يلحقه الوصف .

وعن يمين الخارج[٣] من باب جيرون ، فى جدار البلاط الذى أمامه ، غرفة[٤] ، ولها هيئة طاق كبير مستدير ، فيه طِيقان صُفر قد فُتّحت أبوابا صغارا على عَدَد ساعات النهار ، ودُبّرت تدبيرا هندسيا ، فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر ، من فَمَىْ بازِيَيْن مصوَّرين من صُفر ، قائمين على طاستى صفر[٥] تحت كل واحد منهما : الواحد منهما[٦] تحت أول باب من تلك الأبواب ، والثانى تحت آخرها ، والطاستان مثقوبتان ، فعند وقوع البُنْدُقتين فيهما ، تعودان داخل الجدار إلى الغرفة ، وتبصر البازِيَين يمدّان أعناقهما بالبندقتين[٧] إلى الطاستين ، ويقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب تتخيّله الأوهام سحرا ، وعند وقوع البندقتين فى الطاستين يُسْمَع لهما دوى ، وينغلق الباب الذى هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر ؛ لا يزال[٨] كذلك عند انقضاء كل ساعة[٩] من النهار ، حتى تنغلق الأبواب

---

(١) بط ١ : ٢٠٨ : لا سقف لها .

(٢) بياض فى خـ . وحذف ش الفقرة الساقطة . وفى ط : القامة لم ...

(٣) اقتبس المقرى : نفح الطيب ٧١٨ الفقرة التالية .

(٤) ش : شبه غرفة .

(٥) هـ والمقرى طاسى . ط : طاستين من صفر .

(٦) ط : أحدهما .

(٧) ش : بالصنجتين .

(٨) ش : فلا يزال .

(٩) ط : عند كل انقضاء ساعة .

كلها وتنقضي الساعات ، ثم تعود إلى حالها الأول . ولها بالليل تدبير آخر ، وذلك أن فى القوس المنعطف على تلك الطيقان المذكورة اثنتى عشرة دائرة من النحاس مخرّمة ، وتعترض فى كل دائرة زجاجة من داخل الجدار فى الغرفة ، مدبر[١] ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة ، وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة ، فإذا انقضت عمّ الزجاجة ضوء المصباح ، وفاض على الدائرة أمامها شعاعُها ، فلاحت للأبصار دائرة محمرةً ، ثم انتقل ذلك إلى الأخرى حتى تنقضى ساعات الليل ، وتحمر الدوائر كلها . وقد وُكّل بها فى الغرفة متفقّد لحالها ، دَرِبٌ بشأنها وانتقالها ، يعيد فتح الأبواب ، وصَرْفَ الصنج إلى موضعها[٢] . وهى التى يسميها الناس المِنْجَانة[٣] .

ودهليز الباب الغربى فيه حوانيت للبقّالين[٤] والعطّارين ، وفيه سماط لبيع الفواكه . وفى أعلاه باب عظيم ، يُصْعَدُ إليه على أدراج ، وله أعمدة سامية فى الهواء . وتحت الأدراج سقايتان مستديرتان : سقاية يمينا ، وسقاية يسارا ، لكل سقاية خمسة أنابيب ترمى الماء فى حوض رخام مستطيل . ودهليز الباب الشمالى فيه زوايا ، على مصاطب محدقة بالأعواد المشرجبة ، [وهى] مَحَاضِر لمعلّمى الصبيان . وعن يمين الخارج فى هذا[٥] الدهليز خانِقَة مبنية للصوفية ، وسطها[٦] صهريج ، ويقال : إنها كانت دار عمر بن

---

(١) خـ : يدبر . المقرى : مدبرة . (٢) ش : ويسرح ، ص : موضعه .

(٣) ص : المنقانة . ش : الميقاتة . وصححت إلى المنقانة .

(٤) ط : البقالين . (٥) هذا : ليست فى ط..

(٦) ط : فى وسطها .

عبد العزيز رضى الله عنه ، ولها خبر سيأتى ذكره بعد هذا . والصهريج الذى وسطها[١] يجرى الماء فيه ، وله[٢] مَطَاهر فى وسطها صهريج للماء[٣] ، ولها مطاهر على الصفة المذكورة . وفى الصحن بين القباب المذكورة عمودان متباعدان يسيرا ، لهما رأسان من الصفر ، مستطيلان مُشرجَبان ، قد خُرِّما أحسن تخريم ، يُسْرَجان ليلةَ النصف من شعبان ، فيلوحان كأنهما ثُرَيّتان مشتعلتان . واحتفال أهل هذه البلدة[٤] لهذه الليلة المذكورة ، أكثر من احتفالهم ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم .

وفى هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم ، كل يوم إثر صلاة الصبح ، لقراءة سُبْع من القرآن دائما ، ومثله إثر صلاة العصر لقراءة تسمى الكَوْثَرِيّة ، يقرأون فيها من سورة الكوثر إلى الخاتمة . ويحضر فى هذا المجتمع الكوثرى كل من لا يجيد حفظ القرآن . وللمجتمعين[٥] على ذلك إجراء كل يوم ، يعيش منه أزيد من خمس مئة إنسان . وهذا من مفاخر هذا الجامع المبارك[٦] . فلا تخلو القراءة منه صباحا ولا مساء . وبه[٧] حلقات للتدريس للطلبة ، وللمدرسين فيها إجراء واسع . وللمالكية زاوية للتدريس فى الجانب الغربى ، يجتمع فيها طلبة المغاربة ، ولهم إجراء معلوم . ومَرَافق هذا الجامع المكرم للغرباء ، وأهل الطلب ، كثيرة واسعة . وأغرب ما يحدَّث به أن سارية من سواريه ، هى بين المقصورتين القديمة والحديثة ، لها وقف معلوم يأخذه

---

(١) ط : فى وسطها .
(٢) ط : ولها .
(٣) ط : صهريج يجرى الماء فيه .
(٤) خـ : البلد .
(٥) ص : وللجمعين . تحريف .
(٦) ط : المكرم .
(٧) ط : وفيه .

المُستنِد إليها للمذاكرة والتدريس . أبصرنا بها فقيها من أهل إشبيلية ، يعرف بالمُرَاديّ . وعند فراغ الجمع[1] السُّبعى من القراءة صباحا ، يستند كل إنسان منهم إلى سارية ، ويجلس أمامه صبى يلقّنه القرآن . وللصبيان أيضا على قراءتهم جراية معلومة . فأهل الجِدَة من آبائهم ينزّهون أبناءهم عن أخذها ، وسائرهم يأخذها[2] . وهذا من المفاخر الإسلامية .

وللأيتام من الصبيان مَحْضَرة كبيرة بالبلد ، لها وقف كبير ، يأخذ منها المعلّم ما[3] يقوم به ، وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم ؛ وهذا أيضا من أغرب ما يُحدَّث به من مفاخر هذه البلاد . وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها ، إنما هو تلقين ، ويُعلَّمون الخط فى الأشعار وغيرها ، تنزيها لكتاب الله تعالى[4] عن ابتذال الصبيان له بالإثبات والمحو . وقد يكون فى أكثر البلاد المُلقِّن على حِدَةٍ ، والمُكتِّب على حِدَة ، فيُنفَصل من التلقين إلى التكتيب ، لهم فى ذلك سيرة حسنة . ولذلك ما يتأتى لهم حسن الخط ، لأن المعلّم له لا يشتغل بغيره ، فهو يستفرغ جهده فى التعليم ، والصبى فى التعلم كذلك ، ويسهل عليه لأنه يصور بحذوه مثاله وينحو نحوه[5] .

ويستدير بهذا الجامع المكرم أربع سقايات ، فى كل جانب سقاية ، وكل[6] واحدة منها كالدار الكبيرة ، مُحدَقة بالبيوت الخَلَائية ، والماء يجرى فى كل بيت منها . وبطول صحنها حوض من الحجر مستطيل ، تصب فيه

---

(١) ط : المجتمع . (٢) هـ : يأخذونها .
(٣) ط : منه المعلم لهم ما . (٤) ط : عز وجل .
(٥) ط : لأنه بتصوير يحذو حذوه . (٦) ط : كل .

عدة أنابيب منتظمة بطوله . وإحدى هذه السقايات فى دهليز باب جَيْرون ، وهى أكبرها ، وفيها من البيوت نيف على الثلاثين ، وفيها زائدا[١] على السقاية المستطيلة مع جدارها حوضان كبيران مستديران ، يكادان يمسكان لسعتهما عرضَ الدار المحتوية على هذه السقايات[٢] ، والواحد بعيد من الآخر ، ودَوْر كل واحد منهما نحو الأربعين شبرا ، والماء نابع فيهما . والثانية فى دهليز باب الناطفيّين بإزاء المعلّمين ، والثالثة عن يسار الخارج من باب البريد ، والرابعة عن يمين الخارج من باب الزيادة . وهذه أيضا من المرافق العظيمة للغرباء وسواهم . والبلد كله سِقَايات قلّما تخلو سكة من سككه ، أو سوق من أسواقه ، من سقاية ، والمرافق به أكثر من أن توصف ، والله يبقيه دار إسلام ، بقدرته .

ذكر مشاهده المكرمة ، وآثاره المعظمة

فأولها مشهد رأس يحيى بن زكريا عليهما[٣] السلام ، وهو مدفون بالجامع المكرم فى البلاط القبلى ، قبالة الركن الأيمن من مقصورة الصحابة[٤] ، رضى الله عنهم ، وعليه تابوت خشب معترض من الأسطوانة إلى الأسطوانة[٥] ، وفوقه قنديل كأنّه من بلّور مجوَّف ، كأنه القدح الكبير ، لا يُدْرَى أمن زجاج عراقىّ أم[٦] صُورىّ هو أم من غير ذلك . ومولد إبراهيم ،

---

(١) ص : زائد . (٢) ط : السقاية .

(٣) ط : عليه . (٤) ط : المقصورة الصحابية .

(٥) إلى الأسطوانة : ليست فى ط . (٦) ص : أو .

ﷺ وعلى نبينا الكريم ، وهو بسفح[1] جبل قاسِيُون ، عند قرية تعرف « بِبَرْزَة » ، وهي من أجمل القرى ، وهذا الجبل مشهور بالبركة[2] في القديم ، لأنه مصعد الأنبياء صلوات الله عليهم ومطلعهم[3] ، وهو في الجهة الشمالية من البلد ، وعلى مقدار فرسخ منه[4] ، وهذا المولد المبارك غار مستطيل ضيق ، وقد[5] بُني عليه مسجد كبير مرتفع ، مُقسَّم على مساجد كثيرة كالغُرَف المطلة ، وعليه صومعة عالية ، ومن ذلك الغار رأى ﷺ الكوكب ثم القمر ثم الشمس ، حسبما ذكره الله تعالى في كتابه العزيز[6] ، وفي ظهر الغار مقامه الذي كان يخرج إليه ، وهذا كلّه ذكره الحافظ محدّث الشام أبو القاسم بن هبة الله بن عساكر الدمشقي ، في تاريخه في أخبار دمشق ، وهو ينيف[7] على مئة مجلد . وذكر أيضا أن بين[8] باب الفَرَادِيس ، وهو أحد أبواب البلد ، وفي الجهة الشمالية من الجامع المبارك ، على مقربة منه إلى جبل قاسيون ، مدفن سبعين ألف نبي ، وقيل : سبعون ألف شهيد ، وأن الأنبياء المدفونين به سبع مئة نبي ، والله أعلم بذلك[9] .

وخارج هذا الباب[10] الجبانة العتيقة ، وهي مدفن للأنبياء[11] والصالحين ، فبركتها شهيرة . وفي طرفها مما يلي البساتين وَهْدة من الأرض متّصلة

---

(١) ط : بصفح .

(٢) ص : مشهور البركة .

(٣) خ : ومطلعه .

(٤) منه : ليست في ط .

(٥) ص : الضيق قد .

(٦) ط : عز وجل . ويشير إلى الآيات ٧٦ — ٧٨ من سورة الأنعام .

(٧) ط : نيف .

(٨) ص : من . تحريف .

(٩) بذلك : ليست في ط .

(١٠) ط : البلد .

(١١) ط : الأنبياء .

بالجبانة ، ذُكر أنها مدفن سبعين نبيا ، وعصمها الله ونزّهها من أن يُدْفَن فيها أحد ، والقبور محيطة بها ، وهى لا تخلو من الماء حتى عادت قَرارة له ، كل ذلك تنزيه من الله تبارك[(١)] وتعالى لها .

وبجبل قاسِيُون أيضا لجهة الغرب ، على مقدار ميل أو أزيد من المولد المبارك ، مغارة تعرف بمغارة الدم ، لأن فوقها فى الجبل دم هابيل قتيل[(٢)] أخيه قابيل ، ابنى آدم صلى الله عليه ، يتصل من نحو نصف الجبل إلى المغارة . وقد أبقى الله منه فى الجبل آثارا حُمرا فى الحجارة ، تُحَك فتَسْتَحِيل ، وهى كالطريق فى الجبل ، وتنقِطع عند المغارة ، وليس يوجد فى النصف الأعلى من الجبل[(٣)] آثار تشبهها فكان يقال : إنها لون حجارة الجبل ، وإنما هى من الموضع الذى جَرّ [منه][(٤)] القاتل لأخيه حيث قتله حتى انتهى إلى المغارة ، وهى من آيات الله تعالى ، وآياته لا تحْصَى . وقرأنا فى تاريخ ابن المعلى الأسدى : أن تلك المغارة صلى فيها إبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ولُوط ، وأيوب ، عليهم وعلى نبينا الكريم أفضل الصلاة والسلام . وعليها مسجد قد أُتقن بناؤه ، ويُصْعَد إليه على أدراج ، وهو كالغرفة المستديرة ، وحولها أعواد مشرجبة مطيفة بها ، وبه بيوت ومرافق للسكنى . وهو يفتح كل يوم خميس . والسُّرُج من الشمع والفتائل تَقِد فى المغارة ، وهى متسعة . وفى أعلى الجبل كهف منسوب لآدم ﷺ ، وعليه بناء ، وهو موضع مبارك . وتحته[(٥)] فى حضيض الجبل مغارة ، تعرف بمغارة الجُوع ، يُذكر أن سبعين نبيا مات[(٦)] فيها جوعا ، وكان

---

(١) تبارك : ليست فى ط .
(٢) ص : قاتل .
(٣) ط : المغارة .
(٤) منه : زادها رايت ، وانظر بط ٢٣٢ .
(٥) ص : وتحتها . تحريف .
(٦) ط : ذكر .. ماتوا .

عندهم رغيف ، فلم يزل كل واحد منهم يؤثر به صاحبه ، ويدور عليهم من يد إلى يد ، حتى لحقتهم المنية ، صلوات الله عليهم . وعلى هذه المغارة أيضا مسجد مبنى ، وأبصرنا فيه السُّرج تَقِد نهارا .

ولكل مشهد من هذه المشاهد (١ المكرمة ولكل مسجد فى البلد ١) أوقاف معينة ، من بساتين وأرض بيضاء ورباع ، حتى إن البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيها . وكل مسجد يُستحدَث بناؤه ، أو مدرسة ، أو خانقة ، يُعيِّن لها السلطان أوقافا تقوم بها وبساكنيها والملتزمين لها ؛ وهذه أيضا من المفاخر المخلَّدة . ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة ، وتُنفِق فيها الأموال الواسعة ، وتعيّن لها من مالها[٢] الأوقاف . ومن الأمراء من يفعل مثل ذلك ، لهم فى هذه الطريقة المباركة مُسارعَة مشكورة عند الله عز وجل .

وبآخر هذا الجبل المذكور ، وفى رأس[٣] البسيط البستانى الغربى من هذا البلد ، الربوة المباركة المذكورة فى كتاب الله تعالى[٤] : مأوى المسيح وأمه صلوات الله عليهما ، وهى من أبدع مناظر الدنيا حسنا ، وجمالا ، وإشراقا ، وإتقان بناء ، واحتفالَ تشييد ، وشرفَ وضع ، هى كالقصر المشيد ، ويُصْعَد إليها على أدراج . والمأوى المبارك منها مغارة صغيرة فى وسطها ، وهى كالبيت الصغير . وبإزائها بيت يقال : إنه مصلّى الخضر ﷺ . فيبادر الناس للصلاة فى هذين[٥] الموضعين المباركين ، ولا سيما المأوى المبارك . وله باب حديد

(١ — ١) ليست فى ط .

(٢) ص : ماله . تحريف .

(٣) ط : فى آخر .

(٤) سورة المؤمنون ، الآية ٥٠ .

(٥) ط : بهذين .

صغير ينغلق دونه ، والمسجد مطيف بها ، ولـه[١] شوارع دائـرة به[٢] ، وفيه[٣] سقاية لم يُرَ أحسن منها ، قد سِيقَ إليها الماء من علو ، وماؤها ينصبّ على شاذَرْوَان[٤] فى الجدار ، متّصل بحوض [من] رخام يقع الماء فيه ، لم يُرَ أحسن من منظره . وخلف ذلك مطاهر ، يجرى الماء فى كل بيت منها ، ويستدير بالجانب المتصل بجدار الشاذروان . وهذه الربوة المباركة رأس بساتين البلد ، ومقْسِم مائه ، ينقسم فيها الماء على سبعة أنهار ، يأخذ كل نهر طريقه . وأكبر هذه الأنهار نهر يعرف « بثَوْرَا »[٥] ، وهو يشقّ تحت الربوة ، وقد نُقِر له فى الحجر الصلد أسفلها ، حتى انفتح له منسرب[٦] واسع كالغار الكبير[٧] ، وربما انغمس الجَسُور من سُبّاح الصبيان أو الرجال أعلى[٨] الربوة فى النهر ، واندفع تحت الماء حتى يشقّ منسربه[٩] تحت الربوة ويخرج أسفلَها ، وهى مخاطرة كبيرة . ويُشرَف من هذه الربوة على جميع البساتين الغربية من البلد ، ولا إشرافِ كإشرافها حسنا وجمالا واتساعَ مسرح للأبصار . وتحتها تلك الأنهار السبعة تنسرب[١٠] وتسيح فى طُرُق شتى ، فتحار الأبصار فى حسن اجتماعها ، وافتراقها ، واندفاع انصبابها . وشرفُ موضوع هذه الربوة ، ومجموع حسنها ، أعظم من أن [١١]يحيط به وصف

(١) ط : يطيف بها . ص : وله . (٢) به : ليست فى ط .

(٣) ط : وفيها .

(٤) الشاذروان : الإزار ، وهو حائط صغير بجوار الجدار الأصلى لتقويته .

(٥) كذا ياقوت . وفى ص ، بط : بثورة . خـ : بثور .

(٦) ط : متسرب . (٧) الكبير : ليست فى ط . (٨) ط : من أعلى .

(١١) ص : يصفه الوصف بتخيله أو يلحقه بغلو فى مدحه .

واصف فى غُلوّ مدحه[١] . وشأنها فى موضوعات الدنيا الشريفة خطير كبير .

ويتصل بها أسفلَ منها ، بمقربة من المسافة ، قرية كبيرة تعرف « بالنَّيْرَب » ، قد غطتْها البساتين ، فلا يَظهر منها إلا ما سَما بناؤه . وبها جامع لم يُرَ أحسن منه ، مفروش سطحه كله بفصوص الرخام الملون ، فيخيَّل لناظره أنه ديباج مبسوط . وفيه سقاية ماء رائقة الحسن ، ومَطْهَرة لها عدة بيوت[٢] ، يجرى الماء فيها ، ويطيف بها . وفوقها لجهة القبلة قرية كبيرة ، هى من أحسن القرى ، تعرف « بالمِزَّة » ، وبها جامع كبير وسقاية معينة . وبقرية النيرب حمّام ، وأكثر قرى هذه البلدة فيها الحمامات .

وفى الجهة الشرقية من البلد ، عن يمين الطريق المؤدية[٣] إلى مولد إبراهيم عليه السلام ، قرية تعرف « ببيت لاهِية »[٤] يريدون الآلهة ، وكانت فيها[٥] كنيسة هى الآن مسجد مبارك . وكان آزر أبو إبراهيم ﷺ[٦] ينحت فيها الآلهة ويُصوِّرها ، فيجىء الخليل إبراهيم صلوات الله عليه وعلى نبينا الكريم فيكسرها . وهى اليوم مسجد يجتمع[٧] فيه أهل القرية ، وسطحه كله مفروش بفصوص الرخام الملونة ، منتظم[٨] كله خواتيم وأشكالا بديعة ، يخيّل لمُبصِرها أنها فرش منمقة[٩] مزخرفة ، وهو من المشاهد الكريمة .

---

(١) ص : يصنفه الوصف بتخيله أو يلحقه بغلو فى مدحه .

(٢) ط : لها عشرة أبواب .

(٣) المؤدية : ليست فى ط .

(٤) الأشهر فيها : بيت لهيا ، بكسر اللام وإسكان الهاء . بط ٢٣٧ : إلاهية . ياقوت ١ : ٧٨٠ : بيت الآلهة .

(٥) ص : فيه . تحريف .

(٦) صلى الله عليه : ليست فى ط .

(٧) ص : يجمع . تحريف .

(٨) ص : منظم .

(٩) ط : متقنة . هـ : مثمنة .

وللربوة المباركة أوقاف كثيرة ، من بساتين وأرض بيضاء ورِبَاع[١] . وهى معيّنة التقسيم لوظائفها : فمنها ما هو معيَّن باسم النفقة فى الأُدُم للبائتين فيها من الزوار ، ومنها ما هو معين للأكْسِية برسم التغطية بالليل ، ومنها ما هو معين للطعام ، إلى تقاسيم تستوفى جميع مُؤَنها ، ومُؤَن [الأمين] الراتِب فيها برسم الإمامة ، والمؤذّن الملتزم خدمتها ؛ ولهما[٢] على ذلك كله مرتب معلوم فى كل شهر . وهى خطة من أكبر[٣] الخطط .

والأمين فيها الآن رجل[٤] من بقية المرابطين المسُّوفيّين[٥] ومن أعيانهم ، يعرف بأبى الربيع سليمان بن إبراهيم بن تاكه[٦] ، وله مكانة من السلطان ووجوه الدولة ،وله فى الشهر خمسة دنانير حاشا فائدة الربوة ، وهو مُتّسِم بالخير ومرتسم به ، كل[٧] متعلق بسبب من أسباب الخير أو المعرفة[٨] من الغرباء المنقطعين بهذه الجهات ، يسبب لهم وجوه المعايش من إمامة فى مسجد ، أو سكنى بمدرسة تجرى عليه فيها النفقة ، أو التزام زاوية من زوايا المسجد الجامع يجبى إليه فيها[٩] رزقه ، أو حضور فى قراءة سُبّع ، أو سِدَانة بمشهد[١٠] من المشاهد المباركة يكون فيه ، ويجرى عليه ما يقوم به من أوقافه ، إلى غير ذلك من الوجوه المعاشيّة ، على هذه السبيل المباركة مما يطول

---

(١) كذا ر ، ط . وفى ص ، خـ : ربع . ولعلها أربع ، بضم الباء .

(٢) ط : ولهم .

(٣) ط : أعظم .

(٤) رجل : ليست فى ط .

(٥) المسوفيون : نسبة إلى مدينة مسوف ، من بادية التكرور .

(٦) ط : مالك .

(٧) ط : وهو .

(٨) ط : أسباب البر فى إيواء أهل الغرب .

(٩) ص : إليها فيه .

(١٠) ط : مشهد .

ذكره[1] . فالغريب المحتاج هنا ، إذا كان على طريقة الخير ، مصون محفوظ غير مُراق[2] ماء الوجه . وسائر الغرباء ممن ليس على هذه الطريقة[3] ممن عَهِد المهنة والخدمة[4] يسبَّبُ له أيضا أسباب غريبة من المعيشة[5] : إما بستان يكون ناطورا[6] فيه ، أو حَمّام يكون عينا على خدمته وحافظا لأثواب داخليه ، أو طاحونة يكون أمينا عليها ، أو كِفَالة صبيان يؤدّيهم إلى مَحاضِرهم ويصرفهم إلى منازلهم ، إلى غير ذلك من الوجوه الواسعة . وليس يؤتمن فيها كلّها سوى المغاربة الغرباء ، لأنهم قد علا لهم بهذه البلاد[7] صِيتٌ فى الأمانة ، وطار لهم بها[8] ذكر ، فأهلها[9] لا يأتمنون البَلَدِيّين . وهذا من إلطاف الله تعالى بالغرباء ، وله الشكر والحمد[10] على ما يُولى عباده . وإن شاء أحد المتعلقين بأسباب المعارف التعرض هنالك للسلطان[11] . يَقْبله ويكرمه ويُرَتّبه ، ويجرى عليه بحسب قَدْره ومَنْصِبه ، قد طُبِعت هذه البلاد وملوكها على هذه الفضائل قديما وحديثا . وقد تسلسل بنا القول إلى غير الباب الذى نحن فيه ، والحديث [ذو] شجون ، والله كفيل بحسن العون ، لا ربِ سواه .

وبغربى البلد جبّانة كبيرة ، تعرف بقبور الشهداء ، فيها كثير من

---

(١) ط : شرحه .
(٢) ط : مريق .
(٣) ط : الحال .
(٤) ط : الخدمة والمهنة .
(٥) ط : الخدمة .
(٦) الناطور : الحارس .
(٧) ط : بهذا البلد .
(٨) ط : فيها .
(٩) ط : وأهلها .
(١٠) ط : الحمد والشكر .
(١١) كذا هـ ، ط ، وفى ص : التعريض للسلطان خـ : التعلق للسلطان .

الصحابة والتابعين الأئمة الصالحين[١] رضى الله عنهم . فالمشهور بها من قبور الصحابة ، رضى الله عنهم ، قبر أبى الدَّرْداء ، وقبر زوجه[٢] أم الدرداء رضى الله عنهما ، وموضع مبارك فيه تاريخ قديم مكتوب عليه « فى هذا الموضع قبور[٣] جماعة من الصحابة ، رضى الله عنهم ، منهم فَضَالة بن عُبيد ، وسهل ابن الحَنظليّة ، من الذين بايعوا رسول الله ، ﷺ ، تحت الشجرة ، وخال [أمير] المؤمنين معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه » وقبره مُسنَّم[٤] فى الموضع المذكور . وقرأتُ فى فضائل دمشق : أن أم المؤمنين أم حَبِيبة[٥] أخت معاوية رضى الله عنهما ، مدفونة بدمشق . وقبر واثلة بن الأسقع من أهل الصُّفّة . وفى الجهة التى تلى هذا الموضع المبارك ، تاريخ فيه مكتوب : « هذا قبر أوس بن أوس الثَّقفى » . وحول هذا الموضع المذكور ، على مقربة منه ، قبر بِلَال ابن حَمَامة مؤذّن رسول الله ﷺ . وفى رأس القبر المبارك تاريخ باسمه رضى الله عنه . والدعاء فى هذه المواضع المباركة[٦] مستجاب ، قد جرّب ذلك كثير من الأولياء وأهل الخير المتبرّكين بزيارتهم ، إلى قبور كثيرة ، من الصحابة وسواهم من الصالحين ، ممن قد ذهب اسمه وغَبر ذكره ، ومشاهد كثيرة لأهل البيت رضى الله عنهم رجالا ونساء ، وقد احتفل الشيعة فى البناء عليهم ، ولها الأوقاف الواسعة .

ومن أحفل هذه المشاهد مشهد منسوب لعلى بن أبى طالب ، عليه

---

(١) ص : والصالحين .
(٢) ط : زوجته .
(٣) ط : قبر .
(٤) ص : منهم . تحريف .
(٥) خـ : حبيبة ، بدون أم ، خطأ .
(٦) ط : هذا الموضع المبارك .

السلام[١] ، قد بنى [عليه] مسجد حفيل[٢] ، رائق البناء ، وبإزائه بستان كله نارَنج ، والماء يطّرد فيه من سقاية معينة . والمسجد كله ستور معلقة فى جوانبه صغار وكبار . وفى المحراب حجر عظيم ، قد شُقَّ بنصفَين ، والتحم ما[٣] بينهما ولم يَبِن النصف عن النصف بالكلّية ، يزعم الشيعة أنه انشقّ لعلى ابن أبى طالب[٤] رضى الله عنه : إمّا بضربة بسيفه ، أو بأمر من الأمور الإلـٰهية على يديه . ولم يُذْكَر عن علىّ ، رضى الله عنه ، أنه دخل قطُّ هذا البلد ، اللهمّ إلا إن زعموا أنه كان فى النوم ، فلعلّ جهة الرؤيا تصحُّ لهم ، إذ لا تصحّ لهم جهة اليقظة . وذلك الحجر أوجب بنيانَ ذلك المشهد[٥] . وللشيعة فى هذه البلاد أمور عجيبة ، وهم أكثر من السنّيين بها . وقد غمروا[٦] البلاد بمذاهبهم ، وهم فِرَق شتى : منهم الرافضة ، وهم السبّابون ؛ ومنهم الإمامية والزيدية ، وهم يقولون بالتفضيل خاصة ؛ ومنهم الإسماعيلية والنُّصَيْرِيّة ، وهم كَفَرة ؛ ولا سيما النصيرية[٧] فإنهم يدعون[٨] الإلـٰهية لعلى عليه السلام[٩] تعالى الله عن قولهم ؛ ومنهم[١٠] الغُرَابيّة ، وهم يقولون : إن عليا رضى الله عنه كان أشبه بالنبى ﷺ من الغراب بالغراب ، وينسبون إلى الروح الأمين[١١] قولا تعالى الله عن قولهم[١٢] علوا كبيرا ؛ إلى فِرَق كثيرة يضيق عنهم الإحصاء ،

---

(١) ط : رَضى الله عنه . (٢) ص : مسجدا حفيلا . تحريف .

(٣) ط : والتحم بينهما . ص ، خ : والحجر ما بينهما .

(٤) بن أبى طالب : ليست فى ط . (٥) ط : وهذا .. هذا .

(٦) ط : عمروا . ر : عموا . (٧) ولا سيما النصيرية : ليست فى ط .

(٨) ط : يزعمون . (٩) ط : رضى الله عنه .

(١٠) ص : وهم . تحريف . (١١) ط : الأمين عليه السلام .

(١٢) ط : عنه .

قد أضلهم عز وجل[١] وأضل بهم كثيرا من خلقه ، نسأل الله العصمة فى الدين ، ونعوذ به من زَيْغ الملحدين . وسَلّط الله على هذه الرافضة طائفة ، تعرف بالنُّبَويَّة[٢] ، سُنّيون يَدينون بالفُتوّة وبأمور الرجولة كلها . وكل من ألحقوه بهم لخصلة[٣] يرونها فيه منها يُحزِّمونه السراويل ، فيلحق[٤] بهم ، ولا يرون أن يستعدىَ أحد منهم فى نازلة تنزل به ، لهم فى ذلك مذاهب عجيبة وإذا أقسم أحد منهم[٥] بالفتوة بَرَّ قَسَمَه . وهم يقتلون هؤلاء الروافض ، أينما وجدوهم . وشأنهم عجيب فى الأنفة والائتلاف .

ومن المشاهد المكرمة مشهد سعد بن عبادة رئيس الخَزْرج ، صاحب رسول الله ﷺ ، وهو بقرية تعرف « بالمَنِيحَة » شرق البلد وعلى مقدار أربعة أميال منه . وعلى قبره مسجد صغير حسن البناء ، والقبر فى وسطه ، وعند رأسه مكتوب فى حجر[٦] : « هذا قبر سعد بن عبادة رئيس[٧] الخزرج ، صاحب رسول الله ﷺ » . ومن مشاهد أهل البيت رضى الله عنهم : مشهد أم كلثوم ابنة على بن أبى طالب عليه السلام[٨] ، ويقال إنها[٩] زينب الصغرى ، وأم كلثوم كنية أوقعها عليها النبى ﷺ لشبهها بابنته أم كلثوم رضى الله عنها ، والله أعلم بذلك ، ومشهدها الكريم بقرية قبلىّ البلد

---

(١) عز وجل ليست فى ط .
(٢) كذا ضبطت فى خ ، ر : ولعلها الفرقة المنسوبة إلى أبى البيان نبأ بن محمد بن محفوظ القرشى الصوفى المتوفى ٥٥١ وعرفت باسم البيانية .
(٣) ص : بخصلة .
(٤) ط : فيلحقوه .
(٥) ط : أحدهم .
(٦) فى حجر : ليست فى ط .
(٧) ط : رأس .
(٨) ط : رضى الله عنهما .
(٩) ط : لها .

تعرف « بَرَاوِيَة »[1] على مقدار فرسخ منه[2] ، وعليه مسجد كبير ، وخارجه مساكن ، وله أوقاف ، وأهل هذه الجهات يعرفونه بقبر الستّ أم كلثوم رضى الله عنها[3] ، مَشَينا إليه ، وبتنا به ، [وتبركنا برؤيته] ، نفعنا الله بذلك .

وبالجبّانة التى بغربى البلد ، من قبور أهل البيت ، كثير رضى الله عنهم ، منها قبران عليهما مسجد يقال : إنهما من ولد الحسن والحسين رضى الله عنهما ومسجد آخر فيه قبر يقال : إنه لسُكّينة بنت الحسين رضى الله عنهما ، أو لعلها سُكَينة أخرى من أهل البيت . ومن المشاهد أيضا قبر بجامع النَّيْرب ، فى بيت بالجهة الشرقية منه ، يقال : إنه لأمّ مَرْيم رضى الله عنها . وبقرية « دارَية »[4] قبر أبى مسلم الخَوْلانى رضى الله عنه ، وعليه قبة هى علامة القبر ، وبها أيضا قبر أبى سليمان الدارانى رضى الله عنه . وبين هذه القرية وبين البلد مقدار أربعة أميال ، وهى لجهة الغرب [منه] . ومن المشاهد الكريمة ، التى لم نعاينها ووُصفت[5] لنا ، قبرا[6] شيث ونوح عليهما السلام ، وهما « بالبِقَاع » وهى على يومين من البلد . وحدّثنا مَنْ ذَرَع قبر شيث فألفى فيه أربعين باعا ، وفى قبر نوح ثلاثين . وبإزاء قبر نوح قبر ابنة له . وعلى هذه القبور بناء ، ولها أوقاف كثيرة ، ولها قَيِّم يلتزمها . ومن المشاهد المباركة أيضا ، بالجبّانة الغربية وبمقربة من باب الجابِيَة ، قبر أُوَيس القَرَنى رضى الله عنه . وقبور خلفاء بنى أمية رحمهم الله ، يقال : إنها بإزاء باب الصغير ، بمقربة من الجبانة المذكورة ، وعليها اليوم بناء يُسْكَن فيه . والمشاهد المباركة بهذه

---

(١) كذا ياقوت وص . وفى خـ بالزاى . (٢) منه : ليست فى ط .

(٣) رضى الله عنها : ليست فى ط . (٤) تكتب عادة : داريا ، بالألف .

(٥) خـ : ووصف. تحريف . (٦) خـ : قبر .

البلدة أكثر من أن تنضبط بالتقييد ، وإنما رُسِم من ذلك ما هو مشهور ومعلوم . ومن المشاهد الشهيرة أيضاً ، مسجد الأقدام ، وهو على مقدار ميلين من البلد مما يلى القبلة ، على قارعة الطريق الأعظم الآخذ إلى بلاد الحجاز والساحل وديار مصر . وفى هذا المسجد بيت صغير ، فيه حجر مكتوب عليه : « كان بعض الصالحين يرى النبىَّ ﷺ فى النوم ، فيقول له[1] : هٰهنا قبر أخى موسى ﷺ »[2] . والكَثيب الأحمر على الطريق ، بمقربة من هذا الموضع ، وهو بين غالِية وغُوَيْلِية[3] كما ورد فى الأثر ، وهما موضعان . وشأن هذا المسجد فى البركة عظيم ، ويقال : إن النور ما خلا قطّ من [هذا] الموضع الذى يذكر أن فيه القبر[4] ، حيث الحجر المكتوب . وله أوقاف كثيرة . وأما[5] الأقدام ففى حجارة فى الطريق إليه ، مُعْلَم عليها تَجد[6] أثر القدم فى كل حجر ، وعدد الأقدام تسع ، ويقال : إنها آثار[7] قدم موسى ﷺ[8] ، والله أعلم بحقيقة ذلك ، لا إلٰه سواه .

* * *

(١) له : ليست فى ط .

(٢) ط : عليه وسلم .

(٣) ص : غالية وعويلية .

(٤) ط : القبر فيه .

(٥) ط : فأما .

(٦) ص : لا تجد . تحريف .

(٧) ط : أثر .

(٨) ط : عليه السلام .

شهر جمادى الأولى ، عرّفنا الله بركته ويمنه[١]

استهلّ هلاله ليلة الجمعة ، بموافقة العاشر لشهر أغوشت العجمى

ذكر جُمَل من أحوال البلد ،عَمّره الله بالإسلام

لهذا البلد[٢] ثمانية أبواب : « باب شرقى »[٣] ، وهو شرقى ، وفيه منارة بيضاء يقال : إن عيسى عليه السلام ينزل فيها ، لما[٤] جاء فى الأثر أنه ينزل بالمنارة البيضاء شرقى دمشق ، ويلى هذا الباب « باب تُومَا » وهو أيضا فى حَيِّز الشرق ثم « باب السلامة » ، ثم « باب الفَرَادِيس » ، وهو شمالى ؛ ثم « باب الفَرَج » ، ثم « باب النصر » ، وهو غربى ؛ ثم « باب الجابِية » كذلك ، ثم « باب الصَّغِير » ، وهو بين الغرب والقبلة .

والمسجد الجامع مائل إلى الجهة الشمالية من البلد ، والأرباص تطيف بالبلد كله[٥] إلا من جهة الشرق مع ما يتصل [بها من] القبلة[٦] يسيرا . وله أرباض[٧] كبار ، والبلد ليس بمفرط الكبر ، (و) هو مائل للطول ،وسككه ضيقة مظلمة ، وبناؤه طين وقصب ، طبقات بعضها فوق بعض ، ولذلك ما يسرع الحريق إليه ، وهو كله ثلاث طبقات ، فيحتوى من الخلق على

---

(١) ويمنه : ليست فى ط .　　(٢) ط : لهذه البلدة .

(٣) الأصح والأشهر : الباب الشرقى أو باب الشرق .

(٤) ر : كما . بط ٢٢٩ : حسبما ورد فى صحيح مسلم .

(٥) ط : به مطيفة .　　(٦) ص : بالقبلة .

(٧) ط : والأرباض . وانظر بط ٢٣٠ .

ما تحتويه[١] ثلاث مدن ، لأنه أكثر بلاد الدنيا خلقا ، وحسنه كله خارج لا داخل .

وفى داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن كبير[٢] ، تعرف بكنيسة مريم ، ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها . وهى حفيلة البناء ، تتضمن من التصاوير أمرا عجيبا يبهت الأفكار ، ويستوقف الأبصار ، ومرآها عجيب جدا[٣] وهى بأيدى الروم ، لا[٤] اعتراض عليهم فيها .

وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة ، وبها مارستانان قديم وحديث ، والحديث أكبرهما وأحفلهما ، وجرايته[٥] فى اليوم نحو الخمسة عشر دينارا ، وبه[٦] قَوَمة بأيديهم الأزِمّة المحتوية على أسماء المرضى ، وعلى النفقات التى يحتاجون إليها فى الأدوية والأغذية وغير ذلك ، والأطباء يُبكّرون إليه كل[٧] يوم ، ويتفقّدون المرضى ، ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية ، حسبما يليق بكل إنسان منهم . والمارستان الآخر على هذا الرسم ، لكن الاحتفال فى الجديد أكثر . وهذا القديم هو غربىّ الجامع المكرم . وللمجانين المعتقَلين[٨] أيضا ضرب من العلاج ، وهم فى سلاسل موثَقون ، نعوذ بالله من المحنة وسوء القَدَر . وتَنْدُر من بعضهم النوادر الظريفة ، حسبما كنّا نسمع به . ومن أغرب[٩] ما حُدِّثتُ به من ذلك : أن رجلا كان يُعلّم القرآن ، وكان

---

(١) ط : تحتوى .
(٢) ط : عظيم .
(٣) جدا : ليست فى ط .
(٤) ط : ولا .
(٥) ط : أحفلهما وأكبرهما ، ص : أكبرها وأحفلها وجارية .
(٦) ط : وله .
(٧) ط : فى كل .
(٨) خـ : والمعتقلين .
(٩) ط : أعجب .

يقرأ عليه أحد أبناء وجوه البلد ، ممن أوتى مسحة جمال ، واسمه نصر الله ، وكان المعلم يهيم به . فزاد كلفُه حتى اختُبِل ، وأُدّى إلى المارستان ، واشتهرت علّته وفضيحته بالصبى ، فربما[1] كان يُدْخِله أبوه إليه . فقيل له : اخرجْ ، وعُدْ لما كنتَ عليه من القراءة[2] . فقال متماجنا تماجُنَ المجانين : وأى قراءة بقيت لى ؟ ما بقى فى حفظى من القرآن شيء سوى « إذا جاء نَصْر الله » فضُحِك منه ، ومن قوله . ونسأل الله تعالى[3] العافية له ولكل مبتلى[4] . فلم يزل كذلك حتى تُوفّى سَمَحَ الله له .

وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الإسلام ، والمدارس كذلك . ومن أحسن مدارس الدنيا منظرا مدرسة نور الدين رحمه الله ، وفيها[5] قبره نوّره الله . وهى قصر من القصور الأنيقة ، ينصب فيها الماء فى شاذَرْوان وسط نهر عظيم ، ثم يمتد الماء فى ساقية عظيمة[6] مستطيلة إلى أن يقع فى صهريج كبير وسط الدار . فتحار الأبصار فى حسن ذلك المنظر ، فكلّ من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين رضى الله عنه[7] . وأما الرِّباطات[8] التى يسمونها الخَوَانِق فكثيرة ، وهى برسم الصوفية . وهى قصور مزخرفة ، يطّرد فى جميعها الماء على أحسن منظر يُبْصَر .

وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد ، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها ، وفرّغ خواطرهم [لعبادته] من الفكرة فى أسباب معايشها[9] ، وأسكنهم فى قصور تذكّرهم قصور الجنان . فالسعداء

---

(١) ط : وربما .
(٢) ط : القرآن .
(٣) تعالى : ليست فى ط .
(٤) ط : مسلم .
(٥) ط : وبها .
(٦) عظيمة : ليست فى ط .
(٧) ط : رحمه الله .
(٨) خـ : الرباط .
(٩) ط : المعايش .

الموفقون منهم قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيمُ الدنيا والآخرة . وهم على طريقة شريفة ، وسنّة فى المعاشرة عجيبة ، وسيرتهم فى التزام [رُتَب] الخدمة غريبة ، وعَوَائدهم[١] من الاجتماعات[٢] للسماع المشوّق جميلة ، وربّما فارقَ منهم الدنيا فى تلك الحالات المنفعلُ المتأثر[٣] رقة وتشوقا . وبالجملة فأحوالهم كلها بديعة ، وهم يرجون عيشا طيبا هنيئا .

ومن أعظم ما شاهدناه[٤] لهم موضع يعرف بالقصر ، وهو صَرْح[٥] عظيم مستقل فى الهواء ، فى أعلاه مساكن لم يُرَ أجمل إشرافا منها ، وهو من البلد بنحو[٦] الميل ، وله[٧] بستان عظيم يتصل به ، وكان متنزها لأحد ملوك الأتراك . فيقال : إنه كان فيه إحدى الليالى على راحة ، فاجتاز به قوم من الصوفية ، فهُرِيق عليهم من النبيذ الذى كانوا يشربونه فى ذلك القصر . فرفعوا الأمر لنور الدين ، فلم يزل به[٨] حتى استوهبه من صاحبه ، ووَقَفه برسم الصوفيّة مؤبّدا لهم . فطال العجب من السماحة بمثله ، وبقى أثر الفضل فيه مخلّدا لنور الدين رضى الله عنه[٩] ومناقب هذا الرجل الصالح كثيرة[١٠] ، وكان من الملوك الزهاد . وتوفى فى شوال سنة تسع وستين وخمس مئة ، واستولى بعده [على] الأمر صلاح الدين ، وهو على طريقة من الفضل شهيرة ، وشأنه فى الملوك كبير ، وله الأثر الباقى شرفُه من إزالة

---

(١) خ : وعوائد .
(٢) ط : الاجتماع .
(٣) ط : المنابر . تحريف .
(٤) ص : أعظم مسكن شاهدنا .
(٥) ص : برج .
(٦) ط : بنصف .
(٧) ط : له .
(٨) به : ليست فى ط .
(٩) ط : رحمه الله .
(١٠) ط : كبيرة .

المكوس بطريق الحجاز ، ودفعِه عِوَضا عنها لصاحب الحجاز . وكانت الأيام قد استمرت قديما بهذه الضريبة اللعينة ، إلى أن محا الله رسمها على يدى هذا الملك العادل ، أصلحه الله .

[مناقب نور الدين وكرم المشارقة]

ومن مناقب نور الدين رحمه الله تعالى : أنه كان عَيّن للمغاربة الغرباء ، الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك ، أوقافا كثيرة ، منها طاحونتان ، وسبعة[1] بساتين ، وأرض بيضاء ، وحَمّام ، ودكانان بالعطارين . أخبرنى[2] أحد المغاربة الذين كانوا ينظرون فيه ، وهو أبو الحسن على بن سردال الجَيّانى المعروف بالأسود : أن هذا الوقف المعروف بالمغربى[3] يُغِلّ ، إذا كان النظر فيه جيدا ، خمس مئة دينار فى العام . وكان له رحمه الله بجانبهم اعتناء[4] كبير ، نفعه الله بما أسلف من الخير . وهيأ ديارا موقوفة لقراء كتاب الله عز وجل يسكنونها .

ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يحيط بها[5] الإحصاء ، ولا سيما لحُفّاظ كتاب الله عز وجل ، والمنتمين للطلب . فالشأن بهذه البلدة لهم عجيب جدا . وهذه البلاد المشرقية كلّها على هذا الرسم ، لكن الاحتفال بهذه البلدة أكثر ، والاتساع أوجد . فمن شاء الفلاح من نَشَأَة مَغْرِبنا ، فليرحلْ إلى هذه البلاد ، ويتغرَّبْ فى طلب العلم ، فيجد الأمور المُعِينات كثيرة . فأوّلها فراغ البال من أمر المعيشة ، وهو أكبر الأعوان وأهمّها ، فإذا

---

(١) ص : وسبع . (٢) ط : وأخبرنى .
(٣) ط : الوقف المغربى . (٤) ط : فضل .
(٥) ط : يأخذها .

كانت الهمة فقد وجد السبيل إلى الاجتهاد ، ولا عُذْرَ للمقصّر إلا من يدين بالعجز والتَّسْويف ، فذلك مَنْ لا يتوجه هذا الخطابُ عليه ، وإنما المخاطَب كل ذى همة يحول طلبُ المعيشة بينه وبين مقصده فى وطنه من الطلب العلمى ، فهذا المَشْرِق بابه مفتوح لذلك ، فادخلْ أيها المجتهد بسلام ، وتغنَّم الفراغ والانفراد قبل عَلَق الأهل والولد وقرع[١] سِنّ الندم على زمن التضييع ، والله يوفّق ويرشد ، لا إلٰه سواه ، وقد نصحتُ إن ألفيتُ[٢] سامعا ، وناديت إن أسمعت مجيبا ، ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المُهْتَد ﴾[٣] ، جلّت قدرته ، وتعالى جَدّه .
ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقية كلها إلا مبادرة أهلها لإكرام الغرباء ، وإيثار الفقراء ، ولا سيما أهل باديتها ، فإنك تجد من بدارهم[٤] إلى برّ الضيف عجبا ، وكفى[٥] بذلك شرفا لها . وربما يعرض أحدُهم كِسْرتَه على فقير فيتوقّف عن قبولها ، فيبكى الرجل ويقول : لو علم الله فىّ خيرا لأكل الفقير طعامى . لهم فى ذلك سير شريفة[٦] .

ومن عجيب أمرهم تعظيم الحاجّ[٧] ، على قرب مسافة الحج منهم ، وتيسير ذلك لهم ، واستطاعتهم لسبيله . فهم يتمسحون بهم عند صدورهم ، ويتهافتون عليهم تبركا بهم . ومن أغرب ما حُدِّثْناه من ذلك : أن الحاجّ الدمشقى مع من انضاف إليهم من المغاربة عند صَدَرهم[٨] إلى دمشق فى هذا العام ، الذى هو عام ثمانين ، خرج الناس لتلقيهم : الجمُّ الغفير رجالا

---

(١) ط : والأولاد وتقرع .
(٢) ط : قد . خـ : ألقيت .
(٣) سورة الإسراء ، الآية ٩٧ .
(٤) ط : بدار .
(٥) ط : كفى .
(٦) ط : سر شريف .
(٧) ط : تعظيمهم للحاج .
(٨) ط : صدورهم .

ونساء[١] ، يصافحونهم ، ويتمسّحون بهم ، وأخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها رجالا ونساء[٢] ، وأخرجوا لهم[٣] الأطعمة . فحدثنى[٤] من أبصر كثيرا من النساء يتلقين الحاج ، ويناولنهم الخبز . فإذا عض الحاج فيه اختطفنه من أيديهم ، وبادرن[٥] لأكله ، تبركا بأكل الحاج له ، ودفعن له عوضا منه دراهم ، إلى غير ذلك من الأمور العجيبة ضدّ ما اعتدنا فى المغرب فى ذلك . وصُنِع بنا فى بغداد عند تلقىّ الحاج بها مثل ذلك أو قريب[٦] منه . ولو شئنا استقصاء هذه الأمور لخرجت بنا عن مقصد التقييد ، وإنما وقع الإلماع بلمحة دالة ، يُكتَفى بها عن التطويل . وكل من وفقه الله من الغرباء[٧] بهذه الجهات للانفراد يلتزم إن أحبّ ضَيْعة من الضياع ، فيكون فيها طيّبَ العيش ، ناعم البال ، وينثال الخبز عليه من أهل الضيعة ، ويلزم فيها الإمامة أو التعليم[٨] أو ما شاء . ومتى سئم المقامَ خرج إلى ضيعة أخرى ، أو يصعد إلى جبل لُبْنان ، أو إلى جبل الجُودِىّ ، فيلتقى[٩] بها المُرِيدين المنقطعين إلى الله عز وجل ، فيقيم معهم ما شاء ، وينصرف إلى حيث شاء .

[الحرب والتجارة بين المسلمين والمسيحيين]

ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان ، إذا رأوا به أحد المنقطعين من المسلمين ، جلبوا لهم القوت ، وأحسنوا إليهم ، وقالوا[١٠] :

---

(١) ط : نساء ورجالا .
(٢) رجالا ونساء : ليست فى ط .
(٣) ط : إليهم .
(٤) ط : فأخبرنى .
(٥) ط : وتبادرن .
(٦) ص : أقرب .
(٧) ط : بهذه الجهات من الغرباء .
(٨) ط : ويلتزم الإمامة . ص : والتعليم
(٩) ط : فيلقى .
(١٠) ط : ويقولون .

هؤلاء ممن انقطع إلى الله عز وجل فتجب مشاركتهم[١] . وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا ، فيه أنواع الفواكه ، وفيه الأعين[٢] المطّردة والظلال الوارفة ، وقلّما يخلو من أهل التبتل[٣] والزهادة . وإذا كانت معاملة النصارى لضدّ ملتهم هذه المعاملة ، فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض ! ومن أعجب ما يُحدَّث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى ، وربما يلتقى الجمعان ويقع المُصافّ بينهم ؛ ورِفَاق التجار والمسافرين[٤] تختلف بينهم دون اعتراض عليهم . شاهدنا فى هذا الوقت ، الذى هو شهر جمادى الأولى ، من ذلك خروجَ صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين ، ومنازلته[٥] حصن الكَرَك ، وهو من أعظم حصون النصارى ، وهو المعترض فى طريق الحجاز ، والمانع لسبيل المسلمين[٦] على البر ، وبينه[٧] وبين القُدْس مسيرة يوم أو أشفّ قليلا ، وهو سَرَارة[٨] أرض فلسطين ، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة ، يُذْكَر أنه ينتهى إلى أربع مئة قرية . فنازله هذا السلطان المذكور[٩] وضيّق عليه ، وطال حصاره له[١٠] . واختلافُ القوافل من مصر إلى دمشق ، على بلاد الإفرنج[١١] ، غير منقطع . واختلاف المسلمين من دمشق إلى عَكّة كذلك . وتُجّار النصارى أيضا لا يُمْنَع

---

(١) خـ : مشاركته .
(٢) ط : المياه .
(٣) ط : من التبتيل .
(٤) ط : المسلمين والنصارى .
(٥) ط : لمنازلة .
(٦) ص : للسبيل للمسلمين . تحريف .
(٧) ط : بينه .
(٨) سرارة الشىء : أطيبه وخالصه . وفى خـ : شرارة .
(٩) المذكور : ليست فى ط .
(١٠) له : ليست فى ط .
(١١) ص : من مصر إلى بلاد الإفرنج إلى دمشق .

أحد[١] منهم ولا يُعتَرض . وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدّونها فى بلادهم ، وهى من الأَمَنَة[٢] على غاية . وتجار النصارى أيضا يؤدّون فى بلاد المسلمين على سِلَعهم ، والاتفاق بينهم فى ذلك[٣] ، والاعتدال فى جميع الأحوال . وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس فى عافية ، والدنيا لمن غلب . هذه سيرة أهل هذه البلاد فى حربهم[٤] ، و[فى] الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك . لا[٥] يُعْتَرض الرَّعَايا ولا التجار ، فالأمن لا يفارقهم فى جميع الأحوال سلما أو حربا . وشأن هذه البلاد فى ذلك أعجب من أن يُستوفَى الحديث عنه . والله يُعلى بها[٦] كلمة الإسلام بمنه .

[آثار دمشق وعادات أهلها]

ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان ، منحازة فى الجهة الغربية من البلد ، وهى بإزاء باب الفَرَج من أبواب البلد . وبها جامع للسلطان[٧] يُجمَّع فيه . وعلى مقربة منها ، خارج البلد فى جهة الغرب ، ميدانان كأنهما مبسوطان خَزّا لشدة خُضْرتهما ، وعليهما حَلَق ، والنهر بينهما ، وغَيْضَة[٨] عظيمة من الحَوْر متصلة بهما . وهما من أبدع المناظر ، يخرج السلطان إليهما ، ويلعب فيهما بالصَّوالجة ، ويسابِق بين الخيل فيهما ، ولا مجال للعين كمجالها فيهما . وفى كل ليلة يخرج أبناء السلطان إليهما للرماية ، والمسابقة ، واللعب

---

(١) ص : واحد .

(٢) الأمنة : الأمن والاطمئنان .

(٣) فى ذلك : ليست فى ط .

(٤) ص : سير .. فى بلادهم .

(٥) ط : ولا .

(٦) بها : ليست فى ط .

(٧) ط : السلطان .

(٨) الغيضة : الأجمة . والحور : نوع من الشجر .

بالصوالجة . وبهذه البلدة أيضا قرب مئة حمّام فيها وفى أرباضها ، وفيها نحو أربعين دارا للوضوء ، يجرى الماءُ فيها كلها . وليس فى هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب ، لأن المرافق بها كثيرة . وفى الذى ذكرناه من ذلك كفاية ، والله يبقيها دار إسلام ، بمنّه . وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد ، وأحسنها انتظاما ، وأبدعها وضْعا ، ولا سيما قَيْسَاريّاتها ، وهى مرتفعات(١) كأنها الفَنادق(٢) ، مثقّفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور . وكل قيسارية منفردة بضبتها وأغلاقها الحديدية(٣) . ولها أيضا سوق ، تعرف بالسوق الكبيرة(٤) ، تتّصل من باب الجابية إلى باب شرقى . وفيها(٥) (٦سماط لكل صنعة ، وهى من أحفل أسواق البلاد . وفى آخرها مما يلى باب شرقى٦) بيت صغير جدا قد اتُّخذ مصلى ، وفى قبلته حجر يقال : إن إبراهيم صلى الله عليه [وسلم] كان يكسر عليه الآلهة التى كان يسوقها أبوه للبيع .

وحديثُ الدار المنسوبَة لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه(٧) — التى هى اليوم خانقة للصوفية ، وهى فى الدهليز الذى فى الباب الشمالى المعروف بباب الناطفيين ، وقد تقدم التنبيه عليها قبل هذا — حديث عجيب ؛ وذلك أن الذى اشتراها ، وبناها ، وجعل لها الأوقاف الواسعة ، وأمر بأن يُدفَن

---

(١) ص : قيساريتها وهى مربعات .   (٢) ط : الفناديق .

(٣) ص : لصنعتها . ر : بصيغتها . ط : الجديدة . والضبة : حديدة أو خشبة عريضة يقفل بها الباب .   (٤) ط : الكبير .

(٥) ط : وفيه .   (٦ — ٦) ليست فى ط .

(٧) رضى الله عنه : ليست فى ط .

فيها ، وأن يُخْتَم على قبره القرآن كلَّ جمعة ، وعيّن من تلك الأوقاف لكل من[1] يحضر ذلك فى كل[2] جمعة رطلا من خبز الحُوَّارَى — وهو ثلاثة أرطال من أرطال المغرب — رجلٌ من العجم يعرف بالسُّمَيْساطىّ — وسُمَيساط[3] بلدة من بلاد العجم — وكان موصوفا بالورع والزهد . وأصل[4] يساره وتموّله ، فيما ذكر لنا ، أنه ألفى يوما من الأيام بالدهليز المذكور إزاء الدار المذكورة ، رجلا أسود مريضا ، مطروحا بموضعه ، غير ملتفَت إليه ولا معتنىً به ، [فتأجَّر فيه] ، والتزم[5] تمريضَه وخدمته ، والنظر له[6] اغتناما للثواب من الله عز وجل فيه[7] . فحانت وفاة الرجل ، فاستدعى ممرّضَه السميساطى المذكور ، فقال له : « أنت قد أحسنتَ إلىّ وخدمتَنى ، ولَطُفت فى تمريضى ، وأشفقت لحالى وغربتى ، فأنا أريد أن أكافئك على فعلك بى ، زائدا إلى مكافأة الله عز وجل عنّى فى الآجل ، إن شاء الله ؛ وذلك أنى كنتُ من أحد فتيان الخليفة المعتضد بالله[8] العباسى ، ومعروفا بزِمَام الدار ، وكانت لى حظوة ومكانة . فعتب علىّ فى بعض الأمر ، فخرجتُ طريدا ، فانتهيت إلى هذه البلدة ، فأصابنى فيها من أمر الله ما أصابنى ، فسبّبك الله لى رحمة ، فأنا أقلّدك أمانة ، وأعهد إليك فيها عهدا ، إذا أنا متُّ وغسلتَنى ، فانهض على بركة الله تعالى إلى بغداد ، وتلطَّف فى السؤال

---

(١) ط : الأوقاف لمن .
(٢) ط : ذلك كل .
(٣) ج : بالشميساطى وشميساط . وهو أبو القاسم على بن محمد ، كان من أكابر الرؤساء بدمشق .
(٤) ص : وأهل . تحريف .
(٥) ص : فالتزم .
(٦) ص : منه . تحريف .
(٧) فيه : ليست فى ط .
(٨) بالله : ليست فى ط .

عن دار صاحب الزمام[1] فتى الخليفة ، فإذا أُرشدتَ إليها فصرِّف الحيلة فى اكترائها ، وأرجو أن الله يعينك على ذلك . وإذا سكنتَها فاعمِدْ إلى موضع — سمّاه له فيها ، وذكر له أمارةً عليه — فاحفرْ فيه مقدارَ كذا ، وانزع اللوح الذى تجده معترضا تحت الأرض ، وخُذ الذى تجده مدفونا [تحت الأرض] ، وصَرِّفْه فى منافعك ، وما يوفقك الله إليه من وجوه وأعمال البر[2] مبارَكا لك فى ذلك ، إن شاء الله » . ثم توفى الرجل المُوصِى رحمه الله ، وتوجَّه المُوصَى إليهْ بعهده إلى بغداد ، فيسّر الله له فى اكتراء الدار ، وانتهى إلى الموضع المذكور ، فاستخرج منه ذخائر لا قيمة لها ، عظيمة الشأن ، كبيرة القدر . فدسَّها فى أحمال متاع ابتاعه[3] وخرج من بغداد إلى دمشق[4] . فابتاع الدار المذكورة المنسوبة لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وبناها خانقة للصوفية ، واحتفل فيها ، وابتاع لها الأوقاف ضياعا ورِبَاعا ، وجعلها برسم الصوفية . وأوصى بأن يدفن فيها ، وأن يُختَم القرآن على قبره كل جمعة ، وعيّن لكل من يحضر ذلك ما ذكرناه . فوجد الغرباء والفقراء فى ذلك مرفقا كثيرا . فتغصّ[5] الخانقة كل جمعة بالقَرَأة[6] ، فإذا ختموا القرآن دعوا له وانصرفوا ، واندفع لكلّ واحد منهم رطل من الخبز ، على الصفة المذكورة . وبقى للمتوفى جميل الخبرِ والأثر[7] رحمة الله عليه ورضوانه[8] .

والكَوْثرية التى ذكرناها أيضا بالجامع المكرم ، المقروءة بعد العصر من

---

(١) ص : دار زمام .

(٢) ط : من وجوه البر والخير .

(٣) ط : ابتاعها .

(٤) ط : إلى دمشق من بغداد .

(٥) ص : تغص .

(٦) ط : بالقراءة كل جمعة .

(٧) ط : الأثر والخير .

(٨) ط : ورضوانه عليه .

كل يوم[١] ، المعينة لمن لا يحفظ القرآن كان أصلها أيضا أن أحد ذوى اليسار توفى ، وأوصى بأن يُدَسّ قبره فى الجامع المكرم ، وأوقف وقفا يُغِلّ مئة وستين[٢] دينارا فى السنة برسم من لا يحفظ القرآن ، ويقرأ من سورة الكوثر إلى الخاتمة . فينقسم عليهم ذلك أربعون[٣] دينارا ، فى كل ثلاثة أشهر من السنة . ويُذْكر أن أحد الملوك السالفين توفّى وأوصى[٤] أيضا ، بأن يُجعل قبره فى قبلة الجامع المكرم ، بحيث لا يظهر ، وعيّن أوقافا عظيمة تغلّ نحو ألف[٥] دينار وأربع مئة دينار فى السنة وزائدا لقُرّاء سُبْع القرآن كلّ يوم .

وموضع الاجتماع لقراءة هذا السبع المبارك كل يوم ، إثر صلاة الصبح ، بالجهة الشرقيّة من مقصورة الصحابة رضى الله عنهم ، ويقال : إن فى ذلك الموضع هذا[٦] القبر المذكور . وقراءة السبع لا تتعدّى ذلك الموضع ، متصلا مع جدار القبلة إلى الجدار الشرقى ، والله عز وجل لا يضيع أجر المحسنين . وبقيت هذه الرسوم الشريفة مخلَّدة مع الأيام ، نفع الله بها راسميها . وناهيك من[٧] بلاد يُهْدَى فيها لهذه الصنائع المُزْلِفة من رضوان[٨] الله عز وجل ، وللفقراء الملتزمين الجلوس فى الجانب الشرقى من الجامع المكرم ، الذين ليس لهم مأوى يأوون إليه ، وقفٌ وضعه أحد[٩] المتأخّرين المتوفين[١٠] برسمهم ، إلى ما يطول ذكره من المآثر الأُخراوية الصَّدَقِيَّة ، التى كفل الله بها غرباء هذه

---

(١) ط : والمقروءة كل يوم بعد العصر . (٢) ط : وخمسين .

(٣) ص ، خـ : أربعين . ط : فينقسم له .(٤) ط : أيضا وأوصى .

(٥) ط : الألف . (٦) ط : هو .

(٧) ط : وناهيك فيها من . (٨) ط : لرضوان .

(٩) ط : بعض . (١٠) خـ : المفوقين . ط : الموفقين .

الجهات .

ومن رسوم أهل هذه الجهات[١] المستحسنة ، المرجوّ لهم فيها قَبولٌ من الله عز وجل[٢] ، أنهم فى كل سنة يتوخّون الوقوف يومَ عَرَفَة بجوامعهم ، إثر صلاة العصر ، يقف بهم أئمتُهم كاشفى رءوسهم ، داعين إلى ربهم ، التماسا لبركة الساعة التى يقف بها[٣] وفدُ الله عز وجل وحجيج بيته الحرام بعَرَفات فلا يزالون واقفين ، داعين ، متضرّعين إلى الله عز وجل ، وبحجّاج بيته الحرام مُتوسِّلين[٤] ، إلى أن يسقط قُرْص الشمس ، ويقدّروا نفر الحاجّ ، فينفصلوا باكين على ما حُرِموه من ذلك الموقف العظيم بعرفات ، وداعين إلى الله[٥] فى أن يوصلهم إليها ، ولا يخليهم من بركة القبول فى فعلهم ذلك .

ومن أعظم ما شاهدناه من مناظر الدنيا الغريبة الشأن ، وهيا كلها الهائلة البنيان ، المعجزة الصنعة والإتقان ، المعترف لوصفها بالتقصير لسانُ كلّ بيان : الصعودُ إلى أعلى قبة الرصاصَ المذكورة فى هذا التقييد ، القائمة وسطَ الجامع المكرم ، والدخولُ فى جوفها ، وإجالةُ لحظ الاعتبار فى بديع وضعها[٦] ، مع القبة التى فى وسطها كأنها كرة مجوفة داخلة وسط كرة أخرى أعظم منها ؛ صعدنا إليها[٧] فى جملة من الأصحاب المغاربة ضحوةَ يوم الاثنين الثامن عشر لجمادى الأولى المذكورة[٨] ، من مَرْقىً فى الجانب الغربى

(١) بط ١ : ٢٤٣ : ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد .
(٢) ط : من الله عز وجل قبول . (٣) ط : فيها .
(٤) ص : إليه متوسلين . (٥) ط : الله عز وجل .
(٦) خـ ، ص : وصفها . (٧) ط : إليه .
(٨) ط : المذكور .

من بلاط الصحن كان صومعةً فى القديم . وتمشينا على سطح الجامع المكرم ، وكله ألواح رصاص منتظمة ، كما تقدم[١] الذكر لذلك . وطول كل لوح أربعة أشبار ، وعرضه ثلاثة أشبار ، وربما اعترض فى الألواح نقص أو زيادة لكثرتها[٢] ، حتى أفضينا[٣] إلى القبة المذكورة . فصعدنا إليها على سُلّم منصوب ، وريح المَيْد تكاد تطير بنا ، فحصلنا[٤] فى الممشى المُطِيف بها ، وهو من رصاص ، وسعتُه ستة أشبار ، فلم نستطع القيام عليه لهول الموقف فيه . فأسرعنا الولوج فى جوف القبة ، على أحد شَرَاجيبها المنفتحة[٥] فى الرصاص ، فأبصرنا مرأى تحار فيه العقول ، وتقف دون إدراك هيئة وضعه الأفهام[٦] . وجُلْنا فى فرش من الخُشُب العظام ، حول القبة الصغيرة[٧] الداخلة فى جوف الرصاصية على الصفة التى ذكرناها ، ولها طِيقَان يُبْصَر منها الجامع ومَنْ فيه ، فكُنا نبصر الرجال فيه كأنهم الصبيان فى المحاضر ، وهذه القبة مستديرة كالكرة ، وظاهرها من خشب قد شُدّ بأضلاع من الخشب الضخام ، موثقة بنُطُق[٨] من الحديد ، ينعطف كل[٩] ضلع عليها كالدائرة ، وتجتمع الأضلاع كلّها فى مركز دائرة من الخشب أعلاها . وداخل هذه القبة ، وهو ما يلى الجامع المكرم ، خواتيم من الخشب ، منتظم بعضها ببعض ، قد اتصل اتصالا عجيبا ، وهى كلها مذهبة بأبدع صنعة من التذهيب ، مزخرفة التلوين ، بديعة القَرْنَصة ، يرتمى للأبصار[١٠] شعاع

---

(١) ط : قد تقدم .
(٢) لكثرتها : ليست فى ط .
(٣) ط : انتهينا .
(٤) خـ : فحـ... ط : فحبونا .
(٥) ط : المفتحة .
(٦) ط : هيبة وصفه .
(٧) ص : العظيمة .
(٨) ص : تنطبق . تحريف .
(٩) ص : على كل . تحريف .
(١٠) خـ : للأبصار .

ذهبها ، وتتحير الألباب فى كيفية عقدها ووضعها لإفراط سموّها : أبصرنا من تلك الخواتيم[١] الخشبية خاتما مطروحا جوفَ القبة ، لم يكن طوله أقل من ستة أشبار ، فى عرض أربعة . وهى تلوح فى انتظامها للعين كأن دَوَرَ كلِّ واحد منها شبر أو شبران الغايةَ لعظم سموها . والقبة الرصاص محتوية على هذه القبة المذكورة ، وقد شُدّت أيضا بأضلاع عظيمة من الخُشُب الضخام ، موثقة الأوساط بنُطُق الحديد ، وعددها ثمانية[٢] وأربعون ضلعا ، بين كل ضلع وضلع أربعة أشبار ، وقد انعطفت انعطافا عجيبا ، واجتمعت أطرافها فى مركز دائرة من الخشب أعلاها . ودور هذه القبة الرصاصية ثمانون خطوة ، وهى مئتا شبر وستون شبرا ، والحال فيها أعظم من أن يُبْلَغ وصفها ، وإنما هذا الذى ذكرناه نبذة يُستدَل بها على ما وراءها . وتحت الغارب المستطيل المسمّى النسر ، الذى تحت هاتين القبتين ، مدخل عظيم ، هو سقف للمقصورة ، بينه[٣] وبينها سماء جصّ مزيَّنة ، وقد انتظم فيه من الخشب العظيمة[٤] ما لا يحصى عدده ، وانعقد بعضها ببعض ، وتقوّس[٥] بعضها على بعض ، وتركبت تركيبا هائلا منظره . وقد أُدخلت فى الجدار كلها[٦] دعائم للقبتين المذكورتين . وفى ذلك الجدار حجارة ، كل واحد منها يزن قناطير مقنطرة ، لا تُقلها[٧] القِبَلَة فضلا عن غيرها . فالعجب كل العجب من تطليعها إلى ذلك الموضع المُفْرِط السمو ، وكيف تمكنت القدرة البشرية

---

(١) خـ : من ذلك . ص : تلك الخشبية . (٢) ص : عددها . ط : ثمان .

(٣) ص : القصور . وبينه . تحريف . (٤) العظيمة : ليست فى ط .

(٥) خـ : ونقوش . (٦) ص : وتداخلت . ط : كله .

(٧) ط : تنقلها .

لذلك ، فسبحان الله ملهم[١] عباده إلى هذه الصنائع العجيبة ، ومُعِينهم على التأتّى لما ليس موجودا فى طباعهم[٢] البشرية ، ومُظْهر آياته على أيدى من يشاء من خلقه ، لا إلٰه سواه ! والقبتان على قاعدة مستديرة من الحجارة العظيمة ، قد قامت فوقها أرجل قصار ضخام من الحجارة الصّم الكبار . وقد فُتِح بين كل رجل ورجل[٣] شمسية ، واستدارت الشمسيات باستدارتها ، والقبتان فى رأى العين واحدة ، وكنينا عنها باثنتين لكون الواحدة فى جوف الأخرى ، والظاهر منها قبة الرصاص .

ومن جملة عجائب ما عايناه فى هاتين القبتين أن لم نجد فيهما عنكبوتا ناسجا ، على بُعْد العهد من التفقد لهما من أحد ، والتعاهُد فيهما[٤] لتنظيف مساحتهما ، والعنكبوت فى أمثالهما موجود كثير . وقد كان حُقِّق عندنا أن الجامع المكرم لا تنسج فيه العنكبوت ، ولا يدخله الطير المعروف بالخُطّاف ، تقدم[٥] ذكرنا لذلك فى هذا التقييد . فانصرفنا منحدرين ، وقد قضينا عجبا عجابا من هذا المنظر العظيم شأنه ، المعجز وضعه[٦] ، المترفِّع عن الإدراك وصفه ، ويقال : إنه ما على ظهر المعمور أعجب منظرا ، ولا أبعد سموا ، ولا أغرب بنيانا ، من هذه القبة ، إلا ما يحكى عن قبة بيت المقدس ، فإنها يذكر[٧] أنها أبعد فى الارتفاع والسمو من هذه . وجملة الأمر أن منظرها ، والوقوف على هيئة وضعها ، وعظيم الاستقدار فيها ، عند معاينتها[٨]

(١) ط : فسبحان من ألهم . (٢) ط : طبائعهم .

(٣) ص : وقد وصلت بين رجل ورجل . (٤) فيهما : ليست فى ط . ودأبت ص على الإتيان بضمير المؤنثة بدلا من الاثنين . (٥) ط : وقد تقدم .

(٦) ص : وصفه . تحريف . (٧) ط : يحكى .

(٨) ط : معانيها .

بالصعود إليها ، والولوج داخلها ، من أغرب ما يحدَّث به من عجائب الدنيا ، والقدرة لله الواحد القهار ، لا إلٰه غيره[١] .

ولأهل دمشق و[غيرها من] هذه البلاد كلها[٢] فى جنائزهم رتبة عجيبة ، وذلك أنهم يمشون أمام الجنازة[٣] بقرّاء يقرءون القرآن بأصوات شجية ، وتلاحين مبكية ، تكاد تنخلع لها النفوس شجوا وحنانا[٤] يرفعون أصواتهم بها ، فتتلقاها[٥] الآذان بأدمع الأجفان ، وجنائزهم يُصَلَّى عليها فى الجامع ، قبالة المقصورة ، فلا بد لكل جنازة من الجامع ، فإذا انتهوا إلى بابه قطعوا القراءة ، ودخلوا بها[٦] إلى موضع الصلاة عليها ، إلا أن يكون الميت من أئمة الجامع أو من سدنته ، فإن الحالة المميزة له فى ذلك أن يدخلوه بالقراءة إلى موضع الصلاة عليه . وربما اجتمعوا للعزاء بالبلاط الغربى من الصحن ، إزاء[٧] باب البريد ، فيصلّون أفرادا أفرادا ، ويجلسون وأمامهم رَبْعات من القرآن يقرءونها ، ونقباء الجنائز يرفعون أصواتهم بالنداء لكل واصل للعزاء ، من محتشمى البلدة وأعيانهم ، ويُحلُّونهم بخِطَطهم الهائلة التى قد وضعوها لكل واحد منهم بالإضافة إلى الدين . فتسمع ما شئتَ من صدر الدين ، أو شمسه ، أو بَدْره ، أو نجمه ، أو زينه ، أو بهائه ، أو جماله ، أو مجده ، أو فخره ، أو شرفه ، أو مُعِينه ، أو مُحْييه ، أو زَكِيه ، أو نجيبه ، إلى ما لا غاية له من هذه الألفاظ الموضوعة ؛ وَتتْبعُها[٨] ولا سيما فى الفقهاء بما شئت

---

(١) ط : سواه .

(٢) كلها : ليست فى ط .

(٣) ط : الجنائز .

(٤) خـ : وعيانا . بط ١ : ٢٤٤ : رقة .

(٥) خـ : لها فتتلقى .

(٦) بها : ليست فى ط .

(٧) ط : بإزاء .

(٨) ص : وتتبعها أيضا .

أيضا من سيد العلماء ، وجمال الأئمة ، وحُجّة الإسلام ، وفخر الشريعة ، وشرف الملة ، ومفتي الفريقَيْن ، إلى ما لا نهاية له من هذه الألفاظ المُحَالية . فيصعد كل واحد منهم إلى مقعد العزاء[1] ساحبا أذياله من الكبر ، [ثانيا] عِطْفه وقَذَاله[2] . فإذا استكملوا وفرغوا من القراءة ، وانتهى المجلس بهم منتهاه ، قام وعاظهم واحدا واحدا بحسب رُتبهم فى المعرفة ، فوعظ وذكّر ، ونبّه على خُدَع الدنيا وحذّر ، وأنشد فى المعنيٍ ما حضره[3] فى الأشعار ، ثم ختم بتعزية صاحب المصاب والدعاء له وللمتوفَّى ، ثم قعد ، وتلاه آخر على مثل طريقته إلى أن يفرغوا ويفترقوا[4] . فربما كان مجلسا نافعا لمن يحضره من الذكرى .

ومخاطبة أهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد ، وبامتثال الخدمة ، وتعظيم الحَضْرة ، وإذا لقى أحد منهم آخر مسلّما يقول : جاء المملوك أو الخادم برسم الخدمة ، كنايةً عن السلام ، فيتعاطون المَحال تعاطِيا ، والجِدُّ عندهم عنقاءُ مُغْرِب[5] ، وصفة سلامهم إيماءٌ للركوع أو السجود ، فترى الأعناق تتلاعب بين رَفْع وَخَفْض ، وبسط وقبض ، وربما طالت بهم الحالة فى ذلك ، فواحد ينحطُّ وآخر يقوم ، وعمائمهم تَهْوِى بينهم هُوِيّا . وهذه الحالة من الانعطاف[6] الركوعى فى السلام كنا عهدناه لقَيْنات النساء ، وعند استعراض رقيق الإماء ، فيا عجبا لهؤلاء الرجال ، كيف تحلّوا بسمَات ربات الحجال ، لقد ابتذلوا أنفسهم فيما تأنف النفوس

---

(١) ط : إلى الشريعة .
(٢) القذال : ما بين الأذنين من مؤخر الرأس .
(٣) ط : حضر .
(٤) ط : ويتفرقوا .
(٥) ص : عنقاء ليل مغرب . والعنقاء : طائر خرافى ، يريد أن الجد عندهم معدوم .
(٦) ط : الانعكاف : تحريف .

الأبية منه ، واستعملوا تكفير الذمىّ المنهىّ فى الشرع عنه ! لهم فى هذا الشأن طرائق عجيبة فى الباطل . فيا للعجب منهم ، إذا تعاملوا بهذه المعاملة ، وانتهوا إلى هذه الغاية فى الألفاظ بينهم ، فبماذا يخاطبون سلاطينهم ويعاملونهم ؟! لقد تساوت الأذناب عندهم والرءوس ، ولم يتميزْ لديهم الرئيس من المرءوس[١] ! فسبحان خالق الخلق أطوارا ، لا شريك له ، ولا معبود سواه .

ومن عجيب حال الصغير منهم[٢] والكبير ، بجميع هذه الجهات كلها ، أنهم يمشون وأيديهم إلى خلف ، قابضين بالواحدة على الأخرى ، ويركعون للسلام على تلك الحالة المشبهة بأحوال العُنَاة[٣] مهانة واستكانة ، كأنهم قد سِيمُوا تعنيفا ، وأُوثِقوا تكتيفا ، وهم يعتقدون تلك الهيئة[٤] تمييزا لهم فى ذوى الخصوصية وتشريفا ، ويزعمون أنهم يجدون بها نشاطا فى الأعضاء ، وراحة من الإعياء ، فالمحتشم منهم من يسحب أذياله[٥] على الأرض شبرا ، أو[٦] يضع خلفه اليد الواحدة على الأخرى ، قد ٱتخذوا هذه المشية بينهم سنَنَا ، وكل منهم [قد] زُيِّنَ له سوء عمله ، فرآه حسنا ، أستغفر الله منهم ! فإن لهم من آداب المصافحة عوائد ، تجدّد لهم الإيمان ، وتستوهب لهم من الله عز وجل[٧] الغفران ، لما بشّر به الحديث المأثور عن النبى[٨] ﷺ فى المصافحة ، فهم يستعملونها إثر الصلوات ، ولا سيما إثر صلاة الصبح ، وصلاة العصر . فإذا[٩] سلم الإمام ، وفرغ من الدعاء ، أقبلوا عليه بالمصافحة ، وأقبل

---

(١) ط : يميز لديهم الرئيس والمرءوس . (٢) ط : عندهم .
(٣) العناة : الأسرى . خـ : العتاة . تحريف . (٤) ط : الهيئة لهم .
(٥) ط : والمحتشم .. ذيله . (٦) ص : ويضع .
(٧) عز وجل : ليست فى ط . (٨) ط : رسول الله .
(٩) ط : وإذا .

بعضهم على بعض يصافح المرء عن يمينه و[عن] يساره ، فيفترقون[1] عن مجلس مغفرة ، بفضل الله عز وجل . وقد تقدم الذكر فيما سلف عن هذا التقييد أنهم يستعملونها عند رؤية الأهلة ، ويدعو بعضهم لبعض ، بتعرُّف بركة ذلك الشهر ويمنه واستصحاب السعادة والخير فيه ، وفيما يعود عليه من أمثاله ؛ وتلك أيضا طريقة حسنة ، ينفعهم الله بها ، لما فيها من تعاطى الدعوات ، وتجديد المودّات ، ومصافحة المؤمنين بعضهم لبعض[2] رحمة من الله تعالى ونعمة .

وقد تقدم الذكر أيضا فى غير ما موضع من هذا التقييد[3] عن حسن سيرة سلطان هذه[4] الجهات : صلاح الدين أبى المظفر[5] يوسف بن أيوب ، وما له من المآثر المأثورة فى الدنيا والدين ، ومثابرته على جهاد أعداء الله ، لأنه ليس أمام هذه البلدة بلدة للإسلام ، والشام أكثره بيد الإفرنج ، فسبّب الله هذا السلطان رحمة للمسلمين بهذه الجهات ، فهو لا يأوى لراحة ، ولا يخْلُد إلى دَعَة ، ولا يزال سرجُه مجلسَه ؛ إنّا بهذه البلدة نازلون[6] منذ شهرين اثنين ، وحللناها وقد[7] خرج لمنازلة حصن الكَرَك ، وقد تقدم الذكر أيضا له ، وهو عليه مُحاصِر له[8] حتى الآن ، والله تعالى يعينه على فتحه . وسمعنا أحدَ فقهاء [هذه] البلدة ، وزعمائها المسلمين بسُدَّة[9] هذا السلطان ،

---

(١) ط : فيتفرقون .   (٢) ط : بعضا .

(٣) ط : غير موضع من هذا الكتاب . (٤) ط : السلطان بهذه .

(٥) ص : أبو المظفر . خطأ .   (٦) ص : لنا .. نازلين . تحريف .

(٧) ص : وهو قد .   (٨) له : ليست فى ط .

(٩) السدة : باب الدار ، ومدخلها .

والحاضرين مجلسه ، يذكر عنه فى محفل حَضْرة[1] علماء البلد وفقهائه ، ثلاث مناقب فى ثلاث كلمات حكاها عنه ، رأينا إثباتها هنا : إحداها أن الحلم من سجاياه ، فقال ، وقد صفح عن جَرِيرة أحد الجُناة عليه : « أما أنا فلأنْ أُخطِئ فى العفو أحبُّ إلىّ من أن أصيب فى العقوبة » . وهذا فى الحلم مَنْزَع أَحْنَفِىّ[2] . وقال أيضا : وقد تُنُوشِدت بحضرته الأشعار ، وجرى ذكر مَنْ سلف من أكارم الملوك وأجوادهم : « والله لو وَهَبتُ الدنيا للقاصد الآمل لما كنتُ أستكثرها له ، ولو استفرغتُ له جميع ما فى خزانتى لما كان عِوَضا مما أراقه من ماء[3] حُرّ وجهه فى استمناحه إيـاى » . وهذا فى الكرم مذهب رَشِيدىّ أو جَعْفَرِىّ[4] . وحضره أحـد مماليكـه المتميّزيـن لديـه بالحظوة والأثرة ، مستعدِيا على جمّال ذكر أنه باعه جملا مَعِيبا ، أو صرف عليه جملا بعيب لم يكن فيه ، فقال السلطان له : « ما عسى أن أصنع لك ، وللمسلمين قاض يحكم بينهم ، والحقّ الشرعىّ مبسوط للخاصة والعامة ، وأوامره[5] ونواهيه مُمتَثَلة ، وإنما أنا[6] عبد الشرع وشِحْنَته » . والشّحنة عندهم صاحب الشرطة « فالحقّ يقضى لك أو عليك » . وهذا فى العدل مقصد عُمَرِىّ[7] . وهذه كلمات ، كفى بها لهذا السلطان فخرا ، والله يمتع ببقائه الإسلام والمسلمين ، بمنه .

---

(١) ط : فى حضرة محفل .

(٢) الأحنفى : نسبة إلى الأحنف بن قيس ، الذى اشتهر بالحلم أيام الأمويين .

(٣) ط : من حر ماء وجهه .

(٤) رشيدى : نسبة إلى هارون الرشيد . وجعفرى : نسبة إلى جعفر بن يحيى البرمكى .

(٥) ص : وأموره . تحريف .

(٦) ص : وأنا إنما أنا . تحريف

(٧) ط : فى العقد . تحريف . وعمرى : نسبة إلى عمر بن الخطاب .

شهر جمادى الآخرة ، عرفنا الله بركته ويمنه[1]

استهل هلاله ليلة الأحد التاسع من شهر شتنبر العجمى ، ونحن بدمشق حرسها الله ، على قدم الرحلة إلى عكة ، فتحها الله ، والتماس ركوب البحر منها[2] مع تجار النصارى ، وفى مراكبهم المُعَدّة لسفر الخريف المعروف عندهم بالصَّلِيبية ، عرّفنا الله فى ذلك معهود خِيرَته ، وتكفّلنا بكَلَاءته وبعصمته[3] ، بعزته وقدرته ، إنه سبحانه الحنّان المنّان ، وَلِىّ الطَّوْل والإحسان ، لا رب غيره . فكان[4] انفصالنا منها عشى يوم الخميس الخامس من الشهر المذكور ، وهو الثالث عشر من شهر شتنبر المذكور ، فى قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع إلى عكا[5] .

ومن أعجب ما يُحدَّث به فى الدنيا ، أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج ، وسَبْيُهم يدخل [إلى] بلاد المسلمين ؛ شاهدنا من ذلك عند خروجنا أمرا عجيبا ، وذلك أن صلاح الدين عند منازلته حصن الكرك ، المتقدم الذكر فى هذا التاريخ ، قصد إليه الإفرنج فى جميعهم ، وقد تألّبوا من كل أوب ، وراموا أن يسبقوه إلى موضع الماء ، ويقطعوا عنه الميرة من بلاد المسلمين . فصمد إليهم ، وأقلع عن الحصن بجملته ، وسبقهم إلى موضع الماء . فحادوا عن طريقه ، وسلكوا طريقا وعرا ذهب فيه أكثر دوابهم ، وتوجهوا إلى حصن الكرك المذكور ، وقد[6] سد عليهم بُنيّات الطرق

(١) ويمنه : ليست فى ط .
(٢) منها : ليست فى ط .
(٣) ط : وعصمته .
(٤) ط : وكان .
(٥) ط : عكة .
(٦) ص : وهو .

القاصدة إلى بلادهم ، ولم يبق لهم إلا طريق على[1] الحصن يأخذ على الصحراء ، ويبعُد مداه عليهم بتحليق يعترض فيه . فاهتبل[2] صلاح الدين فى بلادهم الغِرَّة ، وانتهز الفرصة وقصد قصدها على[3] الطريق القاصدة ، فدهم مدينة نابُلُوس[4] ، وهجمها بعسكره . فاستولى عليها ، وسبى كل من فيها ، وأخذ إليها حصونا وضياعا . وامتلأت أيدى المسلمين سَبْيا لا يحصى عدده من الإفرنج ، ومن فرقة من اليهود تعرف بالسَّمَرة منسوبة إلى السامرىّ . وانبسط فيهم القتل الذَّرِيع ، وحصل المسلمون منها على غنائم يضيق الحصر عنها ، إلى ما اكتُفِت[5] من الأمتعة ، والذخائر ، والأسباب ، والأثاث ، إلى النَّعَم والكُرَاع[6] ، إلى غير ذلك . وكان من فعل هذا السلطان الموفق ، أن أطلق الأيدى[7] على جميع ما احتازته ، وسلم لهم ذلك ، فانحازت كلّ يد [ما][8] حوتْ ، وامتلأت غنى ويسارا . وعَفَّى الجيش على رسوم تلك الجهات التى مر عليها من بلاد الإفرنج[9] ، وآبوا غانمين فائزين بالسلامة والغنيمة والإياب ، وتخلصوا من أسرى المسلمين عددا كثيرا ، وكانت غزوة لم يُسْمَع مثلها بهذه البلاد[10] .

وخرجنا نحن من دمشق ، وأوائلُ المسلمين قد طرقوا بالغنائم ، كل[11] بما

---

(١) ط : عن .

(٢) اهتبل : اغتنم . وفى خـ ، ص : فابتهل . وأصلحها رايت .

(٣) ط : عن . تحريف .

(٤) الأشهر فيها بحذف الواو .

(٥) اكتفت : أخذ . وفى خـ ، ص : التفت .

(٦) ص : الغنم والكراع . الكراع : الخيل والبغال والحمير .

(٧) ط : أيدى المسلمين .

(٨) ط : فاحتازت كل يد ما .

(٩) ط : الفرنج .

(١٠) ص : بمثلها . ط : مثلها فى البلاد .

(١١) خـ : وكل .

احتواه وحصلت يده عليه ، وكان مبلغ السبى آلافا لم نتحقق إحصاءها .
ولحق السلطان بدمشق يوم السبت بعدنا الأقرب ليوم انفصالنا ، وأُعْلِمنا أنه يُجِمّ عسكره قليلا ، ويحاول العودة[1] إلى الحصن المذكور ، والله[2] يُعِينه ويفتح عليه بعزته وقدرته . وخرجنا نحن إلى بلاد الإفرنج[3] ، وسبيهُم يدخل بلاد المسلمين ، وناهيك من هذا الاعتدال فى السياسة ! فكان مبيتنا عشىَّ يوم الخميس المذكور[4] بدارَيَّة ، وهى قرية من دمشق على مقدار فرسخ ونصف ، ثم رحلنا منها سحر يوم الجمعة بعده إلى قرية تعرف « ببيت جَنّ » ، هى بين جبال ، ثم رحلنا منها صبيحة يوم السبت إلى مدينة بانِيَاس ، واعترضنا فى نصف الطريق إليها[5] شجرة بلوط عظيمة الجرم ، متسعة التَّدْوِيح[6] ، أُعْلِمنا أنها تعرف بشجرة الميزان . فسألنا عن ذلك ، فقيل لنا : هى حَدّ بين الأمن والخوف فى هذا[7] الطريق لحَرَاميّة الإفرانج ، وهم الحَوَّاسة والقُطّاع ، مَنْ أخذوه وراءها إلى جهة بلاد المسلمين ، ولو بباع أو شبر أُسِر ، ومن أخذ دونها إلى جهة بلاد الإفرنج ولو[8] بقدر ذلك أطلق سبيله ، لهم فى ذلك عهد يوفون به ، وهو من أظرف الارتباطات الإفرنجية وأغربها .

---

(١) ط : ويعود .

(٢) ط : فالله .

(٣) ط : الفرنج .

(٤) ط : ليلة الجمعة .

(٥) إليها : ليست فى ط .

(٦) أى كثيرة الغصون منتشرتها ، أخذها من الدوحة ، وهى الشجرة العظيمة .

(٧) ط : هذه .

(٨) ولو : ليست فى ط .

ذكر مدينة بانِيَاس ، حماها الله[1]

هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين ، وهى صغيرة ، ولها قلعة يستدير بها نهر تحت السور[2] ، ويفضى إلى أحد أبواب المدينة ، وله مَصَبّ تحت[3] أرحاء . وكانت بيد الإفرنج ، فاسترجعها نور الدين رحمه الله . ولها محرث واسع فى بطحاء متصلة ، يشرف عليها حصن للإفرنج ، يسمى « هُونِين » ، بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ . وعِمَالة تلك البطحاء بين الإفرنج وبين المسلمين ، ولهم[4] فى ذلك حدّ يعرف بحدّ المُقَاسَمة ، فهم يتشاطرون الغلة على استواء ، ومواشيهم مختلطة ، ولا حَيْفَ يجرى بينهم فى ذلك[5] . فرحلنا عنها عشى يوم السبت المذكور ، إلى قرية تعرف « بالممسينة »[6] بمقربة من حصن الإفرنج المذكور . فكان مبيتنا بها ، ثم رحلنا منها سحر يوم الأحد[7] ، واجتزنا فى طريقنا بين هُونِين وتِبْنِين بواد ملتف الشجر ، وأكثر شجره الرَّنْد ، بعيد العمق كأنه الخندق السَّحِيق المَهْوى ، تكاد[8] تلتقى حافاته[9] ، ويتعلّق بالسماء أعلاه يعرف « بالاصطبل »[10] لو ولجته العساكر لغابت فيه ، لا منجى ولا مجال لسالكه عن يد الطالب فيه ، المَهْبَط

---

(١) ط : الله تعالى .

(٢) ط : بها تحت السور نهر .

(٣) ص : تحته .

(٤) ط : لهم .

(٥) ط : بينهم فيها .

(٦) ط : بالمسية . وليست فى المراجع الأخرى .

(٧) ط : يوم الأحد سحرا .

(٨) تكاد : ليست فى ط .

(٩) ط : حافتاه .

(١٠) ط : بالاسطبل . وهما سواء .

إليه والمَطْلَع عنه عقبتان كئودان ، فعجبنا من أمر ذلك المكان . فأجزناه ومشينا [عنه] يسيرا ، وانتهينا إلى حصن كبير من حصون الإفرنج يعرف « بِتبْنِين » وهو[١] موضع تمكيس القوافل ، وصاحبته خنزيرة تعرف بالملكة ، وهى[٢] أمّ الملك الخنزير صاحب عكّا[٣] ، دمّرها الله . فكان مبيتنا أسفل ذلك الحصن ، ومُكّس الناس تمكيسا غير مستقصى ، والضريبة فيه دينار وقيراط ، من الدنانير الصُّورية على الرأس . ولا اعتراض على التجّار فيه ، لأنهم يقصدون موضع الملك الملعون ، وهو محلّ التعشير ، والضريبة فيه قيراط من الدينار ، والدينار أربعة وعشرون قيراطا .

وأكثر المُعتَرضين فى هذا المكس المغاربة ولا اعتراض على سواهم[٤] من جميع بلاد المسلمين ، وذلك لمقدِّمة منهم أحفظت الإفرنج عليهم ، سببها أن طائفة من أنجادهم غزَتْ مع نور الدين رحمه الله أحدَ الحصون ، فكان لهم فى أخذه غنًى ظهر واشتهر ، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المَكْسيّة ، ألزموها رءوسهم ، فكلُّ مغربى يزن على رأسه الدينار المذكور فى اختلافه على بلادهم . وقال الإفرنج : إن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم ولا نَرْزَأهم شيئا ، فلما تعرضوا لحربنا ، وتألّبوا مع إخوانهم المسلمين علينا ، وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم . فللمغاربة فى أداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل فى نكايتهم العدو ، يهونه[٥] عليهم ، ويخفّف عنته عنهم[٦] .

---

(١) ص : هو .
(٢) ص : هى .
(٣) ط : عكة .
(٤) ط : غيرهم .
(٥) ط : يسهله .
(٦) خـ ، ط : عنتهم عنهم .

ثم رحلنا[١] من تبنين دمّرها الله ، سحر يوم الاثنين ، وطريقنا كله على ضياع متصلة ، وعمائر منتظمة ، سكانها كلها مسلمون[٢] ، وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه ، نعوذ بالله من الفتنة ، وذلك أنهم يؤدون لهم ثلث[٣] الغلة عند أوان ضمها ، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ، ولا يعترضونهم فى غير ذلك . ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضا . ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم مسلَّمة[٤] لهم . وكل ما بأيدى الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل ، رَسَاتيقُهم[٥] كلها للمسلمين وهى القرى والضياع ، وقد أُشْرِبت الفتنةَ قلوبُ أكثرهم ، لما يبصرون عليه إخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالتهم[٦] ، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق . وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين : أن يشتكى الصنف الإسلامىّ جورَ[٧] صنفه المالك له ، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الإفرنج ، ويأنس إلى عدله[٨] ، فإلى الله المُشْتكَى من هذه الحال ، وحسبُنا تعزيةً وتسليةً ما جاء فى الكتاب العزيز : ﴿ إنْ هِىَ إلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِى مَنْ تَشَاءُ ﴾[٩] .

فنزلنا يوم الاثنين المذكور بضيعة من ضياع عكا[١٠] ، على مقدار فرسخ منها[١١] ، ورئيسها الناظر فيها من المسلمين ، مقدَّم من جهة الإفرنج على من

---

(١) ط : ورحلنا .
(٢) ص : المسلمون .
(٣) ص : نصف .
(٤) ط : متروكة .
(٥) ر : رساتيقها .
(٦) ط : وعمالهم .
(٧) ص : بجوار . تحريف .
(٨) ط : بعد له .
(٩) سورة الأعراف ، الآية ١٥٥ .
(١٠) ط : عكة . وكذلك فيما يلى .
(١١) منها : ليست فى ط .

فيها من عُمَّارها [من] المسلمين . فأضاف جميع أهل القافلة ضيافةً حفيلة ، وأحضرهم صغيرا وكبيرا فى غرفة متسعة بمنزله وأعد لهم[١] ألوانا من الطعام قدمها لهم ، فعمّهم بتكرمته . وكنا فيمن حضر هذه الدعوة .

وبتنا تلك الليلة بها ثم أصبحنا[٢] يوم الثلاثاء العاشر من الشهر المذكور ، وهو الثامن عشر لشتنبر مدينة عكا دمّرها الله . وحُمِلنا إلى الديوان ، وهو خان مُعَدّ لنزول القوافل[٣] ، وأمام بابه مصاطب مفروشة ، فيها كُتّاب الديوان من النصارى بمحابر الآبنوس المذهبة الحلى ، وهم يكتبون بالعربية ، ويتكلمون بها ، ورئيسهم صاحب الديوان والضامن له يعرف بالصاحب ، لقب وقع عليه لمكانه من هذه الخُطّة[٤] ، وهم يَعْرِفون به كل مُحتشِم متعيِّن عندهم من غير الجند . وكل ما يُجبى عندهم راجع إلى الضُّمَّان ، وضمان هذا الديوان بمال عظيم . فأنزل التجار رحالهم به ، ونزلوا فى أعلاه ، وطُلِب رَحْلُ مَنْ لا سلعة له[٥] ، لئلا يحتوى [على] سلعة مخبوءة فيه ، وأطلق سبيله ، ينزل[٦] حيث شاء . وكل ذلك برفق وتؤدة ، دون تعنيف ولا حمل . فنزلنا بها فى بيت اكتريناه من نصرانيّة بإزاء البحر ، وسألنا الله تعالى حسن الخلاص ، وتيسير السلامة .

---

(١) ط : وأناملهم .
(٢) ط : الليلة وأصبحنا .
(٣) ط : القافلة .
(٤) ص : وضع عليه . ط : من الخطة .
(٥) خـ : رجل . ص : لا تجارة له .
(٦) ط : فنزل .

ذكر مدينة عَكّا ، دمرها الله[1]

هى قاعدة مدن الإفرنج بالشام ، ومحطّ الجَوَارِى المُنْشَئات فى البحر كالأعلام[2] ، مَرْفأ[3] كلّ سفينة ، والمشبَّهة فى عظمها واحتفالها[4] بالقسطنطينية ، مجتمع السفن والرفاق ، وملتقَى تجار النصارى والمسلمين[5] من جميع الآفاق ، سككها وشوارعها تغص بالزحام ، وتضيق فيها مواطئ[6] الأقدام ، تَسْتعِر كفرا وطغيانا ، وتفور خنازير وصلبانا ، زَفِرة قَذِرة ، مملوءة كلها رِجْسا وعَذِره . انتزعها الإفرنج من أيدى المسلمين فى العشر الأول من المئة السادسة ، فبكى لها الإسلام ملء جفونه ، وكانت أحد[7] شجونه . فعادت مساجدها كنائس ، وصوامعُها مَضاربَ للنواقيس . وطهّر الله من مسجدها الجامع بقعة بقيت بأيدى المسلمين مسجدا صغيرا ، يجتمع الغرباء منهم فيه لإقامة فريضة الصلاة . وعند محرابه قبر صالح النبى ، صلى الله على نبينا الكريم[8] وعليه وسلم وعلى جميع الأنبياء ، فحرس الله هذه البقعة من رجس الكفرة ، ببركة هذا القبر المقدس .

وفى شرقى البلدة العين ، المعروفة بعين البقر ، وهى التى أخرج الله منها البقر لآدم ﷺ . والمهبط إلى هذه[9] العين على أدراج وَطِيّة ، وعليها مسجد

---

(١) ط : الله وأعادها .

(٢) انظر سورة الرحمن ، الآية ٢٤ .

(٣) مرفأ : ميناء .

(٤) واحتفالها : ليست فى ط .

(٥) ط : المسلمين والنصارى .

(٦) خـ : مواطن .

(٧) ص ، خـ : إحدى .

(٨) على نبينا الكريم : ليست فى ط .

(٩) ط : لهذه .

بقى محرابه على حاله ، ووضع الإفرنج فى شرقيّه محرابا لهم . فالمسلم والكافر يجتمعان فيه ، يستقبل هذا مصلاه ، وهذا مصلاه . وهو بأيدى النصارى معظّم محفوظ ، وأبقى الله فيه موضع الصلاة للمسلمين .

فكان مقامنا بها يومين ، ثم توجهنا إلى صُور يَوْم الخميس الثانى عشر لجمادى المذكور ، الموفى[١] عشرين لشتنبر المذكور على البر . واجتزنا فى طريقنا على حصن كبير ، يعرف « بالزاب »[٢] ، وعلى[٣] قرى وعمائر متصلة ، وعلى قرية كبيرة[٤] مسوّرة تعرف « باسْكَنْدَرية »[٥] ، وذلك لمطالعة مركب بها ، أُعْلمنا أنه يتوجه إلى بِجَاية ، طمعا فى الركوب فيه . فحللناها عشى يوم الخميس المذكور ، لأن المسافة بين المدينتين[٦] نحو الثلاثين ميلا ، فنزلنا بها فى خان مُعَدّ لنزول المسلمين .

ذكر مدينة صُور ، دمرها الله[٧]

مدينة يُضرَب بها المثل فى الحصانة ، لا تُلْقِى لطالبها بيد طاعة[٨] ولا استكانة ، قد أعدها الإفرنج مفْزَعا لحادثة زمانهم ، وجعلوها مثَابة لأمانهم ، هى أنظف من عكا سككا وشوارع ، وأهلها ألْيَن[٩] فى الكفر طبائع ،

---

(١) ط : والموفى .

(٢) كذا فى الأصول . والذى عند ياقوت « الزيب » بفتح الزاى . فلعل المؤلف كتبه كذلك ، لأن الأندلسيين كانوا يميلون الألف نحو الياء ، فظنه ألفا ممالة .

(٣) ط : بالزاب وهى مطلة على .

(٤) كبيرة : ليست فى ط .

(٥) ط : باسكندرونة .

(٦) ص : المدينة . تحريف .

(٧) ط : الله تعالى .

(٨) خـ : يد .

(٩) ص : ألن .

وأَجْرَى إلى بر غرباء المسلمين شمائل ومنازع ، فخلائقهم أَسْجَحُ[١] ومساكنهم[٢] أوسع وأفسح ، وأحوال المسلمين بها أهون[٣] وأسكن ، وعكا أكبر وأطغى وأكفر . وأما حصانتها ومنعتها[٤] فأعجب ما يُحدّث به ، وذلك أنها راجعة لبابين[٥] : أحدهما فى البر ، والثانى[٦] فى البحر ، وهو[٧] يحيط بها إلا من جهة واحدة فالذى فى البر يُفْضَى إليه ، بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة ، كلها فى ستائر[٨] مشيدة محيطة بالباب . وأما الذى فى البحر ، فهو مدخل[٩] بين برجين مشيدين إلى ميناء[١٠] ، ليس فى البلاد البحرية أعجب وضعا منها ، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ، ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص . فالسفن تدخل تحت السور وترسى بها[١١] ، وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة[١٢] تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج ، فلا مجال للمراكب إلا عند إزالتها . وعلى ذلك الباب حُراس وأمناء ، لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج إلا على أعينهم . فشأن هذه الميناء شأن عجيب فى حسن الوضع ، ولعكا مثلها فى الوضع والصفة ، لكنها لا تحمل السفن الكبار حملَ تلك ، وإنما ترسى خارجها ، والمراكب الصغار تدخل إليها ، فالصُّورية أكمل وأجمل وأحفل .

---

(١) أسجع : ألين وأسهل .
(٢) ط : ومنازلهم .
(٣) ص : أهد لله .
(٤) خـ : وسعتها . خـ ، ش ٢ : ٩٩ : ومناعتها .
(٥) ط : إلى بابين .
(٦) ط : والآخر .
(٧) ش : والبحر .
(٨) ص : مساير .
(٩) ش : يدخل إليه .
(١٠) ش : إلى مرسى له .
(١١) ط : فيها .
(١٢) ش : عظيمة معقودة .

فكان مقامنا بها أحد عشر يوما ، دخلناها يوم الخميس ، وخرجنا منها يوم الأحد الثانى[1] والعشرين لجمادى المذكورة ، وهو آخر يوم من شتنبر ، وذلك أن المركب الذى كنا أملنا الركوب فيه استصغرناه ، فلم نَرَ الركوب فيه .

[زفاف فى صُور]

ومن مشاهد زَخارف الدنيا المحدَّث بها ، زفاف عَرُوس شاهدناه بصُور فى أحد الأيام عند مينائها . وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالا ونساء ، واصطفوا سِمَاطَيْن عند باب العروس المُهْداة ، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللَّهْويّة ، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال ، كأنهما من ذوى أرحامها ، وهى فى أَبْهَى زىّ ، وأفخر لباس[2] ، تسحب أذيال الحرير المذهب سحبا على الهيئة المعهودة من لباسهم ، وعلى رأسها عصابة ذهب ، قد حُفّت بشبكة ذهب منسوجة ، وعلى لَبّتها مثل ذلك منظم بالجوهر[3] ، وهى رافلة فى الحلى الرائقة[4] ، تمشى فِتْرا فى فتر ، مشىَ الحمامة أو سير الغمامة ، نعوذ بالله من فتنة المناظر . وأمامها جِلّة رجالها من النصارى ، فى أفخر ملابسهم البهية ، تُسْحَب أذيالها خلفهم . ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات ، يتهادَيْن فى أنْفَس الملابس ، ويَرْفُلن فى أرفع[5] الحلى . والآلاتُ اللهوية قد تقدمتهم ، والمسلمون وسائر النصارى من النظّار قد عادوا فى طريقهم سماطين ، يتطلّعون فيهم ولا يُنْكِرون ذلك

---

(١) خـ : الثالث .

(٢) ص : وأفخر ثياب ولباس .

(٣) ط : منتظم وهى .

(٤) ط : فى حليها وحللها .

(٥) ط : أرفل .

عليهم[١] . فساروا بها حتى أدخلوها دارَ بعلها ، وأقاموا يومهم ذلك فى وليمته[٢] . فأدّانا الاتفاق إلى معاينة[٣] هذا المنظر الزُّخْرُفِيّ المستعاذ بالله من الفتنة فيه .

[المسلمون تحت حكم الصليبين]

ثم عُدْنا إلى عكا فى البحر ، وحللناها صبيحةَ يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى المذكورة ، وأول يوم من شهر أكتوبر ، واكترينا فى مركب كبير ، نروم الإقلاع إلى مَسِّينة من بلاد جزيرة صقلية ، والله تعالى كفيل بالتيسير والتسهيل ، بعزته وقدرته[٤] . وكانت راحتنا مدةَ مقامنا بصُور فى مسجد بقى فيها[٥] بأيدى المسلمين . ولهم فيها مسجد آخر[٦] . فأعلمنا به أحد أشياخ أهل صور من المسلمين ، أنها أُخِذت من أيديهم[٧] سنة ثمان عشرة وخمس مئة ، وأخذت عكا قبلها باثنتى عشرة سنة ونحوها[٨] ، بعد محاصرة طويلة ، وبعد استيلاء المَسْغَبة[٩] عليهم ؛ ذُكِر لنا أنهم انتهوا منها إلى حال[١٠] نعوذ بالله منها ، وأنهم حملتْهم الأنفة على أن همّوا بركوب خُطّة عصمهم الله منها ، وذلك أنهم عزموا على أن يجمعوا أهاليهم وأبناءهم فى المسجد الجامع ، ويجيلوا سيوفهم[١١] عليهم ، غيرة من تملك

---

(١) ط : عليهم ذلك .

(٢) ط : وليمة .

(٣) ط : رؤية .

(٤) يلى هذه الكلمة فى خـ ، ص فقرة ، وضعتها : بعد كلمة (مشيئته) ص ٣٩٠ من السطر ٧ إلى السطر ٢ من صفحة ٣٩٠ ، لأن موضعها هناك ، وتبعتها فى ذلك .

(٥) ط : بمسجد بقى بأيدى .

(٦) ط : مساجد أخر .

(٧) ط : منهم .

(٨) أو نحوها : ليست فى ط .

(٩) المسغبة : الجوع .

(١٠) ط : لحال .

(١١) ط : ويحملوا السيف .

النصارى لهم ، ثم خرجوا إلى عدوهم بعزمة نافذة ، ويصدموهم صدمة صادقة حتى يموتوا على دم واحد ، ويقضى الله قضاءه . فمنعهم من ذلك فقهاؤهم والمتورعون منهم ، وأجمعوا على دفع البلد ، والخروج منه بسلام . فكان ذلك ، وتفرقوا فى بلاد المسلمين . ومنهم من استهواه حب الوطن ، فدعاه إلى الرجوع والسكنى بينهم ، بعد أمان كُتِب لهم فى ذلك بشروط اشترطوها ، والله غالب على أمره ، سبحانه جلّت قدرته ، ونفذت فى البرية مشيئته ، وليست لمسلم[1] عند الله تعالى[2] معذرة فى حلول بلدة من بلاد الكفر [إلا] مجتازا ، وهو يجد مندوحة فى بلاد المسلمين ، لمشقّات وأهوال[3] يعاينها فى بلادهم : منها الذلة والمسكنة الذّميَّة ؛ ومنها سماع ما يفجع الأفئدة من ذكر مَنْ قدَّس الله ذكره ، وأعْلى خطَره ، ولا سيما من أراذلهم وسفهائهم[4] ؛ ومنها عدم الطهارة ، والتصرف بين الخنازير ، وجميع المحرّمات ؛ إلى غير ذلك مما لا ينحصر ذكره ولا تعداده ، فالحذَر الحذَر من دخول بلادهم ، والله تعالى المسئول حسنَ الإقالة والمغفرة من هذه الخطيئة ، التى زلت فيها القدم ، ولم تتداركها إلا بعد موافقة[5] الندم ، فهو سبحانه ولىّ ذلك ، لا رب غيره .

ومن الفجائع التى يعاينها من حلّ بلادهم رؤية[6] أسرى المسلمين ، يرسفون فى قيود الحديد[7] ، ويُصرَّفون فى الخدمة الشاقة تصريفَ العبيد ،

---

(١) ط : له .

(٢) تعالى : ليست فى ط .

(٣) خـ : وأهوالها .

(٤) ط : لا سيما من أراذلهم وأسافلهم .

(٥) ص : الموافقة . تحريف .

(٦) رؤية : ليست فى ط .

(٧) ط : القيود .

والأسيرات المسلمات كذلك ، فى أَسْوُقهن(١) خلاخيل الحديد ، فتنفطر لهم الأفئدة ، ولا يُغْنِى الإشفاق عنهم شيئا . ومن جميل صُنْع الله تعالى لأسرى المغاربة ، بهذه البلاد الشامية الإفرنجية ، أن كل من يخرج من ماله وصيةً من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها ، إنما يعيِّنها فى افتكاك المغاربة خاصة ، لبعدهم عن بلادهم ، وأنهم لا مخلِّص لهم سوى [ذلك بعد] الله عز وجل ، فهم الغرباء [المنقطعون عن بلادهم] . فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين ، والخواتين من النساء ، وأهل اليسار والثراء ، إنما ينفقون أموالهم فى هذه السبيل . وقد كان نور الدين رحمه الله نذر فى مَرْضَة أصابتْه تفريق اثنى عشر ألف دينار ، فى فداء أسرى من المغاربة . فلما استبلّ من مرضه ، أرسل فى فدائهم ، فسِيقَ فيهم(٢) نفرٌ ليسوا من المغاربة ، وكانوا من حَمَاة من جملة عِمَالته ، فأمر بصرفهم ، وإخْراج عوض عنهم(٣) من المغاربة ، وقال : « هؤلاء يَفْتَكّهم أهلوهم وجيرانهم ، والمغاربة غرباء لا أهل لهم » . فانظروا(٤) إلى لطيف صنع الله تعالى لهذا الصنف المغربى .

وقيض الله لهم بدمشق رجلين من مياسر التجار ، وكبرائهم ، وأغنيائهم المنغمسين فى الثراء : أحدهما يعرف بنصر بن قوام ، والثانى بأبى الدرّ ياقوت مولى العطّافى ، وتجارتهما كلها بهذا الساحل الإفرنجى ، ولا ذكر فيه لسواهما ، ولهما الأمناء من المُقَارِضين ، والقوافل(٥) صادرة وواردة ببضائعهما(٦) ، وشأنهما فى الغنى كبير ، وقدرهما عند أمراء المسلمين والإفرنجيين خطير ،

---

(١) خـ : أسواقهم كذلك .
(٢) ص : منهم . تحريف .
(٣) ص : منهم .
(٤) ط : فانظر .
(٥) ط : فالقوافل .
(٦) ص : ببضائعهم .

وقد نصبهما الله عز وجل لافتكاك الأسرى المغربيين بأموالهما ، وأموال ذوى الوصايا ، لأنهما المقصودان بها ، لما قد اشتهر من أمانتهما ، وثقتهما ، وبذلهما أموالهما فى هذه السبيل . فلا يكاد مغربى يُخَلَّص من الأسر إلا على أيديهما ، فهما طولَ الدهر على هذه[1] السبيل ينفقان[2] أموالهما ، ويبذلان اجتهادهما فى تخليص عباد الله المسلمين ، من أيدى أعداء الله الكافرين ، والله تعالى لا يضيع أجر المحسنين .

ومن سوء الاتفاقات ، المستعاذ بالله منها[3] ، أنه صَحِبَنا فى طريقنا إلى عكا من دمشق رجل مغربى من « بُونَة » عملِ « بِجَاية » ، كان أسيرا فتخلّص على يدى أبى الدر المذكور ، وبقى فى جملة صبيانه ، فوصل فى قافلته إلى عكا ، وكان قد صحب النصارى وتخلّق بكثير من أخلاقهم . فما زال الشيطان يستهويه ويغريه ، إلى أن نبذ دين الإسلام فكفر ، وتنصّر مدّة كوننا[4] بصور . فانصرفنا إلى عكا ، وأُعْلِمنا بخبره ، وهو بها قد بُطِسَ[5] ورُجِس ، وقد عقد الزُّنّار ، واستعجل النار ، وحقت عليه كلمة العذاب ، وتأهّب لسوء الحساب ، وسَحِيق المآب ، نسأل الله عز وجل أن يثبتنا بالقول الثابت فى الدنيا والآخرة ، ولا يعدل بنا عن الملة الحنيفية ، وأن يتوفانا مسلمين ، بفضله ورحمته .

وهذا الخنزير صاحب عكا ، المسمّى عندهم بالملك ، محجوب لا يظهر

---

(١) ط : بهذه .

(٢) جعلت ص كل الضمائر العائدة إليهما للجمع .

(٣) ط : من شرها .

(٤) ط : مقامنا .

(٥) بطس : عمد نصرانيا ، معربة فى الغالب من كلمة baptize .

مبتلى بعلة الْجُذَام ، معجل[1] له سوء الانتقام ، قد شغلته[2] بلواه فى صباه ، عن نعيم دنياه ، فهو فيها يشقى ، ولَعَذابُ الآخرة أشدُّ وأبقَى[3] . وحاجبه وصاحب الحال عوضَه خاله القُومِس ، وهو صاحب المَجْبَى ، وإليه ترفَع[4] الأموال ، والمُشْرِف على الجميع بالمكانة ، والوجاهة ، وكبر الشأن فى الإفرنجية اللعينة ، القُومِس اللعين ، صاحب طَرَابُلُس وطَبَرِيّة ، وهو ذو قدر ومنزلة عند الإفرنجيين[5] ، وهو المؤهَّل للملك والمرشَّح له ، وهو موصوف بالدهاء والمكر . وكان أسيرا عند نور الدين رحمه الله[6] ، نحو اثنتى عشرة سنة أو أزيد ، ثم تخلّص بمال عظيم بذل[7] فى نفسه مدةَ صلاح الدين ، وعند [أول] ولايته ، وهو معترف لصلاح الدين بالعبودية والعتق .

وعلى بلدته[8] طبرية اختلاف قوافل الجمال[9] من دمشق ، لسهولة طريقها . ويُقْصَد بقوافل البغال على تِبْنِين[10] لوعورتها وقصد طريقها . وبحيرة طبرية مشهورة ، وهى ماء عذب ، وسعتُها نحو ثلاثة فراسخ أو أربعة ، وطولها نحو ستة فراسخ . والأقوال فيها تختلف ، وهذا القول أقربها إلى الصحة ، لأنا لم نعاينها ، وعرضها أيضا مختلف سعة وضيقا . وفيها قبور كثيرة ، من [قبور] الأنبياء[11] كشُعيب ، وسليمان ، ويهوذا ، ورُوبِيل ،

---

(١) ط : قد ابتلاه الله بالجذام فعجل . (٢) ص : شغله .
(٣) سورة طه ، الآية ١٢٧ . (٤) ط : ترتفع .
(٥) ط : الإفرنج . (٦) رحمه الله : ليست فى ط .
(٧) ر : بذله . (٨) ط : بادية .
(٩) ط : القوافل من . (١٠) ص : تنيس . خـ : نتين .
(١١) ط : الأنبياء صلوات الله عليهم .

وابنة شعيب زوج الكليم موسى ، وغيرهم صلوات الله[1] عليهم أجمعين .
وجبل الطُّور منها قريب . وبين عكة وبيت المقدس ثلاثة أيام . وبين دمشق وبينه مقدار ثمانية أيام ، وهو بين الغرب[2] والقبلة من عكة إلى جهة الإسكندرية ، والله يعيده إلى أيدى المسلمين ، ويطهّره من أيدى المشركين ، بعزته وقدرته .

وهاتان المدينتان ، عكا وصور ، لا بساتين حولهما ، وإنما هما فى بسيط من الأرض [أفيح] ، متصل بسِيف البحر ، والفواكه تجلب إليهما من بساتينهما التى بالقرب منهما ، ولهما عِمَالة متسعة . والجبال التى تقرب منهما معمورة بالضياع ، ومنها تُجْبَى[3] الثمرات إليهما . وهما من غُرّ البلاد .
ولعكا فى الشرق منها ، مع آخر البلد ، واد يسيل ماء . ولها مع شاطئه ، مما يتصل بالبحر بسيط رمل لم يُرَ أجمل فسحة منه[4] ، ولا ميدان للخيل يشبهه ، وإليه ركوب صاحب البلد بكرة[5] وعشية ، وبه مجتمع العسكرية[6] ، دمّره الله . ولصور عند بابها البرّى عين معينة ، يُنْحَدر إليها على أدراج .
والآبار والجباب بها كثيرة لا تخلو دار منها[7] ، والله تعالى يعيد إليها وإلى أخواتها كلمة الإسلام ، بمنه وكرمه .

[ركوب البحر]

وفى يوم السبت الثامن[8] والعشرين لجمادى المذكورة ، والسادس من

---

(١) ط : الله وسلامه .
(٢) ط : المغرب .
(٣) ش : تجىء .
(٤) ط : أجمل منه منظرا .
(٥) ط : كل بكرة .
(٦) ط : يجتمع العسكر .
(٧) زادت ش : وبها كانت دار الصنعة ، ومنها تخرج مراكب المسلمين .
(٨) ص ، خـ : التاسع .

شهر أكتوبر[١] ، صعدنا إلى المركب ، وهو سفينة من السفن الكبار ، بمنة الله على المسلمين بالماء والزاد ، وحاز المسلمون مواضعهم بانفراد عن الإفرنج . وصعده من النصارى المعروفين بالبُلْغَرِيّين ، وهم حجّاج بيت المقدس ، عالمٌ لا يحصى كثرة[٢] ، ينتهي إلى أزيد من ألفي إنسان ، أراح الله من صحبتهم بعاجل السلامة ، ومأمول التسهيل والصنع الجميل ، بمنه وكرمه لا معبود سواه . ونحن به منتظرون موافقة الريح ، وكمال الوسق ، بمشيئة الله عز وجل .

شهر رجب الفرد ، عرّفنا الله بركته ويُمْنه

استهل هلاله ليلة الثلاثاء ، بموافقة التاسع لشهر أكتوبر ، ونحن على ظهر المركب بمُرْسى عَكّا منتظرون[٣] كمال وَسْقه ، والإقلاع باسم الله تعالى ، وبركته ، وجميل صنعه ، وكريم مشيئته والله المستعان[٤] . وتمادى مقامنا فيه مدة اثني عشر يوما ، لعدم استقامة الريح .

وفي مهب الريح بهذه الجهات سر عجيب ، وذلك أن الريح الشرقية لا تهبّ فيها إلا في فصلَي[٥] الربيع والخريف ، والسفر لا يكون إلا فيهما ، والتجّار لا ينزلون إلى عكا بالبضائع إلا في هذين الفصلين . والسفر في الفصل الربيعي من نصف أبريل ، وفيه تتحرّك الريح الشرقية ، وتطول[٦]

---

(١) ط : والسادس لأكتوبر .
(٢) كثرة : ليست في ط .
(٣) ص : منتظرين .
(٤) والله المستعان : ليست في ط .
(٥) ص : فصلين . خطأ .
(٦) ص : وتطاول .

مدتها إلى آخر شهر مايه ، وأكثر وأقل ، بحسب ما يقضى الله تعالى به . والسفر فى الفصل الخريفى من نصف أكتوبر ، وفيه تتحرّك الريح الشرقية[١] ، ومدّتها أقصر من مدة[٢] الربيعية ، وإنما هى عندهم خُلْسَة من الزمان ، قد تكون خمسة عشر يوما ، وأكثر وأقل . وما سوى ذلك من الزمان ، فالرياح فيه تختلف ، والريح الغربية أكثرها دواما . فالمسافرون إلى المغرب ، وإلى صقلية ، وسائر بلاد[٣] الروم ، ينتظرون هذه الريح الشرقية فى هذين الفصلين ، انتظارَ وعد صادق ، فسبحان المُبِدع فى حكمته ، [المعجز فى] قدرته[٤] ، لا إلٰه سواه .

وكنا طولَ هذه المدة ، التى أقمنا فيها على ظهر المركب ، نبيت فى البرّ ، ونتفقّد المركب فى الأحيان . فلما كان سحر يوم الخميس العاشر لرجب المذكور ، والثامن عشر لأكتوبر ، أقلع المركب ، وكُنّا على عادتنا فى البر بائتين ، ولم نحس فى النهار[٥] للروم بأهبة السفر ، فضيعنا الحزم ، ونسينا المثل المضروب فى إعداد الماء والزاد[٦] ، وأن لا يفارق المرء[٧] رحله . فأصبحنا والمركب لا عين له ولا أثر فاكترينا للحين زورقا [كبيرا] ، له أربعة مجاذيف ، وأقلعنا نتبعه . وكانت مخاطرة عصم الله من عاقبتها[٨] . فأدركنا المركب مع العشى ، فحمدنا الله عز وجل على ما من به . وكان [أولُ]

---

(١) زادت خـ : فى هذين الفصلين . (٢) ط : المدة .

(٣) ط : وإلى بلاد . (٤) ص : وقدرته .

(٥) ط : ولم يحسن النهار . تحريف . (٦) ص : الزاد والمزاد . ويريد المثل القائل : أن ترد الماء بماء أكيس .

(٧) ط : الإنسان .

(٨) ط : منها .

ذلك اليوم يوم شِدّتنا فى هذا السفر الطويل ، وآخرُه والحمد لله يوم فَرَجِنا[١] ، ولله الحمد والشكر على كل حال .

واتصل جرينا ، والريح الموافقة تأخذ وتدع نحو خمسة أيام . ثم هبت علينا الريح الغربية من مَكْمنها ، دافعة فى وجه المركب . فأخذ رئيسه ومُدبِّره الرومى الجَنَوى ، وكان بصيرا[٢] بصنعته ، حاذقا فى شغل الرياسة البحرية ، يراوغها تارة يمينا ، وتارة يسارا[٣] ، طمعا أن لا يرجع على عقبه ، والبحر فى أثناء ذلك رَهْو[٤] ساكن . فلما كان نصف الليل ، أو قريب منه ، ليلة السبت التاسع عشر لرجب[٥] المذكور ، والسابع والعشرين لأكتوبر ، تردّدت[٦] علينا الريح الغربية ، فقصفت قريّةَ الصارى المعروف بالأردمون ، وألقت نصفَها فى البحر مع ما اتصل بها من الشراع ، وعصم الله من وقوعها فى المركب ، لأنها كانت تشبه الصوارى عظما وضخامة . فتبادر البحريون إليها ، وحُطّ شراع الصارى الكبير ، وعُطِّل المركب من جَرْيه ، وصِيحَ بالبحريين الملازمين[٧] للعُشاريّ المرتبط بالمركب . فقصدوا إلى نصف الخشبة الواقعة فى البحر ، وأخرجوها مع الشراع المرتبط بها . وحصلنا فى أمر لا يعلمه إلا الله عز وجل[٨] . وشرعوا فى رفع شراع الصارى الكبير[٩] ، وأقاموا فى الأردمون شراعا يعرف بالدّلون ، وبتنا بليلة شهباء ، إلى أن وَضَح

---

(١) ص : ويوم . خـ : فرحنا .

(٢) ص : مدبرا .

(٣) ط : شمالا .

(٤) ر هو : ساكن . وفى خـ : وهو .

(٥) ص : لربيع . تحريف .

(٦) ص ، خـ : تردت .

(٧) ص : اللازمين .

(٨) ط : تعالى .

(٩) ط : الشراع الكبير .

الصباح ، وقد منّ الله عز وجل بالسلامة . وشرع البحريون فى إصْلاح قُريّة أخرى ، من خشبة كانت مُعَدّة عندهم ، والريح الغربية على أوّل لَجَاجها ، ونحن بين اليأس والرجاء نتردد ، مُغلِّبين حسن الثقة بجميل صنع الله تبارك وتعالى ، وحَفيّ[١] لِطفه ، ومعهود فضله ، فهو ـــ سبحانه ـــ أهل[٢] ذلك ، جلت قدرته ، وتناهت عظمته ، لا إلٰه سواه .

وفى يوم الأربعاء الثالث والعشرين منه ، تحرّكت الريح الشرقية نسيما فاترا عليلا . فاستبشرت النفوس بها رجاء فى نمائها وقوتها ، فكانت نَفَسا خافتا ، ثم بعد ذلك غَشّى البحرَ ضبابٌ رقيق ، سكنت له أمواجُه ، فعاد كأنه صَرْحٌ مُمَرَّدٌ من قَوَارِير[٣] ، ولم يبق للجهات الأربع نَفَس يتنسّم فبقينا لاعبين على صفحة ماء ، تخاله العين سَبيكة لُجَين ، كأنا نجول بين سماءين . وهذا[٤] الهواء الذى يسميه البحريون الغَلِينى . وفى ليلة الخميس الرابع والعشرين لرجب المذكور ، وهو أول يوم من نونبر العجمى ، كان للنصارى عيد مذكور عندهم ، احتفلوا فيه فى إسراج الشمع . فكاد[٥] لا يخلو أحد منهم صغيرا أو كبيرا ، ذكرا أو أنثى ، من شمعة فى يده ، وتقدم قسيسوهم فى المركب[٦] للصلاة بهم ، ثم قاموا واحدا واحدا لوعظهم ، وتذكيرهم بشرائع دينهم ، والمركب يزهر كله أعلاه وأسفله سُرُجا متقدة ، وتمادوا[٧] على تلك الحالة أكثر تلك الليلة . ثم أصبحنا بمثل[٨] ذلك الهواء

---

(١) ط : الله تعالى . خ : وخفى . (٢) ط : فضله سبحانه هو أهل .

(٣) سورة النمل : الآية ٤٤ . والممرد : المصقول . (٤) ص : وهو . تحريف .

(٥) ط : وكاد .

(٦) ط : قسيسوهم للصلاة فى المركب بهم .

(٧) ط : وتمادينا . (٨) ص : لمثل .

الساكن ، واتصل بنا ذلك إلى ليلة الأحد السابع[1] والعشرين منه ، فتحركت ريح شماليّة ، فعاد المركب بها لجريه[2] ، واستبشرت النفوس بها[3] والحمد لله .

شهر شعبان المكرّم ، عرّفنا الله خيره ويمنه[4]

غُمّ هلاله علينا ، فأكملنا عدة أيام رجب ، فهو على الكمال من ليلة الخميس ، بموافقة الثامن من نونبر ، وقد تقدم[5] لنا على ظهر البحر ، من يوم إقلاعنا من عكا ، اثنان وعشرون يوما ، حتى عَدِمنا الأنس ، واستشعرنا القَنَط واليأس ، وصُنْع الله عز وجل مأمول ، ولطفه الحَفِيّ[6] بنا كفيل ، بمنه وكرمه . وقلّ الزاد بأيدى الناس ، لكن هم من هذا المركب ، يَمَّنه[7] الله ، فى مدينة جامعة المرافق[8] ، فكل ما يُحتَاج شراؤه يوجد من خبز ، وماء ، ومن جميع الفواكه والأُدُم كالرّمان ، والتفاح[9] ، والسفرجل ، والبطّيخ السّندى ، والكمثرى ، والشاه بلّوط ، والجوز ، والسكر[10] ، والحمّص ، والباقِلّاءِ نيًّا ومطبوخا ، والبصل ، والثوم ، والجبن ، والتين[11] ، والحوت ، وغير ذلك مما يطول ذكره ؛ عاينّا جميع ذلك يُباع . وفى خلال هذه الأيام

---

(١) خـ : التاسع .

(٢) ط : لجريته .

(٣) بها : ليست فى ط .

(٤) ويمنه : ليست فى ط .

(٥) ط : تم .

(٦) ص ، خـ : الخفى .

(٧) ط : يمنة .

(٨) ط : للمرافق .

(٩) والتفاح : ليست فى ط .

(١٠) والسكر : ليست فى ط .

(١١) ط : والتين والجبن .

كلها لم يظهر لنا برّ ، والله يأتى بالفرج القريب . ومات فيه رجلان [من المسلمين] رحمهما الله فقُذِفا فى البحر ، ومَن البلغريّين اثنان أيضا . ومات منهم بعد ذلك خلق كثير ، وسقط منهم فى البحر[١] واحد حيا ، فاحتملتْه الموج أسرعَ من خطفة البارق . وورث هؤلاء الأمواتَ ، من المسلمين والنصارى [البلغريّين] ، رئيسُ المركب ، لأنها سنــة[٢] عندهــم فى كل من يموت فى البحر ، ولا سبيل لوارث الميت إلى ميراثه . فطال عجبنا من ذلك .

وفى سحر يوم الثلاثاء السادس من الشهر المؤرخ ، والثالث عشر من نونبر ، ظهرت لنا جبال فى البحر ، وقد اشتدّت بنا[٣] الريح الغربية ، وتوالى إعصارها ، وكانت تتقلّب بين القبول[٤] والدَّبُور . فألجأتْنا إلى أحد تلك الجبال ، فأرسينا عنده . وسألنا عن الموضع ، فأُعلِمنا أنه من جزائر الرمّانية . وهذه الجزائر نيف على الثلاث المئة والخمسين[٥] جزيرة ، وهى إلى عمل صاحب القسطنطينية ، والروم يحذرون أهلها كحذر المسلمين لهم[٦] ، لأنهم لا صلحَ بينهم . فأقمنا بذلك المرسى يوم الثلاثاء المذكور ، وصدرَ يوم الأربعاء بعده . ونزل من أهل[٧] تلك الجزيرة قوم بايعوا أهل المركب ، بعضَ ساعة من النهار ، فى الخبز واللحم ، بعد أمان أخذوه . ثم أقلعنا يوم الأربعاء المذكور ، وقد تم لنا على ظهر البحر[٨] ثمانية وعشرون يوما ، وظهر لنا يوم

---

(١) ط : واحد فى البحر .
(٢) طريقة : ليست فى ط .
(٣) بنا : ليست فى ط .
(٤) ط : بالقبول . ص : بين الجنوب .
(٥) ط : مئة وخمسين .
(٦) لهم : ليست فى ط .
(٧) أهل : ليست فى ط .
(٨) ط : المركب .

الخميس بعده برّ جزيرة أَقْرِيطش . وهذه الجزيرة أيضا لعمل صاحب القسطنطينية ، وطولها نيّف على الثلاث المئة الميل[١] ، وقد تقدم ذكرها فى تقييد[٢] سفرنا البحرىّ إلى الإسكندرية . فبقينا نجرى بطولها ، وهى منّا على اليمين ، والبحر فى أثناء ذلك كله هائل ، والريح لا توافق ، ونحن ننتظر الفرج من الله عز وجل بصبر جميل ، ونرتقب منه جل جلاله معهودَ التيسير والتسهيل ، بمنه ولطفه .

وفى يوم السبت العاشر لشعبان المذكور ؛ والسابع عشر لنونبر ، انقطع عنا بر الجزيرة المذكورة . ونحن نجرى بريح شمالية موافقة ، فذَئِرت[٣] وعصفت فطار لها المركب بجناحىْ شراعه ، والبحر بها قد جُنّ واستشرى لجاجُه ، وقذفت بالزبد أمواجُه ، فتخال غواربه المتموجة[٤] جبالا مثلجة . ومع تلك الحال[٥] استشعرت النفوس الأنس ، وغلب رجاؤها اليأسَ . وقد كنا مدةَ الستة والعشرين[٦] يوما المذكورة ، التى لم يظهر لنا فيها برّ ، نَرجُم الظنون ، ونغازل المَنُون ، حذرا من نفاد الزاد والماء ، والحصول بين المُهْلِكَيْن الجوع والظماء ، فمن قائل يزعم[٧] : إنا قد مِلْنا فى جَرْيِنا إلى بر المغرب[٨] ، وهو بر إفريقية ، وآخر يزعم : إنا ملنا إلى جهة[٩] الأرض الكبيرة ، بر القسطنطينية وما يليها ، ومنهم من يقول : إلى اللاذقية جهة

---

(١) ط : مئة ميل . (٢) تقييد : ليست فى ط .
(٣) ذئرت : غضبت ، أى هاجت . وفى ص : قد بردت .
(٤) ص : المتوجة . (٥) الحال : ليست فى ط .
(٦) ط : وعشرين . (٧) ط : يقول .
(٨) ص : الغرب . (٩) ط : قد ملنا إلى بر .

الشام ، ومنهم من يقول : إلى دمياط جهة[1] الإسكندرية . وكنّا نحذر أن تُلجئنا الريح إلى إحدى جزائر الرمّانيّة الخالية فنَشْتُو[2] فيها ، أو تضطرّنا الحال إلى المعمور[3] منها . وليس فى هذه الوجوه المتوقّعة كلها وجه فيه حظّ لمختار[4] ، حتى أتى الله بالفرج ، فأذهب[5] الباس والياس ، ومَكَّن فى النفوس الإيناس ، بعد مكابدة الأمرّين ، ومقاساة البَرْحَيْن ، فلله در القائل :

البحـــر صعب المرام مر[6] — لا جُعِلتْ حاجتــى إليــهِ

ألــيس ماءً ونحن طيـــنٌ — فمــا عسى صبرُنــا عليــهِ

ونحن الآن بفضل الله تعالى نتطلّع البشرى ، بظهور جزيرة[7] صقلية ، إن شاء الله .

وفى النصف من ليلة الأحد الحادى عشر منه ، انقلبت الريح غربية ، وكثف[8] النوء من الغرب ، وجاءت الريح عاصفا[9] ، فأخذت بنا جهةَ الشمال . وأصبحنا يوم الأحد المذكور والهول يزيد ، والبحر قد هاج هائجهُ ، ومار مائره[10] ، فرمى بموج كالجبال ، يصدم المركب صدمات يتقلّب لها على عظمه ، تقلُّبَ الغصن فى يد النسيم[11] ، وكان كالسور عُلوّا فيرتفع له الموج ارتفاعا ، يرمى فى وسطه بشآبيب كالوابل المنسكب . فلما

---

(١) ط : بر .

(٢) ص : فنشق .

(٣) ص : المعمورة .

(٤) خـ : لمجتاز .

(٥) ط : وأذهب .

(٦) خـ : صعب المذاق مر . ط : مر المذاق صعب . وانظر المقرى ١ : ٢٣ .

(٧) ط : بر .

(٨) ط : وكشف . تحريف .

(٩) ط : عاصفة .

(١٠) ط : وماج مائجه .

(١١) ط : الغصن الرطيب . وكان .

جنّ الليل اشتدّ تلاطُمه ، وسكّت[1] الآذان غَمَاغمُه ، واستشرى عصوف الريح . فحُطّت الشُّرُع ، واقتُصِر على الـدَّلاَلين الصغـار دون أنْصاف الصوارى . ووقع اليأس من الدنيا ، وودّعنا الحياة بسلام . وجاءنا الموج من كل مكان . وظنّنا أنا قد أُحِيط بنا ، فتلك[2] ليلة تشيب لها [سُود] الذّوائِب ، مذكورة فى ليالى الشَّوائب ، مقدَّمة فى تعداد الحوادث والنوائب ! ونحن منها فى مثل ليل صُول طولا[3] فأصبحنا ولم نَكَدْ . فكان من الاتفاقات المُوحِشة أن أبصرنا [بر] إقريطش عن يسارنا ، وجباله قد قامت أمامنا . وكنا قد خلّفناه عن يميننا ، فأسقطتْنا الريح عن مجرانا ، ونحن نظن أنا قد أجزناه[4] . فسُقِط فى أيدينا ، وخالفنا المجرى المعهود الميمون ، وهو أن نترك إقريطش[5] يمينا ، فى استقبال صقلية . فاستسلمنا للقدر ، وتجرّعنا غُصَص هذا الكدر ، وقلنا :

سيكـــون الـــذى قُضِى سخـــط العبـــدُ أو رَضِى

وفى أثناء ذلك انبسطت[6] الشمس ، ولان البحر قليلا ، وصَمَّمْنا نروم أخذ مرسى فى البر المذكور ، إلى أن يقضى الله قضاءه ، وينفذ حكمه ، ولكل سفر أوان ، وسفر البحر إنما هو فى إبانه ، والمعهود من زمانه ، لا أن يُعْتَسف فى فصول[7] أشهر الشتاء اعتسافنا له ، والأمر لله من قبلُ ومن بعدُ . فالحذر الحذر ، من ركوب [مثل] هذا الخطر ، وإن كان المحذور ، لا يغنى من

---

(١) ط : وصكت . (٢) ط : فيا لها .

(٣) مثل منتزع من قول حندج المرى ، الذى رواه ياقوت فى (صول) :

فى ليـل صول تناهى العرض والطول كأنما صبحـــه فى الليـــل موصول

(٤) ط : جزناه . (٥) ط : أن يكون البر المذكور منا يمينا .

(٦) ص : انبسط . (٧) ص ، خـ : فحول .

المقدور[١] شيئا ، وحسبُنا الله ونعم الوكيل . ثم إن الريح ساعدت عند استقبالنا البرّ بعض مساعدة ، فانصرفنا عنه ، وتركناه يمينا ، وعُدْنا إلى قريب من المجرى المقصود . وجرينا بعض ليلة الثلاثاء الثالث عشر منه ، وقد تم لنا على ظهر البحر[٢] أربعة وثلاثون يوما ، والشُّرُع مُصَلَّبة[٣] ، وهو عندهم أعدلُ جرى ، لأنه لا يكون إلا بالريح التى تتلقى مؤخَّر المركب فى مجراه . وأصبحنا[٤] يوم الثلاثاء المذكور على مثل تلك الحال ، وساعدت الريح ، فسررنا وفرحنا[٥] ، وطلعت علينا مراكبُ قاصدة مقصدنا ، فاستبشرنا بها ، وعلمنا أنّا على مجرى مقصود ، ولله الحمد والشكر على كل حال من الأحوال .

ثم انقلبت الريح غربيّة ، وهبت عاصفا ، فألجأتْنا اضطرارا بعد[٦] أن جزت بنا بعض ليلة الأربعاء ، ويوم الأربعاء[٧] إلى مرسى من مراسى جزائر[٨] الرمانية ، وهو رأس الجزيرة ، ومنه إلى الأرض الكبيرة مجاز فيه نحو اثنى[٩] عشر ميلا . فأصبحنا به يوم الخميس الخامس عشر لشعبان المكرم ، والثانى والعشرين لنونبر ، فحمدنا الله عز وجل على ما منَّ به علينا[١٠] من السلامة . وتوافت بعدنا إلى ذلك المرسى خمسة مراكب ، منها اثنان كانا [قد] أقلعا من [بر] الإسكندرية عن عهد[١١] نحو خمسين يوما ، فأسقطتْهما

(١) ص : الحذر . ط : عن المقدور . (٢) ط : المركَّب .
(٣) يريد مستقيمة ممتلئة بالريح . (٤) ط : فأصبحنا .
(٥) ط : ففرحنا وسررنا . (٦) خـ : بعض . تحريف .
(٧) ص : الثلاثاء . (٨) ص : جزيرة .
(٩) ط : فيه الاثنا . (١٠) علينا : ليست فى ط .
(١١) ط : عن جهد .

الريح . فأقمنا بذلك المرسى أربعة أيام ، وجدّدنا به الماء[١] والزاد ، لأن العمارة كانت منا قريبا . فنزل أهل الجزيرة ، وبايعوا أهل المركب فى الخبز ، واللحم ، والزيت ، وما كان عندهم من الأدم . ولم يكن خبزهم بُرّا خالصا . إنما كان خليطا بالشعير ، وكان يَضْرِب للسواد فتهافت الناس عليه على غَلَائه ، ولم يكن بالرخيص فى سَوْمه ، وشكروا الله على أن[٢] منَّ به عليهم . وفى هذا المرسى كَمُل لنا على ظهر البحر أربعون يوما ، والحمد لله على كل حال . ومدةَ مقامنا بالمرسى لم يفتر عصوف الريح الغربية ، وتمادت أشدَّ ما يكون هبوبها[٣] ، فحمدنا الله تعالى على أن لم تأخذْنا ، ونحن على ظهر البحر جارين[٤] ، والحمد لله وحده[٥] على جميل صنعه .

وأقلعنا من المرسى المذكور يوم الاثنين التاسع عشر لشعبان المذكور ، والسادس والعشرين[٦] لنونبر ، بريح طيّبة موافقة . فاستبشرنا بها ، واستطلعنا جميل صنع الله عز وجل ، ولطيف[٧] قضائه ، لا رب سواه . وتمادى سيرنا إلى يوم الخميس الثانى والعشرين [لشعبان] ، والتاسع والعشرين لنونبر . ثم انقلبت الريح غربية ، وأنشأت سحابة فيها رعد قاصف ، وزجّتْها[٨] ريح عاصف . وتقدّمها برق خاطف ، فأرسلت حاصِبا من البَرَد ، صبّته علينا فى المركب شآبيب مُتدارِكةً ، فارتاعت له النفوس . ثم أسرع انقشاعها ، وانجلى عن الأنفس ارتياعها . وبتنا ليلة الجمعة مبيتَ

---

(١) ط : وجدد الناس . ص : بها .
(٢) ط : ما .
(٣) ط : وعادت .. هبوبا .
(٤) كذا فى كل الأصول . ويجب أن تكون : جارون .
(٥) وحده : ليست فى ط .
(٦) ص : والعشرون . خطأ .
(٧) ط : ولطف .
(٨) ص : وزجاها .

وحشة ، طالعنا[1] بها اليأس من مكمنه . فلما أسفر الصباح ومتع[2] النهار ، أبصرنا بر صقلية لائحا أمامنا . فيا لها بشرى ومسرّة ، لو لم تعذْ حسرة فى كرّة ! فأمسينا ليلة السبت ، وهو أول يوم من دجنبر ، ونحن على أمل من إدراكه فى ثلثها أو منصَفها[3] ، ولكل أجل كتاب وميقات ، وكم أمل تعترض دونه الآفات . فما كان إلا كَلَا ولا ، حتى ضربت فى وجوهنا ريحٌ أنكصتْنا على الأعقاب ، وحالت بين الأبصار والارتقاب . وما زالت تعصف ، حتى كادت تنسف وتقصف ، فحُطّت الشرُع عن صواريها ، واستسلمت النفوس لباريها ، وتُركنا بين السفينة ومُجْريها ، وتتابعت علينا عوارض دِيمَ ، حصلنا منها ومن الليل والبحر فى ثلاث ظُلَم ، وعُباب الموج تتوالى صدماتُه ، وتطير[4] الألباب رجفاتُه . فنبذت نفوسُنا كلَّ أمنية ، وتأهبت للقاء المنية . وقطعنا تلك[5] الليلة البهماء فى مصادمة أهوال ، ومكابدة أوجال ، ومقاساة أحوال ، يا لها من أحوال ! ثم أصبحنا يوم السبت المذكور[6] ليوم عصيب ، أخذ من هول ليلته بأوفر نصيب ، والأمواج والرياح تترامى بنا حيث شاءت ، نحن[7] استسلمنا للقضاء ، وتمسكنا بسبب[8] الرجاء . ثم تداركنا صُنع الله تعالى مع المساء ، ففترت الريح ، ولان متن البحر ، وأسفر وجه الجوّ . وأصبحنا يوم الأحد ثانى دجنبر ، والخامس والعشرين لشعبان ، وقد بُدّل لنا من الخوف الأمان ، وتطلّعت الوجوه كأنها

---

(١) ط : وطالعنا .

(٢) ط : الصبح وطلع .

(٣) ط : على إدراكه فى أقل من ثلثها أو منتصفها .

(٤) ط : وتطفر .

(٥) ط : هذه .

(٦) المذكور : ليست فى ط .

(٧) نحن : ليست فى ط .

(٨) ط : بأسباب .

انتشرت من الأكفان ، وساعدت الريح بعضَ مساعدة . فعُدْنا نطلب من البر أثرا بعد عين ، ونرجم الظن[١] بين مَتَى وأَيْن ، والله عز وجل لطيف بعباده ، وكفيل بمعهود صنعه الجميل ومعتاده ، لا رب سواه .

شهر رمضان المعظم ، عرفنا الله البركة والقبول فيه[٢]

استهلَّ هلاله ليلة الجمعة السابع لشهر دجنبر ، ونحن بإزاء الأرض الكبيرة ، على متن البحر متردِّدين ، وقد منَّ الله علينا بريح شرقية فاترة المهبّ ، سرنا بها سيرا رُوَيدا ، حتى وصلنا هذا الموضع من إزاء الأرض الكبيرة المذكورة وأبصرنا فيها ضياعا وعمارة كثيرة ، أُعْلِمنا أنها من قِلَّوْرِيَة[٣] ، وهى من بلاد صاحب صقلية ، لأنّ بلاده فى الأرض الكبيرة تتصل نحو شهرين . وبهذا الموضع نزل كثير من البلغريّين فائزين بأنفسهم ، لمَسْغبة مسَّت أهل المركب لعدم الزاد ونفاده . وحسبك أنّا كنا نقتصر على مقدار رطل من الخبز اليابس ، نتقسَّمه بين أربعة منا ، نَبُله بيسير من الماء فنتبلّغ به . وكلّ من نزل من البلغريّين باع فضلة زاده ، فترفّق المسلمون بابتياع ما أمكن منه على غلائه ، وانتهى إلى مقدار خبزة بدرهم من الخالص . وما ظنُّك بمدة شهرين على متن البحر[٤] ، فى مسافة ظن الناس أنهم يقطعونها فى عشرة أيام ، أو خمسة عشر يوما الغاية ، فالحازم مَنْ أدخل زاد ثلاثين يوما ، وسائر الناس لعشرين يوما ولخمسة عشر يوما . ومن العجب فى الاتفاقات فى الأسفار

(١) ط : الظنون .

(٢) زادت ط : بمنه وكرمه لا رب غيره .

(٣) هى Calabria .

(٤) ط : فما .. ظهر البحر .

البحرية ، أنّا استطلعنا على ظهر البحر أهلّة ثلاثة أشهر : هلال رجب ، وهلال شعبان ، وهلال رمضان هذا . وفى يوم مستهلّه مع الصباح أبصرنا أمامنا جبل النار ، وهو جبل البركان المشهور بصقلية ، فاستبشرنا بذلك ، والله تعالى يعظم أجورنا على ما كابدناه ، ويختم لنا بأجمل الصنع وأسْناه ، ويُوزِعنا فى كل حال شكرَ ما أولاه ، بمنه وكرمه .

ثم حركتْنا من ذلك الموضع ريح موافقة فلما كان عشى يوم السبت ثانى الشهر المذكور ، اشتدّ هبوبها ، فَزجّت المركب تزجيةً سريعة ، فلم يكن إلا كلا ولا حتى أدّتْنا إلى أول المضيق ، والليل قد جَنَّ . وهذا المضيق ينحصر فيه البحر إلى مقدار ستة أميال ، وأضيقُ موضع فيه ثلاثة أميال ، يعترض من برّ الأرض الكبيرة إلى بر جزيرة صقلية . والبحر بهذا المضيق ينصبّ انصباب السيل العَرِم . ويغلى غَلَيان المِرْجل ، لشدة انحصاره وانضغاطه ، وشَقه صعب على المراكب . فاستمرّ مركبنا فى سيره ، والريح الجنوبيّة تسوقه سوقا عنيفا ، وبرّ الأرض الكبيرة عن يميننا ، وبر صقلية عن يسارنا . فلما كان مع نصف ليلة الأحد الثالث[1] للشهر المبارك ، وقد شارفنا مدينة مَسِّينة من الجزيرة المذكورة ، دهمتنا زعقات البحريّين بأن المركب قد أمالته الريح بقوتها إلى أحد البرين ، وهو ضارب فيه . فأمر رئيسهم بحط الشُّرُع للحِين ، فلم ينحطَّ شراع الصارى المعروف بالأردمون . وعالجوه فلم يقدروا عليه ، لشدة ذهاب الرّيح به . فلما أعياهم مزقه الرائس بالسكين قِطَعا قِطَعا ، طمعا فى توقيفه . وفى أثناء هذه المحاولة سنح[2] المركب بِكَلْكه على البر ، والتقاه بسُكانَيْه وهما رجلاه اللتان يُصرّف بهما . وقامت الصيحة [الهائلة] فى

(١) خـ : الثانى . (٢) ص : مسح .

المركب ، فجاءت الطامة الكبرى ، والصَّدْعة التى لم نُطِقْ لها جبرا ، والقارعة الصماء التى لم تَدَعْ لصابر[١] صبرا ، والْتَدَمَ النصارى التداما ، واستسلم المسلمون لقضاء ربهم استسلاما ، ولم يجدوا إلى[٢] سوى حبل الرجاء استمساكا واعتصاما . وتعاورت[٣] الريح والأمواج صفع المركب ، حتى تكسّرت رجله الواحدة ، فألقى الرائس مِرْسى من مراسيه ، طمعا فى تمسّكه به ، فلم يُغْنِ شيئا ، فقطع حبله وتركه فى البحر . فلما تحققنا أنها هى قُمْنا فشددنا للموت حَيَاز يمنا[٤] . وأمضينا على الصبر الجميل عزائمنا ، وأقمنا نرتقب الصباح أو الحَيْن المتاح ، وقد علا الصياح ، وارتفع الصراخ من أطفال الروم ونسائهم ، وألقى الجميع عن يد الإذعان ، وقد حِيل بين العَيْر والنَّزَوَان[٥] . ونحن قيام نبصر البرّ قريبا ، ونتردد بين أن نلقى بأنفسنا إليه سَبْحَا ، أو نصبر[٦] لعلّ الفرج من الله يطلع صُبْحا . فأحضرنا نية الثبات ، والبحريون قد ضموا العُشاريّ[٧] لإخراج المهم من رجالهم ونسائهم وأسبابهم ، فساروا به إلى البر دفعةً واحدة . ثم لم يطيقوا ردَّه ، وقذفته الأمواج مكسَّرا على وجه البر[٨] . فتمكّن حينئذ اليأس من النفوس . وفى أثناء مكابدة هذه الأحوال أسفر الصبح ، وجاء[٩] نصر الله والفتح . وحققنا

---

(١) ط : لنا . (٢) إلى : ليست فى ط .

(٣) تعاورت : تداولت . وفى خ : تغاورت .

(٤) الحيزوم : الصدر . وشده يدل على التأهب .

(٥) النزوان : الوثوب . وهذا مثل يريد به أن كل فرصة للنجاة قد ضاعت .

(٦) ط : ننتظر . (٧) العشارى : زورق النجاة .

(٨) ط : الموج .. ظهر البر . (٩) ط : فجاء .

النظر ، فإذا(١) بمدينة مَسِّينة أمامنا على أقل من نصف الميل ، وقد حيل بيننا وبينها ، فعجبنا من قدرة الله عز وجل فى تصريف أقداره ، وقلنا : « رُبَّ مجلوب إليه حتفُه فى عتبة داره » . ثم تمكن الشروق ، فجاءتنا الزواريق مغيثة ، ووقعت الصيحة فى المدينة ، فخرج ملك صقلية غليام بنفسه ، فى جملة من رجاله ، متطلعا لتلك الحال . وبادرنا إلى النزول فى الزواريق ، والأمواج لشدتها لا تمكنها الدنو(٢) إلى المركب . فكان نزولنا فيها خاتمة الهول العظيم ، ونجونا إلى البر مَنْجى أبى نصر(٣) عن قَدَر . وتَلِف للناس بعض أسبابهم ، فتَسَلّوا عن الغنيمة بإيابهم .

ومن العجيب(٤) على ما أُخبرنا به ، أن هذا الملك الرومى المذكور أبصر فقراء [من] المسلمين ، يتطلّعون من المركب ، وليس لهم شىء يؤدّونه فى نزولهم ، لأن أصحاب الزواريق أغلوا على الناس فى تخليصهم . فسأل عنهم ، فأُعْلِم بقصتهم . فأمر لهم بمئة رباعىّ من سِكّته ينزلون بها ، وخَلّص جميع المسلمين عن سلام ، « وقِيلَ : الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين »(٥) .

وفرّغ النصارى جميع ما كان لهم فيه ، فأصبح فى اليوم الثانى وقد جعلته الأمواج جذاذا ، ورمت به إلى البر أفلاذا فعاد عبرةً للناظرين ، وآية للمتوسمين . ووقع العجب من سلامتنا منه ، وجددنا شكر الله عز وجل على ما مَنَّ به ، من لطيف صنعه ، وجميل قضائه ، وتخليصه لنا من أن يكون هذا القدر ينفذ علينا ، فى الأرض الكبيرة أو إحدى جزائر الروم المعمورة . فكنا

---

(١) ص : وإذا . (٢) ط : لشدتها لا تمكنها الوصول .

(٣) ورد المثل نفسه عند ابن بسام ، ولم يستطع الوصول إلى أصله .

(٤) ط : العجب . (٥) سورة الزمر ، الآية ٧٥ .

ــ لو سلمنا ــ نُستَعبد للأبد ، والله عز وجل يعيننا على أداء شكر هذه المنة والنعمة ، وما تداركنا به من لحظات الرأفة والرحمة ، إنه على ذلك قدير ، وبعوائد الخير والفضل[1] جدير ، لا إلٰه سواه . ومن جميل[2] صنع الله عز وجل لنا ، ولطفه بنا ، فى هذه الحادثة ، كونُ هذا الملك الرومى حاضرا فيها . لولا[3] ذلك لانتُهِب جميع ما فى المركب انتهابا . وربما كان يُستعبَد [جميع] من فيه من المسلمين ، لأن العادة جرت لهم بذلك . فكان وصول هذا الملك لهذه البلدة[4] ، بسبب أسطوله الذى ينشئه ، رحمة لنا ، والحمد لله على ما منَّ به علينا ، من حسن نظره الكفيل بنا ، لا إلٰه سواه .

ذكر مدينة مَسِّينَة من جزيرة صِقِلّية ، أعادها الله[5]

هذه المدينة مَوْسِم تجار الكفار ، ومَقْصِد جوارى البحر من جميع الأقطار ، كثيرة الأرفاق برخاء الأسعار ، مظلمة الآفاق بالكفر لا يقرّ فيها لمسلم قرار ، مشحونة بعَبَدة الصلبان ، تغصّ بقَاطِنِها ، وتكاد تضيق ذَرْعا بساكنيها ، مملوءة نَتْنا ورجسا ، موحشة لا توجد لغريب أنسا ، أسواقها نافقة حَفِيلة ، وأرزاقها واسعة بإرغاد العيش كفيلة ، لا تزال بها ليلَك ونهارَك فى أمان ، وإن كنتَ غريب الوجه واليد واللسان ، مُستنِدة إلى جبال قد انتظمت حَضيضها وخَنادِيقها ، والبحر يعترض أمامها فى الجهة الجَنوبية منها . ومُرْساها أعجب مراسى البلاد البحرية ، لأن المراكب الكبّار تدنو فيه من

---

(١) ط : الفضل والخير .
(٢) ط : جملة .
(٣) ط : ولولا .
(٤) ط : وكان .. البلاد .

البر حتى تمسّه[١] ، وتُنْصَب منها إلى البر خشبة يُتَصرَّف عليها ، فالحمّال[٢] يصعد بحمله إليها ، ولا يحتاج لزَوَارِيق فى وَسْقها ولا فى تفريغها ، إلا ما كان مَرْسِيًا على البُعْد منها يسيرا . فتراها مصطفَّة مع البر كاصطفاف الجياد فى مرابطها واصطبلاتها ، وذلك لإفراط عمق البحر فيها . وهو زُقَاق معترض بينها وبين الأرض الكبيرة[٣] ، بمقدار ثلاثة أميال . ويقابلها منه بلدة تعرف « بريّة »[٤] ، وهى عِمَالة كبيرة . وهذه البلدة[٥] : مسينة ، رأس جزيرة صقلية ، وهى كثيرة المدن والعَمائر والضياع ، وتَسْمِيتُها تطول . وطول هذه الجزيرة : صقلية ، مسيرة[٦] سبعة أيام ، وعرضها مسيرة خمسة أيام . وبها جبل البُرْكان المشهور ذكره فى الدنيا[٧] ، وهو يأتزر بالسحب لإفراط سموه ، ويتعمم[٨] بالثلج شتاء وصيفا دائما . وخصبُ هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف ، وكفى بأنها ابنة الأندلس فى سَعَة العمارة ، وكثرة الخصب والرَّفاهة ، مشحونة بالأرزاق على اختلافها ، مملوءة بأنواع الفواكه وأصنافها ، لكنها معمورة بعَبَدة الصلبان ، يمشون فى مَنَاكبها ، ويرتعون فى أكنافها . والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم ، قد حسّنوا السِّيرة فى استعمالهم واصطناعهم ، وضربوا عليهم إتاوة فى فصلين من العام يؤدّونها ، وحالوا بينهم وبين سعة فى الأرض كانوا يجدونها ، والله عز وجل يصلح أحوالهم ، ويجعل العُقْبى الجميلة مآلهم ، بمنه . وجبالها كلها بساتين مثمرة

(١) ط : تكاد تمسه . خ : تمسكه . (٢) خ : فالجمال .
(٣) ص : البر الكبير . (٤) هى Reggio .
(٥) ط : المدينة . (٦) مسيرة : ليست فى ط .
(٧) ط : المذكور وهو . (٨) ط : ويعتم .

بالتفاح ، والشاه بلوط ، والبندق ، والإجّاص ، وغيرها من الفواكه .

[الملك غليام والمسلمون فى صقلية]

وليس فى مسينة هذه من المسلمين إلا نفر يسير من ذوى المِهَن ، ولذلك ما يستوحش بها المسلم الغريب . وأحسن مدنها قاعدة ملكها ، والمسلمون يعرفونها بالمدينة ، والنصارى يعرفونها ببَلَرْمة . وفيها سُكْنَى الحَضَرِيِّين من المسلمين ، ولهم فيها المساجد . والأسواق المختصة بهم والأرباض[1] وسائر المسلمين بضياعها ، وجميع قراها ، وسائر مدنها كسَرْقُوسة[2] وغيرها . ولكن المدينة الكبيرة التى هى مسكن ملكها غليام أكبرها وأحفلها ، وبعدها مسينة . وبالمدينة إن شاء الله يكون مقامنا ، ومنها نؤمّل سفرنا إلى حيث يقضى الله عز وجل من بلاد المغرب إن شاء الله .

وشأن ملكهم هذا عجيب فى حسن السيرة ، واستعمال المسلمين ، واتخاذ الفتيان المَجَابِيب . وكلهم أو أكثرهم كاتم إيمانه ، متمسك بشريعة الإسلام . وهو كثير الثقة بالمسلمين ، وساكنٌ إليهم فى أحواله والمهم من أشغاله ، حتى إن الناظر فى مَطْبَخته رجل من المسلمين . وله جملة من العبيد السّود المسلمين ، وعليهم قائد منهم . ووزراؤه وحُجّابه الفتيان ، وله منهم جملة كبيرة ، هم أهل دولته ، والمُرْتَسِمون بخاصته . وعليهم يلوح رونق مملكته ، لأنهم متسعون فى الملابس الفاخرة ، والمراكب الفارهة . وما منهم إلا من له الحاشية والخَوَل والأتباع . ولهذا الملك القصور المشيدة ، والبساتين الأنيقة ، ولا سيما بحضرة ملكه المدينة المذكورة . وله بمسينة قصر

---

(١) ط : بهم فى الأرباض كثير . أمارى ورايت : والأرباض الكثيرة .

(٢) كذا ضبطت فى خـ . وضبطها ياقوت بفتح الراء .

أبيض كالحمامة ، مطل على ساحل البحر . وهو كثير الاتّخاذ للفتيان والجوارى . وليس فى ملوك جميع الرومية[1] أترف فى الملك منه ، ولا أنعم ، ولا أرفه[2] ، وهو يتشبه فى الانغماس فى نعيم الملك ، وترتيب قوانينه ، ووضع أساليبه ، وتقسيم مراتب رجاله ، وتفخيم أبهة الملك ، وإظهار زينته[3] ، بملوك المسلمين ، وملكه عظيم جدا . وله الأطباء والمنجمون ، وهو كثير الاعتناء بهم ، شديد الحرص عليهم ، حتى إنه متى ذُكر له أن طبيبا أو منجّما اجتاز ببلده ، أمر بإمساكه ، وأدرّ له أرزاق عيشه[4] ، حتى يُسْلِيَه عن وطنه ، والله يُعيذ المسلمين من الفتنة به ، بمنه . وسِنُّه نحو الثلاثين سنة ، كفى الله المسلمين عادِيَته وبسطته . ومن عجيب شأنه المحدَّث[5] به أنه يقرأ ويكتب بالعربية ، وعلامته — على ما أَعْلَمنا به أحدُ خَدَمته المختصين به — : « الحمد لله حقَّ حمده » . وكانت علامة أبيه : « الحمد لله شكرا لأَنْعُمه » .

وأما جواريه وحظاياه فى قصره فمسلمات كلهن . ومن أعجب ما حَدَّثنا به خَدِيمُه المذكور ، وهو يحيى بن فتيان الطرّاز ، وهو يطرّز بالذهب فى طِراز الملك : أن الإفرنجية من النصرانيات تقع فى قصره ، فتعود مسلمة ، تعيدها الجوارى المذكورات [مسلمة] ، وهن على تكتُّم من ملكهن فى ذلك كله ، ولهن فى فعل الخير أمور عجيبة . وأُعْلِمنا أنه كانت بهذه[6] الجزيرة زلازل مُرْجِفة ، ذُعِر لها هذا المُشْرِكُ . فكان يتطلع فى قصره ، فلا يسمع إلا ذاكرا[7] لله ولرسوله من نسائه وفتيانه . وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته ،

(١) ط : ملوك النصارى .
(٢) وضعت ط (منه) بعد (أرفه)
(٣) ص : رتبته .
(٤) ط : معيشته .
(٥) ط : المتحدث .
(٦) ط : كان فى هذه .
(٧) ص : ذكرا .

فكان يقول لهم : « ليذكرْ كل أحد منكم معبودَه ، ومن يدين به » ، تسكينا لهم .

وأما فتيانه الذين هم عيون دولته ، وأهل عِمَالته فى ملكه ، فهم مسلمون ، ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوّعا وتأجّرا ، ويتصدَّق تقربا إلى الله وتزلّفا ، ويَفْتكّ الأسرى ، ويربّى الأصاغر منهم ويزوّجهم ، ويحسن إليهم ، ويفعل الخير ما استطاع . وهذا كله صُنْع من الله عز وجل لمسلمى هذه الجزيرة ، وسر من أسرار اعتناء الله عز وجل بهم . لقينا منهم بمسينة فتى اسمه عبد المسيح ، من وجوههم وكبرائهم ، بعد تَقْدِمة رغبة منه إلينا فى ذلك . فاحتفل فى كرامتنا وبرّنا ، وخرج[1] إلينا عن سره المكنون ، بعد مراقبة منه فى مجلسه ، أزال لها جميع[2] من كان حوله ممن يتهمه من خُدَّامه ، محافظة على نفسه . فسألَنا عن مكة قدسها الله ، وعن مشاهدها المعظمة ، وعن مشاهد المدينة المقدسة ، ومشاهد الشام . فأخبرناه ، وهو يذوب شوقا[3] ، واستهدى منا بعض ما استصحبناه من الطُّرَف المباركة من مكة والمدينة قدسهما الله ، وأمر[4] فى أن لا نبخل عليه بما أمكن من ذلك . وقال لنا : « أنتم مُدِلّون بإظهار الإسلام ، فائزون بما قصدتم له ، رابحون إن شاء الله فى مَتْجَركم . ونحن كاتمون إيماننا ، خائفون على أنفسنا ، متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سرا ، معتقلون فى ملكة كافر بالله ، قد وضع فى أعناقنا رِبْقَةَ الرقّ ، فغايتنا التبرك بلقاء أمثالكم من الحجاج ، واستهداء

(١) ط : وأخرج . (٢) ط : كل .
(٣) ط : شوقا وتحرقا . (٤) ط : وأمر .

أدعيتهم ، والاغتباط بما نتلقاه منهم ، من تُحَف تلك المَشَاهد المقدسة ، لنتّخذها عوذة[١] للإيمان ، وذَخِيرة للأكفان » . فتفطرت قلوبنا له إشفاقا ، ودعونا له بحسن الخاتمة ، وأتحفناه ببعض ما كان عندنا مما رَغِب فيه . وأبلغ فى مجازاتنا ومكافأتنا ، واستكتَمَنا [٢] أمره ، وانصرفنا من مجلسه بعد وداعه ، وقد قضينا عجبا من شأنه . وعلى مثل وتيرته ومسيرته[٢] سائر إخوانه من الفتيان .

ولهم فى فعل الجميل أخبار مأثورة[٣] ، وفى افتكاك الأسرى صنائع عند الله مشكورة . وجميع خَدَمتهم على مثل أحوالهم . ومن عجيب شأن هؤلاء الفتيان ، أنهم يحضرون عند مولاهم ، فيحين وقت الصلاة فيخرجون أفذاذا[٤] من مجلسه ، فيقضون صلاتهم . وربما يكونون بموضع تلحقه عين مَلِكهم ، فيسترهم الله عز وجل . فلا يزالون بأعمالهم ، ونياتهم ، وبنصائحهم الباطنة للمسلمين ، فى جهاد دائم ، والله ينفعهم ، ويجمل خلاصَهم ، بعزته[٥] .

ولهذا الملك بمدينة مسينة المذكورة دار صنعة للإنشاء[٦] تحتوى من الأساطيل على ما لا يحصى عددُ مراكبه ، وله بالمدينة مثل ذلك .

فكان نزولنا بها فى أحد فنادق النصارى[٧] ، وأقمنا بها تسعة أيام . فلما كانت[٨] ليلة الثلاثاء الثانى عشر للشهر المبارك المذكور ، والثامن عشر

---

(١) ص : عودة . ط : عدة .
(٢ — ٢) ليس فى ط .
(٣) ص : مؤثرة .
(٤) أفذاذا : أفرادا .
(٥) ط : بمنه .
(٦) ط : صنعة البحر .
(٧) ط : نزولنا فى أحد الفنادق .
(٨) ط : كان .

لدجنبر ، ركبنا فى زورق متوجّهين إلى المدينة المتقدم ذكرها ، وسرنا[١] قريبا من الساحل بحيث نبصره رأىَ العين . وأرسل الله علينا ريحا شرقية رخاء طيبة ، زجت الزورق أهنأ تَزْجِية ، وسرنا نُسَرّح اللحظ فى عمائر ، وقرى منتظمة[٢] ، وحصون ، ومعاقل فى قُنَن الجبال مشرفة . وأبصرنا عن يميننا فى البحر تسع جزائر ، قد قامت جبالا[٣] مرتفعة : على مقربة من بر الجزيرة اثنتان منها ، تخرج منهما النار دائما ، وأبصرنا الدخان صاعدا منهما ، ويظهر بالليل نارا حمراء[٤] ذات ألسُن تصعد فى الجو ، وهو البركان المشهور خبره . وأُعْلِمنا أن خروجها من مَنَافِس فى الجبلين المذكورين ، يصعد منها نَفَس نارىّ بقوة شديدة ، تكون عنه النار . وربما قُذِف فيها الحجر الكبير ، فتلقى به مسودا[٥] إلى الهواء بقوة[٦] ذلك النفس ، وتمنعه من الاستقرار والانتهاء إلى القعر . وهذا من أعجب المسموعات الصحيحة . وأما الجبل الشامخ الذى بالجزيرة ، المعروف بجبل النار ، فشأنه أيضا عجيب ، وذلك أن نارا تخرج منه فى بعض السنين كالسيل العَرِم ، فلا تمر بشيء إلا أحرقته ، حتى تنتهى إلى البحر ، فتركب ثَبَجه طائرة[٧] على صفحه ، حتى تغوص فيه . فسبحان المبدع فى عجائب مخلوقاته ، لا إلـٰه سواه . إلى أن حللنا عشى يوم الأربعاء ، ثانى[٨] يوم الثلاثاء المؤرّخ ، مُرْسَى مدينة شفلودى[٩] ، وبينها وبين مسينة مجرى ونصف مجرى .

---

(١) ط : وصرنا .
(٢) ط : متصلة .
(٣) ص : جبالا . خـ : خيالا . وأصلحها رايت .
(٤) خـ : أحمر .
(٥) ط : فى الساعة . وكان موضعها بياضا .
(٦) ط : لقوة .
(٧) طائرة : ليست فى ط .
(٨) ط : بعد .
(٩) هى Cefalti

ذكر مدينة شفلودى من جزيرة صقلية ، أعادها الله

هى مدينة ساحلية كثيرة الخصب ، واسعة المرافق ، منتظمة أشجار[١] الأعناب وغيرها ، مرتّبة الأسواق ، تسكنها طائفة من المسلمين ، وعليها قُنّة جبلٍ واسعة مستديرة ، فيها قلعة لم يُرَ أمنع منها ، اتّخذها عُدّة لأسطول يَفْجَؤُهم من البحر[٢] من جهة المسلمين ، نصرهم الله . فكان[٣] إقلاعنا منها نصفَ الليل ، فجئنا مدينة ثِرْمَة[٤] ضحوة يوم الخميس ، بسير رُوَيد . وبين المدينتين خمسة وعشرون ميلا ، فانتقلنا فيها[٥] من ذلك الزورق إلى زورق ثان اكتريناه ، لكون البحريين الذين صحبونا فيه من أهلها .

ذكر مدينة ثِرْمَة من الجزيرة المذكورة ، فتحها الله

هى أحسن وضعا من التى تقدم ذكرها ، وهى حصينة ، تركب البحر وتشرف عليه . وللمسلمين فيها رَبَض كبير ، لهم فيه المساجد . ولها قلعة سامية منيعة . وفى أسفل البلدة حَمّة[٦] قد أغنت أهلها عن اتخاذ حمّام . وهذه البلدة من الخصب وسعة الرزق على غاية . والجزيرة بأسرها من أعجب بلاد الله فى الخصب ، وكثرة[٧] الأرزاق . فأقمنا بها يوم الخميس

---

(١) ص : الأشجار . تحريف .

(٢) خـ : للأسطول يفجووهم . ط : جهة البحر .

(٣) ط : وكان .

(٤) ص هنا وتحت : تزمة . خـ : تزمة . وهى Termini .

(٥) خـ : منها .

(٦) حمة : عين ذات مياه حارة .

(٧) ط : وسعة .

الرابع عشر للشهر المؤرخ[١] ، ونحن قد أرسينا فى واد بأسفلها يطلع[٢] فيه المَدّ من البحر ثم ينحسر عنه . وبتنا بها ليلة الجمعة ، ثم انقلب الهواء غربيا ، فلم نجد للإقلاع سبيلا ، وبيننا وبين المدينة المقصودة المعروفة عند النصارى بَلَارْمة خمسة وعشرون ميلا . فخشينا طول المقام ، وحمدنا الله تعالى على ما أنعم به علينا[٣] من التسهيل ، فى قطع تلك[٤] المسافة فى يومين ، وقد تلبث الزواريق فى قطعها — على ما أُعلِمنا به — الثلاثين يوما ، والعشرين[٥] يوما ، ونيفا على ذلك .

فأصبحنا يوم الجمعة منتَصف الشهر المذكور[٦] المبارك على نيّة من المسير فى البر على أقدامنا ، فَنَفذْنا لِطِيّتنا[٧] . وتحمّلنا بعض أسبابنا على أعناقنا[٨] ، وخلفنا بعض الأصحاب على الأسباب [الباقية] فى الزورق . وسرنا فى طريق كأنها السوق عمارة وكثرةَ صادر ووارد ، وطوائفُ النصارى يتلقّوننا ، فيبادرون بالسلام علينا ، ويُؤْنِسُوننا . فرأينا من سياستهم ، ولين مقاصدهم[٩] مع المسلمين ، ما يوقع الفتنة فى نفوس أهل الجهات ، عصم الله جميع أمة محمد ، ﷺ من الفتنة بهم ، بعزّته ومنّه . فانتهينا إلى قصر سعد ، وهو على فرسخ من المدينة ، وقد أخذ منا الإعياء ، فملنا إليه وبتنا فيه .

---

(١) ط : المذكور .

(٢) ط : ويطلع .

(٣) علينا : ليست فى ط .

(٤) تلك : ليست فى ط .

(٥) ط : العشرين .. والثلاثين .

(٦) المذكور : ليست فى ط .

(٧) الطية : الغرض والنية .

(٨) على أعناقنا : ليست فى ط .

(٩) ط : مقصدهم .

وهذا القصر على ساحل البحر ، مشيد البناء عتيقه ، قديم الوضع من عهد ملكة المسلمين للجزيرة . لم يزل ولا يزال ، بفضل الله عز وجل[١] ، مسكنا للعُبَّاد منهم . وحوله قبور كثيرة للمسلمين : أهل الزهادة والورع . وهو موصوف بالفضل والبركة ، مقصود من كل مكان . وبإزائه عين تعرف [بعين] المَجْنُونة . وله باب وثيق من الحديد . وداخله مساكن ، وعَلَالِيّ مُشْرِفة ، وبيوت منتظمة . وهو كامل مرافق السكنى . وفى أعلاه مسجد من أحسن مساجد الدنيا بهاء[٢] ، مستطيل ، ذو حنايا منتظمة الاستطالة[٣] ، مفروش بحُصُر نظيفة ، لم يُرَ أحسن منها صنعة . وقد عُلِّق فيه نحو الأربعين قنديلا من أنواع الصُّفْر والزجاج . وأمامه شارع واسع يستدير بأعلى القصر . وفى أسفل القصر بئر عذبة . فبتنا فى هذا المسجد أحسن مبيت وأطيبه ، وسمعنا الأذان وكنّا قد طال عهدنا بسماعه[٤] . وأكرَمَنا القوم الساكنون فيه . وله إمام يصلّى بهم الفريضة والتراويح فى هذا الشهر المبارك . وبمقربة من هذا القصر ، بنحو الميل إلى جهة المدينة ، قصر آخر على صفته ، يعرف بقصر جعفر . وداخله سقاية تفور بماء عذب . وأبصرنا للنصارى فى هذه الطريق كنائس مُعَدّة لمرضى النصارى ، ولهم فى مدنهم مثل ذلك على صفة مارستانات المسلمين . وأبصرنا لهم بعكة وبصُور مثل ذلك . فعجبنا من اعتنائهم بهذا القدر .

فلما صلينا الصبح توجّهنا إلى المدينة ، فجئنا لندخل . فمُنِعنا وحُمِلنا إلى الباب المتصل بقصور الملك الإفرنجى ، أراح الله المسلمين من ملكته . وأُدِّينا

---

(١) عز وجل : ليست فى ط .

(٢) ص : الله بناء .

(٣) ط : حنايا مستطيلة .

(٤) ص : وقد كان طال أسماعنا به .

إلى المستخلَف[١] من قِبَله ، ليسألنا عن مقصدنا . وكذلك فعلُهم بكل غريب . فسُلك بنا[٢] رحاب ، وأبواب ، وساحات ملوكية ، وأبصرنا من القصور المشرفة ، والميادين المنتظمة ، والبساتين[٣] ، والمراتب المتَّخذة لأهل الخدمة ، ما راع أبصارنا ، وأذهل أفكارنا ، وتذكّرنا قول الله عز وجل ﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾[٤] وأبصرنا فى جملة ما[٥] أبصرناه مجلسا فى ساحة فسيحة ، قد أحدق بها بستان ، وانتظمت جوانبها بلاطات ، والمجلس قد أخذ استطالة تلك الساحة كلها . فعجبنا من طوله ، وإشراف مناظره . فأُعْلِمنا أنه موضع غذاء الملك مع أصحابه . وتلك البلاطات والمراتب حيث يقعد حُكّامه ، وأهل الخدمة ، والعِمَالة أمامه . فخرج إلينا ذلك المستخلف يتهادى بين خديمين ، يحفّان به ، ويرفعان أذياله ، فأبصرنا شيخا طويل السَّبَلة أبيضها ، ذا أبّهة وهيبة[٦] . فسألَنا عن مقصدنا ، وعن بلدنا وعن حالنا[٧] بكلام عربى ليّن . فأعلمنا ، فأظهر الإشفاق علينا ، وأمر بانصرافنا ، بعد أن أحفى[٨] فى السلام والدعاء . فعجبنا من سؤاله[٩] وكان أول سؤاله لنا عن خبر القسطنطينية العظمى ، وما عندنا منه . فلم يكن لدينا[١٠] ما نُعْلِمه به ، وقد نقيِّد خبرها بعد هذا . وكان [من] أغرب ما

---

(١) ص هنا وبعد : المستحلف .

(٢) بنا : ليست فى ص .

(٣) ص : بالبساتين .

(٤) سورة الزخرف ، الآية ٣٣ .

(٥) ط : فيما أبصرناه .

(٦) وهيبة : ليست فى ط .

(٧) وعن حالنا : ليست فى ط .

(٨) خـ : أخفى .

(٩) ط : شأنه .

(١٠) ط : عندنا .

شاهدناه من الأمور الفتانة ، أن قال لنا أحد الحاضرين[١] : « تحفَّظوا بما عندكم يا حجاج من العُمّال الممكّسين ، لئلا يقعوا عليكم » . وظنّ أن عندنا تجارة تقتضي التمكيس . فاستجاب له أحد النصارى ، فقال له[٢] : « ما أعجب أمرك ، يدخلون حرم الملك ، ويخافون من شيء ، ما كنت أودّ لهم إلا آلافا من الرُّبَاعيات ، انْهَضُوا بسلام لا خوف عليكم » . فقضينا عجبا مما شاهدناه وسمعناه .

وخرجنا إلى أحد الفنادق فنزلنا فيه ، وذلك يوم السبت السادس عشر للشهر المبارك ، والثانى والعشرين[٣] لدجنبر . وفى خروجنا من القصر المذكور ، سلكنا بلاطا متصلا ، مشينا فيه مسافة طويلة ، وهو مسقّف ، حتى انتهينا إلى كنيسة عظيمة البناء ، فأُعْلِمنا أن ذلك البلاط ممشى الملك إلى هذه الكنيسة .

ذكر المدينة التى هى حضْرة صقلية ، أعادها الله

هى بهذه الجزيرة[٤] أم الحضارة ، والجامعة بين الحُسْنَيَيْن[٥] غضارة ونضارة ، فما شئتَ بها من جمال مَخْبر ومَنْظر ، ومَرَاد عيش يانعٍ أخضر ، عتيقة أنيقة ، مشرقة مونقة ، تتطلع بمرأى فتّان ، وتتخايل بين ساحات وبسائط كلها بستان ، فسيحة السِّكَك ، والشوارع ، تروق الأبصار بحسن

(١) ط : أن أحد من كان قاعدا عند باب القصر من النصارى قال لنا عند انصرافنا عن القصرا المذكور .

(٢) له : ليست فى ط .

(٣) ط : والعشرون . خطأً .

(٤) ط : الجزائر .

(٥) ص : حسنيين .

موضوعها[1] البارع ، عجيبة الشأن ، قُرْطُبِية البنيان ، مبانيها كلها بمنحوت الحجر المعروف بالكَذّان[2] ، يشقها نهر مَعِين[3] ، ويطّرد فى جنباتها أربع عيون ، قد زُخْرِفت فيها لملكها دنياه ، فاتّخذها حضرةَ ملكه الإفرنجى أباده الله ، تنتظم بلَبَّتها قصورُه ، انتظامَ العُقود فى نحور الكواعب ، ويتقلّب من بساتينها وميادينها بين نُزَه[4] وملاعب ، فكم[5] له فيها — لا عُمِرت به — من مقاصير ومصانع ، ومناظر ومطالع ، وكم له بجهاتها[6] من ديارات قد زُخْرِف بنيانها ، ورُفّه بالإقطاعات الواسعة رهبانها ، وكنائس قد صِيغَ[7] من الذهب والفضة صُلْبانها ، وعسى الله عن قريب أن يصلح لهذه الجزيرة الزمان ، فيُعيدَها دار إيمان ، وينقلها من الخوف للأمان ، بعزته ، إنه على ما يشاء قدير .

وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الإسلام[8] ، يَعْمُرون أكثر مساجدهم ، ويقيمون الصلاة بأذان مسموع . ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى ، والأسواق معمورة بهم ، وهم التجار فيها ، ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم . ويصلّون الأعياد بخطبة ، ودعاؤهم[9] فيها للعباسى . ولهم بها قاض يرتفعون إليه فى أحكامهم ، وجامع يجتمعون للصلاة فيه ، ويحتفلون فى وَقِيده[10] فى هذا الشهر المبارك . وأما

---

(١) ط : منظرها .

(٢) الكذان : الحجارة الرخوة النخرة .

(٣) ص : مهين . تحريف .

(٤) ط : نزهة .

(٥) ص : وكم .

(٦) زادت خ : من دياراتها .

(٧) ص : صاغ .

(٨) ط : الإيمان .

(٩) ط : دعاؤهم .

(١٠) يريد شموعه التى يوقدونها .

المساجد فكثيرة لا تحصى ، وأكثرها مَحَاضِير لمعلمى القرآن . وبالجملة فهم عُزَباء عن إخوانهم المسلمين ، تحت ذمة الكفار ، لا أمن[١] لهم فى أموالهم ولا فى حريمهم وأبنائهم[٢] ، تلافاهم[٣] الله بصنع جميل ، بمنه .

ومن جملة شَبَه هذه المدينة بقرطبة[٤] ، والشيء قد يشبّه بالشيء من إحدى جهاته ، أن لها مدينة عتيقه[٥] تعرف بالقصر القديم ، هى فى وسط المدينة الحديثة . وعلى هذا المثال موضوع قرطبة ، حرسها الله . وبهذا القصر القديم ديار كأنها القصور المشيدة ، لها مناظر فى الجو مُطِلّة[٦] ، تحار الأبصار فى حسنها .

ومن أعجب ما شاهدناه بها من أمور الكُفر[٧] ، كنيسة تعرف بكنيسة الأنطاكى ، أبصرناها يوم الميلاد ، وهو يوم عيد عظيم[٨] لهم ، وقد احتفلوا لها رجالا ونساء . فأبصرنا من بنيانها أمرا عجيبا[٩] يعجز الوصف عنه ، ويقع القطع بأنها أعجب مصانع الدنيا ، المزخرفة جُدرها الداخلة ذهب كلّها ، وفيها من ألواح الرخام الملوّن ما لم يُرَ مثله قط ، قد رُصّعت كلها بفصوص الذهب ، وكُلِّلت بأشجار الفصوص الخُضْر ، ونُظِم أعلاها بالشمسيّات المذهَّباتِ من الزجاج ، فتخطف الأبصار بساطع شعاعها ، وتُحدِث فى النفوس فتنة نعوذ بالله منها . وأُعْلمنا أن بانيها الذى تنسب إليه

---

(١) ط : ولا . وكان موضعها بياضا ، فاقترحها الطنطاوى . وفى ص : لا أمل .

(٢) ط : ولا أبنائهم .

(٣) ص : يتلافاهم .

(٤) ص : لقرطبة .

(٥) ط : قديمة .

(٦) خـ : مظلمة .

(٧) ط : الكفران .

(٨) ط : لهم عظيم .

(٩) ط : مرأى يعجز .

أنفق فيها قناطير من الذهب ، وكان وزيرا لجدّ هذا الملك[١] . ولهذه الكنيسة صومعة ، قد قامت على أعمدة ، سوارٍ من الرخام ملوَّنة ، وعلت قبّة على أخرى سوارٍ كلها ، فتعرف بصومعة السوارى . وهى من أعجب ما يُبْصَر من البنيان ، شرّفها الله عن قريب بالأذان ، بمنه[٢] وكريم صنعه .

وزىُّ النصرانيات[٣] فى هذه المدينة زى نساء المسلمين : فصيحات الألسن ، مُلتحِفات ، منقبات[٤] ، خرجن فى هذا العيد المذكور ، وقد لبسن ثياب الحرير المذهّب ، والتحفن اللُّحُف الرائقة ، وانتقبن بالنُّقُب الملوّنة ، وانتعلن الأخفاف المذهّبة ، وبرزن لكنائسهن أو كُنُسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التّحلّى ، والتخضب ، والتعطُّر . فتذكّرنا على جهة الدُّعابة الأدبية قولَ الشاعر[٥] :

إنّ مَنْ يدخل الكنيسة يوما ... يلقَ فيها جآذرًا وظِباءَ

ونعوذ بالله من وصف يدخل مدخل اللغو ، ويؤدّى إلى أباطيل اللهو ، ونستغفره[٦] من تقييد ، يفضى[٧] إلى تفنيد ، إنه سبحانه أهل التقوى وأهل المغفرة .

فكان مقامنا بهذه المدينة سبعة أيام ، ونزلنا بها فى أحد فناديقها التى يسكنها المسلمون . وخرجنا منها صبيحة يوم الجمعة الثانى والعشرين لهذا الشهر المبارك ، والثامن والعشرين لشهر دجنبر ، إلى مدينة أُطْرَابُنِش ،

---

(١) ط : الملك المشرك .
(٢) ط : بلطفه .
(٣) ص : النصارى . تحريف .
(٤) ط : منتقبات .
(٥) هو الأخطل (خزانة الأدب ١ : ١٢٩) .
(٦) ط : ونعوذ به .
(٧) ط : يؤدى .

بسبب مركبين بها للروم[١] : أحدهما يتوجّه إلى الأندلس ، والثانى إلى سَبْتَه . وكُنّا أقلعنا[٢] إلى الإسكندرية فيه ، وفيهما حجّاج وتجّار من المسلمين . فسلكنا على قرى متّصلة ، وضياع متجاورة ، وأبصرنا محارث ومزارع لم نَرَ مثل تربتها طيبا وكرما واتّساعا ، فشبّهناها بقَنْبانية قرطبة ، أو هذه أطيب وأمتن .

وبتنا فى الطريق ليلة واحدة ، فى بلدة تعرف « بعَلْقمة »[٣] وهى كبيرة متّسعة ، فيها السوق والمساجد ، وسكّانها وسكان هذه الضياع التى فى هذه الطريق[٤] كلها مسلمون . وقمنا سحر يوم السبت الثالث والعشرين لهذا الشهر المبارك ، والتاسع والعشرين لدجنبر ، واجتزنا[٥] بمقربة منها ، على حصن يعرف بحصن الحَمّة ، وهو بلد كبير ، وفيه[٦] حمامات كثيرة ، قد[٧] فجرها الله ينابيع فى الأرض ، وأسالها عناصر ، لا يكاد البدن يحتملها لإفراط حرّها . فأجزنا منها واحدة فى[٨] الطريق ، فنزلنا إليها عن الدواب ، وأرحنا الأبدان بالاستحمام فيها . ووصلنا إلى أطرابنش عصر ذلك اليوم ، فنزلنا فيها فى دار أُكريت لنا[٩] .

---

(١) للروم : ليست فى ط .

(٢) ص : وكانا أقلعا من الإسكندرية . تحريف .

(٣) هى Alcama .

(٤) ص : الطريق .

(٥) ط : فاجتزنا .

(٦) ط : فيه .

(٧) ط : وقد .

(٨) ط : على .

(٩) ط : اكتريناها .

ذكر مدينة أطْرَابنِش(١) من جزيرة صقلية ، أعادها الله

هى مدينة صغيرة الساحة ، [غير كبيرة المساحة] ، مُسَوَّرة بيضاء كالحمامة ، مُرْسَاها من أحسن المراسى ، وأوفقها للمراكب ، ولذلك ما يقصد الروم كثيرا إليها ، ولا سيما المُقلعون إلى برّ العَدْوَة ، فإن بينها وبين تونس مسيرة يوم وليلة . فالسفر منها إليها لا يتعطل شتاء ولا صيفا ، إلا رَيْثَما تهب الريح الموافقة . فمجراها فى ذلك مجرى المجاز القريب . وبهذه المدينة السوق والحمام ، وجميع ما يحتاج إليه من مرافق المدن ، لكنها فى لَهَوات البحر ، لإحاطته بها من ثلاث جهات . واتصال(٢) البر بها من جهة واحدة ضيقة ، والبحر فاغر فاه لها من سائر الجهات . فأهلها يرون أنه لا بد له من التقامها(٣) ، وإن تَرَاخَى مدى أيامها ، ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى . وهى مرفقة موافقة لرخاء السعر بها ، لأنها على مَحْرَث عظيم . وسكانها المسلمون والنصارى ، ولكلا الفريقين بها(٤) المساجد والكنائس ، وبرُكْنها من جهة الشرق [مائلا] إلى الشمال على مقربة منها جبل عظيم ، مفرط السمو ، متسع ، فى أعلاه قُنّة ، تنقطع عنه . وفيها معقل للروم ، وبينه وبين الجبل قنطرة . ويتصل به فى الجبل بلد كبير للروم ، يقال(٥) : إن حَرِيمه من أحسن حريم بهذه(٦) الجزيرة ، جعله(٧) الله سبيا للمسلمين . وبهذا الجبل الكروم

(١) هى Trapani .

(٢) ص : واتصل .

(٣) ط : الاستيلاء عليها .

(٤) ط : فيها .

(٥) ط : للروم بلد كبير ويقال .

(٦) ط : هذه .

(٧) ط : جعله .

والمزارع . وأُعْلِمنا أن فيه(١) نحو أربع مئة عين متفجّرة ، وهو يعرف بجبل حامد(٢) . والصعود إليه هيّن من إحدى جهاته . وهم يرون أن منه يكون فتح هذه الجزيرة ، إن شاء الله . ولا سبيل أن يتركوا مسلما يصعد إليه ، ولذلك ما أعدّوا فيه ذلك المعقل الحصين . فلو أحسّوا بحادثة ، حَصّلوا حريمهم فيه ، وقطعوا القنطرة . واعترض بينهم وبين البلد(٣) الذى فى أعلاه متّصلا(٤) به خندق كبير . وشأن هذا الجبل(٥) عجيب ، فمن العجب ومن الغريب(٦) أن يكون فيه من العيون المتفجرة ما تقدم ذكره . وأطرابنش هذه فى البسيط(٧) ، ولا ماء لها إلا من بئر على البُعد منها . وفى ديارها آبار قصيرة الأَرْشِية ، ماؤها كلها شَرِيب(٨) لا يُساغ .

وألفينا المركبين اللذين يرومان الإقلاع إلى المغرب بها ، ونحن إن شاء الله نؤمّل ركوب أحدهما ، [وهو] القاصد إلى بر الأندلس ، والله بمعهود صنعه الجميل كفيل ، بمنّه . وفى غربى هذه البلدة : أطرابنش المذكورة ، ثلاث جزائر فى البحر ، على نحو فرسخين منها ، وهى صغار متجاورة : إحداها تعرف بمَليطَمة(٩) ، والأخرى بيابِسة(١٠) ، والثالثة تعرف بالرّاهب ، نُسِبت إلى راهب يسكنها فى بناء أعلاها كأنه الحصن ، وهى مكمن للعدو . والجزيرتان لا عمارة فيهما ، ولا يعمر الثالثة سوى الراهب المذكور .

---

(١) ط : به .

(٢) هو Monte San Guiliano .

(٣) البلد : ليست فى ط .

(٤) ط : متصل .

(٥) ط : البلد .

(٦) ط : فمن العجيب .

(٧) ط : وأطرابنش فى هذا .

(٨) شريب : بين العذب والملح ، أودون العذب ، ولا يشربه الناس إلا عند الضرورة .

(٩) هى Marettimo .

(١٠) هى Iviza .

شهر شوّال ، عرفنا الله يمنه وخيره[١]

استهل هلاله ليلة السبت الخامس من ينير ، بشهادة ثبتت عند حاكم أطرابنش المذكور[٢] ، بأنه أُبْصِر هلال شهر رمضان ليلة الخميس . ويوم الخميس كان صوم[٣] أهل مدينة صقلية المتقدم ذكرها ، فعيّد الناس على الكمال بحساب يوم الخميس المذكور . وكان مُصلّانا فى هذا العيد المبارك بأحد مساجد أطرابنش المذكور[٤] ، مع قوم من أهلها امتنعوا من الخروج إلى المصلّى، لعذر كان لهم . فصلّينا صلاة الغُرَباء ، جَبَر الله كل غريب إلى وطنه . وخرج أهل البلد إلى مُصَلّاهم مع صاحب أحكامهم ، وانصرفوا بالطبول والبوقات ، فعجبنا من ذلك ، ومن إغضاء النصارى لهم عليه . ونحن قد اتفق كراؤنا فى المركب المتوجه إن شاء الله إلى بر الأندلس ، ونظرُنا فى الزاد ، والله المتكفّل بالتّيْسير والتسهيل .

ووصل أمرٌ من ملك صقلية بعَقْله[٥] المراكب ، بجميع السواحل بجزيرته ، بسبب الأصطول[٦] الذى ينشئه[٧] ويعدّه . فليس لمركب سبيل للسفر ، إلى أن يسافر الأصطول المذكور ، خيّب الله سعيه ، ولا يمنّ[٨] قصده . فبادر[٩] الروم الجنويون ، أصحاب المركبين المذكورين ، إلى الصعود فيهما ،

---

(١) ط : وبركته .

(٢) ط : المذكورة .

(٣) ط : صيام .

(٤) ط : المذكورة .

(٥) عقلة : اعتقال .

(٦) ط هنا وبعد : الأسطول . وهما صحيحان

(٧) ط : يعمره .

(٨) ط : تمم .

(٩) خـ : فباد . تحريف .

تحصنا[١] من الوالى . ثم امتدّ سبب الرشوة بينهم وبينه ، فأقاموا بمركبيهم[٢] يرتقبون[٣] هواء يُقْلِعون به . وفى هذا التاريخ المذكور ، وصلتنا أخبار موحشة من الغرب ، منها تغلّب صاحب مَيُورقة على بِجَاية ، والله لا يحقق ذلك ، ويجعل[٤] العاقبة والهدنة للمسلمين بفضله[٥] وكرمه .

والناس بهذه المدينة يرجمون الظنون ، فى مقصد هذا الأصطول الذى يحاول هذا الطاغية تعميره ، وعدد أُجْفَانِه — فيما يقال — ثلاث مئة : بين مراكب ، وطرائد[٦] ، ويقال : أكثر من ذلك . ويَستصحِب معه نحو مئة سفينة تحمل الطعام ، والله يقطع به ، ويجعل الدائرة عليه . فمنهم من يزعم أن مقصده الإسكندرية[٧] حرسها الله وعصمها ، ومنهم من يزعم[٨] : إن مقصده مَيُورقة حرسها الله . ومنهم من يزعم أن مقصده إفريقية حماها الله ، ناكثا لعهده فى السلم ، بسبب الأنباء الموحشة الطارئة من جهة المغرب . وهذا أبعدُ الظنون من الإمكان لأنه مُظهِرٌ للوفاء بالعهد ، والله يعين عليه ولا يعينه . ومنهم من رأى[٩] أن احتفاله إنما هو لقصد القسطنطينية العظمى ؛ بسبب ما ورد من قِبَلها من النبأ العظيم الشأن ، المُهْدِى للنفوس بشائر تتضمّن عجائب من الحِدْثان ، وتشهد للحديث المأثور عن المصطفى ﷺ

---

(١) ص ، خ : وتحصنا .

(٢) ص : بمركبيهما . تحريف .

(٣) ط : ينتظرون .

(٤) ص : ويصل .

(٥) ط : بمنه .

(٦) ط : طرائد ومراكب .

(٧) خ : للإسكندرية .

(٨) ط : يقول .

(٩) ط : يرى .

بصدق البرهان[١] ، وذلك أنه[٢] ذُكِر أن صاحبها توفى ، وترك الملك بعده لزوجه ، ولها منه[٣] ابن صغير . فقام ابن عمّ له فى الملك ، وقتل الزوج المذكورة ، وثقّف الابن المذكور . ثم إن ابنا للثائر المذكور عطفتْه الرحم[٤] على الابن المعتقل ، فأطلق سبيله ، وكان أبوه قد أمره بقتله ، فرمتْ به الأقدار إلى هذه الجزيرة ، بعد خطوب جرت عليه ، فوردها على هيئة[٥] ابتذال ، ومهنة استعمال ، خادما لأحد الرهبان ، سادلا[٦] على شارته[٧] الملوكية سترا من الامتهان . ففشا الأمر ، وذاع السر ، ولم يُغْنِ عنه ذلك الستر . فاستُحضِر عن أمر الملك الصقلى غليام ، المذكور [قبلُ] ، واستُنطِق واستُفهِم ، فزعم أنه عبد ذلك[٨] الراهب وخَدِيمه . ثم إن طائفة من الروم الجنويين المسافرين إلى القسطنطينية أثبتوا صِفَتَه ، وحقّقوا أنه هو ، مع مَخَايِل ودلائل ملوكية لاحت منه : منها — فيما ذُكر لنا — أن الملك غليام خرج فى يوم زينة له ، وقد اصطف الناس للسلام عليه ، وأحضروا الفتى المذكور فى جملة الخاصة . فصقِع[٩] الجميع خدمةً للملك ، وتعظيما لطلوعه

---

(١) يشير إلى الحديث المروى فى صحيح مسلم (كتاب الفتن — باب فتح القسطنطينية — ٨ : ١٧٥ : « لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق ، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ . فإذا تصافوا قالت الروم : خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم . فيقول المسلمون . لا والله ، لا نخلى بينكم وبين إخواننا . فيقاتلونهم ، فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدا ، وتقتل ثلث هم أفضل الشهداء عند الله ، ويفتح الثلث لا يفتنون أبدا ، فيفتحون القسطنطينية .. » .

(٢) ط : بأنه .

(٣) منه : ليست فى ط .

(٤) ص : الرحمة .

(٥) ط : حال .

(٦) ط : مسدلا . وهما صحيحتان .

(٧) ص : حسن شارته .

(٨) ط : لذلك .

(٩) صقع : انحنى انحناءة كبيرة ، كلمة عامية .

عليهم ، إلا ذلك الفتى فإنه لم يزدْ على الإيماء فى سلامه[١] . فعُلِم أن الهمّة الملوكيّة منعتْه من الدخول[٢] مدخل السوقة ، فاعتنى به الملك غليام ، وأكرم مثواه ، وأذكى عيون الاحتراس عليه ، خوفا من اغتيال يلحقه بتدسيس من ابن عمّه الثائر عليه . وكانت له أخت موصوفة بالجمال ، عَلِق بها ابن العم الثائر على الملك المذكور ، فلم يمكنه تزويجها بسبب أن الروم لا تنكح فى الأقارب . فحمله الحبّ المصمِى ، والهوى المصِمّ المُعْمِى ، والسعادة التى تُفْضى بصاحبها إلى العاقبة الحسنى وتَرْمِى[٣] ، على أخذها والتوجّه بها إلى الأمير مسعود صاحب الدروب وقُونية وبلاد العجم المجاورة للقسطنطينية — وقد تقدّم ذكر غَنائِه فى الإسلام فيما مضى من هذا التقييد ، وحسبك أن صاحب القسطنطينية لم يزل يؤدى الجزية إليه ، ويصالحه على ما يجاوره من بلاده[٤] — فأسلم مع ابنة عمه على يده ، وسِيقَ له صليب ذهب أُحْمى عليه فى النار فوضعه تحت قدمه ، وهى عندهم أعظم علامات الترك[٥] لدين النصرانية ، والوفاء بذمة دين الإسلام . وتزوج ابنة العم المذكورة ، وبلغ هواه . وأخذ جيوش المسلمين معه إلى القسطنطينية ، فدخلها بهم ، وقتل من أهلها نحو الخمسين ألف رومى[٦] وأعانه الإغريقيون على فعله ، وهم فرقة من أهل الكتاب[٧] وكلامهم بالعربية ، وبينهم وبين سائر الفرق من جنسهم عداوة كامنة ، وهم لا يرون أكل لحم الخنزير ،

(١) ط : السلام .

(٢) ط : المدخل .

(٣) ص : ترمى .

(٤) ط : البلاد .

(٥) خـ : للترك .

(٦) ط : ألفا من الروم .

(٧) ص : وهم أهل الكتاب من فرق الروم . المقريزى : وهم من الروم والنصارى .

فشفوا نفوسهم من أعاديهم ، وقَرَع الله نَبْعَ الكفر بعضه ببعض . واستولى المسلمون على القسطنطينية ، ونُقِلت أموالها كلها ، وهى ما لا يأخذه[1] الإحصاء إلى الأمير مسعود . وجعل من المسلمين فيها ما ينيف على الأربعين ألف فارس ، واتصلت بلادهم بها . وهذا الفتح — إذا صح — [من] أكبر شروط الساعة[2] ، والله أعلم بغيبه .

ألفينا هذا الحديث بهذه الجزيرة مستفيضا على ألسنة المسلمين والنصارى ، محققين له ، لا شكّ عندهم فيه ، أنبأَتْ به مراكب الروم [التى] وصلت من القسطنطينية . وكان أول سؤال مستخلَف الملك بالمدينة لنا ، يومَ أُحْضِرنا لديه عند دخولنا المدينة ، عما عندنا من خبر القسطنطينية . فلم يكن لدينا[3] علم ، ولا تعرفْنا معنى السؤال عنها إلا بعد ذلك . وتحققوه أيضا من جهة ملكها هذا الصبى ، وما كان من إتْباع الثائر عليه عيونا[4] يروم اغتياله . فهو اليوم بسبب ذلك عند صاحب صقلية محترس محافَظ عليه ، لا يكاد يصل لحظ العيون إليه . وأُخبرنا أنه رطيب غصن الصِّبا ، مُحتدِم حُمْرة الشباب ، صقيل رونق الملك ، لديه نظر[5] فى علم اللسان العربى وغيره ، بارع فى الأدب الملوكى ، ذو دهاء على فتوة سنه وغمْرِيّة شبيبته[6] . فالملك الصقلّى على ما يُذْكر يروم توجيه الأسطول المذكور إلى القسطنطينية ، أنفة لهذا

---

(١) ط : يأخذها .

(٢) يشير إلى الحديث الذى رواه الترمزى وعلق عليه (كتاب الفتن ٢ : ٤٧) « عن أنس بن مالك قال : فتح القسطنطينية مع قيام الساعة . قال محمود هذا حديث غريب » .

(٣) ط : عندنا .

(٤) ط : عليه إياه عيونا .

(٥) ط : عليه ناظر .

(٦) ص : وغمرته فى شبيبته .

الصبى المذكور ، وما جرى عليه . وكيفما توجه الأمر فيه من هذه المقاصد ، فالله عز وجل يُنكِصه خاسرا على عقبه ، ويعرفه شؤم مذهبه ، ويجعل قَواصِف الرياح خاسِفة به ، إنه على ما يشاء قدير . وهذا الخبر القسطنطينى ، حقّقه الله ، من أعظم عجائب الدنيا ، وكوائنها المرتقَبة ، ولله القدرة البالغة فى أحكامه وأقداره .

شهر ذى القعهدة ، عرَّفنا الله بركته ويمنه[1]

استهل هلاله ليلة الاثنين الرابع من شهر فبرير ، ونحن بمدينة أطرابنش المتقدم ذكرُها ، منتظِرين انسلاخ فصل الشتاء ، وإقلاع المركب الجنوى الذى أمّلنا ركوبه إلى الأندلس ، إن شاء الله عز وجل ، والله سبحانه يُيَمّن مقصدنا ، وييسر مرامنا بمنه وكرمه .

[المسلمون فى صقلية] :

وفى مدة مقامنا بهذه البلدة تعرّفنا ما يؤلم النفوس تعرُّفه ، من سوء أحوال[2] [أهل] هذه الجزيرة مع عُبّاد الصليب بها ، دمّرهم الله ، وما هم عليه معهم من الذل والمسكنة ، والمقام تحت عهدة الذمة ، وغلظة الملك ، إلى طوارئ دواعى[3] الفتنة فى الدين على من كتب الله عليه الشقاء من أبنائهم ونسائهم . وربما نسبت[4] إلى بعض أشياخهم أسباب نكاليّة تدعوه إلى فراق دينه . فمنها قصة اتفقت فى هذه السنين القريبة ، لبعض فقهاء مدينتهم

---

(١) ط : يمنه وبركته .
(٢) ط : حال .
(٣) خـ : دواعى طوارئ .
(٤) ط : تسبب

التى هى حضرة ملكهم الطاغية ، ويعرف[1] بابن زُرْعَة ضغطتْه العُمّال[2] بالمطالبة ، حتى أظهر فراق دين الإسلام ، والانغماس فى دين النصرانية ، ومهر فى حفظ الإنْجِيل ، ومطالعة سِيَر الروم ، وحفظ قوانين شريعتهم . فعاد فى جملة القسّيسين الذين يُستفتون فى الأحكام النصرانية . وربَّما طرأ حكم إسلامى ، فيُستفتى أيضا فيه ، لما سبق من معرفته بالأحكام الشرعية . ويقع الوقوف عند فُتْياه فى كلا الحكميْن . وكان له مسجد بإزاء داره أعاده كنيسة ، نعوذ بالله من عواقب الشقاوة ، وخواتم الضلالة . ومع ذلك فأُعْلِمنا أنه يكتم إيمانه ، فلعلّه داخل تحت الاستثناء ، فى قوله عز وجل[3] : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾[4] .

ووصل فى[5] هذه الأيام إلى هذه البلدة ، زعيم أهل الجزيرة[6] من المسلمين ، وسيدهم القائد أبو القاسم بن حَمُّود ، المعروف بابن حَجَر[7] . وهذا الرجل من أهل بيت بهذه الجزيرة ، توارثوا السيادة كابرا عن كابر . وقُرِّر لدينا مع ذلك أنه من أهل العمل الصالح ، مريد للخير ، محبّ فى أهله ، كثير الصنائع الأخراوية : من افتكاك الأسارى ، وبثّ الصدقات فى الغرباء والمنقطعين من الحجاج ، إلى مآثر جمة ، ومناقب كريمة ، فارتجّت هذه البلدة[8] لوصوله ، وكان فى هذه المدة تحت هجران من هذا الطاغية ، ألزَمه داره بمطالبة توجّهت عليه من أعدائه ، افتروْا عليه فيها أحاديث مزوَّرة ،

---

(١) ص : يعرف .

(٢) العمال : الولاة . وزادتها ر . ويقترح فلا يشر بدلها : ضغطة .

(٣) عز وجل : ليست فى ط .

(٤) سورة النحل ، الآية ١٠٦ .

(٥) فى : ليست فى ط .

(٦) ط : أهل هذه الجزيرة .

(٧) ط : الحجر .

(٨) ط : المدينة .

نسبوه فيها إلى مخاطبة الموحّدين أيّدهم الله . فكادت تقضى عليه لولا حارس المُدّة . وتوالت عليه مصادَرات أغرمتْه نحو[1] الثلاثين ألف دينار مؤمنيّة . ولم يزل يتخلّى عن جميع ضياعه[2] ، وأملاكه الموروثة عن سلفه ، حتى بقى دون مال . [فنفذ لها نفوذَ المملوك المغلوب على نفسه وماله ، وصدرت عنه عند وصوله إلى هذه البلدة رغبة فى الاجتماع بنا . فاجتمعنا به ، فأظهر لنا من باطن حاله ، وبواطن أحوال هذه الجزيرة مع أعدائهم ، ما يبكي العيون دما ، ويذيب القلوب ألما ، فمن ذلك أنه قال : « كنتُ أودّ أن[3] أُبَاع أنا وأهل بيتى ، فلعل البيع كان يتخلّصنا مما نحن فيه ، ويؤدّى بنا إلى الحصول فى بلاد المسلمين » . فتأمل حالا يؤدّى بهذا الرجل ، مع جلالة قدره ورفعة[4] منصبه ، إلى أن يتمنى مثل هذا التمنى ، مع كونه مُثقَلا عيالا وبنين وبنات . فسألنا له من الله عز وجل حسن التخلُّص مما هو فيه ، ولسائر المسلمين من أهل [هذه] الجزيرة . وواجب على كل مسلم الدعاء لهم ، فى كل موقف يقفه[5] بين يدى الله عز وجل . وفارقناه باكيا مبكيا ، واستمال نفوسنا بشرف منازعه[6] ، وخصوصيّة شمائله ، ورزانة حَصَاتِه[7] ، وشمول مبرّته وتكرمته ، وحسن خلقه وخليقته . وكنا قد أبصرنا له ولإخوته ، ولأهل بيته بالمدينة ، ديارا كأنها القصور المشيدة الأنيقة ، وشأنهم بالجملة كبير لا سيما[8] هذا الرجل منهم . وكانت له أيامَ مقامه هنا أفعال جميلة ، مع فقراء

---

(١) ط : نيفا على .
(٢) ط : دياره .
(٣) ط : لو .
(٤) ط : وعظم .
(٥) ص : يقفونه .
(٦) ط : منزعه .
(٧) الحصاة : العقل .
(٨) ص : ولا سيما .

الحجاج وصعاليكهم ، أصلحت أحوالهم ، ويسّرت لهم الكراء والزاد ، والله ينفعه بها ، ويجازيه الجزاءَ الأوفى عليها بمنه .

ومن أعظم ما مُنِيَ به أهل هذه الجزيرة ، أن الرجل ربما[١] غضب على ابنه ، أو على زوجه ، أو تغضب المرأة على ابنتها ، فتلحق المغضوبَ عليه أنفةٌ تؤدى به[٢] إلى التطارح فى الكنيسة ، فيتنصّر ويتعمّد ، فلا يجد الأب للابن سبيلا ، ولا الأم للبنت[٣] . فتخيَّلْ حال من مُنِى بمثل هذا فى أهله وولده ، ويقطع عمره متوقّعا لوقوع هذه الفتنة فيهم ! فهم الدهرَ كله فى مُداراة الأهل والولد ، خوفَ هذه الحال . وأهلِ النظر فى العواقب منهم يخافون أن يتّفق عليهم[٤] ما اتّفق على أهل جزيرة أَقْرِيطش من المسلمين ، فى المدة السالفة ، فإنه لم تزل بهم الملكة الطاغية من النصارى ، والاستدراج الشيء [بعد الشيء] ، حالا بعد حال ، حتى اضطروا إلى التنصر عن آخرهم ، وفر منهم من قضى الله بنجاته ، وحقّت كلمة العذاب على الكافرين[٥] . والله غالب على أمره ، لا إلـٰه سواه .

ومن عِظَم هذا الرجل الحَمّودىّ المذكور آنفا ، فى قلوب[٦] النصارى أبادهم الله ، أنهم يزعمون أنه لو تنصّر لما بقى فى الجزيرة مسلم إلا وفعل مثل[٧] فعله ، اتّباعا له واقتداء به ، تكفل الله بعصمته جميعَهم ، ونجّاهم مما هم فيه بعظمته[٨] وكرمه .

---

(١) ص : إذا .

(٢) ط : تؤديه .

(٣) ط : للبنت سبيلا .

(٤) ط : على جميعهم .

(٥) أنظر سورة الزمر الآية ٧١ .

(٦) ط : المذكور فى نفوس .

(٧) مثل : ليست فى ط .

(٨) ط : بفضله .

ومن أعجب ما شاهدناه من أحوالهم التى تقطع النفوس إشفاقا ، وتذيب القلوب رأفة وحنانا ، أن أحد أعيان هذه البلدة وجه ابنه إلى أحد أصحابنا الحجاج ، راغبا فى أن يقبل منه بنتا بكرا صغيرة السن ، قد زاهقت[1] الإدراك ، فإن رضيها تزوجها ، وإن لم يرضَها زوّجها ممن رآه[2] رضى لها من أهل بلده ، ويُخْرِجها مع نفسه راضية بفراق أبيها وإخوتها ، طمعا فى التخلص من هذه الفتنة ، ورغبة فى الحصول فى بلاد المسلمين . وطاب الأب والإخوة نفوسا[3] لذلك ، لعلهم يجدون السبيل للتخلص إلى بلاد المسلمين بأنفسهم[4] ، إذا زالت هذه العُقْلة المقيِّدة عنهم . فتأجَّر هذا الرجل المرغوب إليه بقبول ذلك . وأعنّاه على استغنام هذه الفرصة المؤدّية إلى خير الدنيا والآخرة . وطال عجبنا من حال تؤدّى بإنسان إلى السماحة[5] بمثل هذه الوديعة المعلَّقة من القلب ، وإسلامها إلى يد من يغرّبها ، واحتمال الصبر عنها ، ومكابدة الشوق إليها ، والوحشة دونها ، كما أنّا استغربنا حال الصبيّة صانها الله ، ورِضَاها بفراق مَنْ لها ، رغبة فى الإسلام ، واستمساكا بعروته الوثقى ، والله عز وجل يعصمها ويكفلها[6] ، ويؤنسها بنظم شملها ، ويجمل الصنع لها بمنّه ويمنه[7] . واستشارها الأب فيما هَمّ به من ذلك فقالت له : « إن أمسكتَنى فأنت مسئول عنى » . وكانت هذه الصبية دون أم ، ولها أخوان وأخت صغيرة أشقاء لها .

---

(١) زاهقت : قاربت . وفى ص ، ر : راهقت .
(٢) رآه : ليست فى ط .
(٣) ط : فطاب .. نفسا
(٤) ص : يجدون التخلص بأنفسهم .
(٥) ط : السماح .
(٦) ص : ويكفل
(٧) ويمنه : ليست فى ط

شهر ذى الحجة ، عرّفنا الله بركته ويمنه[1]

غُمّ هلاله علينا لتوالِى الأنواء ، فأكملنا أيام شهر ذى القعدة بحسابه من ليلة الأربعاء السادس لشهر مارس ، ونحن بهذه المدينة المذكورة ، طامعين فى قرب السفر ، مستبشرين بطيب الهواء ، والله ييسّر مرامنا ، ويتكفّل بسلامتنا ، بعزّته . واتّفق أن أبصرنا الهلال ليلة الأربعاء كبيرا ، فعُلِم أنه من ليلة الثلاثاء ، فانتقل حساب الشهر إليها .

وفى ظهر يوم الأربعاء التاسع من الشهر المذكور ، والثالث عشر من مارس ، وهو يوم عَرَفة ، عرّفنا الله بركته وبركة الموقف الكريم فيه بعَرَفات ، كان صعودنا إلى المركب ، يمنّه الله ، ورزقنا السلامة [فيه] ، مبيِّتين للسفر ، قَرّب الله علينا مسافته . فأصبحنا على ظهر المركب صبيحة يوم عيد الأضحى ، نفعنا الله بمقاساة الوحشة فيه ، ونحن نيّف على الخمسين رجلا من المسلمين ، عصم الله الجميع ، ونظم شملهم بأوطانهم بفضله[2] وكرمه ، إنه سبحانه كفيل بذلك . ورُمْنا الإقلاع ، فلم توافق الريح ، فلم نزل نتردّد من المركب إلى البرّ ، ونبيّت السفر كل ليلة اثنى عشر يوما ، إلى أن أذن الله بالإقلاع ، صبيحة يوم الاثنين الحادى والعشرين لذى الحجة المذكور ، والخامس والعشرين لمارس . فأقلعنا على بركة الله تعالى ، فى ثلاثة مراكب للروم[3] ، قد توافقت على[4] الاصطحاب فى الجرى ، وأن يمسك المتقدم

---

(١) ط : يمنه وبركته .

(٢) ط : بمنه وكرمه .

(٣) ط : من الروم .

(٤) ص : توافقت الريح على الاصطحاب .

منها على المتأخر . فوصلنا إلى جزيرة الراهب ، وقد تقدم ذكرها فى هذا التقييد ، وبينها وبين اطرابنش نحو ثمانية عشر ميلا . فتغيّرت الريح علينا ، فملنا إلى مرساها .

فكان من الاتفاق العجيب أن ألفينا فيها مركب مَرْكُون الجنويّ ، المُقْلِع من الإسكندرية بنحو مئتى رجل ونيف من أصحابنا الحجّاج المغاربة ، الذين كنّا فارقناهم بمكة قدّسها الله فى ذى الحجة [من سنة تسع] ، ولم نسمع لهم خبرا منذ فارقناهم ، ولا سمعوا لنا . وكان فيهم جماعة من أصحابنا من أهل غرناطة[1] ، منهم الفقيه أبو جعفر بن سعيد صاحبنا ونزيلنا بمكّة ، مدة مقامنا فيها . فلحين ما علموا بنا ، تطلّعوا إلينا من المركب متعلّقين بحافاته وجوانبه ، رافعين أصواتهم ببشرى السلامة واللقاء ، مسرورين بالاجتماع ، باكين من الفرح ، دهشين ذاهلين لوقوع المسرّة من نفوسهم . ونحن لهم على مثل تلك الحال . فكان يوما مشهودا[2] ، اتخذناه[3] عقبَ العيد عيدا جديدا . ونزل الأصحاب بعضهم إلى بعض ، وباتوا وبتْنا بأسرّ ليلة وأنعمها ، وجعلنا هذا الاجتماع عنوانا كريما لما نؤمّله من انتظام الشمل بالأوطان ، إن شاء الله عز وجل .

وأهبّ الله علينا ريحا طيبة فى سحر تلك الليلة ، وهى ليلة الثلاثاء الثانى والعشرين من الشهر المذكور ، فأقلعنا بها ، ونحن فى أربعة مراكب ، كلّها تؤمل جزيرة الأندلس ، بحول الله تعالى . وسرنا ذلك اليوم كله بريح تزجى المراكب[4] ، والله يمنّ بالتسهيل والتعجيل . ثم انقلبت الريح غربية ، [بعد

---

(١) ط : أغرناطة .

(٢) خـ : مشهورا .

(٣) ص : اتخذنا .

(٤) ص : المركب .

مسير يوم وليلتين] ، فضربت فى وجوهنا ، فأنكستنا[1] على الأعقاب . فرجعنا عودا على بدء إلى مرسى جزيرة الراهب . فوصلنا إليه ليلة الخميس الرابع والعشرين من الشهر المذكور .

ثم أقلعنا منه عشىَّ يوم الجمعة بعده منفردين ، دون المراكب المذكورة ، فأزعجتْنا ريح شديدة خَرَق لها المركب فى الجرى . فأصبحنا يوم الأحد السابع والعشرين من الشهر ، ونحن على طرف جزيرة سردانية . وقد قطعناها جريا ، وطولها أزيد من مئتى ميل ، فاستبشرنا وسُرِرنا . وقُدِر للمركب فى يوم وليلتين قطعُ نيف على خمس مئة ميل ، فكان أمرا مستغربا . ثم إن الريح الموافقة ركدت عنّا ، وهبت ريح أسقطتْنا ليلة الاثنين الثامن والعشرين منه ، وهو أول أبريل إلى جهة بر إفريقية . فأرسينا يوم الاثنين المذكور بجزيرة تعرف بخالطة[2] ، وهى جزيرة غير معمورة ، ويقال : إنها كانت معمورة فى القديم ، وهى مقصد العدو ، وبينها وبين البر المذكور نحو ثلاثين ميلا ، وهو منّا رأىَ العين . فأقمنا بها بعد أهوال لقيناها فى دخول مرساها ، عصم الله منها . وتوالت الأنواء علينا فيها ، ونحن ننتظر فرجا من الله تعالى . وكان مقامنا فيها أربعة أيام ، آخرها يوم الخميس مستَهلّ المحرَّم[3] .

---

(١) ط : فأنكصتنا .

(٢) هى Galeta وعند القزوينى : جالطة ، وعند ابن حوقل ١٣٦ : خالصة .

(٣) ط : محرم .

شهر محرّم سنة إحدى وثمانين ، عرّفنا الله بركته[١]

غُمّ هلاله علينا ، فحسبناه[٢] على الكمال من ليلة الخميس الرابع لشهر أبريل ، عرّفنا الله بركة هذه السنة ويمنها ، ورزقنا خيرها ، ووقانا شرها ، ومنّ علينا بنظم الشمل فيها ، إنه سميع مجيب .

وفى ليلة الجمعة الثانى منه أهبّ الله علينا نفَسا شرقيا أقلعنا به ، وهو لين رخاء ، إلى أن استشرى فعاد[٣] ريحا شديدة ، جرى بها المركب أقوى جرى وأعدلَه . وما زلنا منذ ركبنا البحر نتنسّم هذا الأفق الشرقى شوقا إلى ريحه ، فلا يهبّ منه نسيم حتى حسبناه لعدمه عنقاء ليل مغربا[٤] ، إلى أن تداركنا الله بلطفه وجميل صنعه ، فأجراه لنا الآن فى شهر نيسان ، عرّفنا الله السلامة بمنه وكرمه . وصحبتْنا هذه الريح النحيلة[٥] نحو يومين ، سرنا فيهما سيرا حثيثا ، وتركنا جزيرة سردانية عن يميننا . ثم تلاعبت بنا الرياح المختلفة ، فأقمنا بها نضرب البحر عرضا وطولا[٦] ، ولا يترائى لنا بر ، حتى ساءت ظنوننا ، وتوهّمنا إسقاط الرياح لنا إلى جهة [بر] بَرْشِلُونة دمَّرها الله ، إلى أن أذن الله بالفرج . فأبصرنا بر جزيرة يابسة ، ليلة السبت العاشر من الشهر المذكور — ونحن لا نكاد نثبته — لبُعْده إلا تخيلا[٧] . فلما كان يوم السبت المذكور بان

---

(١) ط : بركتها بمنه . (٢) ص : فحسابه .

(٣) ط : ريحا شرقية .. بها وهى لينة ... استشرت فعادت .

(٤) ط : خلناه .. عنقاء مغربا . (٥) ط : الشرقية .

(٦) ط : طولا وعرضا . (٧) ط : نتبينه لبعد خيالاً خفيا .

لنا ، فدخلنا مرسى الجزيرة المذكورة مع الليل ، بعد مكابدة اختلاف الرياح في دخوله . فأرسينا ، والمدينة [منا] على مقدار أربعة أميال ، وكان إرساؤنا بإزاء جزيرة[1] فَرَمَنْتِيرَة[2] ، وهي منقطعة عن جزيرة يابسة ، وبينهما مقدار أربعة أميال أو خمسة ، وفيها قرى كثيرة معمورة . فأقمنا بمرساها ، ونحن بمقربة من الجبلين المنقطعين المتناظرين ، المعروفين بالشيخ والعجوز . وفي تلك الليلة مع المغيب ، أبصرنا جبال بر الأندلس ، وأقربها منا جبل دانِية المعروف بقاعُون[3] . فحدقت الأبصارُ لهذا البر ، سرورا بمرآه ، واستبشرت النفوس[4] بالدنوّ منه . وأصبحنا يوم الأحد الحادي عشر من الشهر بالمرسى المذكور ، والريح غربيّة ونحن نرتقب[5] تتميم الصنع الجميل من الله عز وجل بإرسال الريح الموافقة ، نشرا بين يدي رحمته إن شاء الله تعالى[6] .

وفي ضحوة يوم الثلاثاء الثالث[7] عشر منه ، أقلعنا على اليمن والبركة ، بريح شرقية لينة المهب ، لها نَفَس خافت ، داعين لله عز وجل في إحياء ذَمائها[8] ، وتقوية إجرائها ، وجبال دانية أمامنا رأيَ العين ، والله يتمم فضله علينا ، ويكمل صنعه القديم لنا[9] بعزّته . وتمادت واستشرت[10] بفضل الله تعالى ، فنزلنا بقرطاجنّة عشيَّ يوم الخميس الخامس[11] عشر منه ، شاكرين

---

(١) جزيرة : ليست في ط .
(٢) هي Formentera .
(٣) هـ : يقاصون . وانظر الإدريسي ١٩٢ .
(٤) ط : الأنفس .
(٥) ط : ننتظر .
(٦) تعالى : ليست في ط .
(٧) ص ، خـ : الرابع . خطأ .
(٨) الذماء : الحركة وبقية النفس .
(٩) ط : صنعه بعزته لنا .
(١٠) ط : وانتشرت .
(١١) خـ : السادس . خطأ .

لله تعالى[١] على ما منّ به من السلامة والعافية ، والحمد لله ربّ العالمين ، وصلواته على سيد المرسلين وخاتم النبيين[٢] . ثم أقلعنا منها[٣] إثر صلاة الجمعة السادس عشر منه ، فبتْنا فى فَحْص قرطاجنّة ، بالبرج المعروف ببرج الثلاثة صهاريج ، ثم منه يوم السبت إلى مُرْسِيه ، ومنها فى اليوم بعينه إلى لِبْرالة[٤] ، ثم منها يوم الأحد إلى لُورَقَة ، ثم منها يوم الاثنين إلى المنصورة ، ثم منها يوم الثلاثاء إلى قَنَالِش[٥] بَسْطة ، ثم منها يوم الأربعاء إلى وادى آش ، ثم منها يوم الخميس الثانى والعشرين لمحرّم ، والخامس والعشرين لأبريل إلى المنزل بغرناطة[٦] :

فألقت عَصَاها واستقرّ بها النّوى ... كما قَرّ عينا بالإيابِ المسافر[٧]

والحمد لله على الصنع الجميل الذى أولاه ، والتيسير والتسهيل الذى والاه ، وصلواته على سيد الأولين[٨] والآخرين محمد رسوله الكريم ومصطفاه ، وعلى آله وأصحابه الذين اهتدوا بهداه ، وسلّم وشرّف وكرّم . فكانت مدة مقامنا من لدن خروجنا [من غرناطة] إلى وقت إيابنا هذا ، عامين كاملين وثلاثة أشهر ونصفا[٩] ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) تعالى : ليست فى ط .

(٢) ط : على محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين

(٣) ص : منه .

(٤) خـ : البوالة وهى Lebrilla .

(٥) خـ : قنالش . وفى معجم ياقوت : قنيلش ، بفتح القاف وكسر النون . وهى Coniles .

(٦) ص : غرناطة .

(٧) بيت مشهور من قصيدة للمعقر بن أوس بن حمار البارق ، مطلعها

تذكرت من أم الحويرث بعد ما ... مضت حجج ، وذو الشوق ذاكر

(٨) ط : المرسلين .

(٩) ص : ونصف .

قائمـــة

بالألفاظ العامية أو الدخيلة أو التى يستعملها المؤلف استعمالا خاصا أو يكثر من استعمالها

أجر : تأجَّر : رجا أن ينال من الله الأجر ، قال فتأجَّر فيه ، صفحة ٣٦٦ السطر ٧ والمصدر تأجُّر صفحة ٤٨ : ٤ واسم الفاعل المتأجِّر ١٢٨ : ٦ ، ١٣٧ : ٢ ، ١٤٨ : ١ ، ١٥٣ : ١٩ وغيرها .

أردمون : الأَرْدَمُون : الصارى الذى فى الطرف الأمامى أو الخلفى من المركب ، وهو أصغر من الصارى الرئيسى ٣٩٧ : ٩ ، ١٦ ، ٤٠٨ : ١٧ والكلمة معربة يقابلها فى الإيطالية artimone ، وفى الأسبانية artemon ، وفى الفرنسية artimon .

أزر : الإزار : حائط صغير يلزق بآخر كبير لتقويته ٢٣٦ : ١٧ والوصف منها مُؤَزَّر ٢٣٢ : ١٢ .

أوب : الأوبة : المكيال المصرى ١٤٣ : ٩ .

بازار : البازار : السوق ، معربة ٣٠١ : ١٦ .

بربا : البَرْبا والبربة : المعبد المصرى ، معربة عن الهيروغليفية ، ومعناها فيها : مقبرة ٦٢ : ٧ ، ٦٧ : ٨ .

برح : البَرِيح : الإعلان ٢٢٥ : ١ .

بسط : البسيط : الأرض المتبسطة ٣٥ : ١٥ ، ٤٥ : ١١ ، ٢٠٧ : ٣ ، ٢٥٣ : ٤ ، ٢٦٢ : ١٠ ، ١١ .

بطس : بُطِس : عُمِّد نصرانيا ٣٩٢ : ١٢ ، وهى معربة من baptize .

بلغريون : حجاج بيت المقدس ٣٩٥ : ٣ ، ٤٠٠ : ٢ ، ٥ ، ٤٠٧ : ١٠ ، ١٣ وهى معربة عن الإيطالية pellegrini .

بيل : البِيلَة : الحوض ، معربة عن pila فى اللغتين الإيطالية والأسبانية : ٥١ : ٥ ، ٢٤٠ : ١٨ .

تفح : التفاحة ، والجمع التفافيح : الكرة ٣٨ : ٢ .

تور : التَّور ، والجمع أتوار : الشمعدان : ٣٨ : ١ ، ١٠٠ : ٨ ، ١٧٦ : ١١ وغيرها .

ثقف : ثَقَّف : حبس واعتقل ٨٥ : ١١ ، ٤٣١ : ٣ .

جبر : جبر : أعاد ، قال : جبر الله كل غريب إلى وطنه ٤٢٩ : ٧ .

جرى : الإجراء : المرتب ٣٢ : ١١ المَجْرى ، والجمع المجارى : مسافة مئة ميل فى البحر ٢٣ : ١٢ .

جفن : الجَفْن ، والجمع أجفان : المركب ٤٣٠ : ٦ .

جلب : الجَلْبة ، والجمع جِلَاب وجُلُب وجَلَبات : نوع من المراكب المستعملة فى البحر الأحمر ، وصفه المؤلف وصفا دقيقا ٧٤ : ١٥ ، ٧٥ : ٢ ، ٥ ، ١٢ ، ١٦ ، ٧٧ : ٢ ، ٤ ، ٥ ، ٨ ، ١٠ ، ٧٩ : ١ ، ٨٢ : ١ ، ٧ ، ٨٣ : ٢ ، ٢٠٤ : ٦ ، ٨ .

جمع : جَمَّع المصلون : صلوا الجمعة جماعة ١١٥ : ٩ ، ٣٠٤ : ١٥ ، ٣٦٤ : ١١ . اجتمع وجهه باللحية : ملأت لحيته وجهه ٢٨١ : ١٥

حرب : الحَرّابة : الحرس السودانى لأمير مكة الحاملون للحراب ١٥٣ : ١٤

حرث : المَحْرَث ، والجمع المحارث : الأرض المزروعة التى تحرث ٣٦ : ١ ، ١٥٥ : ٨ ، وغيرهما .

حرس : المَحْرَس ، والجمع المحارس : مبنى لإيواء الطلبة والزهاد ٣٢ : ٩ ، ٤٩ : ٩ .

حرم : الإحرام فى المغرب : يطلق على رداء يتألف من بردة سوداء ، فوقها

والجمع خواتم وخواتيم ٩٨ : ٣ ، ٢٣٣ : ٣ ، ٢٥٧ : ١٥ ، ٣٧٠ : ١٥ ، ٣٧١ : ٢ .

خرق ريح شديدة خرق لها المركب فى الجرى : ريح شديدة جعلت المركب يجرى بسرعة غير عادية ٤٤١ : ٥ ، آتية من تخرقت الريح : اشتد هبوبها .

خص : الخصّة : حوض النافورة ٢٩٢ : ١٣ — ذوو الخصوصية : ذوو الشرف والامتياز ٣٧٥ : ١٠ .

خطر : المَخْطَر :موضع الاجتماع، والمركز التجارى ٦٨ : ٢ ، ٣٠٠ : ٨

خط : خُطّة ، والجمع خُطط : لقب . ألقاب الشرف ، مثل صدر الدين ، وشمس الدين ، وغيرهما ٣٧٣ : ١٣ .

دُلون : والجمع دَلَالين : شراع صغير يركب فى منتصف الصارى المعروف بالأردمون خاصة ٣٩٧ : ١٦ ، ٤٠٣ : ٢ .

دوح : دوحت الشجرة : نشرت أغصانها على نطاق واسع ٣٨٠ : ١٠ .

دور : الدور : محيط الدائرة وكل شىء دائرى ٦٢ : ٩ وغيرها . دائر : دائرة : حد الأمر المستدير ٩٣ : ٥ ، ١٧٥ : ١٦ ، ١٧٧ : ١٥ .

ذرع : قاس بالذراع ٣١ : ١٤ ، ٩٩ : ١٨ ، ١٠١ : ١٤ ، ١١٨ : ١٧ .

رأس : الرائس : ربان المركب ٨٠ : ١٤ ، ٤٠٨ : ١٨ .

رتب : رتّب : استلزم ، فترتب له الشكر ٥٤ : ١٤ رُتْبة : عادة فى الاحتفال ٣٧٣ : ٤ — مُرَتّب ، والجمع مرتبات : الأجر ٤٦ : ٣ ، ٢٨٠ : ٨ ، ٣٤٩ : ٥ — الراتب : الموظف ذو الأجر ٣٤٩ : ٤ مَرْتَبة ، والجمع مراتب : حجرة خلفية للخدم والحشم ٤٢١ : ٣ ، ١٠ .

رجع : مَرْجَع ، والجمع مَراجع : مقياس مغربى للأرض ١٠١ : ١٥ ، ١١٨ : ٢٠ ، ٣٣٠ : ٧ .

شجر : المشجَّر : المرسوم على هيئة الأشجار ، وكذلك المغصن ١٠٦ : ٩ ، ١٧٧ : ١١ .

شرب : الشَّرب : نسيج رقيق اشتهر به كثير من مدن مصر كدمياط وتنيس ٤٦ : ١٢ ، ١٠٨ : ١٠ ، ١٧٤ : ٢ .

شرجب : شَرْجَب ، والجمع شَرَاجِب وشراجيب : شرفة ١١٤ : ٩ ، ١١٥ : ٢١ ، ٣٧٠ : ٧ . ومُشَرْجَب : مصنوع من الخشب المركب من قطع صغيرة متداخلة ، يقال : شباك مشرجب ١١٤ : ٢ ، ١١٦ : ١٣ وأعواد مشرجبة ١٧٥ : ١٤ ، ١٧٧ : ١٥ ، ١٨٠ : ٣ ، ٣٣٣ : ١٤ ، ٣٤٠ : ١٥ ، ٣٤٥ : ١٤ . وهى معربة عن الكلمة الفارسية جارْجُوب أو جَهارْجُوب .

شمس : شمسية : نافذة ٣٣٠ : ٤ ، ٣٣٢ : ٥ ، ٣٣٤٧ : ٤ ، ٣٧٢ : ٥، ٤٢٤ : ١٥ .

صبر : بقى دون أن يتغير ، وصفت به الحنطة ٣١٥ : ٦ .

صرح : صَرْح ، والجمع صُرُوح : الغرفة العليا من المنازل ، التى تفتح على السطح ٨٣ : ٧ .

صرف : صرف على : باع ٣٧٧ : ١٠ .

صفح : الصفح : الوجه والسفح ، والجمع صفحات ١١٣ : ٩ ، ١١٤ : ٧ وغيرهما .

صقع : انحنى انحناءة كبيرة ٤٣١ : ١٣ .

صلب : صَلّب : وضع الأشرعة فى زاوية قائمة مع المركب لتفيد أكبر فائدة من الريح ٤٠٤ : ٤ ــ الصليبية : قال « رايت » إنها كلمة تطلق فى مصر على فترة فيضان النيل ، وأكمل دوزى التفسير بأن هذه الفترة هى موعد الاحتفال بظهور الصليب (٢٦ أو ٢٧ سبتمبر) ،

: ٣٧٨ : ٥ .

صنع : مَصْنَع ، والجمع مصانع : مبنى ، بناء من أى نوع ٣٨ : ٣ ، ٣٩ : ٣ ، ٦٢ : ٨ ، ٢٠٧ : ٤ ، ٢٤٩ : ٩ ، ٢٥٢ : ٤ ، ٢٥٣ : ٨ وغيرها .

ضوء : مَضْوأ ، والجمع مَضَاوئ ، وربما كانت مضوى ومضاو : نافذة (مَنْوَر) ٩٣ : ١٦ ، ٩٤ : ١ .

طبخ : مَطْبَخَة : مطبخ ٤١٣ : ١٤ .

طوع : الاستطاع : الاستطاعة ١٩٧ : ٢٢ ، ٢٥٤ : ٩ .

عشر : عُشَارِىّ : زورق النجاة ٣٩٧ : ١٣ ، ٤٠٩ : ١٢ .

عمر : عَمَّر المركب : جهزها بالرجال والعتاد ٦٠ : ٩ .

غشى : الغاشية : الحاشية والداخلون على الأمراء ، من غشى بمعنى دخل ١٧٣ : ١٥ ، ٢١١ : ١٢ ، ٢٤٦ : ٢ .

غَلِينى : سكون البحر وعدم هبوب الريح البتة ، معربة عن الإغريقية ٣٩٨ : ١١ .

فتح : استفتاح : فتح وغزو ٣١٨ : ١٢ .

فحل : فَحْل الصومعة ١١٣ : ١٥ ، ١١٤ : ٥٤ ، ١٢١ : ٨ ، أو فحل القُبّة ١٨٠ : ١ الكرة التى تعلو قمة القبة أو المسلة ، وتسمى عادة « رمانة » .

فرقع : فَرْقَعَة : نوع من السياط ، وُصِف شكله واستعماله فى ١٠٨ : ١٣ — ١٧ وانظر أيضا ١١٠ : ١٠ ، ١٦٩ : ١ ، ٤ ، ٩ ، ١٨٥ : ٩ .

فض : انفض الرجل : ترك مجلسه ، وأطلق الفعل على المفرد لا الجماعة كما هو المعروف ٢٤٥ : ١٤ .

فيح : الأفيح : الواسع ٣٥ : ١٦ ، ٧٣ : ٤ ، ٢٠٧ : ٨ .

فيد : فائد : دخل وربح ١٣ : ٩ ، ٤٦ : ٢ ، ١٢٨ : ٧ .

قَدّ : القَدّ : القدر ١٠٠ : ٥ ، ١٧٩ : ١٦ .

قدم : على قَدَم الرحلة : على أهبة ٣٧٨ : ٣ .

قرنص : القَرْنَصَة : حلية بارزة فى الخشب أو أية مادة أخرى ١١٤ : ١ ، ١١٥ : ٥ ، ١٢١ : ٤ ، ١٩٤ : ٣ ، ٣٧ : ١٧ والنسبة إليها قَرْنَصىّ ١٢١ : ٧ ، ٣١٦ : ١٣ ، ٣١٧ : ١ ، واسم المفعول مُقَرْنَص . أما قربص وقربس فتحريف .

قرى : القرية : الخشبة التى يربط الشراع فيها : ٢٦ : ٤ .

قشاوة : نوع من المراكب ، موصوف فى ٢١٢ : ٧ ، والجمع قشاوات ٢٢٦ : ٩ وهى معربة عن الفارسية كجاوه (قزاوه) .

قصب : قَصَبَة ، والجمع قِصَاب : يبدو أن معناها شقة أو غرفة عليا ٣١٥ : ١٢ .

قصر : قَصْرية ، والجمع قَصَار : وعاء ١٢٨ : ٤ ، معربة من اليونانية .

قضب : التقضيب : رسم صور القضبان ٩٨ : ٨ .

كرز : كُرْزِيّة : عمامة من نسيج رقيق ١١٠ : ١٧ .

كفّ : تَكْفِيف ، والجمع تكافيف : إطار يوضع على حافة الشىء لوقايته من التقطع أو التهدم ٩٦ : ١ ، ١٠٤ : ١١ ، ١٨ ، ١٠٦ : ١٥ .

كيل : كال : قاس ٦٢ : ١٥ ، ٩٧ : ٥ ، ١٢٤ : ٧ .

لا : قال : ذخائر لا قيمة لها : يريد ذات قيمة عظيمة لا يستطاع تقديرها ٣٦٧ : ٨ .

لقى : ألقى عن يد : أذعن ٤٠٩ : ٩ .

ما : يستعملها مصدرية أو زائدة كثيرا ، فيقول : وبعد لأى ما علقت ١٥٧ : ٦ ، ١٧٣ : ٣ ، ويقول : ولذلك ما يسرع الحريق إليه ٣٥٦ : ١٣ وانظر ٤١٣ : ٣ ، ٤٢٧ : ٣ .

مول : مَوَّله : خاطبه قائلا يا مولاى ٣٧٤ : ٩ .

نزل : نَزّل وأنزل : رصّع ، والصفة مُنزَّل ٣٢٨ : ٩ ، ٣٣٦ : ١٤

الشهور الميلادية

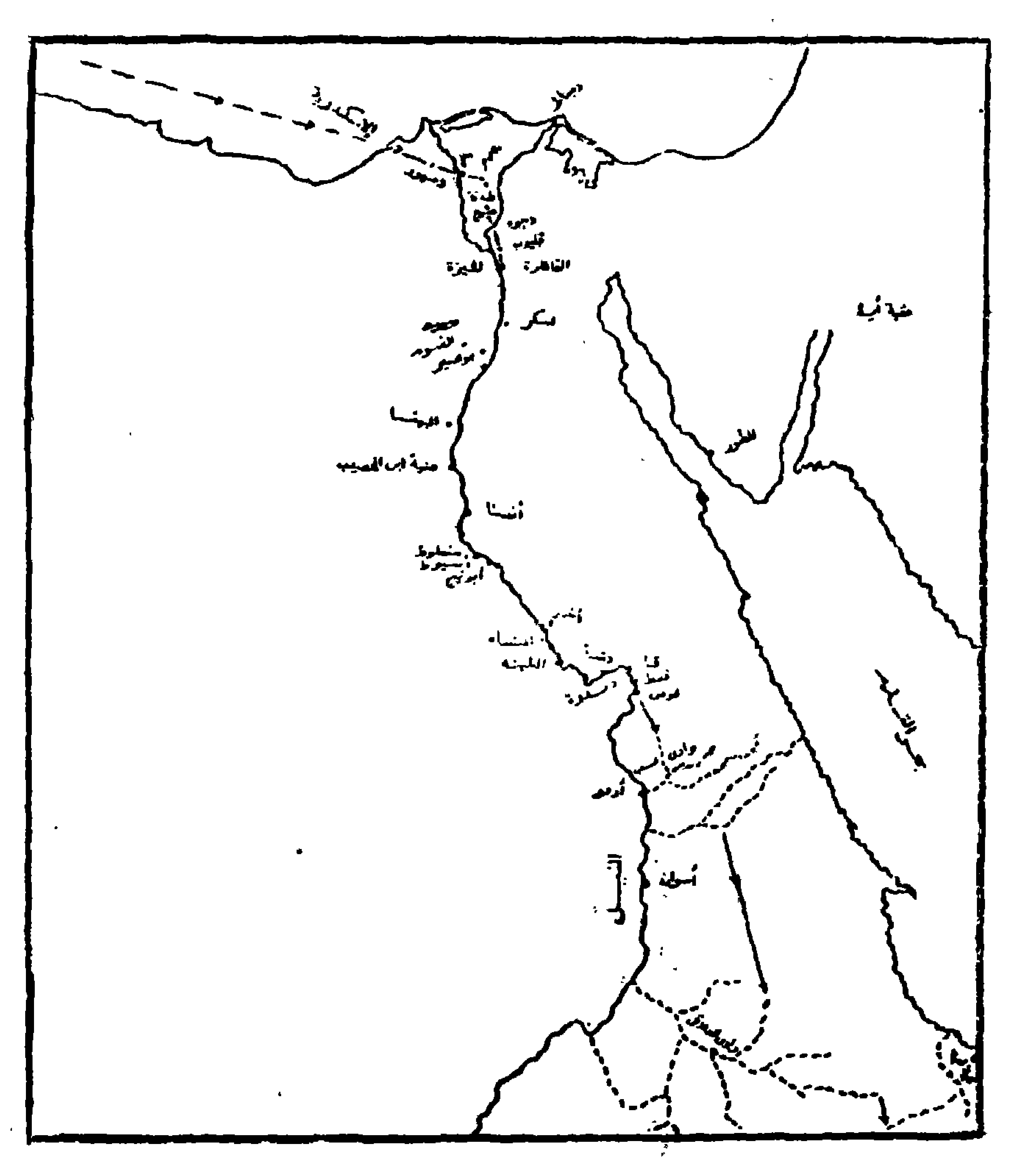
آثر ابن جبير لأندلسيته أن يؤرخ حوادثه بالتقويمين الهجريّ والميلاديّ ، وكتبت الشهور الميلادية عنده بصور خاصة تختلف عن صورتها التى نستعملها اليوم ، تبين كيف كان أسلافنا ينطقون تلك الشهور . وقد رأيت أن أجعل لها هذه القائمة لأهميتها :

ينير ــ فبرير ــ مارس ــ أبريل ــ مايه ــ
يونيه ــ يوليه ــ أغشت أو أغوشت ــ
شتنبر ــ أكتوبر ــ نونبر ــ دجنبر

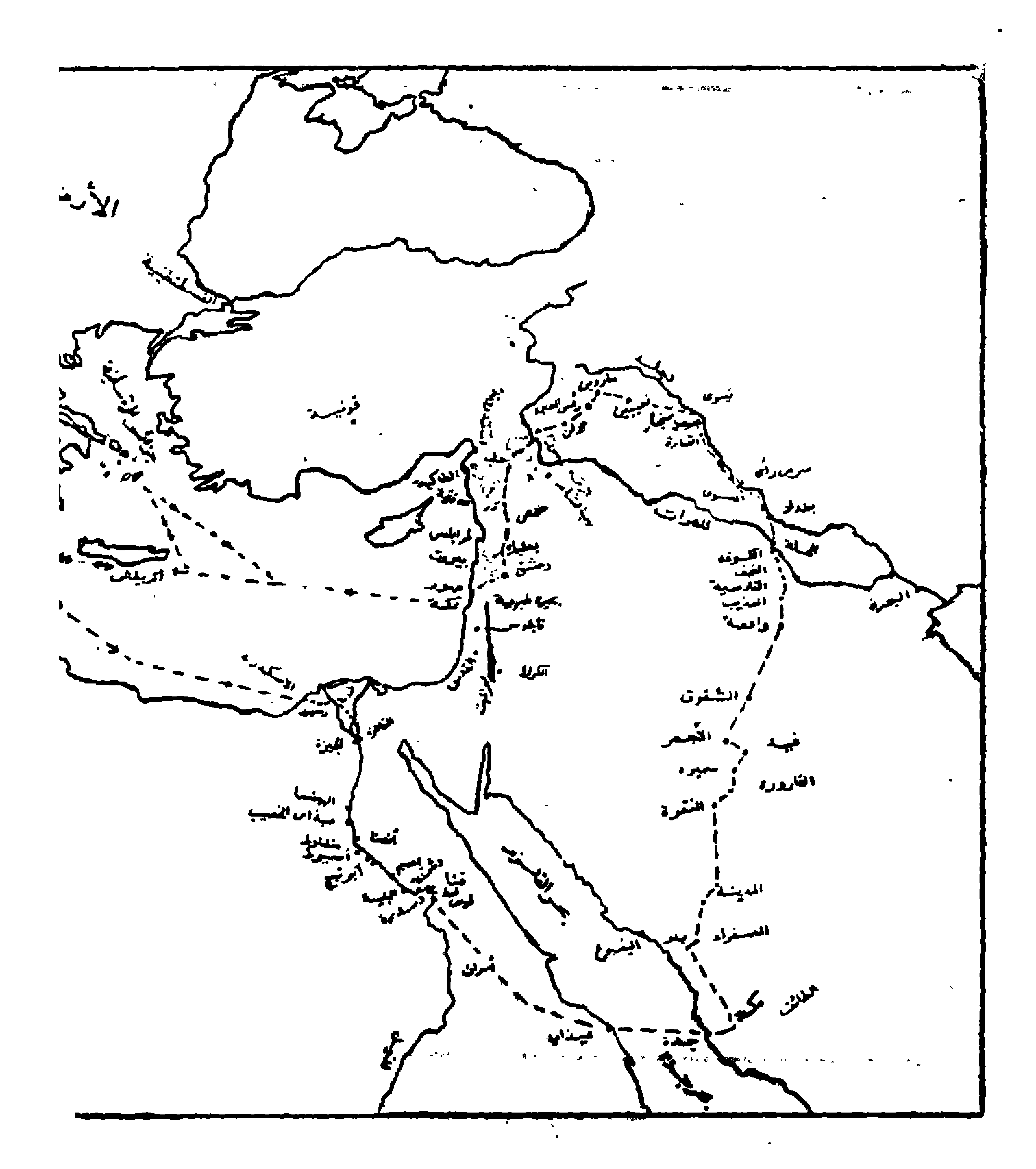
فهرس المواضع

فهرس الأعلام والجماعات(*)

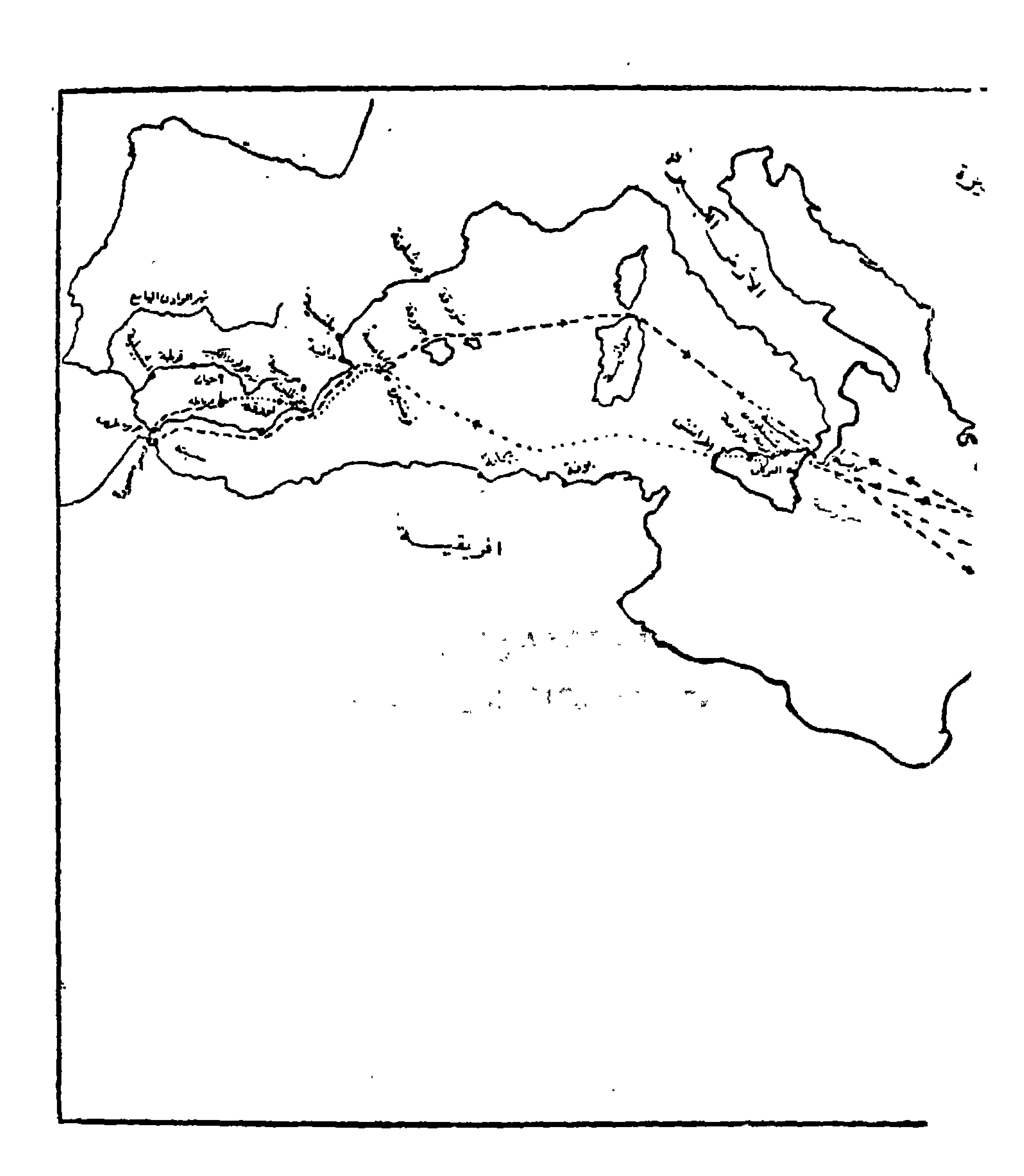
(*) آثرت ذكر الأعلام فى الأسماء وإهمال الكنى والألقاب ، إلا إذا كانت أشهر من الأسماء كألقاب الخلفاء والسلاطين مثلا ، أو أهمل المؤلف إيراد الأسماء .



رحلة ابن جبير فى مصر



قونية
دجلة
نصيبين
الفرات
سر من رأى
بغداد
الحلة
الكوفة
القادسية
العذيب
واقصة
البصرة
حلب
حمص
طرابلس
بعلبك
بيروت
دمشق
صيدا
بحيرة طبرية
نابلس
القدس
الكرك
الإسكندرية
رشيد
القاهرة
الجيزة
ميدان النصيب
أخميم
قنا
أسوان
عيذاب
جدة
مكة
الطائف
الشقوق
الأجفر
فيد
سميرة
القارورة
النقرة
المدينة
الصفراء
بدر
الينبوع


نهر الوادي اليابس
دانية
بجاية
افريقيــة

رقم الإيداع ٢٦٩٨ / ٩٢
الترقيم الدولى 8 - 0717 - 11 - 977

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه